ابن تيمية

حياته وعقائده

تأليف

صائب عبد الحميد

الغدير
بيروت - لبنان

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

ابن تيمية

حياته وعقائده

الغدير للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان- بيروت - حارة حريك - بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف ٠٣/٦٤٤٦٦٢ - ٠١/٥٥٨٢١٥
تلفاكس ٠١/٢٧٣٦٠٤
ص.ب ٢٤/٥٠ - بيروت - لبنان
الرمز البريدي : ١٠١٧-٢٠١٠ برج البراجنة - بعبدا

E-mail:
feqh@islamicfeqh.org
magazine@alminhaj.org
Web pag:
www.islamicfeqh.org
www.alminhaj.org

● الحقوق جميعها محفوظة ●

لمركز الغدير للدراسات الإسلامية
و لا يحق لأي شخص ، أو مؤسسة ، أو جهة
إعادة طبع الكتاب او ترجمته إلا بترخيص من المركز.

الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م

ابن تيمية

حياته وعقائده

تأليف
صائب عبد الحميد

الغدير
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أبا الزهراء ..

البسلام عليك

إذ أُهدي ثواب جهدي إليك ،،

وإلى آلكَ الذين جَمَعَتْهم الصلاةُ عليك ..

وإلى والديَّ الحبيبين

راجياً لهما الشفاعة منك ،،

والوِردَ من حوض الكوثر بيديك ..

هذا الكتاب

إنك لتعشق الحقّ مثلما تعشق الجمال..

وإنّه ليؤلمك أن ترى الحق مذ كان قديماً ولم يزل صعب المنال..

إنّ الأحرار يئنّون معك وهم يرون هذا جارياً حواليهم في شتّى الأحداث والأشياء..

لقد عزّ عليك قديماً أن ترى حقل أُقحوانٍ لم تنبتّ فيه إبَرُ الشوك اليابسة والخضراء..

ويحزّ في قلبك أن هذا المعنى الأليم هو من أوّل ما يدركُهُ أخوك الإنسان!

وكذا هي حالك مع الكاتبين..

فكم تشوّقتَ لأن يأخذوك إلى بطون الحقيقة، فتقضي مع بعضهم الشوط الطويل وهو يُدحرج بين يديك كرةً سوداء صمّاء على مسارٍ ملتوٍ، وأنت تتبعها لا تدري إلى أين، ولا متى سيشقّ لك عن تلك القشرة الصمّاء فيُريك ما تُخفيه!

وتمضي جاهداً تنتظر نهاية المطاف فلا تشعر إلّا وقد ارتطمت تلك الكرة السوداء بجدار صلب سميك، فارتطمتَ أنت معها، أو رجعت القهقرى مُنهَك القوى متعب الأعصاب، تتقطّر وجنتاك بالسخط واليأس والقنوط!

سطحيّون ما زلنا نتلهّى بالقُشور!

فكم تمنّيتُ مثلك أن أجني ثمار وقت ثمين أنفقتُه مع هذا وذاك فيذهب سدىً على دوائر مفرغة وحاقّات ضياع، فأعود أرقاً متعب العينين، فأُعزّي نفسي بأمواج تُدافع السواحلَ مذ خلق الله أرضنا، وهذا ديدَنُها حتّى تُبدَلَّ الأرض غير الأرض، لا تكلّ ولا تملّ! ثمّ أُحلّق بخيالي إلى عظماء بنوا لبني الإنسان مجداً وحضارةً وتراثاً لا ينضبُ مَعينُهُ، فيتّسع الأملُ في عيني من جديد.

قرأتُ التاريخ فوجدتُه منكوساً على رأسه في أكثر فصوله، ولسبب بسيط، هو أنّ ما كُتب إنّما كُتب تحت رايات السلطان على مرّ الزمان، فما أزعج منه السلطان ضاع واندرس فلا تجد له أثراً إلّا في فهارس المؤلّفات، وإن نجا منه شيء تصدّى له الأقوياء بالسلطان على الدوام بسهام الطعن والتكذيب، فمن هنا تفجّرت بين جنبيّ عزمةُ ثائر على أن أُساهم في إخراج الصورة الحقّة لأوّل أُسٍّ في هذا البناء التاريخيّ الشامخ، ذاك أملٌ سأفرغ له بإذن الله..

أمّا هنا في هذا الكتاب فقد قرأتُ رجلاً في عقيدة، وعقيدةً في رجل.. هو ابن تيميّة.

قرأت شيئاً ممّا كتبوه فيه وفي عقيدته فلم أجد غير تلك الكرة السوداء يدحرجونها أمامي هنا وهناك.. فألقيتُها جانباً وتناولت ما بلغته يدي ممّا كتبه الرجل عن نفسه وعن عقيدته، فوقفتُ على البون الشاسع والزيف المريع.

سطحيّون أو بسطاء غلبتهم سلامة الصدور فدهش ناظرهم للمنطاد المنفوخ الطائر، يحسبُ سرّاً عجيباً في جوفه رفعه إلى قُبّة السماء.. لكنّه هواء!!.

هكذا تعاملوا مع الرجل.. طفقوا يكتبون عنه، وله، وفيه، فوضعوا أكفّهم على فيه، فألجموه ونطقوا، بأيّ شيءٍ نطقوا؟ بتلك الكرة الحائرة!

ارفعوا أيديكم عن فيه.. دعوه ينطق، دعوه يُفصح عمّا يريد، دعوه يكشف عن لباب قلبه، دعوه يقل ما يريد كما يريد لا كما تريدون.

فحملتُ على تلك الأكفّ فكففتُها عن فيه، فنطق بلسانه لا بألسنتهم.. ورفعتُ الأغلال عن يديه فرسم جوهر عقيدته بريشته هو، لا بريشة عشّاقه، ولا بريشة حسّاده.

ولكن ما أصعب الحديث في بطون الحقيقة، وما أقسى ردود الفعل التي سيحدثها.. وعجباً له كيف سيشقّ طريقه بعكس اتّجاه ذاك التيّار الهادر، ومن سيرتضيه إلّا المتعطّش لِلُّبِّ !

لقد دعونا ابن تيميّة، فعرّفناه لمن لم يعرفه، وعرّفنا بأجوائه كلّها من حيث الزمان والمكان، ثمّ تكلّم هو عن نفسه شيئاً ليعرِفَ القارئُ صوتَه ونبراته، ثمّ انتقلنا معه إلى لباب عقائده ولم نقف عند القشور، ذهبنا إلى الصورة الكاملة ولم نقف عند الإطار نعظّمه ونمجّده، أو نعيبه ونبخسه نضارته، وأعرضنا عن كثيرٍ من التفصيل الذي يتشابه في معناه ويتّفق في مغزاه، حرصاً على لمّ أطراف تلك الصورة الممتدّة الواسعة بما لا يُضيع شيئاً من معالمها.

وأهمّ ما في الكتاب أنّ الرجل هو الذي تكلّم عن نفسه وعن لباب عقائده، لا عشّاقه ولا حسّاده..

فجاء هذا الكتاب ليمثّل الفصل الأخير في ما كُتب في موضوعه..

إنّه الحلقة المفقودة في تاريخ عقيدة، وفي حقيقة رجل.

صائب عبدالحميد

الباب الأول

العَلَم وبيئته وعصره وحياته

الفصل الأول

ابنُ تَيميّة .. أسرتُهُ وبيئَتُهُ

العلم وأسرته

بيئته

العَلَم وأُسرتُه[1]

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن الخِضْر..

تقيّ الدين، أبو العبّاس، ابن تيميّة..

الحرّاني، ثمّ الدمشقي، الحنبلي..

المولود بحرّان سنة ٦٦١هـ، والمتوفّى بدمشق سنة ٧٢٨هـ.

من بيتٍ حَمَلَ لواء المذهب الحنبلي أكثر من قرنٍ من الزمن، تعاقب فيه رجاله على زعامة المذهب، وتوارثوا البيان والبّنان، فتصدّروا الخطابة وأكثروا التأليف.

كان أوّلهم: محمّد بن الخِضْر بن تيميّة (٥٤٢ ـ ٦٢٢هـ)، رئيس المذهب، شيخ حرّان وخطيبها مدّة حياته، رآه سِبط ابن الجوزي الحنبلي فقال فيه: كان ضنيناً بحرّان، متى نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتّى يخرجه منها ويبعده عنها[2]. ومضت المشيخة والخطابة لأهله من بعده..

خَلَفَه ابنه عبد الغنيّ (٥٨١ ـ ٦٣٩هـ)، المعروف بالسيف، ورث مراتب أبيه،

---

(١) العقود الدريّة في مناقب ابن تيميّة، تذكرة الحفّاظ ٤: ١٤٩٦، الوافي بالوفيات ٧: ١٥ / ٢٩٦٤، البداية والنهاية ج١٣ و١٤ عدّة مواضع، تاريخ ابن الوردي ٢: ٤٠٦، المنهل الصافي ١: ٣٥٨، عقد الجُمان ج٢ و٣ عدّة مواضع، تاريخ ابن خلدون ٥: ٤٧٤، شذرات الذهب ٦: ٨٠، النجوم الزاهرة ٩: ٢٧١، البدر الطالع ١: ٦٣ / ٤٠، دائرة المعارف الإسلامية ١: ١٠٩، الأعلام ١: ١٤٤.

(٢) وفيات الأعيان ٤: ٣٨٧.

وأورثها ابن عمّه عبدالسلام بن عبدالله بن الخِضْر، أبا البركـات (٥٩٠ ـ ٦٥٢ هـ) وهو جدّ تقيّ الدين بن تيميّة، وشهرته في الفقه فاقت شهرة أسلافه..

تلاه عبدالقاهر بن عبدالغنيّ السيف (ت ٦٧١ هـ) ليـخلفه عـبدالحـليم بـن عبدالسلام (٦٢٧ ـ ٦٨٢ هـ)، وهو والد تقيّ الدين، بقي في حرّان الشيخ والخـطيب حتّى هجرها في سنة ٦٦٧هـ إثر الاجتياح التتري، قاصداً دمشق، فختم بذلك تاريخ الأُسرة الحرّاني، وافتتح تاريخها الدمشقي الذي كانت نهايته بوفاة ولده تقيّ الدين سنة ٧٢٨هـ.

وأمّا والدته: فهي سِتّ النِعَم بـنت عـبدوس الحـرّانـية، تـوفّيت بـدمشق سنة ٧١٦ هـ، ولها بنون تسعةٌ ليس فيهم بنت، عُرف منهم غير تقيّ الدين:

بدر الدين أبو القاسم، فقيهاً ساكناً قليل الشرّ كما وصفه ابن الوردي(١)، توفّي سنة ٧١٧ هـ.

وشرف الدين عبدالله، كان فقيهاً عابداً توفّي سنة ٧٢٧هـ وهو أصغر سنّاً من أخيه تقيّ الدين.

ثمّ زين الدين عبدالرحمٰن الذي تولّى الصلاة على أخيه تقيّ الدين عند وفاته.

قبيلتُهُ:

بقي مرجعه القبلي محلّ استفهام..

فإنّ أحداً ممّن ترجم له لم يذكر قبيلته ولا منحدره القومي، وحتّى معاصريه

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢: ٣٨٠.

وتلامذته، كالذهبي، والصفدي، وابن الوردي، وابن عبدالهادي، وابن كثير، لم ينسبوه إلى قبيلة من قبائل العرب ولا من غيرهم.

ولم يذكر شيء من ذلك في تراجم آبائه أيضاً.. فبقيت نسبتُهُ عرضة للتكهّنات التي لا يؤيّدها دليل شافٍ، ولا ينفيها برهان قاطع بعد سكوت معاصريه، بل ومعاصري آبائه عن ذلك.

تَيميّةُ مَن هي؟

حكى قصّة هذا الاسم كبيرهم محمّد بن الخِضْر المذكور آنفاً، فقال: حجَّ أبي أو جدّي، أنا أشكّ أيّهما، وكانت امرأتُه حاملاً، فلمّا كان بتيماء[1] رأى جويريةً قد خرجت من خباء، فلمّا رجع إلى حرّان وجد امرأته قد وضعت جاريةً، فلمّا رفعوها إليه قال: ياتيميّة! يا تيميّة! يعني أنّها تُشبه التي رآها بتيماء، فسمّي بها[2].

---

(١) بلدة صغيرة في أطراف الشام على طريق الحاجّ. مراصد الاطّلاع ١ : ٢٨٦.
(٢) وفيات الأعيان ٤: ٣٨٨، الوافي بالوفيات ٣: ٣٧.

بيئتُه

بين حَرّانَ ودِمشق تقسّمت حياة ابن تيميّة، خلا سنين قلائل قضاها بمصر بعد أن جاوز الخامسة والأربعين، ثمّ عاد إلى دمشق..

في دمشق نشأتُه، وترعرعُه، ونُبوغُه، وشُهرتُه، ثمّ وفاتُه..

وحرّان مسقط رأسه، ومناخ طفولته، وموطن آبائه القديم..

ففيها ولد وأمضى سِنيّه الستّ الأُولى، حيث يكون الطفل مستعدّاً للتأثّر بمحيطه تأثّراً تثبت معالمه في مقوّمات شخصيّتهِ. من هنا عُنِيَت التربية الحديثة بهذه المرحلة من العمر وأوصت بتهيئة الجوّ الأمثل للطفل خلالها، فالتأثير المُعنى به هنا إنّما هو تأثير البيئة، وأمّا الوراثة فليست مرتبطة بسنٍّ معيّنة.

ولقد ركّز الإسلام أيضاً عنايته بهذه المرحلة من العمر، كما عرف ذلك العربُ قبل الإسلام حيث كانوا يُودعون المولود الجديد مرضعات البادية، ثمّ لا يُعيدونه حتّى يبلغ السادسة من العمر أو قريباً منها، إدراكاً منهم بأنّه سيعود حاملاً مُقوّمات شخصيّته المستقبليّة من تلك البيئة.

لذا رأينا قبل الدخول في دراسة معالم المفكّر المجتهد أن نقرأ أهمّ ملامح موطنه الأوّل.

حَرّان(١):

أوّل أرض وضع فيها حائط بعد الطوفان، غير بابل.

بلدةٌ في أرض الجزيرة المستوية بين دجلة والفرات، هي موطن المضريّين، بناها هاران أخو إبراهيم الخليل ﷺ، فسُمّيت باسمه، ثمّ عُرّبت فقيل: حرّان.

وإليها كانت هجرة إبراهيم الخليل بأهله أوّلاً، نزل على عين ماءٍ فيها، فأقام هناك ساكنوها من بعد مشهداً سمّي مشهد إبراهيم الخليل.

وفي ما حكاه القرآن الكريم من قول إبراهيم ﷺ: ﴿ *إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ* ﴾(٢) قيل: هاجر إلى حرّان.

وفي قول الله تعالى: ﴿ *وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ* ﴾(٣) قيل: تلك الأرض كانت حرّان. هذا ما ذكره ياقوت وابن الفقيه(٤)، وهو عند أصحاب التفسير نادرٌ جدّاً.

وحرّان موطن الصابئة ! فيها سَدَنَتُهم السبعة عشر، وبها تَلٌّ عليه مُصلّاهم الكبير، يُعظّمونه وينسبونه إلى إبراهيم الخليل ﷺ.

ويزعُم الصابئون أنّ ماني الثَنَويّ مِن أهل حَرّان، قال بالاثنين(٥) فضارع

---

(١) مروج الذهب، الكامل في التاريخ، معجم البلدان ٢: ٢٣٥، مختصر كتاب البلدان: ١٢٦، أحسن التقاسيم: ١٢١، ١٢٦، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٥٤، رحلة ابن جبير: ٢٢٠، الروض المعطار: ١٩١، صبح الأعشىٰ ٤: ٣١٩، بلدان الخلافة الشرقية: ١٣٤.

(٢) الصافّات ٣٧: ٩٩.

(٣) الأنبياء ٢١: ٧١.

(٤) معجم البلدان ٢: ٢٣٥، مختصر كتاب البلدان: ١٢٦.

(٥) أي أصلين للمخلوقات هما: النور والظلمة، أو الخير والشر.

قول المجوس، ووضع أناجيلَ وتَسمّىٰ مسيحاً فضارع قول النصارىٰ، وأفسد الشريعة، وقتله سابور أحد ملوك الفرس على الزندقة.

ويزعُمون أيضاً أنّ ديصان الزنديق هو من أهل تلك الديار، وكان ولد زنا، وُجِد منبوذاً على نهر ديصان، فسمّي به.

ويجوز أن يكون أسقف حرّان ثيودور أبو قرّة هو الجاثليق المجهول الذي كان يناظر الإمام الرضا عليه السلام في عدّة مجالس ذكرها ابن بابويه في كتابه (عيون أخبار الرضا)[١].

ودخلت حرّان ظلّ الإسلام أيّام عمر بن الخطّاب على يد عِياض بن غنم، الصحابي القائد الذي صارت إليه ولاية الشأم كلّها، استخلفه عليها أبو عبيدة ابن الجرّاح عند احتضاره، وهما قريبان، وأقرّه عليها عمر حتّى توفّي سنة ٢٠هـ.

افتتحها مع جارتها الرُّها صُلحاً، نزل عليها قبل الرُّها، فخرج إليه مقدَّموها فقالوا له: ليس بنا امتناعٌ عليكم، ولكنّا نسألكم أن تمضوا إلى الرُّها، فمهما دخل فيه أهل الرُّها فعلينا مثله.

وأهل الرُّها كلّهم نصارى، وهم ثلاثمئة وستّون دَيراً، وكنيستهم الكبرى الملبّسة بالفسيفساء معدودة في عجائب الدنيا، وفيها وُلِدَ هِرَقْلُ إمبراطور الروم الذي هزمه المسلمون في فتوح الشأم.

وفتحت المدينتان أبوابها للمسلمين، وبقيتا حليفتين يجري على الواحدة ما يجري على الأُخرىٰ، لاسيّما أيّام السلاجقة ثمّ أيّام التتار. أمّا أيّام الغزو الصليبي فسلمت حرّان، في حين كانت الرُّها محطّتهم الأُولى في بلاد الشأم.

---

(١) دوايت م. روندلسن: عقيدة الشيعة: ١٧٥.

وقبل هذا التاريخ كان أهل الرُّها يُقَدِّسُون منديلاً يزعُمون أنّه منديل المسيح ﷺ، من أجل ذلك بقيت المدينة عرضةً لغزو الرومان حتّى أعطاهم المسلمون ذلك المنديل في سنة ٣٣٢هـ (٩٤٤م).

وحين كانت الدولة للسلاجقة في العراق وأجزاء من الشأم كانت حرّان في ملكهم، تبادلها أُمراؤهم وربّما تنازعوا عليها، حتّى دخلها عماد الدين زنكي سنة ٥٤٠ هـ لينقذها من غزو صليبيّ كان على الأبواب.

ثمّ تعاقب عليها الأُمراء الأيّوبيّون (٥٦٧ ـ ٦٥٨ هـ): أعطاها صلاح الدين لولده الأفضل عليّ، وبعد وفاة صلاح الدين واستيلاء أخيه العادل انتزعها من الأفضل وأعطاها لابنه الأشرف، ثمّ صارت للناصر أخي الأشرف، ثمّ انتزعها منه أخوه الكامل لنفسه، وفي مدّة ولاية الأشرف غزاها كَيقُباذ السلجوقي ملك بلاد الروم سنة ٦٣١هـ وبقيت تحت الاحتلال حتّى استعادها الكامل سنة ٦٣٣هـ.

وجاء عهد الاجتياح المغولي وسقطت دار السلام (بغداد) في سنة ٦٥٦هـ، وتبعتها نواحي العراق لا سيّما الموصل. وحرّان بوّابة الشأم من جانب الموصل، فكانت على الدوام عرضة لاجتياح التتار الّذين كانوا يدخلونها فيقتلون من صادفهم من أهلها ويُخرّبون ما وقعت عليه أيديهم، وينهبون ما عطفت عليه أعينهم، ثمّ يتركونها قاصدين المدن الداخلية الكبرى كحلب وحماه وحمص ودمشق.

وفي كلّ مرّة غزا المغول مدن الشأم كانت حرّان ضحيّتهم الأُولىٰ، فذاقت أشدّ البلاء في سنين عجاف شهدت إلى جانب استفحال التتار تدهور الدولة الأيّوبيّة وانقراضها، ثمّ نشوء دولة المماليك في مصر (٦٤٨هـ) ثمّ في الشأم (٦٥٨هـ) لتعود حرّان حُرّةً بيد المماليك مرّة، ومغلوبةً بيد التتار أُخرىٰ، ممّا اضطرّ غالب

سكّانها إلى هجرها والفرار إلى مدن أكثر أماناً، ومن بين الفارّين كان شيخ حرّان عبدالحليم بن تيميّة، فرّ بعياله في سنة ٦٦٧ هـ قاصداً دمشق.

هذا هو حال حرّان، مدينةٌ لم تعرف طعم الأمان إلّا سنين متقطّعة، تكون بعدها عرضةً لاجتياحٍ جديد!

وكانت هذه المدينة إحدى محطّات ابن جُبير الرحّالة سنة ٥٨٠ هـ، فوصف أجواءها وطبيعتها بعبارته المسجوعة، فقال: بلدٌ لا حُسنَ لديه، ولا ظلٌّ يتوسّطُ بَرْدَيْه [1]، فلا يألفُ البردَ ماؤه، ولا تزالُ تتّقِدُ بِلَفْحِ الهَجير ساحاتُهُ وأرجاؤه، ولا تجدُ فيها مَقيلاً، ولا تتنفّسُ فيها إلّا نَفَساً ثقيلاً، قد نُبِذ بالعراء، وَوُضِع في وسط الصحراء، فَعُدِمَ رونقَ الحضارة، وتعرّت أعطافه من ملابس النضارة!

ذاك مناخها، أمّا عقائد أهلها بعد الإسلام؛ فقد غلب عليهم الهوى الأُموي، فكانوا أشدّ الناس تعصّباً لبني أُميّة، وكانوا يرون أنّ صلاة الجمعة لا تتمّ إلّا بلعن الإمام عليّ عليه السلام! وحين جاءهم الأمر من عمر بن عبدالعزيز بإزالة لعن أمير المؤمنين عن المنابر امتنعوا وضجّوا، وقالوا: لا صلاة إلّا بلعن أبي تراب!

ثمّ كانت حرّان مأوى مروان الحمار آخر الملوك الأُمويّين حين فرّ من العباسيّين، وله فيها قصر كبير أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم [2].

وأمّا مذاهب أهلها؛ فمنذ أن تقسّم الناس على المذاهب كانت حرّان موطن الحنابلة لا ينازعهم فيها أحد، وتخرّج منها علماء كثيرون فقهاء ومحدّثون لا تجد بينهم غير الحنبليّ، إلّا أن يكون مولده ونشأته بعيداً عنها. وحين وصف ابن عساكر أحد أعلامها ـ أبا عَروبة الحرّاني المتوفّى سنة ٣١٨هـ بأنّه غالٍ في التشيّع شديد الميل

---

(١) أراد برد الصباح وبرد المساء.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ١٢٢.

على بني أُميّة ! استنكر عليه الذهبي ذلك، فقال: أبو عَروبة من أين يجيئُهُ الغلوّ وهو صاحب حديث وحرّاني؟! بل لعلّه ينال من المروانية، فيُعذَر[١].

دِمشق:

وقف هِرَقْلُ على هضبات أنطاكية يكفكفُ دموعه، وتُبدِّد الريحُ صوته المحشرج المبحوح: السلام عليكِ يا سورية..

سلام مودِّعٍ لا يَرْجو أن يرجِعَ إليكِ أبداً!

ونَشَرت جيوش الفاتحين أجنحتها، واصطفّت بخشُوعٍ تُصغي لنداء «الله أكبر» لأوّل مرّةٍ في فضاء دمشق في السنة الثالثة عَشرة بعد الهجرة. واستُبدل عرشُ هِرَقْل بحصير أبي عُبيدة بن الجرّاح الفاتح حتّى توفّي سنة سبع عشرة، ليخلفه عِياضُ ابنُ غَنْم الفهريّ الصحابيّ حتّى وفاته سنة عشرين، ولم تشتهر لهما سياسةٌ ذات أثر، حتّى انطوى الحصير وعاد العَرشُ وحُجّابه، ولكن هِرَقْل العرب، معاوية بن أبي سفيان، الذي ساس البلاد بدهاءٍ ذي فنون بعيداً عن مركز الخلافة، ولم يكن معاوية ممّن صقله الإسلام ليُحسن قيادَ دهائه، ولم يدفعه حماسُه لهذا الدين نحو إحداث نقلةٍ نوعيّة في المجتمع باتّجاه منهاج الشريعة الإسلامية الجديدة رغم استقراره في الولاية عشرين عاماً قبل أن يكون بمحلّ الخلافة.

وإذا كان مِن حولهِ عددٌ ليس بالقليل من الصحابة الأسبق إسلاماً، والأعمق إيماناً، والأكثر وعياً لهذا الدين، وأشدّ حماساً له، فإنّ ثمّة قيود تحدّ من نشاطهم التربوي والتعليمي والتوعوي هناك، منها ما يعود إلى الوالي نفسه الذي لا يسمح بنشر ما يخالف سياسته ولو كان ذلك نصوصاً من القرآن الكريم والسُنّة النبويّة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤: ٥١١.

المطهّرة ! وليس أدلّ على ذلك من قصّته مع الصحابي الجليل خامِس الإسلام صادق اللهجة أبي ذرّ الغفاري، وتسييره من الشأم إلى المدينة، ثمّ يُنفى إلى الرَّبَذة حتّى يموت هناك وحيداً في أرضٍ لا يسكنها بشرٌ غيره[1] !

ومن تلك القيود ما كان مصدره عاصمة الخلافة، فحين كانت العاصمة توجّه الصحابة إلى الأمصار، كان يُؤخذ عليهم العهود والمواثيق ألّا يحدّثوا بشيءٍ من حديث النبيّ ﷺ[2] !

فلم تذق دمشق آنذاك حلاوة الإيمان، ولا كان لها حظٌّ ممّا تعلّمه جيل المدينة المنوّرة من مكارم الأخلاق ومعالي القيم الإسلامية الشاملة، حتّى إذا بلغت الجرأة بالوالي معاوية أن يترك تجارة الخمر حرّةً لم يجد بين أهلها مَن يُنكر عليه، ولا حتّى من بعض الصحابة الّذين كانوا معه، من هنا عُدّ صنيع الصحابي البدري العقبيّ النقيب عُبادة بن الصامت شاذّاً، لينال جزاءه من عاصمة الخلافة، ذلك أنّه ﷺ كان في الشأم فمرّت عليه قِطارةٌ من الإبل تحمل خمراً. فقال: ما هذه ! أزيت ؟ قيل: لا، بل خمر يباع لمعاوية ! فأخذ شفرةً من السوق فقام إليها وأراق ما فيها.

فأرسل معاوية إلى أبي هريرة، وكان هناك. فقال له: ألا تُمسك عنّا أخاك عُبادة ! فأتاه أبو هريرة فقال: يا عُبادة، ما لَكَ ولمعاوية ! ذَرهُ وما حُمّل.

فقال عُبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وألّا يأخُذنا في الله لومة لائم. فسكت أبو هريرة.

فكتب معاوية إلى الخليفة آنذاك عثمان بن عفّان ﷺ: أنّ عُبادة بن الصامت قد أفسد عليَّ الشأم !

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٢ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ١٢، تذكرة الحفّاظ ١: ٣، ٧.

فكان قرار العاصمة على الأثر بإجْلاء عُبادة من دمشق إلى المدينة، حفاظاً على (صلاح الشأم)[١] !

فكان صلاحُ الشأم إذن على تلك الصورة، حتّى إذا رأى الوالي أنّ (صلاح الشأم) على تلك الحالة يستدعي الخروج على الإمام الحقّ الذي عُقدت له البيعة، فلا مانع من ذلك، وليسلك إليه أيّ سبيل يفي له بالغرض، فليس في مَن حوله مَن يعرف أحاديث النبيّ ﷺ التي عدّت الخروج على الإمام العادل كفراً بالله تعالى وخروجاً عن الإسلام، وليس فيهم من يعرف من هو عليّ بن أبي طالب كي يتردّد في الخروج عليه.

فمن كلام معاوية حين قدم من الشأم إلى المدينة وكانت مضطربةً على عثمان، مخاطباً عمّار بن ياسر في مجلسٍ ضمّ جمعاً من الصحابة، قوله: يا عمّار، إنّ بالشأم مئة ألف فارس كلٌّ يأخذ العَطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون عليّاً ولا قرابته، ولا عمّاراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صُحبته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوفٍ ولا ماله، ولا يتّقونَ سعداً ولا دعوته[٢].

فكانت وقعة صفّين، التي سبقها ورافقها وتبعها حملاتٌ من الإعلام وقلب المفاهيم زادت في بُعد مُسلمي الشأم آنذاك عن هدى القرآن والسنّة (فنشأوا على النَّصْب)[٣] لا يعرفون إلّا معاوية رمزاً وعنواناً للإسلام، وأنّ الباطل والضّلال في خلافه !

وعاشوا على (سُنّةٍ) أَلِفُوها في سبّ عليّ عليه السلام والحسن والحسين ريحانتي

(١) سير أعلام النبلاء ٢: ٩ ـ ١٠، الرياض النضرة ٣: ٨٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٨ ترجمة معاوية بن أبي سفيان. والنَّصْبُ: هو البغض والعَداء لعليّ وأهل البيت عليهم السلام.

رسول الله وسيّدي شباب أهل الجنّة !.

وازداد الأمرُ ظلمةً بعد معاوية، فيزيد، الخليفة الجديد، أشدّ بعداً عن روح الدين وأهدافه، بل عن ضروراته وأحكامه، فبعد كونه ابن معاوية، المولود في الشأم، كان قد نشأ وتربّى وترعرع بين النصارى مع أُمّه النصرانيّة ميسون، حيث كان معاوية قد طلّقها بعدما أسمعته أبياتاً تُفضّل فيها عيش البادية وزوجاً من بني عمّها على عيش القصور معه، تقول في أوّلها:

لَلُبْسُ عباءَةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبّ إليّ من لُبس الشُفوفِ

وآخرها:

وخرق من بني عمّي ثقيفٍ ... أحبّ إليّ من عِلجٍ عنيفِ[1]

من هناك جاء يزيد إلى قصر الخلافة، ورغم أنّه عُرف جهاراً بيزيد الخمور، حليف الكأس واللهو والطيور، غير أنّه لم يجد من أهل دمشق إلّا التبريك والإجلال حين اصطفّوا ينظرون إلى موكب السبايا من آلِ الرسول، ورؤوس رجالهم مرفوعة على رؤوس الرماح، يتقدّمها رأس الحسين العزيز على الله ورسوله!

ولم يجد منهم إلّا جنوداً أوفياء، يقتحمون مدينة الرسول، فيقتلون رجالها من الصحابة وأبنائهم، ويستبيحون الأعراض، في وقعة الحرّة المنكرة !

وآلَ الحُكمُ إلى مروان بن الحكم وبنيه، فلم يكن أحدهم أقلّ نَصْباً من سَلَفه، خلا عمر بن عبدالعزيز الذي أظهر عدلاً واجتهد في تصحيح المسار، وحقّق الكثير،

---

(١) أعلام النساء ٥: ١٣٦.

غير أنّ مدّة حكمه القصيرة، وعودة السياسة الأُموية بعده إلى نهجها الأوّل، قد أجهز على تلك الإصلاحات وبدّد آثارها.

فعاشت دمشق أُمويّة أكثر من قرنٍ من الزمن، فبين سنتي ٢٠ هـ حيث تولّى معاوية، و١٣٢ هـ سنة مقتل مروان الحمار على أيدي العباسيّين، تعاقب عليها الخلفاء الأُمويّون الّذين يصفهم عماد الدين ابن كثير في أُرجوزته في التاريخ، فيقول:

وكـلّهم قـد كـان نـاصبيًا إلّا الإمـام عـمر التـقيًا[١]

فنشأ على أيديهم جيلٌ يصفه أبو سَلَمة الأنصاري على لسان صاحب له، قال: كنتُ بالشأم، فجعلتُ لا أسمع أحداً يُسمّي عليّاً ولا حسناً ولا حُسيناً، وإنّما أسمع: معاوية ويزيد والوليد. فمررتُ برجلٍ جالس على باب داره، فاستسقيتُه، فقال: يا حَسَن! اسقِه.

فقلتُ له: أسمّيتَ حَسَناً؟

فقال: إي والله، إنّ لي أولاداً أسماؤهم: حسن وحُسين وجعفر، فإنّ أهل الشأم يُسمّون أولادهم بأسماء خُلفاء الله، ولا يزال أحدنا يلعن وَلَدَهُ ويشتُمه، وإنّما سمّيتُ أولادي بأسماء أعداء الله، فإن لعنتُ فإنّما ألعن أعداء الله[٢]!

ودَخل دمشق الحافظ النسائي في سنة ٣٠٢ هـ فوجد أهلها مُغالين في بني أُميّة، مُفرطين في النَّصب، فأثاره ذلك فكتب كتاباً في فضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأذاعه بينهم، فثاروا عليه يطالبونه أن يكتب نظيره في معاوية، فأجابهم بقوله: لا أجد له فضيلةً إلّا «لا أشبعَ اللهُ بطنك»! فضربوه وسحقوه بأقدامهم سحقاً عنيفاً

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ٢٢٢.

(٢) معجم الأُدباء ١٤: ١٢٨، سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٠٢.

كان سبباً في وفاته[١].

وقع هذا مع الحافظ الكبير النسائي بعد ١٧٠ سنةً من سقوط الدولة الأُمويّة!

فدمشق لم تستقم للقيادة العبّاسيّة، بل ظلّت مضطربةً عليهم طوال عهدهم، وقامت بها حركات فصلتها عن بغداد العاصمة العبّاسيّة فجاء أحمد بن طولون من مصر ليخمدها فوجد الفرصة مؤاتيةً له لأن يستقلّ بها هو الآخر وينشئ المملكة الطولونية في الشأم ومصر سنة ٢٦٦هـ حتى أزاحه القرامطة من دمشق سنة ٢٩٠هـ، ثمّ هُزموا بعد عام واحدٍ على يد طغج التركي، ثمّ انفصلت دمشق مرّة أُخرى على يد كافور الإخشيدي العبد الذي حكم مصر وسوريا حكم الجبّارين، وخلفه ابنه أحمد أبو الفوارس الغلام ابن الحادية عشرة الذي هُزم سنة ٢٩٦هـ على يد جوهر القائد الفاطمي القادم من المغرب لتدخل دمشق تحت الحكم الفاطمي حتّى سقوطه سنة ٥٦٧هـ.

غير أنّ ذلك كلّه لم يغيّر من ولاء دمشق الأُموي، حتّى تجد حافظها ومؤرّخها الكبير ابن عساكر ـ المتوفّى سنة ٥٧١هـ ـ يَعدّ النّيل من مروان أو بنيه غلوّاً في التشيّع[٢]!

تلك كانت صورة دمشق، وأمّا تفصيل حالها في العهود اللاحقة فيأتي خلال الحديث عن سمات عصر ابن تيميّة.

---

(١) وفيات الأعيان ١: ٧٧ ترجمة الحافظ النسائي أحمد بن عليّ بن شعيب.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٤: ٥١١، وتقدّم في ترجمة أبي عروبة.

الفصل الثاني

سِماتُ عصرِهِ

عصره السياسي

عصره الاجتماعي والثقافي

عصره العلمي والأدبي

عصره الديني

عصره السياسي

امتدّت حياةُ ابن تيميّة في العصر المماليكي الأوّل، عصر المماليك البحرية، الذي ابتدأ بسيطرتهم على مصر سنة ٦٤٨هـ، ثمّ بلاد الشأم سنة ٦٥٨هـ، حتّى كانت نهايتهم في سنة ٧٨٤هـ ليبتدئ عهد المماليك البُرجية، وحتّى عام ٩٢٣هـ حيث نهاية دولتهم على أيدي العثمانيّين.

قام العصر المماليكي الأوّل على أنقاض الدولة الأيّوبيّة التي حكمت مصر والشأم منذ عام ٥٦٧هـ، حيث كانت نهاية العهد الفاطمي الذي امتدّ قرابة ثلاثة قرون (٢٩٦ ـ ٥٦٧هـ) حتّى أنهكتهُ الحروب المتوالية، فبعد السلاجقة الّذين بسطوا نفوذهم على بغداد سنة ٤٥١هـ، ثمّ اندفعوا نحو الشأم ينازعون الدولة الفاطمية علىٰ مدنه الكبرى، بعد ذلك كانت الحروب الصليبية التي ابتدأت في سنة ٤٨٨هـ بمهاجمة الثُغور الشمالية في آسيا الوسطى، ثمّ انحدر الإفرنج الصليبيّون نحو الرُّها ليقيموا فيها أُولى ولاياتهم في أرض الإسلام سنة ٤٩١هـ، ثمّ أنطاكية التي أصبحت مركز ولايتهم الثاني، كلّ ذلك انتزعوه من السلاجقة، ثمّ انحدروا جنوباً فانتزعوا مدن الساحل ووادي نهر العاصي من الفاطميّين، وتوغّلوا نحو الجنوب قاصدين هدفهم، القُدس، حتّى اجتاحوها في شهر رجب من سنة ٤٩٢هـ بعد حصار دام نحو أربعين يوماً، فأشاعوا فيها الذبح الذريع دون تمييز في سنٍّ أو جنس، فكانت مذبحةً وصفها مصدرٌ لاتيني قائلاً: إنّ النظر كان يقع على أكوامٍ من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق والساحات العامّة[1].

---

(١) فيليب حتّي ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ ٢: ٢٢٩.

والظاهر أنّ تسمية الحروب الصليبيّة ليست تسميةً عربيةً، فالذي دوّنه مؤرّخو العرب هو اسم الإفرنج. وهؤلاء الإفرنج هم الّذين أطلقوا عليها اسم الحروب الصليبيّة، فاستساغه المتأخّرون لسببين:

الأول: أنّ تسمية الإفرنج تسمية قديمة رهينة عصرها.

والثاني، وهو الأهمّ: أنّ في هذه التسمية تعبير صادق عن هويّة تلك الحروب، التي انطلقت شرارتها الأُولى بدعوة البابا أُوربانوس الثاني في خطبته العنيفة التي ألقاها في جنوب فرنسا داعياً إلى الزحف نحو (كنيسة القيامة)، فهتف له الجمهور على الفور: هكذا يريد الله!

ولمّا كان الثأر الإسلامي من الصليبيّين قد ابتدأ على يد عماد الدين زنكي صاحب الموصل الذي هزمهم أوّل مرّة على أبواب حرّان، ثمّ اقتحم عليهم الرُّها مُنتزعاً أُولى ولاياتهم الكبرى في سنة ٥٣٩ هـ، ثمّ واصل قائده نور الدين محمود انتصاراته في سورية، في حين كانت الدولة الفاطمية في أضعف أدوارها وقد اقتحم عليهم الإفرنج الصليبيّون مدن مصر حتّى حصروا القاهرة، استنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود فأنجدهُ بجيش يقودُه شيركوه ويصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيّوبي، ليصبح شيركوه الشافعي وزيراً للعاضد الفاطمي الإسماعيلي، غير أنّه توفّي بعد شهرين فقط، ليقع اختيار العاضد على صلاح الدين فيتّخذه وزيراً وقائداً للجيوش على أنّه في الوقت ذاته كان نائباً لقائده نور الدين المستقرّ في دمشق. فكانت نهاية العهدالفاطمي على يد الوزيرالجديد سنة ٥٦٧هـ.

ومن الطريف أنّ صلاح الدين الذي خطّط مبكّراً لإنهاء الحكم الفاطمي تردّد كثيراً في قطع الخطبة الفاطمية، حتّى انبرى لها خطيب أعجميّ يدعى نجم

الدين الخبشاني[١]، فخطب للمُستضيء العبّاسي الذي لا يعدو كونه رمزاً مقيّداً في بغداد بعيداً عن كلّ ما يجري!

فانفرد صلاح الدين بملك مصر موجّهاً أنظاره نحو الشام حتّى ضمّها إلى مِلكه بموت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ليؤسّس الدولة الأيّوبيّة الفتيّة في مصر والشام.

ثمّ توجّه لمطاردة الصليبيّين، فأفلح في طردهم من معظم المدن التي احتلّوها، فلم يبق في أيديهم من المدن الكبيرة سوى صور وطرابلس وأنطاكية. ولكن بعد مضيّ صلاح الدين ابتدأ النزاع بين بنيه وأخيه العادل وأبناء أخيه، واشتدّ النزاع بين خَلَفهم، وكلّما أحسّ أحدهم بالضعف استعان بالصليبيّين على أخيه أو ابن عمّه ومنحهم مالا يملكون من المدن، حتّى استعادوا أُغلب ما انتزعه منهم صلاح الدين، وحتّى القُدس، تخلّى لهم عنها الملك الكامل ابن العادل على أن ينصروه على ألدّ خصومه، أخيه! صاحب دمشق.

فلمّا اشتدّ النزاع بين بني أيّوب عمد ملوكهم إلى شراء مماليك من الأتراك يقومون على حراستهم، واستكثر منهم الملك الصالح سنة ٦٣٧ هـ وأقطعهم الأراضي ومنحهم جزيرة بحر النيل (روضة نهر النيل)، فمن أجل ذلك سُمّوا بالمماليك البحرية.

وازداد نفوذهم حتّى تمكّنوا بعد موت الملك الصالح في سنة ٦٤٧ هـ بأشهُر فقط من قتل ابنه طوران شاه سنة ٦٤٨ هـ ليؤول ملك الأيّوبيّين إلى الامرأة شجرة الدرّ زوجة الملك الصالح، فكانت آخر رموز الأيوبيين أوّل ملكة في تاريخ الإسلام!

ولأجل أن تحظى بتأييد الخليفة الرمز في بغداد اتّخذت عزّ الدين أيبك المملوكي وجهاً صورياً للحكم، ثمّ زوجاً، حتّى دسّت إليه مَن قتله في الحمّام، فهاج

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤: ٥٠٥، ابن الوردي ٢: ١١٤.

عليها المماليك فقتلوها ونصبوا سيف الديـن قُـطز المـظفّر المـملوكي، وخـطبوا له بالسلطنة كأوّل سلطان فعليّ للمماليك في سنة ٦٥٧هـ، بعد عام واحد على سـقوط العاصمة العبّاسيّة بغداد بأيدي التتار المغول واجتياحهم مدن الشأم والإجهاز على بقايا الدولة الأيّوبيّة هناك.

وفي أقلّ من سنة مرّت على سلطنته استطاع قُطز أن يَهزِم التتار في معركة عين جالوت الشهيرة. ولم يمض على ملكه غير أحد عشر شهراً حتّى قتله الظاهر بيبرس ليجلس على كرسيّ السلطنة سنة ٦٥٨هـ، وكانَ بيبرس أقوى سلاطين المماليك على الإطلاق وأحسنهم سيرةً، وقد حاول أن يعيد الرمز العبّاسي حين عثر على رجل جاء به بعض الأعراب فزعموا أنّه من أبناء البيت العبّاسي نجا بنفسه فارّاً من بغداد إثر الغزو التتري، فبايعه بالخلافة وأرسله على رأس جيش إلى بغداد ليجدّد عهد آبائه، غير أنّ التتار قتلوه غربي بغداد وأفنوا جُنده.

وواصل الظاهر بيبرس مطاردة التتار في بـلاد الشأم، كـما أفـلح في دحـر الصليبيّين واسترجاع معظم ما احتلّوه، حتّى استعاد منهم أنطاكية التي عجز عنها صلاح الدين، واجتاح قلاع الإسماعيليّة في سَلَميّة التي عجز عنها صلاح الديـن أيضاً، وكادت تستوي له جميع بلاد الشأم، حتّى كانت وفاته سنة ٦٧٦هـ؛ ليبتدئ بعده عهد جديد من الفِتن وتعدُّد الملوك وشيوع القتل بينهم، وكانوا على الترتيب:

السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس: خلعه أُمراء العسكر سنة ٦٧٨هـ.

سلامش بن بيبرس: كان عمره سبع سنين، وخُلع بعد أربعة أشهر فقط.

قلاوون المنصور: كان سلطاناً قويّاً انتظم في عهده أمر البـلاد حـتّى وفـاته سنة ٦٨٩هـ، وهو ثاني من مات على السلطنة بعد الظاهر بيبرس، في حين تـوزّع الآخرون بين مخلوع ومقتول.

الملك الأشرف ابن قلاوون: انتزع عكّا من الإفرنج واستعاد كامل البلاد الساحلية، وقُتل في سنة ٦٩٣هـ على أيدي مماليك أبيه.

بيدرا القاهر: ملك أقلّ من أُسبوعين فقتله مماليك أبيه.

الملك الناصر ابن المنصور قلاوون: وفي عهده هذا غزا التتارُ البلاد سنة ٦٩٩هـ واحتلّوا حلب وحماه ودمشق وغزّة والقدس والكرك وهزموا الملك الناصر إلى مصر، فأعاد عليهم الكرّة في العام التالي في جيش قاده سلّار وزميله بيبرس فهزموا التتار واستعادوا البلاد.

بيبرس: القائد، وزميله سلّار اتّفقا على خلع الناصر سنة ٧٠٨هـ واستقلّا في الحكم عاماً واحداً.

الملك الناصر: عاد إلى السلطنة سنة ٧٠٩هـ وأقصى بيبرس، وصَحِبَهُ سلّار من جديد، واستوت له البلاد، وعَدِمَ المنافسين، فكان آخر سلطان يعاصره ابن تيميّة.

وتعاقب على دمشق في هذه الفترة نحو خمسة عشر والياً، كان أوّلهم عَلَم الدين سنجر الحلبي (٦٥٨ - ٦٥٩هـ)، وآخرهم سيف الدين تنكز (٧١٢ - ٧٤٠هـ) وقد امتاز عهده بالاستقرار. وإلى جانب الوالي كان السلطان يعيّن (دواداراً)(١) وأُمراء عساكر يشاركون الوالي في الإدارة لضمان عدم تمرّده، وهذه المناصب كلّها حكر على المماليك الّذين دخلوا الإسلام بعد إقامتهم في مصر، وهناك أيضاً ابتدأوا يتعلّمون العربية.

تميّز هذا العهد بغَلَبَة السيف على الوراثة في الحكم، وتجسُّد التجزئة السياسية

---

(١) كلمة مخففة عن الأصل الفارسي (دواتدار) وتقابل هنا: أمين السرّ.

بغياب الرمز العبّاسي إلى الأبد، تلك التجزئة التي كانت قد ابتدأت في الواقع قديماً منذ فقد البيت العبّاسي هيمنته، حيث كان أحمد الراضيّ ـ المتوفّى سنة ٣٢٩هـ ـ آخر خليفة عباسي ينفرد بتدبير الجيوش والأموال والسياسة، وآخر من خطب على المنبر يوم الجمعة من بني العبّاس.

عصره الاجتماعي والثقافي

ماذا ينتظرُ أُمّةٌ عشعشتْ فيها الاضطرابات والفِتن، وتعاقبتْ عليها عُصورٌ وهي لا ترى من الاستقرار إلّا كذَنَب السِرحان! وتعاقَبَ عليها ملوك وأُمراء لا يعرفون لها حقّاً، ولا يفهمون للأمان معنىً إلّا ما حاط قصورهم!

أُمراء وسلاطين يتنازعون على الملك تنازع الصبيان على لُعَبِهِم، ولا فرقَ في ضمائرهم بين أن تُراقَ الخمرةُ على موائدهم، أو تُسفَك الدماءُ تحت حوافِر خيولهم!.

ماذا ينتظر المجتمع إذن غير الفقر والعناء والجهل والتفكّك والضياع؟

وهكذا كانت الحالة الاجتماعية في هذا العصر نتيجةً طبيعيةً لا غرابة فيها؛ تفشّى الفقرُ قاسياً، وليس ثمّ إصلاحات تَحُدّ من صَولَته. وكثُرت الكوارث الطبيعية، كالسيول والفيضانات والجفاف والزلازل، كثرةً ملحوظةً في هذه الفترة، ولا يعقب ذلك شيء من أعمال الإصلاح والترميم وتعويض المتضرّرين، إلّا ما يعود ضرره مباشرةً على سلطانٍ أو أمير!

في سنة ٦٥٦هـ اشتدّ وباءٌ بالشأم وخصوصاً بدمشق حتّى عزّ مغسّلو الموتى.

وفي سنة ٦٨٠هـ غرقت دمشق.

وفي سنة ٦٩٤هـ جفّت مصر جفافاً هائلاً تبعه غلاءٌ فاحش حتّى أُكِلت المَيتةُ.

وفي سنة ٧١٨هـ وقعت مجاعة في شمال بلاد الشأم والموصل كانت سبباً في

جلاء الناس وموت الكثير منهم، وغلاء فاحش حتّى باعت الأُمّهات أولادها للنصارى، فإذا امتنع أحدهم من شراء الأولاد تجعل المرأةُ نفسها نصرانية ليرغب في الشراء!

وفي سنة ٧٢٠هـ زُلزلت مصر والشأم.

وفي سنة ٧٢٤هـ غرقت مصر.

واستطال الجهلُ، الوليدُ الطبيعي للفقر والعوز، وشاعت أساليب جديدة من التكسّب، فتكسّبوا بالشعر، وبالخرافات والأباطيل، كما تكسّبوا بالمنكرات كالخمرة والحشيشة. فإذا كانت الخمرة قد عُرفت قديماً في قصور الملوك والأُمراء لتأخذ طريقها بيُسر إلى أسواق المدن الكبيرة والصغيرة وتنتشر الحانات في كلّ مكان، فإنّ الحشيشة المخدّرة التي انتشرت هنا في العهد الأيّوبي، ازدهر سوقها كثيراً في هذا العصر حتّى أصبحت من موارد بيت المال المهمّة إذ يصل الديوان من عائداتها كلّ يوم ألف دينار، وهو موردٌ مهمّ في وقته، ودخلت الحشيشة في ثقافة المجتمع ففتحت على الشعراء باباً جديداً، فتغنّوا بها، وفاضَلُوا بينها وبين الخمرة، وأكثروا من ذلك حتّى صار سِمَةً بارزةً في سمات العصر، وحتّى سقط في شراكها كبارٌ ذَوُو وجاهةٍ، كَعلَم الدين أحمد بن يوسف (٦٨٨ هـ) الذي عُرف فيما بعد بالشيخ الماجن، ومن قوله فيها:

يا نفسُ ميلي إلى التصابي ... فاللهوُ منه الفتى يعيشُ
ولا تملّي من سُكْرِ يومٍ ... إنْ أعوَزَ الخمرُ فالحشيشُ[1]

ومع ذلك فإنّ السواد الأعظم من المُسلمين كان يستنكر تلك المظاهر،

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ٣٢٣.

ويتأذّى منها، ويتعلّل بما أمكن من دواعي محاربتها. ففي سنة ٦٩١هـ رفع أهل معرّة النعمان قصصاً ودعاوى إلى الملك الأشرف مطالبين بإبطال الخمّارة، فأُبطلت وخرّبت من ساعتها.

وفي سنة ٧٢٠هـ أُريقت الخمور في خندق قلعة المدينة السلطانيّة! وأُحرقت الظروف، وذلك أنّه وقع بَرَدٌ كبار أهلك المواشي، وأعقبه سيلٌ مخوف، فسأل السلطان الفقهاء عن سببه، فقالوا: من الظلم والفواحش. فأبطل الحانات في مملكته، وأبطل مكس الغلّة الذي كان يُثقل كاهلَ الناس.

وبين الفقر والجهل تُخيّم الأجواء الخِصْبةُ للخرافات والأباطيل، فالناس عندئذٍ أشدّ تعلُّقاً بها من تعلّقهم بحقائق الدين المُسْنَدة، فَفُتح بذلك بابٌ جديد للتكسّب كان ضحيّته السُذّج على الدوام.

وتواترت أخبار العوام برؤية المنامات، وكثرة الظواهر، وتحدّثوا بقيام الزّمنى والمرضى وفَتْح أعين الأضِرّاء عند قبور اكتشفوها في المنامات، ونَقَلَ قومٌ عن قوم أشياء لا أصل لها غير أهوية العوامّ، وبطل الناس من معايشهم وأشغالهم بسبب ذلك، وزعم أحدهم أنّه رأى في منامه ما يدلّ على ظهور قبر أحد الصالحين فهرع الناس إليه وكشفوا التراب عنه فوجدوه صبيّاً مقتولاً وفي جيبه كعاب كان يلعب بها فعرفه أبوه وقال: هذا ولدي فقدته منذ أيام![1].

وترقّى الخيال ببعض المتكسّبين، فادّعوا علم النجوم، ورسموا تقاويم كتبوا عليها أحكاماً بحسب الأبراج، فمنعتهم السلطة من ذلك سنة ٧١٨هـ. وشاء الله أن يُبير تجارتهم فأشاعوا أن الشمس ستكسف في دمشق في الساعة السابعة بعد الظهر

(١) الحوادث الجامعة «ابن الفوطي»: ١٩٤.

من يوم الخميس الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٢٦هـ، وذكروا أنّ ذلك ثابت في جميع التقاويم وأنّه حساب لا يُخْرَم. فتهيّأ الناسُ للصلاة فلم تنكسف الشمس، بل انكسف المنجّمون!

وفي أجواء الفقر والبلبلة يكثر اللصوص وقطّاع الطرق، وفي تلك السنين قطع طريق الحاجّ مرّات عديدة.

وإلى جانب ذلك كانت طبقات منعّمة في ظلٍّ وارفٍ لا تمسّهم سَموم الفقر ولا يجدون ريحه، أوّلهم السلطان والمقرّبون إليه، ثمّ الولاة والأُمراء ونوّابهم، ولكلّ واحد منهم حاشيةٌ تحرس بابه وتأكل على سماطه، وكان هؤلاء يمثّلون قمّة نظام إقطاعي سَنُّوه لأنفسهم.

ثمّ طبقة القضاة وكثير من الفقهاء الّذين كانوا يحظون بعناية السلطان والولاة، وعدد آخر من رجال الدين كان يصطفيهم السلطان فيكونون حوله ويصحبونه في أسفاره أُطلق عليهم طبقة (المُعَمّمين).

عصره العلمي والأدبي

نشط التأليف في هذا العصر نشاطاً ملموساً، ولعلّ الوازع إليه هو تعويض ما ضاع من التراث إثر الاجتياحين الصليبي والمغولي.

ومن أبرز ماظهر فيه التأليف الموسوعي الذي كان رائده نصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ) الذي آلّف في الفقه وفي الفلسفة وفي الرياضيّات والفيزياء والفلك والطب وعلم المعادن وحتّى في الموسيقى، كما كان صاحب أكبر مرصد فلكي أنشأه بنفسه في ذلك العصر.

وظهر علماء آخرون كتبوا في علوم متعدّدة، منهم: زكريّا بن محمّد القزويني (٦٨٢هـ)، وجمال الدين الوطواط (٧١٨هـ)، وأبو حيّان الأندلسي (٧٥٤هـ).

وبرع في الطبّ: ابن النفيس (٦٨٧هـ) مكتشف الدورة الدموية الصغرى.

وفي الفيزياء: العالمان الكبيران: قطب الدين الشيرازي (٧١٠هـ)، وتلميذه كمال الدين الفارسي (٧٢٠هـ).

وفي الرياضيّات: سعيد بن محمّد الصفدي (٧١٢هـ).

وفي علم الاجتماع وفلسفة التاريخ: ابن الطِقطِقي (٧٠٩هـ) في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية) وكان سابقاً لابن خلدون.

وفي اللغة: بعد أبي حيّان الأندلسي كان ابن منظور (٧١١هـ)، ثمّ ابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ).

وبرز من المؤرّخين عدد كبير: كأبي شامة (٦٦٥هـ)، وابن العديم (٦٦٦هـ)، وابن خلّكان (٦٨١هـ)، وابن الفوطي (٧٢٣هـ)، والمِزّي (٧٤٢هـ)، والذهبي (٧٤٨هـ)، وآخرون.

وأمّا أوسع الناس تصنيفاً في العلوم الدينيّة خاصّة كالفقه والأُصول والتفسير والحديث فكان: العلّامة ابن المطهّر الحلّي (٧٢٦هـ) وله تآليف في علوم أُخرى كالهيئة والرياضيّات والفلسفة، شرح بها كثيراً من كتب شيخه نصير الدين الطوسي حتى قيل: لولا شروح ابن المطهّر لم يفهم أحد كلام نصير الدين.

وإمام الزيديّة يحيى بن حمزة المؤيّد بالله (٦٦٩ ـ ٧٤٩هـ) والشيخ عليّ بن عبدالكافي السُّبكي (٦٨٦ ـ ٧٥٦هـ) إمام الشافعيّة، وله نحو مئة وخمسين مصنّفاً في العلوم الدينيّة.

كانت هذه النهضة العلمية صحوةً عقبها دور الضعف والانحطاط الذي كان أسرع سرياناً في النتاج الأدبي، إذ شهد هذا العصر انحطاطاً كبيراً في الشعر والأدب، فضعفت أغراض الشعر وشاع فيها التقليد وداخلته المعاني الركيكة والألفاظ العامّية، وابتعد عن معالجة هموم المجتمع، وكثُر النظم في الألغاز والأحاجي والحشيشة، وكثُر شعر الموشّحات غير أنّه غلب عليه التقليد والضعف ودخلته العامّية أيضاً. ولم ينج من تلك الأدواء سوى صفيّ الدين الحلّي (٦٧٧ ـ ٧٥٠هـ)، يليه ابن نباتة المصري (٦٨٦ ـ ٧٦٨هـ).

عصره الديني

الحالة الدينيّة في هذا العصر مليئة بكلّ ما هو مُثير.

فالعصر الذي شهد سقوط عاصمة الخلافة على أيدي التتار المغول وما تبعه من دمار وخراب، شهد أيضاً تدفّق هؤلاء التتار سلاطين وجنوداً إلى اعتناق الإسلام وتطبيق شيء من أحكامه أحياناً.

والعلاقة بين الديانات السماوية الثلاث كانت على أسوئها، لما شهده اليهود والنصارى من دعم وحماية من قبل الصليبيّين ثمّ التتار، استطالوا على أثره، فخلّف ذلك فِتَناً كثيرة، ومذاهب إسلاميّة منحرفة نشطت كثيراً، أهمّها:

١ ـ **الإسماعيليّة**: وهي فرقة شيعيّة شذّت بعد الإمام جعفر الصادق ﷺ، وكان لها شوكة ونفوذ، ومركزها في سَلَمية من نواحي حماه، والمذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة الفاطمية التي حكمت قرابة ثلاثة قرون، وعرفوا بالباطنية لإغراقهم في الباطن.

٢ ـ **الكرّاميّة**: فرقة من أهل السُنّة تقول بالتجسيم والتشبيه، تسرّبت عقائدهم حتّى إلى بعض خصومهم، ومن ذلك قولهم باستقرار الله تعالى على العرش مماسّاً له من جهته العليا، وأنّه قد امتلأ به العرش، أو هو على بعض أجزاء العرش، وجوّزوا عليه الانتقال والتحوّل والنزول. تعالى الله عمّا يصفون.

٣ ـ **النصيريّة**: فرقة من غلاة الشيعة، زعمت أنّ الروح الإلٰهية حلّت في الإمام

عليّ ﷺ، ثمّ اعتقدوا أنّ ابن ملجم هو أفضل أهل الأرض لأنّه خلّص روح اللاهوت من ظلمة الجَسَد، وكان لهم في هذا العصر قوّة أزعجت السلطة فوجّهت إليهم جيشين لمقاتلتهم، مرّة في سنة ٧٠٥هـ، والأُخرى سنة ٧١٧هـ.

٤ـ **اليزيديّة**: أو العَدَويّة، نسبة إلى الشيخ عَديّ بن مسافر المرواني الأُموي المتوفّى سنة ٥٥٧ هـ. وكان صوفيّاً استوطن أرض الأكراد في الجزيرة الشاميّة (الحدود العراقية السوريّة)، وكان يعتقد في يزيد بن معاوية أنّه إمام حقّ وابن إمام، فغلا فيه أتباعه من بعده، وكان لهم انتشار وفِتَن في تلك الديار وفي ديار بكر وبلاد الأرمن من آسيا الوسطى.

وانتشر التصوّف انتشاراً هائلاً، ساعده على ذلك الجهل العامّ بفحوى الدين وأهدافه الكبرى، في أجواءٍ من اليأس والقنوط والخمول، وتأييد السلاطين المستمرّ وحمايتهم. فقد عُنيَ متأخّرو العباسيّين بأمر مشايخ الصوفيّة، وازدادت عناية الأيّوبيّين بهم، فأنشأوا لهم الرباطات والتكايا، وكان صلاح الدين يحضر مجالسهم، فإذا رقصوا وطربوا استوى قائماً فلا يجلس حتّى ينتهون. ومضى على ذلك خَلَفُه، وزاد عليهم المماليك أنّهم كانوا يفتتحون أعمالهم بعد التنصيب بمجلس يُقيمه لهم الصوفيّة، فيتناول الأمير بحضرتهم (كأس الفتوّة) الذي ابتدعه هؤلاء ونسبوه إلى الإمام عليّ ﷺ زوراً.

وهذا لا يعني أنّ أمر الصوفيّة كان منسجماً على الدوام مع السلطة، فمن شيوخهم مَن أُوذي وسجن، كالشيخ السهروردي (٥٨٧ هـ) والشيخ محيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ) والشيخ خضر العدوي الذي اعتقله السلطان بيبرس سنة ٦٧١هـ وبقي حتّى توفّي في معتقله بقلعة الجبل، وفيه أنشد بعض أنصاره:

لَم يُحبس الشيخُ خضرٍ بعد مَنقَصَةٍ ... منهُ، وليس لهُ ذنبٌ إلى أحدِ

لكنّه كان كالسلطانِ منزلةً ... وهل رأى الناسُ سُلطانين في بَلَدٍ؟!

ومهما يكن فإنّ انتشار التصوّف يُعَدّ مِن أبرز الظـواهـــر الديـنيّة في ذلك العصر.

المذاهب الكبرى:

شهد هذا العصر حدثاً جديداً لم تعهده دمشق من قبل، فـقد أنشأ الظـاهر بيبرس نظاماً جديداً يقضي بتعيين أربعة قضاة موزّعين عـلى المـذاهب الأربـعة، وطبّق هذا النظام في القاهرة سنة ٦٦٣هـ، ثمّ في دمشق سنة ٦٦٤هـ، بـعد أن كـان القضاء فيها حِكراً على الشافعيّة.

يقول السُّبكي الشافعي: لم يكن يلي قضاء الشأم، والخطابة والإمامة بجامع بني أُميّة إلّا من يكون على مذهب الأوزاعي، إلى أن انتشر مذهب الشافعي فصار لا يلي ذلك إلّا الشافعيّة. وأرّخ السُّبكي لذلك بسنة ٣٠٢هـ منذ عهد القاضي أبي زُرعة محمّد بن عثمان الدمشقي[1].

وإذا كان قرار بيبرس هذا يعدّ انتصاراً للمذاهب الثلاثة حيث مَنحهم فرصةً تاريخيّة لنوع جديد من النشاط، فإنّه كان قراراً قـاسياً عـلى الشـافعيّة الّـذين لم يعتادوا رؤية مُشاركٍ لهم في القرار، ورغم أنّ بيبرس قد احتفظ للقاضي الشافعي ببعض المزايا على غيره، كاختصاصه بالأوقاف وتقديمه في الأيّام الرسـمية، إلّا أنّ ذلك لم يحدّ من سخطهم الذي بلغ إلى حدّ اعتقادهم أنّ هذا النظام قد أوجب على الملك الظاهر بيبرس دخول النار والعذاب الشديد، كما أوجب ضياع ملكه!

يقول السُّبكي: حُكي أنّ الظاهر بيبرس رأىٰ الشافعي في النوم لمّا ضمّ إلى مذهبه بقيّة المذاهب، فقال له الشافعي: تُهين مذهبي! البلاد لي، أو لك؟! أنا قـد

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٨: ٣٢٠.

عزلتك وعزلتُ ذرّيّتك إلى يوم الدين.

قال: فلم يمكث إلّا يسيراً ومات، ولم يمكث ولده السعيد إلّا يسيراً وزالت دولته، وذرّيّته إلى الآن فقراء!

وهكذا تنطلي أضغاث أحلام البسطاء على السُّبكي العلّامة فيقول بعكس ما ترى عيناه، فهو يعلم أنّ بيبرس قد بقي في السلطنة ثلاث عشرة سنةً بعد قراره بضمّ القضاة، وأنّه أحسن السلاطين سيرةً، فعطّل الخمرة والحشيشة في كلّ البلاد ولم يفعل ذلك أحد غيره، وهزم المغول والصليبيّين وحقّق ما عجز عنه صلاح الدين حتّى توفّي سنة ٦٧٦هـ! ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن شافعاً لهُ، فالسُّبكي يقول: حُكيَ أنّه رُئيَ في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عذّبني عذاباً شديداً بجعل القضاة أربعةً[١]!

ولم يكن ذلك شأن الشافعيّة وحدهم، فما تناقله الحنابلة من أخبارهم ما ارتقى إلى مثل ذلك المُرتقى، حتّى رواه الذهبي وأثبته العماد الحنبلي في (شذرات الذهب) فقال في أحداث سنة ٧٢٥هـ: كان غرق بغداد المهول، وساوىٰ الماء الأسوار، وغَرِق أُممٌ لا تُحصى، ودام خمس ليالٍ، قال الذهبي: ومن الآيات أنّ مقبرة الإمام أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي ضريحه فيه، فإنّ الماء دخل في الدهليز علو ذراع ووقف بإذن الله وبقيت البواري عليها غبار حول القبر[٢]!

ذكر ذلك عن قبر أحمد، ولم يُخبر بمصير قبر أبي حنيفة أو الشيخ عبد القادر الجيلاني وكلاهما في بغداد، ولعلّه رأى أنّ ذلك من مسؤولية الأحناف والصوفيّة!

وثمّ أحداث كبيرة كان سببها التعصّب المذهبي، فحجرُ الملك الأشرف

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ٨: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) شذرات الذهب ٦: ٦٦. والبواري: الحُصُر.

الأيّوبي على العزّ بن عبدالسلام شيخ الشافعيّة، إنّما كان جرّاء خلاف بينه وبين الحنابلة الّذين استمالوا الملك الأشرف وأقنعوه أنّ قولهم قول السّلَف وأنّ العزّ بن عبدالسلام زائغ عن الصراط[1].

وفي قضيّة أحمد بن إسماعيل التبريزي الشافعي الذي قضى عليه القاضي الحنفي بالجلد ثمانين ضربةً، ثمّ بنفيه و إخراجه من التدريس بسبب شتمه أحد ذرّيّة الإمام أبي حنيفة، يقول الشوكاني: قد لَطَف اللهُ به برافعته إلى حاكم حنفي، فلو روفع إلى مالكيّ لحكم بضرب عنقه! وقبّح الله هذه المجازفات والاستحلال للدماء والأعراض بمجرّد أشياء لم يوجب فيها الله إراقة دمٍ ولا هَتْكَ عرض[2].

هذا كلّه لا يعني أنّ هناك تجافياً تامّاً بين أصحاب المذاهب، بل على العكس كانت إفادة بعضهم من البعض مألوفة جدّاً في التعليم والتأليف والحوار، وربّما كان الحوار ينتهي بانتقال فقيهٍ من مذهبه إلى مذهب آخر، وقد حصل كثيراً.

كما كان جوّ من التفاهم بين أتباع المذاهب الأربعة والصوفيّة، فالمدرسة التي تُنشأ لتدريس المذاهب الأربعة يُخصّص فيها رباط للصوفيّة.

وفي سنة ٧١٦هـ وقع اختيار الصوفيّة على قاضي القضاة الشافعي نجم الدين ابن صصرىٰ ليتولّى مشيخة الشيوخ عند الصوفيّة بدمشق[3]. وربّما جاء على ألسنة الشعراء ما يُومئ إلى ذلك الوفاق، فابن النقيب المتوفّى بالقاهرة سنة ٦٨٧هـ يتغنّىٰ ببيتين من الشعر يعتمد فيهما التورية بأسماء أئمّة المذاهب وشيخ الصوفيّة أبي حامد الغزالي، فيقول:

---

(١) انظر: طبقات الشافعيّة الكبرى ٨: ٢١٨ وما بعدها.

(٢) البدر الطالع ١: ٤٠.

(٣) ابن الوردي ٢: ٣٧٧.

يا (مالكي) وفديك قلبي (شافعي) ما لي سألتُ فما أجبت سؤالي !

فـوَخَدُّك (النعمان) إنّ بليتي وشكيتي من طرفك (الغزّالي)

ولم يكن للشيعة الإماميّة نصيب في ذلك الوفاق، وعلى الرغم ممّا تركه الوزير الإمامي أحمد بن بدر الجمالي من أثرٍ شكره الجميع، ثمّ ما أبداه طلائع بن رزيك الإمامي من سيرةٍ أثنى عليها المؤالف والمخالف حتّى جُمعت مدائحه في كتاب سُمّيَ (الدرّ النظيم)[١] !

ورغم أنّ هذين الحاكمين الإماميّين قد قُتلا على أيدي الإسماعيليّة، فـما كانت المذاهب السُّنّيّة تكنّ لهما التقدير والثناء..

وبالرغم من أنّ موقف الإماميّة من غلاة الشيعة ـ كالإسماعيليّة والنصيريّة ـ لا يختلف عن موقف أهل السُّنّة. إلّا أنّ كلّ ذلك لم يترك أثره في التقريب بين الإماميّة والمذاهب الأربعة، وبقي الحديث عنهم كالحديث عن أيّ فرقة من الغلاة بدون تمييز، فحصلت أخطاء كبيرة تعمّدها الكِبار، وتلقّاها التابعون تلقّي المقلّد الذي سلّم لشيخه بكلّ ما يقول.

هذا هو زمان ابن تيميّة بأهمّ ملامحه، وذاك مكانه الذي أشرفنا عليه، وتلك أُسرته التي عرفناها من قبل.

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٤٥.

الفصل الثالث

حيَاتـهُ

الوليد الناشىء

على شواطىء أيّامه

الشيخ المجتهد

الوليد الناشئ

في يوم الاثنين، العاشر من ربيع الأوّل سنة ٦٦١هـ ولد أحمد بن عبدالحليم، في بيت المشيخة الحنبليّة، وفي واحدٍ من أهمّ معاقل الحنبليّة، مدينة حرّان.

في ذلك البيت ترعرع الوليد، وفي ذلك المحيط أمضى سِنيّه الستّ الأُولى، تلك السنين التي تُغذّي الطفل بزادها، وتزرع بصماتها في ذهنه، وفي وجدانه، في شعوره ولا شعوره، لتترك آثارها فيه طفلاً، ثمّ يافعاً، ثمّ كهلاً، فشيخاً.

وبعد السادسة من عمره حمله أبوه ـ مع سائر أُسرته ـ سنة ٦٦٧هـ، مفارقاً مسقط رأسه ومهوى فؤاده، قاصداً دمشق، هرباً من الغزو التتري المتتابع على حرّان.

واستقرّت الأُسرة في دمشق إلى حيث تشتهي من المنزل والمنزلة، فأُفرد للشيخ عبدالحليم ـ والده ـ كرسيّ بجامع دمشق يُدرّس فيه، وأُسندت إليه مشيخة دار الحديث السكّرية في القصّاعين محلّ سُكناه.

وأمّا الناشئ أحمد فلم يُذكر شيء عن طفولته، حتّى ابتدأ درسه على أبيه في دمشق، ثمّ تنقّل بين عدد من مشايخها، وكان أبرزهم:

ـ أحمد بن عبدالدائم المقدسي (٥٧٥ ـ ٦٦٨هـ): النسّاخ المحدّث الحنبلي، ومن تأريخ وفاته يظهر أنّ ابن تيميّة قد باشر التعلّم عليه مبكّراً ولمّا يجاوز السابعة من عمره.

ـ أبو زكريّا، سيف الدين يحيى بن عبدالرحمٰن الحنبلي (ت ٦٦٩هـ).

ـ مُسند الشأم ابن أبي اليُسر التنوخي (ت ٦٧٢هـ).

ـ عبدالله بن محمّد بن عطاء الحنفي (ت ٦٧٣هـ).

ـ أبو زكريّا، كمال الدين يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح الحرّاني الحنبلي (ت ٦٧٨هـ).

ـ عبدالرحمٰن بن أبي عمر، ابن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٦٨٢هـ).

كما تلمذ على عدد من النساء المحدّثات، وهنّ:

ـ أُمّ العرب، فاطمة بنت أبي القاسم بن القاسم بن عليّ ـ المعروف بابن عساكر مؤرّخ الشأم ـ (ت ٦٨٣هـ).

ـ أُمّ الخير، ستّ العرب بنت يحيى بن قايماز (ت ٦٨٤هـ).

ـ زينب بنت أحمد المقدسيّة (ت ٦٨٧هـ).

ـ زينب بنت مكّي الحرّانيّة (ت ٦٨٨هـ).

ـ وآخر مَن ذكر في شيوخه موتاً: شرف الدين أحمد بن نعمة المقدسي (ت ٦٩٤هـ)، وهو القائل: أنا الذي أذنت لابن تيميّة في الإفتاء[1].

ـ وأمّا الشيخ عبدالسيّد، اليهودي الذي أسلم وتوفّي سنة ٧١٥هـ، فنهم من عدّه في شيوخه، ومنهم من عدّه في رُفقته وأصحابه.

---

(١) عقد الجمان ٣: ٢٨٥.

درس على هؤلاء جميعاً، وآخرين: علوم الحديث، والرجال، واللغة، والتفسير، والفقه والأُصول. وقرأ بنفسه، ونسخ كتباً بيده منها سنن أبي داود. وكان حادّ الطبع، حديد الذهن، قويّ الحافظة، برز على أقرانه ولمّا يجاوز العشرين من عمره، وكان أبوه يعلّمه الإفتاء ويدرّبه عليه ليعدّه لخلافته بعد موته.

على شواطئ أيّامه

في أيّامه عتبات لا بُدّ من إطلالةٍ عليها..

لمحات نذكرها في غاية الإيجاز، يأتي تفصيلٌ في معظمها طيّ الفصول اللاحقة:

قصد مكّة حاجّاً في سنة ٦٩١هـ.

ومضت أيّامه هادئةً، ممدوح السيرة، عالي الصيت: مدرّساً، وخطيباً، ومصنّفاً حتّى كانت سنة ٦٩٨هـ، فتفجّرت عليه براكين الغضب في دمشق والشأم، فتابعتها القاهرة والإسكندرية، غضبٌ قاده فقهاء المذاهب الثلاثة وشيوخ الصوفيّة الّذين كانت لهم معه جولات من الصراع، ونزاعات لم تخمد، إلّا أنّها لم تبلغ ذروتها إلّا فيما بعد..

كلّ ذلك كان إثر خطبةٍ ألقاها على المنبر تكلّم فيها في ذات الله تعالى وصفاته، فعمّق البحث، وتوسّع وأطنب، فدخل في البحث طرقاً لم يسلكها الأوّلون هيبةً وورعاً وتمسّكاً بحدود الشريعة التي تنهى عن الخوض في ذات الله وصفاته تعالى شأنه.

ثمّ زاد على ذلك ما أدخله من براهين ناصر فيها عقيدة القائلين بالتجسيم، الّذين نسبوا إلى الله تعالى صفات هي من صفات الأجسام، كالوجود في جهةٍ واحدة، والاستواء على العرش حقيقةً، والحركة والانتقال، وأنّ الوجه والأيدي

والأعين والأرجل المذكورة في بعض الآيات والأحاديث إنّما هي على الحقيقة دون المجاز!

تلك أوّل ثائرةٍ كبيرة تثور عليه، ولكن سرعان ما حسمها أمير دمشق لصالحه، ولكنّ جمرها بقي تحت الرماد، حتّى تأجّج لظاهُ في فرصةٍ سَنَحت في سنة ٧٠٥هـ، فاستدعي فيها إلى مصر، إلى القضاء، وسُجن هناك سنةً ونصف، ثمّ أُفرج عنه، وأُمر بالإقامة في الإسكندرية، فأمضى فيها ثمانية أشهر في برج على البحر.

وفي الإسكندرية ركّز حملاته على الصوفيّة، فوقعت هناك فتنٌ كثيرة مدّة إقامته.

وفي سنة ٧٠٨هـ استدعاه السلطان الناصر إلى القاهرة إثر عودته إلى السلطنة[١]، فأكرمه وقدّمه وأسند إليه التدريس في المدرسة التي كان السلطان قد أنشأها هناك.

وفي رحلته هذه كان يصحبه أخوه شرف الدين، وكان على اتّصال بأصحابه في دمشق يكاتبهم ويكاتبونه، ويبعثون إليه ما يطلبه من الكتب، كما راسل الأمير (نائب دمشق) وأطلعه على أحواله وما جرى معه هناك.

وعاد إلى دمشق سنة ٧١٢هـ.

وقبل ذلك كان له في دمشق تاريخ آخر:

في سنة ٦٩٩هـ كانت له مشاركة في التصدّي للغزو التتري الذي هُزمت على

(١) راجع (عصره السياسي) من هذا الكتاب.

أثره جيوش المسلمين، واحتل التتار عدّة مدن شاميّة، وانسحب السلطان إلى مصر.

وفي العام التالي، وقد قاد السلطان جيوشه من جديد للثأر، توجّه إليه الشيخ وصحبه في تلك الغزوة مع كثير من كبار العلماء، وكان للشيخ عند السلطان منزلةً، فخطب الجيش وحثّهم على الجهاد، وشبّه هزيمتهم السابقة بمعركة أُحد، وغزوتهم هذه بمعركة الخندق! وزرع في قلوبهم الثقة بالنصر، فلمّا كان النصر حليفهم، عظمت مكانته عند السلطان، فقوي على خصومه من الصوفيّة خاصّةً، فضعفوا عن مواجهته، في حين كان يشدّد عليهم حملاته قولاً وعملاً.

وفي سنة ٧٠٤هـ كان السلطان طوع فتواه في محاربة أهل الجبل، فلمّا عاد الجيش منها منتصراً كتب إلى السلطان رسالةً يهنئه بالنصر، ومما قاله فيها:

(من الداعي أحمد بن تيميّة إلى سلطان المسلمين..

أمّا بعد، فقد صدق اللهُ وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جُنده، وهزم الأحزاب وحده، وأنعم اللهُ على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نِعَماً لم تُعهد في القرون الخالية!

وجُدِّدَ الإسلام في أيّامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية! وتحقّق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل الأوّلين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين[1] !!

وذلك أنّ السلطان أتمَّ اللهُ نعمته، وحصل للأُمّةِ بيُمن ولايته، وحُسن نيّته، وصحّة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همّته وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة اتّباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان

---

(١) يريد بذلك الحديث المروي: «إنّ الله يبعث لهذه الأُمّة على رأس كلّ مئة سنة مَن يجدّد لها دينها».

يجري في أيّام الخلفاء الراشدين...)[١].

وفي سنة ٧١٦هـ توفّيت والدته.

وبعد أربع سنين من هذا التأريخ في سنة ٧٢٠هـ ثارت عليه ثائرة دمشق إثر مسائل في الطلاق أفتى فيها بخلاف المذاهب الأربعة، واستدعي للقضاء ومُنع من الإفتاء، وسجن خمسة أشهر ثمّ أُفرج عنه بأمر من السلطان، وسكن الأمر.

وتجدّدت الفتنة على أشدّها في سنة ٧٢٦هـ على أثر تجديده الكلام في فتواه بتحريم شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وعثروا له على كتاب كتبه في هذه المسألة منذ سنة ٧١٠هـ، وكان له كلام متقدّم على هذا أيضاً ذكره في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم).

وكثر الكلام والتشنيع عليه، وحصلت فتنة طار شررها في الآفاق، ورفعوا ذلك إلى السلطان فتردّد في أمره، ثمّ خفّف عليه شيئاً من شدّة الأمر انتصار علماء بغداد له، فبعثوا كُتباً بموافقة رأيه، منهم: ابن الكتبي الشافعي، ومحمّد بن عبدالرحمٰن البغدادي المالكي شيخ المالكيّة بالمدرسة المستنصريّة، وعبدالمؤمن بن عبدالحقّ الخطيب، وجمال الدين ابن البتّي الحنبلي. كما كتب بعض علماء دمشق في نصرته أيضاً، منهم أبو عمرو بن أبي الوليد المالكي، وآخرون.

وبين هذا وذاك رأى السلطان أن ينقل الشيخ إلى قلعة دمشق إخماداً للفتنة، فأقام معه في القلعة أخوه في قاعة حَسَنة أُعدّت له، ورسم له السلطان بما يقوم بكفايته من الأموال.

وهناك تفرّغ للكتابة، وإلى جنبه ما يحتاجه من الكتب، فكتب في الردّ علىٰ

---

(١) العقود الدريّة: ١٨٢ ـ ١٨٣.

خصومه من القضاة المالكيّة والشافعيّة، وكتب في التفسير أيضاً، كما كتب في مراسلة أنصاره كثيراً، وكانت تأتيه كتبهم، فيغسلها بعد قراءتها، وقد كتب في ذلك بخطّه إلى بعضهم فقال: (الأوراق التي فيها جواباتكم غُسِلَت).

ثمّ أُخرجت جميع كتبه من عنده، فرأى في ذلك انتصاراً له لأنّه كان سبباً في نشرها واطّلاع الناس عليها بعد أن كانت حبيسةً معه.

بقي بعد ذلك أيّاماً، مرض بعدها مرضاً شديداً امتدّ معه عشرين يوماً فتوفّي على أثره ليلة الاثنين، عشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمئة للهجرة، وهذا التاريخ يوافق ٢٦ ـ ٢٧ من الشهر التاسع من سنة ١٣٢٨ للميلاد.

وشهد جنازته خلق كثير، قُدّر بمئتي ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة، وازدحم محبّوه على النعش يُلقون عليه مناديلهم وعمائمهم للتبرّك به، وقيل: إنّ منهم من مزّق شيئاً من كفنه، وأخذوا ماء غُسله، كلّ ذلك للتبرّك به..

فسبحان الله! أُولئك هم الّذين احتفّوا حوله في محاربة الصوفيّة على ما هو أدنى من هذا من التبرّك بقبور الموتى وآثارهم صاروا اليوم يفعلون ما لم يفعله الصوفيّة مع مشايخهم!

ومن عجائب الأيّام أيضاً أن يصير مدفنه في مقابر الصوفيّة، خصومه مدى حياته وخصومه بعد موته أيضاً!

ومن غريب ما ذكره صاحب (العقود الدريّة)[1] وهو يذكر وفاة الشيخ ابن تيميّة، قوله: قال القاضي أبو بكر محمّد بن عبدالباقي بن محمّد البزّار: سمعتُ المظفّر

(١) هو الشيخ الحافظ المحقّق محمّد بن أحمد بن عبدالهادي، ابن قدامة الحنبلي، المولود سنة ٧٠٤هـ، والمتوفّى سنة ٧٤٤هـ، وهو من تلامذة الشيخ ابن تيميّة.

هنّاد بن إبراهيم النسفي يقول: سمعت أبا القاسم عبدالواحد بن عبدالسلام بن الواثق يقول: سمعتُ بعض الصالحين يقول:

رُئي بعض الصالحين في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي.

قيل له: مَن وجدتَ أكثر أهل الجنّة؟

قال: أصحاب الشافعي.

فقيل: فأين أصحاب أحمد بن حنبل؟

قال: سألتني عن أكثر أهل الجنّة، ما سألتني عن أعلى أهل الجنّة! أصحاب أحمد أعلى أهل الجنّة، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنّة[1]!

شرّ البليّة ما يُضحِك، وشرّ منه حين يجري هذا المُضحك على ألسنة كبار الفقهاء والمحقّقين، وأيّ فقهاء، وأي محقّقين؟! إنّهم الّذين سخروا من أحاديث الصوفيّة في أمثال هذا، ثمّ يصرخون ويملأون الدنيا صراخاً زاعمين أنّهم ـ دون سواهم ـ المتمسّكون بعقيدة السّلَف شعرةً بشعرة!

فمن إذن للبسطاء والمساكين؟! اللّهمّ كما رحمت السّلَف الصالح فارحم الخَلَف التائه..

إذن عاش الشيخ ابن تيميّة نحو ثمانٍ وستّين سنةً، ثمّ مات فرداً، لم يتزوّج مدّة حياته، ذلك الأمر الذي بقي سرّاً مكتوماً في حياته الشخصيّة.

---

(١) العقود الدرية: ٣٩٢.

الشيخ المجتهد

كان يوم الاثنين، الثاني من محرّم الحرام سنة ٦٨٣هـ اختباراً صعباً لابن الثانية والعشرين.

فقد توفّي أبوه قبل أسابيع من هذا التاريخ في أواخر سنة ٦٨٢هـ، وظلّ كرسيّهُ بجامع دمشق شاغراً ليشغله أحد أبنائه، على طريقة الأسلاف إذ كانوا يتوارثون كرسيّ الدرس والخطابة. فكان أحمد هو المدعوّ لخلافة أبيه في مجلس حاشد شهده بعض أكابر أهل العلم، منهم: قاضي القضاة الشافعي، وشيخ الشافعيّة تاج الدين الفزاري، غير من حضر من أكابر الحنابلة، وأمام هذا الحشد ارتقى كرسيّه وألقى درساً في التفسير، طوّل فيه وفصّل كاشفاً عن حفظه واطّلاعه. فاستحسن الحضور درسه، وكتب بعضهم أشياء استفادها منه، وتحدّثوا بذلك، وذاع صيتُهُ في البلاد. فما كان إلّا شهر وبضعة أيّام حتّى هُيّئَ له منبر الجامع الأُموي بدمشق ليلقي درسه الثاني في التفسير بعد صلاة الجمعة، ثمّ ثبت على ذلك كلّ جمعة، واشتهر أمره في التفسير، ونُسِجت حوله الحكايات، وله في التفسير طريقة وآراء أفردنا فصلاً موجزاً في المهمّ منها والخطير ممّا أغفل ذكره وبيانه كلّ من كتب عن ابن تيميّة، ممّن ذهب يستعرض قدراته الأدبية في انتقاء ألفاظ المديح والإجلال والتعظيم التي لو جرّدتها عن القليل النادر من الأخبار التي جاء أغلبها مُجملاً، لرأيت بين يديك أكداساً من كلمات خطابيّة رنّانة لا غير!

ولأنّنا سلكنا الطريق الذي دعا إليه ابن تيميّة في نبذ التقليد الأعمى، فسوف

لا نهتزّ طرباً أمام أصداء تلك الكلمات الرنّانة وتكثّرها، سواء كانت ثناءً أو هجاءً.

فقيهاً:

ولم يكن التفسير فنّه الوحيد، بل ليس هو الأوّل فيما عُرف فيه، إذ كان ميدانه الأوّل هو الفقه، أُصوله وفروعه، الذي عُرف فيه ابن تيميّة مجتهداً ومجدّداً وضعه اجتهاده موضع النزاع بين المعجب بآرائه المؤيّد لها، والآخر الرادّ عليها المفنّد لها، فكان ذلك أهمّ أسباب بروزه وانتشار مصنّفاته.

وجملة ما في هذا الباب شعبتان دار كلامه فيهما:

الأُولى: طعنه على الطريقة السائدة في تقليد المذاهب الأربعة والوقوف عند ما ورد عنهم من فتاوى حتّى مع توفّر الدليل القاطع على خلافها، ودعوته في مقابل ذلك إلى ترك باب الاجتهاد مفتوحاً لمن يتأهّل له. ولأهمّية هذه الدعوة أفردنا لها فصلاً لتبيين منهجه فيها.

الثانية: تفرّده بفتاوى خالف فيها مذهبه الحنبلي، وربّما خالف فيها المذاهب الأربعة، ورغم أنّ هذه المواضع ليست كثيرة، إلّا أنّها أحدثت أصداء كبيرة في عالم غارق في التقليد لا يرى الحقّ إلّا في ما ورثه عن مذهبه، وكلّ ما خالفه فهو باطل مهما كانت حجّته.

وهذا لا يعني أنّ ابن تيميّة كان مصيباً في كلّ ما تفرّد به، بل قد رماه أقرب أنصاره إليه بالشذوذ، وعدّوا ذلك أخطاء مغفورة له لاجتهاده! ومن أُولئك: الذهبي والصفدي وابن كثير.

وقد حصر ابن العماد الحنبلي أهمّ هذه الفتاوىٰ بنحو خمس عشرة مسألة[١]، منها:

١ ـ ارتفاع الحَدَث بالماء المُعتصَر، كماء الورد ونحوه.

٢ ـ المائع القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه حتّى يتغيّر، حكمه حكم الكثير.

٣ ـ جواز التيمّم خشية فوات الوقت مع توفّر الماء.

٤ ـ تارك الصلاة عمداً لا يجب عليه القضاء ولا يشرع له.

٥ ـ جواز القصر في مسمّى السفر طويلاً كان أو قصيراً.

٦ ـ من أكل في شهر رمضان معتقداً أنّه ليل، وكان نهاراً فلا قضاء عليه.

٧ ـ جواز طواف الحائض ولا شيء عليها.

٨ ـ الحلف بالطلاق لا يقع، وعليه كفّارة.

٩ ـ الطلاق المحرّم لا يقع.

١٠ ـ الطلاق الثلاث لا يقع إلّا واحدة.

ولم يجد ابن تيميّة في حياته ما وجده من عناء إثر فتاويه في مسائل الطلاق، فعُرض لأجلها على القضاء، ومُنع من الإفتاء، وسُجن غير مرّة، وصُنّفت في الردّ عليه كتب ورسائل! هذا رغم إقرار الجميع بأنّ ما قاله في بعض هذه المسائل هو الذي كان على عهد رسول الله ﷺ وبه نطق القُرآن، وكان على عهد أبي بكر،

---

(١) شذرات الذهب ٦: ٨٥.

وسنين من عهد عمر، حتّى أحدث فيه عمر برأيه وأمضى عليه القضاء فصار قضاءً رسمياً يعمل به الفقهاء والقضاة، واعتمده أصحاب المذاهب الأربعة، بل لم يخالف فيه أحد غير فقهاء الشيعة الّذين مضوا على إفتاء أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

أثارت هذه القضيّة غضب الفقهاء والقضاة على ابن تيميّة، وكانت أيسر مدخل يستميلون به السلطان ويؤجّجون حَنَقَهُ على الفتوى وصاحبها، فأقنعوه بأنّ الذي هم عليه إنّما هو فتوى عمر، وقد عمل بها السَلَف من بعده، وأنّ أحداً لم يجرؤ على مخالفتها منذ عهد عمر سوى فقهاء الشيعة، وما من أحد من أهل السُنّة يأخذ برأي الشيعة!(١).

لقد عرفوا من أين تُؤكل الكتف.

هذا رغم علمهم أنّ له فتاوى شَذّ بها لا عن مذهبه فقط، ولا المذاهب الأربعة، وإنّما عن محكم الكتاب والثابت من السُنّة المطهّرة، كما في أغلب الفتاوى السبع الأُولى، وغيرها، وقد أنكروها عليه جميعاً!

يقول ابن رجب الحنبلي: كثير من العلماء من الفقهاء والمحدّثين والصالحين كرهوا له التفرّد ببعض المسائل التي أنكرها السَلَف على من شذّ بها، حتّى أنّ بعض قضاة العدل من أصحابنا ـ يعني الحنابلة ـ منعه من الإفتاء ببعض ذلك(٢).

محدّثاً:

المذهب الحنبلي هو واحد من مذاهب أصحاب الحديث، فمن المألوف أن يُولي مشايخ هذا المذهب عنايةً خاصّة بالحديث وعلومه فوق كونه واحداً من

---

(١) عبدالرحمن الشرقاوي: الفقيه المعذّب: ١٦٨ (كتاب اليوم).

(٢) طبقات ابن رجب ٢: ٣٩٤.

مصادر التشريع الأساس. ولقد أظهر ابن تيميّة عنايته هذه من خلال دراسة الحديث وحفظه ومعرفة عِلله، والإكثار من الرجوع إليه والاستشهاد به في مجالس الدرس وفي التأليف، مع حرصه في أغلب الأحيان على إعطاء درجة الحديث من صحّة أو ضعف أو وضع، وإسناده إلى مصدره من كتب السنن، فيقول مثلاً: حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد، أو: هذا الحديث لم يرد في شيء من كتب السنن، ولا عمل به أحد من السَّلَف، ونحو ذلك. فكان لهذا الأُسلوب المشحون بالعبارات الجازمة والأحكام القطعيّة أثره البالغ في الاستحواذ على السامع والقارئ، حتّى قالوا عنه: إنّه أوحد عصره في هذا الفنّ، بل قال الذهبي: حقّ أن يقال إنّ كلّ حديث لا يعرفه ابن تيميّة ليس بحديث[(١)].

وتناقل الناس هذه المقولة تناقل المقلّدين رغم أنّ مَن له أدنى نظر في التحقيق يعلم أنّها من فرط كلام المُعجبين الذي لا يعضده الواقع، فلم يكن ابن تيميّة ـ مع ما هو عليه من مكانة ـ على ذلك القدر من ضبط الحديث، وله فيه أخطاء، بل تناقضات عجيبة لا تكاد تجد لها نظيراً عند غيره، اللّهمّ إلّا من سلك طريقته، ومن أمثلة ذلك:

ـ عدم التزامه نصّ الحديث الذي يرويه، سواء كان ممّا كتبه بيده، أو رواه من حفظه في مجالسه، وهذه أمثلةٌ على ذلك:

١ ـ استشهد على كلام له بحديثٍ، فقال: إنّ الله تعالى يقول: «إنّ أوليائي المتّقون أيّاً كانوا وحيث كانوا»[(٢)].

وهذا الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث النبيّ ﷺ، لا الحديث

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢: ٤٠٩.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان: ١١.

القُدسي، مرفوعاً، ونصّه: «أوليائي منكم المتّقون» وأما لفظ «أيّاً كانوا وحيث كانوا» فهو من كلام مجاهد[١].

٢ـ في كتابه (الفرقان) قال: قال النبيّ ﷺ: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربنّ مسجدنا» الحديث[٢].

وليس من كلام النبيّ ﷺ «الشجرتين الخبيثتين» وإنّما هو من كلام عمر بن الخطّاب كما في صحيح مسلم[٣]، وأمّا نصّ حديث النبيّ ﷺ في رواية البخاري فهو: «من أكل ثُوماً أو بَصَلاً فليعتزلنا ـ أو: ليعتزل مساجدنا ـ»[٤].

وأمثال هذا في كتبه كثير يصعب حصره.

ـ وصنفٌ آخر من الخطأ، تكرّر عنده كثيراً في نسبة الحديث إلى مصدره أو راويه، ومن ذلك:

١ ـ قوله: في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالىٰ: من عادىٰ لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»[٥].

وليس هذا اللفظ من رواية البخاري عن أبي هريرة، إنّما هو في رواية الطبراني عن أبي أُمامة[٦].

---

(١) المستدرك ٤: ٧٣، وانظر هامش (الفرقان: ١١) جماعة الدعوة إلى القرآن والسُنّة ـ بشاور.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان: ٧٠.

(٣) صحيح مسلم ١: ٣٩٦ / ٧٨.

(٤) البخاري ـ كتاب الأطعمة ٧: ١٤٧ / ٧٨.

(٥) الفرقان: ٥.

(٦) انظر جماعة الدعوة إلى القرآن والسنة بهامش الحديث.

٢ـ قوله: روى الترمذي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لو لم أُبعث فيكم لبُعث فيكم عُمر»[(١)] ولم يُخرج الترمذي هذا النصّ، وإنّما أخرجه ابن عديّ، وقال: في سنده زكريّا بن يحيى يضع الحديث[(٢)].

٣ـ حديث «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»

قال: هذا الحديث ضعيف، بل موضوع عن أهل العلم بالحديث، ولكن قد رواه الترمذي وغيره، ورفع هذا، وهو كذب[(٣)].

والصحيح:

أـ أنّ الترمذي لم يرو هذا الحديث، وإنّما روىٰ حديث «أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها»[(٤)].

بـ لم يكن هذا الحديث موضوعاً عند أهل العلم ولا ضعيفاً، بل ورد عليه أنّه من رواية أبي الصلت الهروي عن أبي معاوية، وطعنوا على أبي الصلت لأنّه يتشيع، ولكن رجعوا عن هذا حين ثبت لديهم أنّه قد رواه آخرون عن أبي معاوية، منهم محمّد بن جعفر الفيدي وهو ثقة مأمون.

وقد سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال: هو صحيح. وسئل عن أبي الصلت الهروي فقال: ثقة صدوق إلّا أنه يتشيّع.

قالوا: أليس قد روىٰ هذا الحديث؟ فقال: أليس قد حدّث به محمّد بن جعفر

---

(١) الفرقان: ٥٧.
(٢) انظر اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١: ٣٠٢.
(٣) علم الحديث: ٦٥.
(٤) سنن الترمذي: ٥ / ح ٣٧٢٣.

الفيدي عن أبي معاوية ؟[١].

ـ وله أيضاً أخطاء رجالية ظاهرة:

فهو ينقل في كتاب (الزيارة) هذا الإسناد: «أنّ عبدالله بن حسن بن حسين ابن عليّ بن أبي طالب رأى رجلاً يختلف إلى قبر النبيّ» الحديث، ويكرّره ثانيةً في نفس الكتاب[٢].

ولا تعرف الدنيا رجلاً اسمه حسن بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ! وإنّما هو الحسن بن الحسن المعروف بالحسن المثنّى، وابنه عبدالله.

وفي كتابه (التوسّل والوسيلة) ينقل هذا الإسناد: عن روح بن فرج، عن عبدالله بن الحسين، عن أُمّه فاطمة بنت الحسين ! ويؤكّد ذلك فيقول: هكذا في المصدر عبدالله بن الحسين عن أُمّه فاطمة بنت الحسين[٣].

وفي هذه الأسانيد جميعاً يحتجّ لصحّة مذهبه في الصدّ عن زيارة قبر الرسول ﷺ.

ـ وأخطر من هذا كلّه ما عُرف به من تسرّع في تضعيف الأحاديث الصحاح والحسان التي تخالف مذهبه ! وقد سجّل عليه هذا العيب ابن حجر العسقلاني[٤]، بل هو معروف عند أهل الحديث، حتّى أنّ أحداً منهم لم يعتمد تضعيف ابن تيميّة للأحاديث[٥].

---

(١) راجع: تاريخ بغداد ١١: ٤٦ ـ ٥٠، والمستدرك ٣: ١٢٦.

(٢) كتاب الزيارة: المسألة الثانية: ٢٣، المسأله الرابعة: ٣٤.

(٣) التوسّل والوسيلة: ١٠٤.

(٤) لسان الميزان ٦: ٣١٩.

(٥) انظر ناصر الدين الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ٤: ٣٤٤، ٤٠٠.

كيف تعامل مع الحديث:

لابن تيميّة مع الحديث النبويّ الشريف مجازفات جريئة لم يجرؤ أحد قبله على مثلها، وله طريقة في إيهام القارئ لم يسبقه إليها أحد، وسوف لانصف ذلك نحن بعبارتنا، ففي عباراته وحدها ما يعطيك صورةً مضيئةً لأُسلوبه الفريد، كما تجنّبنا أن نطلق أحكامنا على شيء ممّا سنعرضه، فالقارئ الحرّ قادرٌ على ذلك.

وبين أيدينا شواهد كثيرة أرجأناها إلى مواضعها من هذا الكتاب، لنكتفي في هذا الموضع بالأُنموذج الآتي:

حين سئل ابن تيميّة عن التفاسير، أيّها أقرب إلى الكتاب والسُنّة؟

أجاب: أمّا التفاسير التي في أيدي الناس فأصحّها تفسير محمّد بن جرير الطبري، فإنّه يذكر مقالات السّلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتّهمين كمُقاتل والكلبي[١].

وهو في نفس الكتاب (مقدّمة في أُصول التفسير) قد ذكر قبل ذلك جملةً من الأحاديث قال: إنّها من الأحاديث الموضوعة في التفسير[٢]، فعدّ منها ما روي في قوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَومٍ هَادٍ ﴾[٣] «أنّه عليّ» قال: هو موضوع.

قال ذلك من غير أن يلتفت إلى أنّ هذا الحديث قد أخرجه الطبري في تفسيره[٤]، الذي: يذكر مقالات السّلَف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا

---

(١) مقدّمة في أُصول التفسير: ٥١، التفسير الكبير ٢: ٢٥٥.

(٢) مقدّمة في أُصول التفسير: ٣١.

(٣) سورة الرعد: ٧.

(٤) تفسير الطبري ١٣: ٧٢.

ينقل عن المتّهمين !.

ـ قال ابن تيميّة أيضاً: ومثله: ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾[(١)] «أُذُنكَ يا عليّ».

وهذا الحديث أيضاً اعتمده الطبري في تفسيره وأخرجه من ثلاثة طرق[(٢)]!.

ـ وقال: وحديث عليّ في تصدّقه بخاتمه في الصلاة، فإنّه موضوع باتّفاق أهل العلم.

وأعاد ذكره في موضعٍ آخر من نفس الكتاب، فقال: إنّه موضوع بإجماع أهل العلم[(٣)].

ولم يلتفت إلى أنّ الطبري قد أخرج هذا الحديث بالأسانيد الثابتة من خمسة طرق عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ ويُؤْتُونَ الزَّكوٰةَ وَهُم رٰكِعُون ﴾[(٤)].

وممّن أخرج هذا الحديث سوى الطبري: الواحدي، والثعلبي، والزمخشري، والرازي، وأبو السعود، والنسفي، والبيضاوي، والبغوي، والسيوطي، والشوكاني، والآلوسي[(٥)].

---

(١) سورة الحاقّة: ١٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٩: ٣٥ـ٣٦.

(٣) مقدّمة في أصول التفسير: ٣١، ٣٦. وانظر: التفسير الكبير ٢: ٢٢٠، ٢٢٦.

(٤) تفسير الطبري ٦: ١٨٦، والآية من سورة المائدة: ٥٥.

(٥) أسباب النزول للواحدي: ١١٤، التفسير الكبير للثعلبي ـ مخطوط، الكشّاف للزمخشري ١: ٦٤٩، تفسير الرازي ١٢: ٢٦، تفسير أبي السعود ٢: ٥٢، تفسير النسفي ١: ٤٢٠، تفسير البيضاوي ١: ٢٧٢، معالم التنزيل للبغوي ٢: ٢٧٢، لباب النقول للسيوطي: ٩٣، فتح القدير للشوكاني ٢: ٥٣، روح المعاني للآلوسي ٦: ١٦٧، ١٦٩.

وقال الشوكاني بعد ذكر الحديث في سبب نزول الآية: أخرج الخطيب في (المتّفق والمفترق) عن ابن عبّاس نزولها في عليّ، وأخرج عبدالرزّاق وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردُويه عن ابن عبّاس، قال: نزلت في عليّ ابن أبي طالب. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب نحوه.

وأمّا الآلوسي فقال: غالب الأخباريّين على أنّ هذه الآية نزلت في عليّ كرّم اللهُ وجهه، ثمّ ذكر طرقاً للحديث.

وأخرج الحديث أيضاً: أحمد بن حنبل في (فضائل الصحابة) وابن الأثير الجزري في (جامع الأُصول)[1]، وكثير غيرهم، ولا تجد عند هؤلاء وغيرهم ذكراً لطعن في هذا الحديث من قريب أو بعيد.

إذا قرأت هذا كلّه فارجع إلى قول ابن تيميّة: (اتّفاق أهل العلم) و (إجماع أهل العلم)، لترى من هم أهل العلم أُولئك !.

لا تعجب إن قلتُ لك: لا أحد ! وإنّما هي طريقته في الاستحواذ على مستمعيه وقرّائه !.

أمّا إذا واجهه شخصٌ بمصادر الحديث الذي ينكره وأوقفه عليه حتّى يقرأه بنفسه، فكيف ترى سيكون موقفه ؟!.

لا أنا ولا أنت نستعجل الظنون، بل سيُجيبنا أقرب الناس إليه وأعزّهم عليه والذي تولّى نشر أفكاره من بعده، تلميذه ورفيقه ابن القيّم الجوزية، الذي يصف لنا مشهداً وقف عليه، فقال معجباً بفطنة شيخه وسرعة بديهته: بحث الشيخ مع قوم فاحتجّوا عليه بحديثٍ أنكره، فلمّا أظهروا له النقل ووقف عليه، ألقى المجلّد من يده

---

(١) فضائل الصحابة ٢: ٦٧٨ / ١١٥٨، جامع الأُصول ٩: ٤٧٨ / ٦٥٠٣.

غيظاً! فقالوا له: ما أنت إلّا جريء، ترمي المجلّد من يدك وهو كتاب علم ؟!

فقال سريعاً: أيّما خير أنا أو موسى ؟ وأيّما خير هذا الكتاب أو ألواح الجوهر؟ إنّ موسى لمّا غضب ألق الألواح من يده[١] !

عجبوا لفرط ذكائه الذي أخرجه من وقع الهزيمة أمام خصومه، ونسوا أنّ الذكاء حقّ الذكاء في الرجوع إلى الحقّ بعد معرفته، ولطالما مجّد ابن تيميّة رجالاً من السَّلَف يُفتي أحدهم في مسألة لم يبلغه فيها نقلٌ عن النبيّ ﷺ، فيُتبع فتواه بقوله: هذا ما بلغه اجتهادي، فإذا وصلكم حديث عن النبيّ في هذا فهو مذهبي، فدعوا قولي وخذوا بالحديث[٢]. فأين هذا من ذاك ؟!

مع الفلسفة:

ونشأ ابن تيميّة في أجواء تلعن الفلسفة والفلاسفة وتنسبهم إلى الضلال، وكان من عُرِفَ بالفلسفة يؤذىَ ويعذّب حتّىٰ يدعها أو يُقتل، وكثرت في ذلك فتاوىٰ العلماء. ومن أشهرها فتوىٰ تقيّ الدين ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) وقد سُئل عن المنطق والفلسفة، فقال: الفلسفةُ أُسُّ السَّفَه والانحلال، ومادّة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شَرّ هؤلاء المياشيم، ويعرض من ظَهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام[٣].

ووجد ابن تيميّة أنّ هذه الأجواء والمواقف تُناسب عقيدة إمامه أحمد بن حنبل، الذي كان ينهىٰ عن الفلسفة والكلام ويحذّر من مجالسة المتكلّمين، فيقول: لا

(١) الوافي بالوفيات ٧: ١٧.

(٢) انظر كتابه: رفع الملام عن الأئمّة الأعلام: ١٣.

(٣) فتاوىٰ ابن الصلاح: ٣٤ ـ ٣٥ ـ القاهرة، سنة ١٣٤٨، نشر منير الدمشقي.

تُجالسوا أهل الكلام وإن ذبُّوا عن السُنّة[١].

فاتّخذ ابن تيميّة لنفسه الموقف ذاته، فوافق مذهبه الحنبلي، ووافق الرأي السائد في عصره، فهاجم الفلاسفة وعقائدهم، وطعن على المتكلّمين في كلّ مناسبة يجدها، وصنّف في ذلك كتباً مفردةً، منها: (الردّ على الفلاسفة) و (نقض المنطق) وغيرها.

غير أنّه أقذعَ في وصف الفلاسفة المسلمين ـ كالرازي وابن سينا والغزالي وغيرهم ـ وبالغ في النيل منهم، فوصفهم بأنّهم (أفراخ الفلاسفة، وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين وضلّال اليهود والنصارى والصابئين)[٢] !!

الدينُ والدولة:

ميدانٌ له فيه غيرُ كلمةٍ وغيرُ جولة..

أجال الفكرة فيه مرّة، فأعطى الوصف السليم لأسباب هذا الشرخ الحاصل بين الدين والدولة، فقال في سياسته الشرعيّة:

لمّا غَلَب على كثير من ولاة الأُمور إرادة المالِ والشرف، وصاروا بمعزلٍ عن حقيقة الإيمان في ولايتهم، رأى كثير من الناس[٣] أنّ الإمارة تُنافي الإيمان وكمال الدين.

ثمّ منهم مَن غلب الدين، وأعرض عمّا لا يتمّ الدين إلّا به من ذلك، ومنهم

---

(١) العقيدة للإمام أحمد بن حنبل: ٣٥.

(٢) (الحموية الكبرى) ـ العقود الدريّة: ٧٥، ٨١.

(٣) كانت العبارة مضطربة في الأصل، أصلحناها ليستقيم المعنى.

من رأى حاجته إلى ذلك، فأخذه معرضاً عن الدين لاعتقاده أنّه منافٍ لذلك[١]، وصار الدين عنده في محلّ الرحمة والذلّ، لا في محلّ العلوّ والعِزّ.

وكذلك لمّا غلب على كثير من أهل الدين العجز عن تكميل الدين، والجزع لما قد يصيبهم في إقامته من البلاء، استضعف طريقتهم واستذلّها من رأىٰ أنّهُ لا تتقوّم مصلحته ومصلحة غيره بها.

وهاتان السبيلان فاسدتان: سبيل من انتسب إلى الدين ولم يُكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال.

وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب ولم يقصد بذلك إقامة الدين.

هما سبيل المغضوب عليهم والضالّين، الأُولى للضالّين: النصارى، والثانية للمغضوب عليهم: اليهود.

وإنّما الصراط المستقيم، صراط الّذين أنعم الله عليهم، ومن سلك سبيلهم: أنّ قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر. فعلى كلّ أحدٍ الاجتهادُ في اتّفاق القرآن والحديد لله تعالى[٢].

تشخيص موفّق، وإن كان مجملاً ينقصه شيء من التفصيل والتمثيل، إلّا أنّه أعطى جواباً صحيحاً لهذه الظاهرة، ظاهرة الفصل بين الدين والدولة.

غير أنّ هذه المقولة اليتيمة بقيت عجماء لا تنطق..

وبقي للسلطان الحديدُ وحده، يقبضه بكلتي يديه، حتّى غَلَبت قعقعتُهُ نبرات

---

(١) العبارة إلى هنا فيها من الاضطراب وضعف السبك ما لا يخفى، ونرجو أن تكون واضحة المطلب.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيّة: ١٤١.

صبيان وشيوخ يُرتّلون القرآن عند الفجر وقُبيل الغروب في زوايا مخنوقة هنا وهناك!

فأوسعُ سوحِ القرآن: أفنيةُ المساجد وزوايا تعليم الصبيان، وساعةٌ في إذاعة تتفضّلُ على المحزون ليستريح على نبرات من يهوى من القرّاء!!

وإنّما تمسّك أصحابه بالأمس، وأنصاره من بعد، وحتّى يومنا هذا، بمقولته الأُخرى التي جاءت على نقيض الأُولى!

كلمة قصيرة المبنىٰ، خطيرة المعنى، يقول فيها: (أنا رجل ملّة، لا رجل دولة)[1]!

ليحقّق لذلك الشرخ اللاشرعي أتمَّ معانيه، فللملّة رجالها، وللدولة رجالها، وضاع اتّفاق القرآن والحديد، وذهب أدراج الرياح!

والذي زاد في تحقيق هذا المعنى أنّ سيرته كلّها قد جاءت وفاقاً لمقولته الأخيرة، فهو لا يرى مخالفة السلطان والخروج عليه إلّا شرّاً لا خير فيه، مهما كان السلطان متمادياً في الظلم والفجور، بلى، وإن كان ذلك السلطان يزيد بن معاوية، وكان الناهض بوجهه والرادّ عليه سيّد شباب أهل الجنّة الحسين بن عليٍّ وابن فاطمة الزهراء البتول عليهما السلام![2].

موقفٌ داحضٌ محجوج بقوله الأوّل، بعد أن كان محجوجاً بالكتاب الحكيم الذي ما أُنزل إلّا ليحكم فيكون دستوراً للحياة ومنهاجاً، ومحجوجاً بسيرة المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم الذي ما كان إلّا رجل دين ودولة، ومحجوجاً بإجماع الصحابة علىٰ

---

(١) الحسنة والسيئة «ابن تيميّة»: ٣، بتحقيق محمّد جميل أحمد غازي.

(٢) منهاج السُنّة «ابن تيميّة» ٢: ٢٤١.

أن يقدّموا عليهم رجلاً واحداً هو رجل الدين والدولة معاً.

ومع هذا فهو المنتخب في منهاجه كما سيأتي في غير موضع.

نزاعه مع الفِرَق والطوائف:

نزاع كثير، وفِتَنٌ دائرة بين الفرق الإسلامية المختلفة، والطوائف المنحرفة، والديانات الأُخرى التي كانت تعيش جميعاً في تلك البلاد وعلى درجات متفاوتة في الضعف والقوّة، وفي القرب أو البعد من بعضها[١].

فلمّا فتح ابن تيميّة عينيه على هذا المُعترك الهائج، أقحم نفسه فيه أيّما إقحام، واندفع في أعماقه بلا تردّد ولا توان، حتّى ركز لواءه في مركز الحَلَبَة، يوجّه سهامه إلى كلّ من خالفه في رأيٍ أو فتوى أو عقيدة أو موقف، بلا تمييز، أفراداً كانوا أو مذاهب وطوائف، ليجعلَ من نفسه دائرةً جديدةً في ذلك النزاع، ولكنّه كان على الصعيد السياسي الدائرة الأقرب إلى حماية السلطان دائماً.

فعندما تكلّم في الصفات، وبالغ في التجسيم بعبارة لم يجرؤ عليها أحد قبله، وقام عليه علماء دمشق ونادوا ببطلان كلامه وشكوه إلى القاضي، فأبى أن يحضر إلى القضاء، تدخّل أمير دمشق، فانتصر لابن تيميّة، وأرسل في طلب من نازعه في عقيدته، فاختفى منهم جماعة، وقبض على آخرين فضربهم، فسكت الباقون، وتمهّدت الأُمور وسكنت الأحوال[٢].

وكان من بين الفقهاء يُقيم الحدود بنفسه، ويُعَزِّر ويحلق رؤوس الصبيان،

---

(١) راجع (عصره الديني) في هذا الكتاب.

(٢) البداية والنهاية ١٤: ٥.

ويعرك آذانهم، وخالفه في ذلك بعضهم، فردّ عليهم، وسكنت الأُمور لصالحه[١].

وإذا أشار إلى السلطان أو نائبه بعزل قاضٍ أو خطيب أو شيخ في دار الحديث أو في ناحية من النواحي، نُفّذ طلبه على الفور وبلا ترديد[٢].

ولمّا أفتى بكفر النصيريّة ووجوب قتلهم جهّز له نائب السلطنة جيشاً قاده بنفسه وصحبه ابن تيميّة، فأبادوا خلقاً كثيراً منهم، ووطئوا أراضٍ كثيرة من بلادهم، وكان ذلك في سنة ٧٠٥هـ[٣]. كما صحب السلطان فيمن صحبه من المشايخ ورجال الدين في وقعة شقحب مع التتار سنة ٧٠٢هـ.

وأشدّ ميادين صراعه كان مع الصوفيّة، الأقوياء، نُظرائه في الحُظوة عند السلطان، صراعٍ ملأ حياته وشغل أكثر من نصف كتاباته، فغير كتبه العديدة التي ألّفها ضدّهم، كان لا ينسى أن يتناولهم في شتّى كتبه الأُخرى، وربّما تكلّف كثيراً في إيجاد مناسبة ينفذ من خلالها إلى ما يشفي غليله في النيل منهم والحطّ من معتقداتهم.

فكان تشديده عليهم ومبالغته في ذلك سبباً في أوّل مجلس قضاء فِعْليّ يتعرّض له ابن تيميّة في جُمادَى الأُولى من سنة ٧٠٥ هـ بمحضر نائب السلطنة بدمشق، فأحضر النائب جمعاً من الأُمراء والمشايخ والقضاة فأداروا البحث والمناظرة، وتعدّدت المجالس، فانتهت بخلاف حادّ شجر بين المشايخ، عَزَلَ على أثره قاضي القضاة الشافعي نفسه من القضاء، وتشنّجت الأجواء، حتّى ورد كتاب السلطان الناصر من مصر في شوّال من تلك السنة، كتب فيه: إنّا كنّا قد سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة، وقد بَلَغَنا ما عُقد له من المجالس، وأنّه على

---

(١) البداية والنهاية ١٤: ٢٠، ٣٦، وبعضه في الوافي بالوفيات ٧: ١٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٤: ٣٠، الفقيه المعذّب: ١٤٢.

(٣) البداية والنهاية ١٤: ٣٧ ـ ٣٨، ابن الوردي ٢: ٣٦٣.

مذهب السَلَف، وإنّما أردنا بذلك براءة ساحته ممّا نُسب إليه ![1].

عَقِبَ ذلك استيلاء بيبرس الجاشنكير على أُمور السلطنة، وله شيخٌ صديق من الصوفيّة يدعى نصر المنبجي، وهو الذي رماه ابن تيميّة بالضلال والجحود لأنّه يرىٰ رأي محيي الدين بن عربي، فتغيّرت الأُمور مع ابن تيميّة، واستدعي إلى مصر في نفس السنة، وتمسّك به النائب في دمشق وقال له: أنا أُكاتب السلطان في ذلك وأُصلح القضايا. ولكن الشيخ توجّه إلى مصر، وإلى مجلس قضاء يرأسه القاضي المالكي، وبينه وبين الشيخ ابن تيميّة خصومة شديدة بسبب اعتقاد ابن تيميّة في الصفات الذي عدّه المالكية تشبيهاً وتجسيماً محضاً، فدار بينهما ما أغضب القاضي فأصدر مرسوماً بسجنه فأمضى في السجن نحو سنتين، ولكنّه لم يَعْدَم الناصر خلالهما، بل كان سلّار نائب السلطان أقوى نصيرٍ له، وسّع عليه في السجن وأخدمه بمن يشاء من رفقته، وأقنع القضاة والمشايخ بإخراجه من السجن ولكن الشيخ ابن تيميّة كان يصرّ على البقاء في السجن، حتّىٰ أخرجه مهنّا بن عيسىٍ ملك العرب وأخذه إلى بيت سلّار ليمضي عنده أيّاماً ثمّ يتحوّل إلى الإسكندرية، ويستقرّ فيها حتّى عودة السلطان الناصر إلى السلطنة.

ولمّا دخل السلطان مصرَ لم يكن له همٌّ إلّا لقاء الشيخ ابن تيميّة، فوجّه إليه بعد وصوله بيومٍ أو يومين ! فقدم الشيخ تقيّ الدين إلى السلطان فأكرمه وتلقّاه وتعانقا، ثمّ انفردا ساعةً يتحدّثان ثمّ عادا ويد الشيخ بيد السلطان ! فجلس السلطان، وعن يمينه القاضي، وعن يساره الوزير، وجلس الشيخ بين يدي السلطان على طرف طرّاحته[2].

واستوسقت الأحوال للشيخ في ظلّ السلطان، الصديق الحميم.

---

(١) البداية والنهاية ١٤: ٣٩.

(٢) البداية والنهاية ١٤: ٥٥.

ولم يذكر عنه أنّه أزعج السلطان في أمرٍ يمسّه أو يمسّ سياسته من أمرٍ بمعروفٍ أو نهي عن منكر، مع شيوع الفحشاء، واتّساع أسواق الخمر والحشيشة برعاية السلطان، وتفشّي الظلم والاستبداد. بل كان مذهبه: وجوب الطاعة للسلطان، وحرمة الخروج عليه وإن كان ظالماً، لأنّ الشرّ المتولّد عن ذلك أكثر من النفع والخير!

ويقول: إنّ بعض السَّلَف كانوا يقولون: لو كان لنا دعوةٌ مجابة لدعونا بها للسلطان، برّاً كان أو فاجراً[1]!

فغلبت تلك الفتاوىٰ عندهم حتّى قوله تعالىٰ: ﴿ *وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الّذِين ظَلَمُوا فَتمسَّكُمُ النَّارُ* ﴾[2]!

تلك الفتاوىٰ التي ما نُسجت أوّل مرّةٍ إلّا لتثبيت حكم الأُمويّين الذي لم يتحقّق إلّا بالخروج على الإمام البرّ التقيّ عليّ بن أبي طالب ﷺ، فلا بدّ من فتوى توطّد أركانهم!

وأيّ فتوى أتقن من هذه! فالطاعة ليست للبرّ وحده، بل للفاجر أيضاً علىٰ حدٍ سواء، بعدما أيقنوا أنّهم الفُجّار.

تلك الفتاوى التي قادتنا إلى حدّ من الهوان، تُباع فيه أوطاننا، وتُمتهن كرامتنا، ويذبح أبناؤنا على مرأىً ومسمع منّا، في ظلّ سلاطين أذلّ من العبيد، يتسابقون في الركوع لأدنى همسةٍ يهمس بها أسيادهم من أعداء الدين والوطن وأهل الوطن، وما زال السلطان هو السُلطان، يقول الشهادتين!! برّاً كان أو

---

(١) الفقيه المعذّب ابن تيميّة «عبدالرحمن الشرقاوي»: ٨٤، ١٥٤.

(٢) سورة هود ١١: ١١٣.

فاجراً، وما زالت الفتوى عَينها ديناً يُتعبّد به، لا لشيء إلّا لأنّ المفتي يخشى أن يُثقِلَ كاهِلَهُ ثَمَنُ الحريّة التي لا يعرف لها معنى! «فالشرّ المتولّد عن ذلك أكثر من النفع والخير» !!

وأمّا مدار نزاعه مع الصوفيّة في عقائدهم فقد أفردنا لهُ فصلاً مستقلّاً لأنّه من أهمّ ما اشتغل به ابن تيميّة، ومن أهمّ ما عُرف به، ولأنّ فيه من المزايا ما لم نجد أحداً قد كشف النقاب عنها.

وكان في الوقت ذاته يواجه العقائد الأُخرى، كالجَهْمِيّة[1]، والمعتزلة، والجبرية، والأشعرية[2]، وله في ذلك مؤلّفات، ومقاطع كثيرة موزّعة في كتبه المختلفة، وأكثر ما كان يدور عليه خلافه معهم هو موضوع صفات الله تعالى الذي كان من مواضيعه البارزة في حياته الفكرية.

وكان للعقيدة الأشعرية وحدها أنصار من أهل السُنّة ذبّوا عن عقيدتهم وأنكروا عليه مساسه بها.

وله بعد ذلك مع الشيعة مشوار يُثير كثيراً من علامات الاستفهام، وأضعافها من علامات التعجّب..

صنّف كتاباً أسماه (جواز قتال الرافضة)[3]، فمن هم الرافضة عنده، وكيف عرّف الشيعة، وما هي طريقته في الاستدلال على دعواه في ضلالهم وجواز قتالهم؟ وتفاصيل أُخرى سنقرؤها في وقفةٍ أعددناها مع أهمّ كتاب له ضدّ الشيعة وهو

---

(١) هم أصحاب جَهْم بن صفوان، من الجبرية الخالصة، ووافقوا المعتزلة في نفي الصفات الأزلية.

(٢) أصحاب أبي الحسن الأشعري، المتوفّىٰ سنة ٣٣٠هـ.

(٣) الوافي بالوفيات ٧: ٢٦.

(منهاج السُنّة) كتابه الذي استفرغ فيه جهوده، حتّى كأنّه يريد أن لا يدع ممّا في جُعبته شيئاً إلّا صبّه فيه.

أُسلوبه في الحوار:

لم يقصُر ابن تيميّة نزاعه على الفرق والمذاهب، بل نازع الأعلام بأعيانهم، فلم يترك مخالفاً له إلّا وطعن عليه في مجالسه أو في مؤلّفاته.

كانت معاركه تهدأ في بعض الأحايين، ولكنّها لم تنقطع عنه قطّ، وهي حتّى إذا توقّفت أثارها هو بنفسه من خلال رأي يخالف به ما أَلِفَه الناس، أو حدّةٍ يصدم بها أحد مجادليه ![1].

ـ أفتى مرّةً في مسألة، وأفتى فقيه آخر بخلافه، فردّ عليه ابن تيميّة قائلاً: مَن قال هذا فهو كالحمار الذي في داره !.

فأنكر عليه حتّى مؤيّدوه هذا الأُسلوب في الجدل، وهذه الحدّة التي تصدم الخُصوم[2].

ـ وكتب بخطّه يصف مجلساً له مع الفقهاء عقده أمير دمشق بأمر من السلطان، فقال: لمّا انتهى كلامي إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن المعتزلة، فقلتُ: كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملّي، وهو أوّل اختلاف حدث في الملّة، هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقال الخوارج: إنّه كافر. وقالت الجماعة: إنّه مؤمن، فقالت طائفة: نقول هو فاسق، لا كافر ولا مؤمن، ننزله منزلة بين المنزلتين،

---

(١) عبدالرحمن الشرقاوي (الفقيه المعذّب): ٣.
(٢) عبدالرحمن الشرقاوي (الفقيه المعذّب): ١٥٢.

واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه فسمّوا معتزلة.

قال: فقال الشيخ الكبير في جلبة وردّ: ليس كما قلت، ولكن أوّل مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام، وسمّي المتكلّمون متكلّمين لأجل تكلّمهم في ذلك.

قال: فغضبتُ عليه وقلتُ: أخطأتَ، وهذا كذب مخالف للإجماع. وقلتُ له: لا أدب ولا فضيلة! لا تأدّبت معي في الخطاب، ولا أصبتَ في الجواب!(١).

ـ وكان مُغرىً بسبّ محيي الدين بن عربي، والعفيف التلّمساني وابن سبعين وغيرهم من شيوخ الصوفيّة.

وربّما صرّح بسبّ أبي حامد الغزالي، وكان يقول فيه ساخراً: هو قلاووز الفلاسفة! وهي كلمة تركيّة تعني قائد، يقولها تهكّماً!

وربّما قالها في الإمام فخر الدين الرازي، وكان كثير الحطّ عليه.

وإذا ذكر علاّمة الشيعة الإماميّة ابن المُطهّر الحلّي، قال: ابن المنجّس!

وإذا ذكر نجم الدين الكاتبي المعروف بدَبيران ـ بفتح الدال ـ صاحب التصانيف البديعة في المنطق، لا يقول إلّا: دُبَيران ـ بضمّه الدال ـ!(٢).

وهو مع كلّ ذلك يحتجّ على من سبّ فاجراً بعينه، بأنّ ذلك خروج على السُنّة الثابتة عن النبيّ ﷺ! مثل قوله ﷺ: «لَعْنُ المسلم كقَتْلِهِ».

وقوله ﷺ: «سِبابُ المُسلم فسوق، وقتاله كفر» متّفق عليهما.

---

(١) العقود الدريّة: ٢٣٥.

(٢) ذكر ذلك كلّه الصفدي من سماعه عنه في مجالسه: (الوافي بالوفيات) ٧: ١٨ ـ ١٩.

وقـوله ﷺ: «ليس المـؤمنُ بـالطعّان، ولا اللـعّان، ولا الفـاحش، ولا البذيء» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن[(١)].

هذه، وأحاديث أُخرى انتصر بها لا للمسلم البريء، بل للفاجر! فلا يجوز الطعن على (الفاجر) أو النيل منه بكلام بذيء!

مع اليزيديّة:

أُولئك أتباع الشيخ عديّ بن مسافر الأُموي، الّذين غَلَو فيه وفي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، كتب إليهم الشيخ رسالةً يصحّ وصفها بأنّها رسالة الناصح المشفق، والصديق المحبّ، عرفت بـ(الوصيّة الكبرىٰ) استهلّها بقوله:

من أحمد بن تيميّة إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلىٰ السُنّة والجماعة، والمنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة أبي البركات عديّ بن مسافر الأُمويّ ﵀، ومن نحا نحوهم، وفّقهم الله لسلوك سبيله، وأعانهم على طاعته وطاعة رسوله ﷺ وجعلهم معتصمين بحبله المتين، مهتدين لصراط الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وجنّبهم طريق أهل الضـلال والاعوجاج، الخارجين عمّا بعث الله به رسوله ﷺ من الشرعة والمـنهاج، حـتّى يكونوا ممّن أعظم الله عليهم المنّة، بمتابعة الكتب والسُنّة، سلامٌ عليكم ورحمـة الله وبركاته[(٢)].

وفي الأثناء يحذّر من الغلوّ كلّه سواء كان غلوّاً بالشيخ عديّ أو بعليّ بن أبي طالب.

---

(١) ذكر ذلك كلّه مع أحاديث أُخرى في هذا الباب في كتابه (رفع الملام عن الأئمّة الأعلام): ٦٥.
(٢) الوصية الكبرى: ٥.

ثمّ يأتي إلى ذكر يزيد فيعذر اليزيديّة في غلوّهم بأنّ مبدأ ذلك كان من الرافضة الّذين كانوا يسبّونَ يزيد، وإلاّ فلم يكن أحد يتكلّم في يزيد بن معاوية، ولا كان الكلام فيه من الدين، فسمع بذلك قوم ممّن كان يتسنّن، فاعتقد أنّ يزيد كان من كبار الصالحين وأئمّة الهدى ![1].

فصار الغلاة فيه على طرفي نقيض، هؤلاء يقولون: إنّه كافر زنديق، وإنّه قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وقتل الأنصار وأبناءَهم بالحَرَّة ليأخذ بثأر أهل بيته الّذين قُتلوا كفّاراً ـ يعني في بدر وأُحد ـ ويذكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر وإظهار الفواحش أشياء[2].

والحقّ أنّ الشيخ لم يكن موضوعيّاً هنا، فالقول الذي ذكره هنا وعدّه تطرّفاً وغلوّاً هو قول أئمّة المسلمين وصالحيهم، كأئمّة أهل البيت وكبار التابعين، بل والإمام أحمد بن حنبل أيضاً وكافّة أصحاب التاريخ كما سنذكره مبسوطاً في فصل (نهضة الحسين واستشهاده).

قال: وأقوام يعتقدون أنّه كان إماماً عادلاً هادياً مهديّاً، وأنّه كان من الصحابة، أو من أكابر الصحابة، ومن أولياء الله تعالى، وربّما اعتقد بعضهم أنّهُ من الأنبياء، ويقولون: من وقف في يزيد[3] وقفه الله على نار جهنّم[4].

ثمّ كافح عن يزيد وذبّ عنه كثيراً[5]، كما ذكر بعض حقوق أهل البيت عليهم السلام

---

(١) الوصية الكبرى: ٥١.
(٢) الوصية الكبرى: ٥١.
(٣) أي لم يعتقد بنبوّته.
(٤) الوصية الكبرى: ٥٢.
(٥) يأتي في فصل (نهضة الحسين واستشهاده).

ووجوب رعايتها، كحقّهم في الخمس، والفَيء، ووجوب حبّهم والصلاة عليهم[١].

كما ذكر الكثير من أحكام الدين وفروعه وضروراته، ثمّ اختتم بقوله: نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإيّاكم من الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنّها رسالة في غاية اللين والهدوء مع طائفة من الغلاة، أضافت إلى غلوّها تعطيل الكثير من فرائض الدين وضروراته!

رسالة تضمّنت شهادته لهم بأنّهم ما زالوا على الإسلام!!

إنّه خطابٌ غريب لا يشبه في شيء من نبراته خطاباته للفرق الإسلامية الكبرىٰ، أو علماء المسلمين وصلحائهم، ناهيك عن أهل البدع والضلال والإلحاد!!.

مع النصارى:

كتب في الردّ على النصارى كتاباً وَسَمه بـ(الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، وهو كتاب كبير، ينتظم في سلسلة الصراع الإسلامي المسيحي علىٰ الصعيد الفكري والعقائدي. غير أنّه جاء على خلاف طبع مؤلّفه وعلى غير عادته في مواجهة خصومه، حتّى وصفه بعضهم بأنّه «أهدأ ما كتبه ابن تيميّة في الجدال»[٢].

وقد تناول في هذا الكتاب النصارى عقيدةً وتاريخاً، وكشف عن وجه الخطأ

---

(١) الوصية الكبرىٰ: ٤٩.

(٢) د. محمّد أبو زهرة: (ابن تيميّة: ٥١٩) وعنه أبو الحسن الندوي في (الحافظ ابن تيميّة: ٢٣٢). لكنّ رسالته إلى اليزيدية كانت أهدأ بكثير، وفي تسمية الرسالتين أوّل دليل على هذا.

في تفسيرهم لمصطلحات الشريعة المسيحيّة، كالأب، والابن، وروح القدس.

فرأى أنّ المراد بالأب هو الربّ، والابن هو المصطفى المحبوب، وروح القدس هو ما ينزله الله تعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيّدهم به[1].

ورأى أنّ هذه المعاني هي ظواهر الألفاظ، وأنّ ماذهب إليه النصارى تأويل بعيد لايدلّ عليه اللفظ[2].

وذكر الأناجيل الأربعة المعروفة وتاريخ تأليفها ودواعي تسرّب التحريف إليها، ثمّ تكلّم حول التحريف الواقع فيها وفي التوراة أيضاً، لكنّ كلامه هنا جاء مجملاً جداً، مفتقراً للتفصيل. فهو يرى أنّ التحريف قد حصل في بعض ألفاظها، ولكن لم يبيّن شيئاً عن حجم هذا البعض، ولاعن موضوعاته، فقال: «والصواب الذي عليه الجمهور أنّه بُدّل بعض ألفاظها»[3].

ولكنّه في موضع آخر يومئ إلى أنّ هذا البعض قليل، وأنّ التحريف الكثير كان في معاني الألفاظ، لافي الألفاظ نفسها، فيقول: «جمهور المسلمين يقولون إنّ بعض ألفاظها بدّل، كما قد بدّل كثير من معانيها»[4]. وهذا خلاف ما أثبته أهل التحقيق في هذا الباب من أنّ هذه الأناجيل والتوراة لم تحتفظ إلّا بالقليل من نصوص الشريعة بألفاظها[5].

ولكنّه في موضع آخر نصر الرأي القائل بوجود نسخ صحيحة لم يطرأ عليها

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ٣: ١٨١.

(٢) الجواب الصحيح ٣: ١٥٥.

(٣) الجواب الصحيح ٢: ٤.

(٤) الجواب الصحيح ٢: ٣٧٣، (الحافظ أحمد بن تيميّة) لأبي الحسن الندوي: ٢٣١ ـ ٢٤٠.

(٥) انظر (الهدى إلى دين المصطفى) و (الرحلة المدرسية) لمحمّد جواد البلاغي.

التحريف ألبتّة، قال: والصحيح هو أنّ في الأرض نسخاً صحيحة بقيت إلى عهد النبيّ ﷺ، ونسخاً كثيرة محرّفة[١].

وحين لا تجد عنده ذكراً للإنجيل الخامس، إنجيل برنابا، فهو معذور في ذلك، فهذا الإنجيل أضاعه النصارى فخفي على العرب.

فمنذ سنة ٤٩٢ للميلاد أي قبل المبعث النبويّ الشريف بنحو مئة وعشرين عاماً ـ صدر أمر البابا جلاسيوس الأوّل بحظر هذا الكتاب ومصادرته، لما حمله من حقائق فاضحة لهذه الأناجيل المتداولة. وبقي مختفياً حتّى القرن الثامن عشر، حيث ظهرت له نسخة إيطالية لأوّل مرّة سنة ١٧٠٩م، ولم يعرف العرب ما فيه حتّى نقله إلى العربية الدكتور خليل سعادة سنة ١٩٠٨[٢].

وممّا احتفظ به هذا الإنجيل البشارة بنبيّنا الأكرم ﷺ كما وردت في القرآن الكريم، والأحكام والتعاليم السماوية التي نزل بها الإنجيل، وفيه ردٌّ على ما طرأ عليها من تحريف، ففي مقدّمته يقول: إنّ الله العظيم افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمةٍ عظيمة للتعليم والآيات التي اتّخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ! مبشّرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، ومجوّزين كلّ لحمٍ نجسٍ، الذي ضلّ في عدادهم أيضاً بولس، الذي لا أتكلّم عنه إلّا مع الأسى ![٣].

وفي آخره يقول: إنّ فريقاً من الأشرار المدّعين أنّهم تلاميذ بشّروا بأنّ المسيح مات ولم يقم، وآخرين بشّروا بأنّه مات بالحقيقة ثمّ قام، وآخرين بشّروا

(١) الفرقان بين الحقّ والباطل: ٧٣.
(٢) الرحلة المدرسية: ٣٤٧.
(٣) الرحلة المدرسية: ٣٤٩، نظرات في إنجيل برنابا: ٥٢.

ولا يزالون يبشّرون بأنّ يسوع هو ابن الله ![(١)].

وينقل قول المسيح ﷺ: «إنّي أشهد أمام السماء، وأُشهد كلّ ساكنٍ على الأرض أنّي بريء من كلّ ما قال الناس عنّي من أنّي أعظمُ من بَشَر، لأنّي بشرٌ مولودٌ من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيشُ كسائر البشر، عُرضةٌ للشقاء العامّ»[(٢)].

وأمّا عن نبيّنا الأعظم ﷺ فإنّ برنابا يذكره باسمه الصريح وباسم مَسِيًّا، ورسول الله في عدّة مواضع، منها:

قول المسيح ﷺ: «إنّ الآيات التي تظهر على يديَّ تُظهر أنّي أتكلّم بما يريدُ الله، ولستُ أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه، لأنّي لستُ أهلاً لأن أحلّ رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذي يسمّونه مَسِيًّاً الذي خُلق قبلي وسيأتي بعدي بكلام الحقّ، ولا يكون لدينه نهاية»[(٣)].

وقوله ﷺ: «وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون: يا محمّد، أين وعدك لنا أنّ من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد؟ فيعود حينئذٍ ملاكُ الله إلى الجنّة، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقصّ عليه ما سمع. فحينئذٍ يكلّم الرسولُ الله ويقول: ربّي وإلهي اذكر وعدك لي ـ أنا عبدك ـ بأن لا يمكث الّذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد. فيُجيب الله: أُطلب ما تُريد يا خليلي لأنّي أهبك كلّ ما تطلب»[(٤)].

فلو كان هذا الإنجيل معروفاً عند المسلمين لكان مقدّماً عندهم في احتجاجهم

(١) الرحلة المدرسية: ٣٤٩.

(٢) نظرات في إنجيل برنابا: ٥٣، عن آخر الفصل الثالث والتسعين من إنجيل برنابا.

(٣) نظرات في إنجيل برنابا: ٥٥.

(٤) نظرات في إنجيل برنابا: ٨٨.

على النصارى بلا ريب، ونكان معتمداً أيضاً في الحديث عن وحدة الأديان وتقارب الشرائع السماوية.

ولو كان هذا الإنجيل حيّاً بين النصارى لتعارفت أُمم الأرض وتقاربت أكثر، ولاختفى كثير من الشرّ الدائر بينها.

الباب الثاني

ميادين عقائده الكبرى

الفصل الأول

الاجتِهَادُ والتَقلِيدُ

ما زال حديثاً قرار المستنصر العبّاسي بإيصاد أبواب الاجتهاد، ووقفها علىٰ المذاهب الأربعة! القرار الذي سرى سريعاً في أرواح المقلِّدين، فتعصّب له المشايخ والسواد وكأنّه السُنّة المحمّدية المفقودة، وقد عُثِر عليها توّاً!

فمنذُ قرئ ذلك النداء في المدرسة المستنصريّة سنة ٦٣١هـ صار الخروج عليه بدعة مستنكرة لا يُرجى لصاحبها مغفرة!.

من هنا عُدّ تمرُّد ابن تيميّة علىٰ هذا القرار أهمّ ما أُخذ عنه، وبه اشتهر.

وقد سبقه إلى هذا المضمار أعلامٌ كبار، منهم: أبو شامة المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ) وقبله كان عزّ الدين بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ) شيخ الشافعية وفقيههم في عصره، ومن قوله في ذلك:

من العجب أنّ الفقهاء المقلِّدين يقف أحدهم علىٰ ضَعف ما أخذ به إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلّده فيه، ويترك من شهد الكتابُ والسُنّة والأقيِسَةُ الصحيحةُ لمذهبهم، جموداً علىٰ تقليد إمامه!

بل يتحيّل لدفع ظاهر الكتاب والسُنّة ويتأوّلها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلَّده!

ومن قوله أيضاً: لم يزل الناس يسألون من اتّفق من العلماء من غير تقيّد بمذهب، ولا إنكار علىٰ أحد من السائلين، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصّبوها

من المقلّدين، فإنّ أحدهم يتّبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلّة، مقلّداً له فيما قال كأنّه نبيٌّ أُرسل! وهذا نأيٌ عن الحقّ وبعدٌ عن الصواب، لا يرضى به أحد من أُولي الألباب(١).

ومع هذا كان العزّ بن عبدالسلام أكثر هيبةً وجلالاً ونفوذاً من ابن تيميّة، فقد قال السيوطي في وصف الملك الظاهر وهو أقوى سلاطين المماليك: كان الظاهر بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عزّالدين بن عبدالسلام لا يستطيع أن يخرج من أمره، حتّى أنّه قال لمّا مات الشيخ: ما استقرّ ملكي إلى الآن(٢).

فالأَوْلى لدُعاة (السلفيّة) اليوم أن ينسبوا دعوتهم إلى العزّ بن عبدالسلام.

غير أنّ عاملَين رافقا دعوة ابن تيميّة كانا وراء اشتهارها واستمرارها:

أوّلهما: نضاله الدؤوب في نصرتها وتثبيتها.

وثانيهما: مواصلة تلميذه ورفيقه ابن القيّم الجوزية لهذه الدعوة وتوسيعها، فعاشت عهدين متّصلين متكاملين، مع كثرة ما دوّنا منها في مؤلّفاتهما الكثيرة.

وقد بنى نظريّته علىٰ ما ورد عن الإمامين مالك بن أنس إمام المالكيّة، وأحمد ابن حنبل، وغيرهما، من أنّ: كلّ أحد يؤخذ منه ويُترك، إلّا رسول الله ﷺ.

وأنّ ما جاء عن الفقهاء لايُقبل كلّه قبول التسليم، بل يُعرض علىٰ الكتاب والسُنّة، فما وافق الكتاب والسُنّة وجب قبوله، وما خالفهما كان مردوداً، وإن كان صاحبه مجتهداً من أولياء الله.

---

(١) د. يوسف القرضاوي (الصحوة الإسلامية: ١٢٢ ـ ١٢٣) عن حجّة الله البالغة للدهلوي.
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ٢: ٦٦، ونقله الشيخ أبو زهرة في كتابه (ابن تيميّة: ١٤٣).

فالواجب علىٰ الناس اتّباع ما بعث اللهُ به رسوله، وأمّا إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخَرين، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف، فيقول له: هذا خلاف الشرع[1].

لم يبطل التقليد:

إنّ القول المتقدّم لا يعني بطلان التقليد ـ كما يزعم أُولئك الّذين ينسبون أنفسهم اليوم إلى ابن تيميّة ـ فمن لم يمتلك أهلية الاجتهاد يقلّد من صحّ تقليده. ومَن عمل في مسائل الاجتهاد بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ذلك.

وإذا كان في المسألة قولان: فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلّا قلّد بعض العلماء الّذين يُعتمد عليهم في بيان أرجح القولين[2].

بل المحذور جدّاً أن يتعرّض للاجتهاد من لم تتوفّر فيه شرائطه: فالذي يُخاف على بعض العلماء أن يكون قاصراً في درك حكم مسألةٍ ما، فيقول مع عدم أسباب القول وإن كان له فيها نظر واجتهاد، أو يقصّر في الاستدلال فيقول قبل أن يبلغ النظر نهايته مع كونه متمسّكاً بحجّة، أو يغلب عليه عادةٌ أو غرضٌ يمنعه من استيفاء النظر لينظر في ما يعارض ما عنده، وإن كان لم يقُل إلّا بالاجتهاد والاستدلال، فإنّ الحدّ الذي يجب أن ينتهي إليه الاجتهاد قد لا ينضبط للمجتهد[3].

عُذر المُجتهد:

إنّ العلماء المقبولين عند الأُمّة متّفقون يقينيّاً علىٰ وجوب اتّباع

---

(١) الفرقان: ٥٧، ٦٢، رفع الملام عن الأئمّة الأعلام: ٤، الفتاوى الكبرى ٥: ١٢٤.

(٢) علم الحديث: ٣٥.

(٣) رفع الملام عن الأئمّة الأعلام: ٣٤.

الرسول ﷺ، ولكن إذا وُجِد لواحدٍ منهم قول قد جَاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه فلا بُدّ له من عذرٍ في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أنّ النبيّ ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أنّ ذلك الحكم منسوخ(١).

وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجّة في ترك العمل بالحديث لم نطّلع نحن عليها. وفي موارد الاجتهاد أمارات بعضها أقوى من بعض وعلى المجتهد أن يجتهد في طلب الأقوى، فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به، ولا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها. وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان هو الحكم، فقد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدلّ، وهذا هو الواقع في عامّة موارد الاجتهاد.

والمجتهد مع خطئه له أجر، وذلك لأجل اجتهاده، وخَطَؤُهُ مغفورٌ له(٢).

لكن نحن وإن جوّزنا هذا، فلا يجوز لنا أن نعدل عن قولٍ ظهرت حجّته بحديثٍ صحيح وافقه طائفة من أهل العلم، إلى قولٍ آخر قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجّة، إذ تطرُّق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرّقه إلى الأدلّة الشرعية، فإنّ الأدلّة الشرعيّة حجّة الله على جميع عباده، بخلاف رأي العالم. لكنّ الغرض أنّه في نفسه قد يكون معذوراً في تركه له، ونحن معذورون في تركنا هذا الترك.

---

(١) رفع الملام عن الأئمّة الأعلام: ٤.

(٢) الفرقان بين الحقّ والباطل: ٨٤ ـ ٨٥.

وليس لأحد أن يعارض الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ بقول أحد من الناس، كما قال ابن عبّاس ﷺ لرجل سأله عن مسألة فأجابه فيها بحديث، فقال الرجل: قال أبو بكر وعمر! فقال ابن عبّاس: يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!![1].

يقول ابن تيميّة: إنّه لسبيلٌ خبيث أن يُترك القول والعمل بموجب أحاديث رسول الله ﷺ ظنّاً أنّ القول بموجبها مستلزم للطعن فيمن خالفها!.

فهذا الترك يجرّ إلى الضلال، واللحوق بأهل الكتابَين الّذين اتّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله..

- ويفضي إلى طاعة المخلوق في معصية الخالق..

- ويفضي إلى قُبح العاقبة..

- ثمّ إنّ العلماء يختلفون كثيراً، فإن كان كلّ خبر فيه تغليظ خالفَه مخالِفٌ تُرِك القول بما فيه من التغليظ، أو تُرِك العمل به مطلقاً، لزم من هذا مِن المحذور ما هو أعظم من أن يوصف: من الكفر، والمروق من الدين![2].

وقفة قصيرة:

سمّها إن شئت طريفة!

أظنّ أنّ من احتجّ لكلامه بحديث ابن عبّاس المتقدّم «أقول: قال رسول

---

(١) رفع الملام عن الائمّة الأعلام: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) رفع الملام عن الأئمّة الأعلام: ٧٥ ـ ٧٦، ٢٧، والفرقان: ٦٦ ـ ٦٧ وكتاب الإيمان: ٢٥٥ نحوه.

الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»، أتظنّ أنّه ستكون فتواه في هذه المسألة نفسها وفقاً لقول أبي بكر وعمر، خلافاً لقول رسول الله ﷺ ؟ .

إنّه لكذلك، فمسألة ابن عبّاس هذه أخرجها الإمام أحمد في مسنده[1]، قال: قال ابن عبّاس: تمتّع النبيُّ ﷺ. فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة.

فقال ابن عبّاس: ما يقولُ عُرَيّة ؟! قالوا: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة.

قال ابن عبّاس: أراهم سيهلكون ! أقول: قال رسول الله ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر !!.

فهل تعجب بعد ذلك إن علمت أنّ مذهب ابن تيميّة في المتعة قد جاء تَبَعاً لهذا الأخير!.

التفسير العلمي للأحكام:

يظهر في بعض فتاويه ميله إلى التفسير العلمي لبعض الأحكام الشرعية، ففي تفسيره وجوب الغُسل من المنيّ دون البول، يقول: المنيّ يخرج من جميع البدن، وأمّا البول فإنّما هو فضلة الطعام والشراب المستحيلة في المعدة والمثانة، فتأثّر البدن بخروج المنيّ أعظم من تأثّره بخروج البول. وأيضاً فإنّ الجنابة توجب ثقلاً وكسلاً، والغُسل يُحدث له نشاطاً وخفّة. وقد صرّح أفاضل الأطبّاء بأنّ الاغتسال بعد الجماع يعيد إلى البدن قوّته ويخلف عليه ما تحلّل منه، وأنّه من أنفع شيء للبدن والروح، وتركه مضرّ.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٣٧.

وفي التفريق بين بول الصبيّ وبول الصبيّة ووجوب غسل الثوب من الثاني بينما يكفي نضحه بالماء من الأوّل، قال: الفرق بين الصبي والصبية من ثلاثة أوجه:

أحدها: كثرة حمل الرجال والنساء للصبيّ، فتعمّ البلوى ببوله فيشقّ عليهم غسله!

والثاني: أنّ بوله لا ينزل في مكان واحد بل ينزل متفرّقاً ها هنا وها هنا، فيشقّ غسل ما أصابه محلّه بخلاف بول الأُنثى.

والثالث: أنّ بول الأُنثى أخبث وأنتن من بول الذكر، وسببه حرارة الذكر ورطوبة الأُنثىٰ، فالحرارة تخفّف من نتن البول وتُذيب منها ما لا يحصل مع الرطوبة[1].

قول الصحابي:

ابن تيميّة يرىٰ أنّ إجماع الصحابة لا يكون إلّا معصوماً، فالحقّ لا يجاوزهم أبداً[2].

ولكن ماذا عن قول الصحابي الواحد، هل هو حجّةٌ مطلقاً؟

وكيف إذا خالف فيه نصّاً ثابتاً أو خالفه قول صحابيٍّ آخَر؟

ابن تيميّة يجعل حجّية قول الصحابي مشروطة وليست مُطلقة، ويحصر هذه الشروط بما يلي:

---

(١) القياس: ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) الفرقان بين الحقّ والباطل: ٢٠، ٧٥.

١ ـ إذا لم يخالفه غيره من الصحابة.

٢ ـ ولا عُرِف نصٌّ يخالفه.

٣ ـ ثمّ إذا اشتهر ولم ينكروه كان ذلك إقراراً علىٰ القول، وقد يُسمّى هـذا (إجماع إقراري).

ومن هذا يظهر أنّه لا يذهب إلى التمسّك بـ(سُنّة الخلفاء الراشدين) إلّا إذا أقرّها سائر الصحابة، عندئذٍ ستكون (إجماع إقراري) وليس سُنّة واحد أو أكثر من الخلفاء الراشدين !.

قال: أمّا إذا عُرف أنّه خالفه قول صحابي آخر فليس بحجّة بالاتّفاق.

وأمّا إذا لم يُعرف هل وافقه غيره أو خالفه، لم يُجزم بأحدهما.

ومتى كانت السُنّة تدلّ علىٰ خلافه كانت الحجّة في السُنّة[١].

غير أنّ له في موضع آخر كلامٌ آخر يجعل فيه اختلاف أقوال الصحابة رحمةً وسعةً ويُسراً علىٰ الأُمّة، فإذا ورد القول عن صحابيّ، وورد خلافُه عن صحابيّ آخر، كان كلاهما حجّة، وفي وسع المسلم أن يأخذ بأيّهما شاء ولا جُناح عليه، واستدلّ لقوله الأخير هذا بأقوال أئمّة كبار كمالك وأحمد، ثمّ قال: ولهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعُهم ـ أي الصحابة ـ حجّة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة !

قال: وكان عمر بن عبدالعزيز يقول: ما يسرّني أنّ أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنّهم إذا اجتمعوا علىٰ قولٍ فخالفهم رجلٌ كان ضالّاً وإذا اختلفوا فأخذ

---

(١) التوسّل والوسيلة: ١١٣.

رجلٌ بقول هذا، ورجل بقول هذا، كان في الأمر سعة !(١).

أين إذن ما وصفه (بالاتّفاق) علىٰ أنّ قول الصحابي إذا خالفه صحابيّ آخر فليس بحجّة ؟!.

علماً أنّ قوله الأخير في أنّ اختلاف الصحابة سعة ويسر ورحمة هو الذي يعتمده في سائر مسائله وينتصر له(٢).

لكن عندما وجد في بعض المسائل قولين عن الصحابة ووجد أنّ قول الصحابي الأوّل يخالف فتواه، ووجده قد رُويَ بأسانيد صحيحة وطُرق متعدّدة لا يمكنه دفعها، عند ذلك أراد أن يجعل من قول الصحابي الآخر مخالفاً له، ثمّ يضع هذه القاعدة التي تنصّ علىٰ عدم حجّية قول أحدهما فقط دون الآخر، ويرتّبها بشكل يحكم من خلاله ببطلان القول المخالف لفتواه، ثمّ يجعل من هذه القاعدة المبتكرة هنا محلّ إجماع أهل العلم واتّفاقهم !

وسيزداد الأمر غرابةً عندما ترى أن قولَي الصحابيّين ليس بينهما أدنى خلاف!

كان ذلك في مسألة التوسّل بالنبيّ ﷺ بعد وفاته، التي أنكرها ابن تيميّة وعدّها من البِدَع المؤدّية إلى الشرك، ولكن صَدَمهُ ما ورد عن الصحابي عثمان بن حنيف ؓ مِن أنّه كان يُعلِّم الناس ذلك بعد وفاة النبيّ، فيعملون به وينتفعون منه ما شاء الله لهم أن ينتفعوا، من ذلك ما رواه البيهقي وغيره، ونقله عنهم الشيخ ابن تيميّة(٣): أنّ عثمان بن حُنيف رأى رجلاً قد تعسّرت عليه حاجته عند عثمان بن

---

(١) مجموعة الفتاوى «ابن تيميّة» ٣: ٧٩ ـ ٨١، عنه الصحوة الإسلاميّة «د. يوسف القرضاوي»: ٧٠ ـ ٧١.

(٢) انظر كتبه: رفع الملام، ومقدّمة في أُصول التفسير، وفقه الكتاب والسُنّة، وسائر فتاويه تجده يعمل وفق هذا القول.

(٣) في كتابه (التوسّل والوسيلة: ١٠١ وبعدها) ويأتي بتفصيل أكثر تحت عنوان (التوسّل) في فصل (مع الصوفيّة) من هذا الكتاب.

عفّان ﷺ أيّام خلافته، فقال له: إئتِ الميضأة، فتوضّأ، ثمّ ائتِ المسجد فصَلِّ رَكعتين، ثمّ قُل: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّهُ إليك بنبيّنا محمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد يارسولِ الله، إنّي أتوجّه بك إلى ربّي ليقضي لي حاجتي» ثمّ اذكر حاجتك. فصنع الرجل ذلك، فقُضيت حاجته من يومها علىٰ أحسن وجه!

قال ابن تيميّة: إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنّه جعل من المشروع المستحبّ أن يتوسّل بالنبيّ ﷺ بعد موته، فقد علمنا أنّ عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته، كما كان يُشرع في حياته، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسّلون به، فلمّا مات لم يتوسّلوا به، بل قال عمر في دعائه لمّا استسق بالناس: «اللّهمّ إنّا كنّا إذا أجدبنا نتوسّلُ إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا، فاسقنا». وهذا دعاء أقرّه عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد[١].

عندما يكون الانتصار للمذهب هو الغرض، فلا مانع من الإيهام والمغالطات!!

في قوله: «وأكابر الصحابة» إيهامان أوقع فيهما القارئ:

الأوّل: أنّ أكابر الصحابة كلّهم أو جلّهم قد فعلوا ذلك. في حين قاله عمر وحده حين كان هو الخليفة.

الثاني: يوهمك أنّ عثمان بن حُنيف ﷺ ليس من أكابر الصحابة![٢].

وقوله: «هذا دعاء أقرّه عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد» إيهامٌ أيضاً،

---

(١) التوسّل والوسيلة: ١١٣.

(٢) وعثمان بن حُنيف: الأنصاري، أخو سهل بن حُنيف، قال الترمذي: شهد بدراً وشهد أُحداً والمشاهد كلّها بعدها وبيعة الشجرة، واستعمله عمر علىٰ مساحة سواد العراق وخراجه، واستعمله عليّ عليه السلام علىٰ البصرة. الإصابة ٢: ٤٥٩.

فإنّ أحداً لم ينكر علىٰ عثمان بن حُنيف تعليمه الرجل ذلك الدعاء !

وبعد، فإنّ التناقض الذي يفرضه الشيخ ابن تيميّة بين الدعاءين لا وجود له من قريب أو بعيد. وأكثر ما يقال: إنّ كلّاً منهما قد دعا بدعاء غير دعاء صاحبه، وليس في هذا نكير ولا تناقُض. ولكنّه لأجل أن ينتصر لفتواه في منع التوسّل والاستشفاع بالنبيّ ﷺ افترض تناقضاً بين القولين، ثمّ صاغ قاعدةً تجعل قول عثمان بن حُنيف هنا وحده ليس بحجّة، ثمّ زعم أنّ هذه القاعدة محلّ اتّفاق أهل العلم. في حين ليس في البين تناقض، ولم يقل أحد ممّن يعتمدهم ابن تيميّة بتلك القاعدة، ولا قال بها هو إلّا لهذا الغرض !

ذلك إذا قرأناه بعقول تحرّرت من أَسْر العصبيّة للأشخاص والآراء..

حصاد التجربة :

هل نجح في قهر العصبيّة للمذهب الواحد ؟

هل خلق من أتباعه جيلاً متسامياً فوق تلك العصبيّة، بُغيتهُ الحقّ والصواب الموافق للكتاب والسُنّة وإن خالف فتوىٰ ابن تيميّة نفسه ؟ إنّ شيئاً من ذلك لم يحصل، فأتباعه كانوا يردّدون في حياته: «نحن ما نتّبع إلّا أقوال الإمام أحمد، وشيخنا تقيّ الدين ابن تيميّة»[١].

فالنتيجة إذن أن أُضيفَ إلى محاور التعصّب محوراً جديداً تمثّل في شخص ابن تيميّة وفتواه !

وهذا المحور الخامس نزعته الثابتة منذ نشأته وحتّى يومنا هذا، في حين

(١) الفقيه المعذّب ابن تيميّة «عبدالرحمٰن الشرقاوي»: ٨٦.

يحكم على أتباع المذاهب الأُخرى بالضلال لتعصّبهم المذهبي، تجد هٰذا التعصّب أزيزاً في دماغه ودمه لا يهدأ!

ثمّ نشأت عند هذا الفريق الدعوة إلى اللّامذهبيّة وترسّخت كعقيدة جديدة تولّىٰ أصحابها شرحها في كتب عديدة أصدروها، منها كتاب يحمل عنوان (المذهبيّة أخطر بدعة)! غافلين عن أنّهم قد أسّسوا بدعوتهم هذه مذهباً جديداً، بل فتحوا الطريق لمذاهب لا ينتهي عدّها حين منحوا حقّ الاجتهاد في الدين حتّى لمن لا يحسن أن يتوضّأ، فما دام قد قرأ حديثاً فله أن يستنبط منه ما يؤدّيه إليه اجتهاده!

فكم هو جميلٌ أن نعيَ قوله تعالى: ﴿ *أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتٰبَ أَفَلا تَعْقِلُون* ﴾[1].

---

(١) البقرة ٢: ٤٤.

الفصل الثاني

الصِّفاتُ والتَّفسيرُ

الصفات

منهجه في التفسير

الصِّفاتُ

مسألة الصفات من المسائل الخطيرة التي لا يُستحبّ الاسترسال في تفريعاتها وتشعّب معانيها، لذا سنطوي الكلام فيها طيّاً سريعاً، معتمدين العبارة الواضحة، مجانبين تعقيدات الفلاسفة والمتكلّمين ومصطلحاتهم، مع شيءٍ من التفصيل المقرّب للمعنى.

لم تكن هذه المسألة مدار بحث في عصر الصحابة، وإذا طرأ لأحدهم فهمٌ في شيء منها فإنّه يقف عنده، ولا يجعله مدخلاً لسلسلة لا تنتهي من الشكوك.

ولمّا بلغ الشكّ مبلغه لدى أحدهم أتى أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، فقال له: يا أمير المؤمنين، صف لنا ربّنا مثلما نراهُ عياناً، لنزداد له حبّاً، وبه معرفةً.

فغضب أمير المؤمنين لظهور مثل هذه الشكوك والأوهام في الناس، فنادى: الصلاة جامعة! فاجتمع الناسُ حتّى غصَّ المسجد بأهله، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ خطب خطبته الشهيرة بخطبة الأشباح، فوصف الله تعالى بما هو أهله، فقال:

«الحمدُ لله الذي لا يَفِرُهُ المَنْعُ والجُمودُ، وَلا يُكدِيه الإعطاءُ والجودُ...

الأوّل الذي لم يكُن لهُ قَبْلٌ فيكون شيءٌ قبله، والآخِر الذي ليس لَـهُ بَـعْدٌ

فيكون شيءٌ بَعده، والرادِعُ أنابيَّ الأبصار عن أن تناله أو تُدركه..».

ثمّ قال: «فانظر أيّها السائل: فما دَلَّكَ القرآنُ عليه من صِفَتِه فائتَمَّ به واستَضئْ بنور هدايته، وما كلّفك الشيطانُ عِلمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضُه، ولا في سُنّة النبيّ ﷺ وأئمّة الهُدى أثرُه، فَكِلْ علمه إلى الله سُبحانه»(١).

فمن عرف هذا الكلام نجا وسلم، ومن ركب الأوهام والظنون تلقّفته مضلّات الفتن فأردته في مهاويها.

يقول الشهرستاني في (المِلَل والنِحَل): إنّ جماعة كثيرة من السَلَف كانوا يُثبتون لله تعالى صفات أزليّة: من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والإنعام، والعِزّة، والعَظَمة. ولا يفرّقون بين صفات الذات وصفات الأفعال، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يُثبتون صفات خبريّة، مثل: اليدين، والوجه، ولا يؤوّلون ذلك، إلّا أنّهم يقولون: هذه صفات قد وردت في الشرع، فنسمّيها: صفات خبرية.

ولمّا كانت المعتزلة ينفون الصفات، والسَّلَف يُثبتون، سمّي السَلَف: (صفاتيّة)، والمعتزلة: (معطّلة)(٢).

فبالغ بعض السَّلَف في إثبات الصفات إلى حدّ التشبيه بصفات المحدَثات! واقتصر بعضهم علىٰ صفات دلّت الأفعال عليها، وما ورد به الخبر.

فافترقوا فيه فرقتين: فمنهم من أوّله علىٰ وجهٍ يحتمل اللفظ ذلك(٣).

---

(١) نهج البلاغة ـ شرح د. صبحي الصالح: ١٢٤، خطبة ٩١.
(٢) والجَهميّة أيضاً مُعطّلة.
(٣) كتأويل اليد بالقوّة أو النعمة، بحسب موقعها. وتأويل العَرش بالمُلك، ونحو ذلك.

ومنهم من توقّف في التأويل، وقال: عرفنا بمُقتضى العقل أنّ الله تعالى ليس كمثلهِ شيء، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبههُ شيءٌ منها، وقطعنا بذلك، إلّا أنّا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(١)، ومثل قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾(٣) إلى غير ذلك، ولسنا مكلّفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها.

ثمّ إنّ جماعة من المتأخّرين زادوا علىٰ ما قاله السَلَف، فقالوا: هذه الآيات لا بُدّ من إجرائها علىٰ ظاهرها، والقول بتفسيرها كما وردت من غير تعرّض للتأويل، ولا توقّف في الظاهر. فوقعوا في التشبيه الصِرف، وذلك علىٰ خلاف ما اعتقده السَّلَف. ولقد كان التشبيه صِرفاً خالصاً في اليهود، لا في كلّهم، بل في القرّائين منهم، إذ وجدوا في التوراة ألفاظاً كثيرةً تدلُّ علىٰ ذلك(٤).

وهذا الأخير هو الذي وقع فيه الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة كما سنرى.

وحين ابتعد بهم الزمن عن العهد الأوّل والثاني، وكثر الكلام، ضاقت الآفاق على أكثرهم فاضطربوا في تحديد المذهب الصحيح!

قال الشهرستاني: إنّ السَلَف من أصحاب الحديث لمّا رأوا توغّل المعتزلة في علم الكلام ومخالفة السُنّة التي عهدُوها من الأئمّة الراشدين، ونَصَرَهُم جماعة من أُمراء بني أُميّة علىٰ قولهم بالقَدَر، وجماعة من خلفاء بني العبّاس علىٰ قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن.. تحيّروا في تقرير مذهب أهل السُنّة والجماعة في متشابهات آيات الكتاب الحكيم وأخبار النبيّ الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) طه ٢٠: ٥.

(٢) ص ٣٨: ٧٥.

(٣) الفجر ٨٩: ٢٢.

(٤) الملل والنِحَل: ٨٤.

فأمّا أحمد بن حنبل، وداود بن عليّ الأصفهاني[(١)]، وجماعة من أئمّة السَلَف؛ فَجَرَوا علىٰ منهاج السَلَف المُتقدّمين عليهم من أصحاب الحديث، مثل: مالك بن أنس، ومقاتل بن سليمان[(٢)]، وسلكوا طريق السلامة، فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسُنّة، ولا نتعرّض للتأويل.

وكانوا يتحرّزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا: مَن حرّك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿ *خَلَقْتُ بِيَدَيَّ* ﴾، أو أشار بإصبَعيه عند رواية: «قلب المؤمن بين إصبَعين مِن أصابع الرحمن» وجب قطع يده، وقلعُ إصبَعيه.

غير أنّ جماعة من الشيعة الغالية، وجماعة من أصحاب الحديث الحشويّة صرّحوا بالتشبيه.

أمّا الحشويّة، فمن قولهم: يجوز عليه الانتقال، والنزول، والصعود، والاستقرار، والتمكّن. وله جوارح وأعضاء من يدٍ ورجلٍ ونحو ذلك، ومع هذا فليس كمثله شيء، لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء[(٣)].

وهذا الأخير أيضاً كلّه قال به ابن تيميّة وإن غيّر في اللفظ، فتعالى الله عمّا يصفون.. وكان له في بعض مقالاته قصّة، كاد المؤرّخون أن يُخفوها لِفَرط ميلهم..

فالصَّفَدي قال: طُلِبَ إلى مصر أيّام ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وعُقد له مجلس في مقالةٍ قالها![(٤)].

---

(١) هو مؤسّس المذهب الظاهري، الذي اعتمد ظواهر الكتاب والسُنّة مطلقاً، وأنكر التأويل والرأي والقياس، توفّي سنة ٢٧٠ هـ سير أعلام النبلاء ١٣: ٩٧، الأعلام ٢: ٣٣٣.

(٢) البلخي، المفسّر، متّفق علىٰ ضعفه، وقال بعضهم: كذّاباً، وقال أبو حنيفة: مقاتل مُشبِّه، وجَهْم معطِّل، وقال العسقلاني: كذّبوه وهجروه ورُمي بالتجسيم. سير أعلام النبلاء ٧: ٢٠١، تقريب التهذيب ٢: ٢٧٢/١٣٤٧.

(٣) الملل والنحل: ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) الوافي بالوفيات ٧: ١٩.

ولكن ما هي هذه المقالة ؟

كان ابن الوردي أكثر وضوحاً حين قال: استُدعي الشيخ إلى مصر، وعُقد له مجلس، واعتُقل بما نُسِب إليه من التجسيم[(١)].

إذن تلك المقالة كانت في التجسيم !

ولكن أيّ شيءٍ قال ؟ لا يرتاح المؤرّخون الّذين كانوا جميعاً من أصدقائه أن يكشفوا عنها.

ونظير ذلك قد وقع من قبل، ولكن من غير دعوة إلى مصر، أو سجن، بل كان الأمر علىٰ العكس..

قال ابن كثير: كان وقع ـ في دمشق ـ محنة للشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة، وقام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي، فلم يحضر !

فنوديَ في البَلَد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة، المسمّاة بـ(الحمويّة)، فانتصر له الأمير سيف الدين جاعان، وأرسل يطلب الّذين قاموا عليه، فاختفىٰ كثير منهم، وضربَ جماعةً ممّن نادى علىٰ العقيدة فسكت الباقون![(٢)].

وبقي هذا الأمر يكاد يخفى، حتّى جاء الزائر الغريب، الذي لم يكن ينتمي إلى أحد من فقهاء دمشق، فلم يتعصّب لهذا علىٰ ذاك، بل هو زائر جوّال يحكي ما شهده بنفسه، لا ما نقله إليه غيره، إنّه الرحّالة الشهير ابن بطوطة !

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢: ٣٦٣ أحداث سنة ٧٠٥هـ.
(٢) البداية والنهاية ١٤: ٤ ـ ٥ أحداث سنة ٦٩٨هـ.

كان في دمشق تلك الأيّام، سائحاً يمضي فيها أيّاماً ليُدَوِّن عنها مشاهداته، ثمّ يرحل عنها خفيف الظلّ..

وشاء الله أن يكون ابن بطوطة حاضراً ذلك المجلس الخطير ليصفه لنا من داخل المسجد الأموي، وفي قُبالَة المنبر حيث يقوم الشيخ تقيّ الدين، ثمّ يسجّل ما شاهدته عيناه وسمعته أُذناه تحت عنوانٍ مُلفتٍ للنظر، فلنقرأ مشاهدته كما سجّلها في رحلته، إذ يقول تحت عنوان:

«حكاية الفقيه ذي اللُّوثة[١]!»:

كان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقيّ الدين ابن تيميّة، كبير الشأم، يتكلّم في الفنون، إلّا أنّ في عقله شيئاً! وكان أهل دمشق يُعظّمونه أشدّ التعظيم ويعظهم على المنبر، وتكلّم بأمرٍ أنكره الفقهاء..

قال: وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعِظ الناس على منبر الجامع ويذكّرهم، فكان من جُملة كلامه أن قال: (إنّ الله ينزِلُ إلى سماء الدنيا كنزولي هذا) ونزل درجةً من المنبر!

فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلّم به، فقامت العامّة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتّى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشيّة حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عزّ الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه، وعزّره بعد ذلك[٢]..

ومقولة ابن تيميّة هذه ذكرها ابن حجر العسقلاني أيضاً في الدرر الكامنة[٣].

---

(١) اللُّوثة بالضمّ: مَسٌّ جنون.

(٢) رحلة ابن بطّوطة: ٩٥. وعَزَّره، أي عاقبه بالجَلد.

(٣) الدرر الكامنة ١: ١٥٤.

تلك صورةٌ عن عقيدته في الله تعالىٰ.. فهو يجيز عليه تعالى الانتقال والتحوّل والنزول، وفي هذا التصوّرُ من التجسيم ما لا يخفى، فالذي ينتقل من مكان إلى مكان، وينزل ويصعد، فلا بُدّ أنّه كان أوّلاً في مكان ثمّ انتقل إلى مكانٍ آخر، فخلا منه المكان الأوّل، واحتواه المكان الثاني، والذي يحويه المكان لا يكون إلّا محدوداً! فتعالى الله عمّا يصفون !!

وأين هذا من كلام السّلَف ؟ .

وأين هو من كلام إمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقول: من حرّك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ قُطعت يده! ومن حرّك أصابعه عند رواية: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» وجب قطع أصابعه! .

إنّه بناءً علىٰ قول الإمام أحمد هذا، وهو قول مالك بن أنس أيضاً: يجب أن يُقطع ابن تيميّة بأكمله! فإنّه أشار بكلّ جسده وزعم أنّ الله تعالى ينزل كنزوله هذا!!

وقد طعن بعضهم في هذه القصّة لأنّها لم ترد في كتب ابن تيميّة، كما شكّكوا في كون ابن بطّوطة قد رأىٰ ابن تيميّة !

والأفضل لهم أن يحتجّوا بما كتبه ابن تيميّة في (الحمويّة الكبرىٰ) في قوله: إذا قال السائل: كيف ينزل ربّنا إلى السماء الدنيا ؟ قيل له: كيف هو ؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيّته. قيل له: ونحن لا نعلم كيفيّة نزوله[1] .

لكنّ ابن بطّوطة لم ينفرد بما نقله، بل نقله ابن حجر العسقلاني أيضاً، فهل يمتنع

---

(١) الحمويّة الكبرىٰ: ٢٠، ونحوه في نقض المنطق: ٣.

أن يذكر الشيخ في درسه شيئاً ثمّ يكتب خلافه ؟! .

إنّ أحداً لم يخالف في أنّ ابن تيميّة لم يقف عند ما وقف عليه بعض متقدّمي السَّلَف من الايمان والتسليم، بل تعدّى ذلك إلى لزوم إجراء المعنى علىٰ ظاهره، ثمّ منع من تأويل شيءٍ من آيات الصفات، فعند قوله تعالى: ﴿ *ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ* ﴾[1] لا بُدّ أن نعتقد بما يؤدّيه الظاهر من حقيقة الاستواء علىٰ العرش !

يقول: والّذين يؤوّلون المعنى فيقولون هنا إنّ المراد بالعرش هو المُلك، والاستواء هو الاستيلاء والتمكّن، أُولئك ما قدروا الله حقّ قدره، وما عرفوه حقّ معرفته !![2] .

فيكون عنده الذي جَعَل لله حدّاً، فيكون علىٰ عرشٍ محدّدٍ بمعناه الظاهري، وأنّ العرش يحويه، ذلك هو الذي عرف الله حقّ معرفته وقدره حقّ قدره !!

﴿ *سُبحانَه وتَعالىٰ عَمَّا يَصِفُون* ﴾ .

فلا هو تمسّك بقول أهل التسليم وإمرار الآيات كما هي، ولا هو أخذ بقول من تأوّل المعنى الظاهر تنزيهاً لله تعالى عن التجسيم والتحديد، ظنّاً منه أنّ من ذهب إلى التأويل فقد ذهب إلى قول المعطّلة الّذين ينفون الصفات الأزلية ؛ كالعلم والقدرة والحكمة ونحوها. وهذا وهم كبير، فبين هذه الصفات الأزلية، وما ذهب إليه من صفات الأجسام في الجلوس والانتقال والنزول والصعود بون شاسع وفارق كبير !

ولعلّ الذي أوقعه بهذا شدّة تحامله علىٰ منكري الصفات وتحمّسه الشديد في

---

(١) طه ٢٠: ٥.

(٢) التفسير الكبير ١: ٢٧٠.

الردّ عليهم، حتّى وضعه حماسه هذا في الطرف الآخر نقيضاً لهم مبتعداً عن النمط الأوسط.

وزاد في الأمر غرابةً حين أراد أن يحتجّ لعقيدته تلك، فزعم أنّ ذلك هو إجماع السَلَف قاطبةً! وقد قرأتَ عقائد السَلَف في ما جمعه الشهرستاني عنهم في كتابه (الملل والنحل) ممّا نقلناه في مقدّمة هذا الفصل.

ثمّ زعم أنّ أحداً من السَلَف لم يذهب إلى تأويل آيةٍ واحدة من آيات الصفات أو حديثٍ واحد من أحاديث الصفات، فقال ما نصّه:

أمّا الذي أقوله الآن وأكتُبه، وإن كنتُ لم أكتُبه فيما تقدّم من أجوبتي، وإنّما أقوله في كثيرٍ من المجالس: إنّ جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعتُ التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مئة تفسير! فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحدٍ من الصحابة أنّه تأوّل شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف[1].

ولكي نعرف مدى نصيب هذا الكلام من الصحّة نقف عند واحدة من أُولى آيات الصفات في القرآن الكريم، ومع التفسير الذي عدّه الشيخ ابن تيميّة أحسن التفاسير (ليس فيه بدعة، ولا يروي عن المُتّهمين)[2]، ذلك هو تفسير الطبري، والآية هي تلك التي قال فيها ابن تيميّة إنّها أعظم آيات الصفات[3]، وهي آية الكرسيّ، الخامسة والخمسين بعد المئتين من سورة البقرة:

---

(١) تفسير سورة النور «ابن تيميّة»: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) مقدّمة في أُصول التفسير: ٥١، وقد تقدّم في ص ٧٣، وسيأتي في هذا الفصل أيضاً.

(٣) الفتاوى الكبرى ٦: ٣٢٢.

وأوّل شيءٍ ذكره الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ﴾ حديثين أخرجها بالإسناد إلى ابن عبّاس، فقال:

اختلف أهل التأويل في معنى الكرسيّ، فقال بعضهم: هو علم الله تعالى ذِكره.

ذِكرُ مَن قال ذلك:

ــ أبو كُريب وسلم بن جِنادة، عن ابن إدريس، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: (كُرسيُّهُ) عِلْمُهُ.

ــ يعقوب بن إبراهيم، عن هشيم، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس: (كُرسيُّه) عِلْمُه، ألا ترى إلى قوله: ﴿ ولا يؤُدُه حِفْظُهُما ﴾ ؟[١].

فحين ابتدأ الطبري بقوله: اختلف أهل التأويل، كان الشيخ تقيّ الدين يجزم بأنّ السَلَفَ لم يختلفوا في شيء من آيات الصفات!

وحين يجزم الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة قائلاً: لم أجد إلى ساعتي هذه عن أحدٍ من الصحابة أنّه تأوّل شيئاً من آيات الصفات، يفتتح الطبري تفسيره بتأويل الصحابي الجليل ابن عبّاس على خلاف ما يذهب إليه الشيخ ابن تيميّة !!

فهو يذهب إلى ما جاءت به الحشويّة من أخبار ذكرها الطبري بعد قول ابن عبّاس، مفادها أنّ الكرسيّ هو موضع القدمين من العرش، أو هو العرش الذي يقعد عليه الله تعالى شأنه فلا يفضل منه مقدار أربع أصابع، وله أطيط كأطيط الرحل

---

(١) تفسير الطبري ٣: ٧.

الجديد !![1].

ثمّ ختم الطبري بقوله: وأمّا الذي يدلّ علىٰ صحّته ظاهر القرآن فقول ابن عبّاس: هو علمه. وذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما ﴾. إلى آخر كلامه.

ثم ينتقل إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلعَلِيُّ ٱلعَظِيمُ ﴾ من نفس الآية وهي أيضاً ممّا جاء في الصفات، إذ يذهب أهل التجسيم إلى أنّ العلوّ هو علوّ المكان أي جهة الفوق، وهو الذي ينصره ابن تيميّة ويجزم أنّه كلام السَّلَف بلا خلاف!

فيقول الطبري: واختلف أهل البحث في معنى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلعَلِيُّ ٱلعَظِيمُ ﴾!

فقال بعضهم: يعني بذلك: وهو العليّ عن النظير والأشباه، وأنكروا أن يكون معنى ذلك هو العليّ المكان. وقالوا: غير جائز أن يخلو منه مكان، ولا معنى لوصفه بعلوّ المكان، لأنّ ذلك وصفه بأنّه في مكان دون مكان[2].

فهذا كلّه من قول السَلَف في التأويل، في آية واحدة، هي أعظم آيات الصفات، لتعرف بعد ذلك أين موقع مقالة (شيخ الإسلام) ابن تيميّة المتقدّمة:

«طالعتُ التفاسير المنقولة عن الصحابة... فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحدٍ من الصحابة أنّه تأوّل شيئاً من آيات الصفات»![3].

ثمّ إنّ الشيخ ابن تيميّة يصف تفسير ابن عطيّة بأنّه أرجح التفاسير كلّها بعد تفسير الطبري، فماذا يقول ابن عطيّة؟

---

(١) الأطيط: الصوتُ الذي يُسمع من الكرسي الجديد إذا جلس عليه أحد.

(٢) تفسير الطبري ٣: ٩.

(٣) مقدّمة في أصول التفسير: ٥٣.

أثبت ابن عطيّة ما نقلناه هنا عن الطبري من تفسير ابن عبّاس للكرسيّ، وتفسير (العليّ)، ثمّ قال في أخبار الحشويّة التي رواها الطبريّ بعد هذا، وبها تمسّك ابن تيميّة، قال ابن عطيّة ما نصّه: هذه أقوال جَهلَة مجسّمين، وكان الواجب أن لا تُحكى ![١].

وفي هذا من الموعظة ما يكفي ! ومن غريب ما استدلّ به ابن تيميّة علىٰ جهة العلوّ هذه شاهدان عجيبان:

الأوّل: قول فرعون في ما حكاهُ القرآن الكريم: ﴿ *وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ* ﴾[٢] فعلم فرعون أنّ إله موسى إنّما هو في السماء لا غير !

ونَسَبَ علم فرعون هذا إلى إخبار موسى إيّاه[٣]. ولكن أين أخبره موسى ؟ القرآن لم يقل بذلك، ولا جاء به حديث، ولكنّ الشيخ استظهره من قول فرعون « وإني لأظنّهُ من الكاذبين» ! ولا يخلو هذا من تعسّف ظاهر في نصرة المذهب.

والثاني: رفع اليدين في الدعاء، دليل علىٰ أنّ الله تعالى في السماء ![٤].

ترى هل في توجّه المصلّين إلى الكعبة الشريفة وقول كلّ منهم في استفتاح صلاته: «وجّهتُ وجهي للّذي فطر السماوات والأرض»، هل فيه دليل علىٰ أنّه تعالى هناك في الكعبة المشرّفة ؟!

سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وهو تعالى القائل: ﴿ *وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ* ﴾.

---

(١) فتح القدير «الشوكاني» ١: ٢٧٢

(٢) غافر ٤٠: ٣٦ـ ٣٧.

(٣) ابن تيميّة: (العقيدة الحمويّة الكبرى: ٢٢٢)، العقود الدرّيّة: ٧٧.

(٤) ابن تيميّة: (العقيدة الحمويّة الكبرى: ٩٤)، شرح حديث النزول: ٥٩، والعقود الدرّيّة: ٧٩.

وللشيخ في الصفات كلامٌ كثير لم يصلنا في كتبه لكن من كلامه (المُضاع) ما تسرّب عنوةً، كالّذي نقله ابن بطّوطة وابن حجر العسقلاني، وشيءٌ ممّا نقله عنه معاصره الكبير أبو حيّان الأندلسي صاحب تفسيرَي (البحر المحيط) و (النهر المادّ من البحر)، وقد نقل فيهما أشياء من كلام ابن تيميّة في الصفات وردّ عليه في مواضع كثيرة، غير أنّك لا تجد الآن من هذه المواضع الكثيرة حرفاً واحداً في المطبوع من هذين الكتابين! ولولا أنّ آخرين نقلوا عن أبي حيّان بعض كلامه لضاع واختفى أثره!. ومن ذلك المنقول عن أبي حيّان في كتابه (النهر)، قوله: قرأت في (كتاب العرش) لأحمد بن تيميّة ما صورته بخطّه: «إنّ الله تعالى يجلس علىٰ الكرسيّ، وقد أخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله»[1].

وقد ذكر أصحاب التفاسير هذا القول منسوباً إلى مجاهد، ثمّ عقّبوا عليه بقولهم: إنّ لمجاهد قولين متروكين، هذا أوّلهما.

مثال آخر وأخير:

في معنى الوجه، ودفاعه عن عقيدته في أنّ لله تعالى وجهاً علىٰ الحقيقة، قال في ما حكاه من مناظرةٍ له مع بعض العلماء في العقيدة، قال: فأحضر بعض أكابرهم كتاب (الأسماء والصفات) للبيهقي، فقال: هذا فيه تأويل الوجه عن السّلَف.

---

(١) شواهد الحق: ١٣٠ عنه كشف الظنون ٢: ١٤٣٨. [متابعة: بعد صدور الطبعة الأُولىٰ لهذا الكتاب وقفت على طبعة محققة لتفسير النهر المادّ وقد استدرك المحقّقان هذه الفقرة إذ عثرا عليها في النسخة الخطية المودعة في المكتبة الأحمدية في حلب ـ برقم ١٩، وأشارا إلىٰ ذلك في الهامش فقالا: «هذا الموضع حذف من المطبوع» وفيه زيادة تدلّ على أنّ ابن تيميّة كان لا يعرض كتابه هذا (كتاب العرش) إلّا لخاصّته وإنّما وجده أبو حيّان عند رجل اسمه التاج محمد بن علي بن عبدالحقّ البارنباري وكان هذا قد احتال على ابن تيميّة فأظهر له أنّه من دعاته فأخذ منه الكتاب ـ النهر المادّ ج١: ٢٥٤ ـ تحقيق بوران الضنّاوي وهِديان الضنّاوي].

فقلتُ: لعلّك تعني قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾[(١)] ؟

فقال: نعم، قد قال مجاهد والشافعي: يعني قبلة الله[(٢)].

فقلت: نعم، هذا صحيح عن مجاهد والشافعي وغيرهما، وهذا حقّ، وليست هذه الآية من آيات الصفات، ومَن عدّها من آيات الصفات فقد غلط، كما فعل طائفة، فإنّ سياق الكلام يدلُّ علىٰ المراد، حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ والمشرق والمغرب: الجهات.

والوجه: هو الجهة، يقال: أيّ وجهٍ تُريد ؟ أي: أيَّ جهةٍ ؟ وأنا أُريد هذا الوجه، أي: هذه الجهة. كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾. ولهذا قال: ﴿ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ أي: تستقبلوا وتتوجّهوا. والله أعلم[(٣)].

تُرى والآيات الأُخر التي ذكرت الوجه، هل قال أحد من السَّلَف أنّ المراد هو الوجه علىٰ الحقيقة ؟

الحقّ أنّ من زعم ذلك فقد افترى علىٰ السَّلَف افتراءً عظيماً، وبين يديك جميع التفاسير التي نقلت أقوال السَّلَف، كتفسير الطبري، والبغوي، والقرطبي، والدرّ المنثور وغيرها. وعُمدة الشيخ في عقيدته: قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرام ﴾[(٥)].

فماذا قال فيها السَّلَف ؟

---

(١) البقرة ٢: ١١٥.

(٢) الأسماء والصفات: ٣٠٩.

(٣) العقود الدرّيّة: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٤) القصص ٢٨: ٨٨.

(٥) الرحمٰن ٥٥: ٢٧.

قال الطبري: واختُلف في معنى قوله ﴿ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ فقال بعضهم: معناه كلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا هو.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلّا ما أُريد به وجهه. واستشهدوا لتأويلهم بقول الشاعر:

أستغفرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحصيه ربَّ العباد إليه الوجهُ والعملُ (١)

ولم يزد علىٰ هذا حرفاً واحداً.

وقال البغوي: ﴿ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي إلّا هو. وقيل: إلّا مُلكه.

قال أبو العالية: إلّا ما أُريد به وجهه (٢). ولم يزد فوق هذا كلمةً واحدة.

وفي الدرّ المنثور: عن ابن عبّاس، قال: المعنى إلّا ما يريد به وجهه.

وعن مجاهد: إلّا ما أُريد به وجهه.

وعن سفيان: إلّا ما أُريد به وجهه من الأعمال الصالحة (٣). وليس فيه كلمة واحدة زائدة علىٰ هذا المعنى.

ومثل هذا تجده عند تفسير آية سورة الرحمٰن (٤).

وأمّا سائر الآيات الأُخر فالمراد من ذكر (وجه الله) فيها هو ثوابه، كما عليه أصحاب التفسير من السَلَف والخَلَف، وتلك الآيات جميعها هي:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠: ٨٢.

(٢) تفسير البغوي ٤: ٣٦٤.

(٣) الدرّ المنثور ٦: ٤٤٧.

(٤) تفسير القرطبي ١٧: ١٦٥.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ﴾[(١)].

ـ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم ﴾[(٢)].

ـ وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾[(٣)].

ـ وقوله: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾[(٤)].

ـ وقوله: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾[(٥)].

ـ وقوله: ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾[(٦)].

فمن أين أتى بتفسير الوجه على ظاهره ؟

وهنا غريبتان لابُدّ من ذكرهما:

الأولى: نقله في غير موضع عن الإمام مالك وقد سأله رجل عن معنى الاستواء على العرش، فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلّا رجل سوء. فأمر بإخراجه فأُخرج من المجلس[(٧)].

تُرى ما عسى أن يقول مالك في رجلٍ أفنى عمره خوضاً في هذا الباب تحديثاً وتصنيفاً ؟!

---

(١) البقرة ٢: ٢٧٢.
(٢) الرعد ١٣: ٢٢.
(٣) الروم ٣٠: ٣٨.
(٤) الروم ٣٠: ٣٩.
(٥) الدهر ٧٦: ٩.
(٦) الليل ٩٢: ٢٠.
(٧) نقض المنطق ٣، شرح حديث النزول: ٣٢ ومواضع أُخرى.

والثانية: أنّه رغم تشديده علىٰ أنّ عقيدته هي عقيدة السابقين من الصحابة والتابعين، فهو لم يستطع أن يأتي بشاهد واحد من قول صحابيّ، ولا واحدٍ من الجيل الأوّل من التابعين!

فواخيبة المَسعى وضيعة الأيّام..

ثمّ من سيعود بعد هذا باللائمة علىٰ أُناس يقف أحدهم علىٰ مثل هذه الكلمات الجازمة، والتقريرات القاطعة التي يبني عليها الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة عقيدته، من مثل قوله: (باتّفاق أهل العلم) و (إجماع السَّلَف) و (قول السَّلَف) و (لم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنّه تأوّل شيئاً من آيات الصفات) ونحو هذا، فيخشع لها ويُسلّم ؟! فكيف لا وهي أقوال (شيخ الإسلام) و (إمام عصره بلا منازع) ؟!.

وهل يتسرّب إلى ظنّ القارئ ـ مسلماً كان أو غيره ـ أنّ أحداً من علماء الإسلام يمارس هذا المستوى من المغالطة والإيهام، حتّى مع أتباعه ومقلّديه ؟!.

والغريب أنّه بعد ذلك يردّ علىٰ أحد معاصريه فيقول: إنّه أساء الأدب مع السَلَف حين نَسَبَ إليهم ما لا يصحّ عنهم ![1].

البراءة من التجسيم:

حين يسعىٰ الشيخ لإظهار البراءة من التجسيم فغاية ما يراه أنّ ما ينسبه إلى الله تعالى من الجوارح؛ كاليد والرجل والوجه، لا يصحّ تشبيهه بجوارح المخلوقات، بل يجب القطع بأنّ الله تعالى ليس كمثله شيء، وإنّما يجب إثبات هذه

---

(١) تفسير سورة النور: ١٦٥.

الجوارح وما ينسبها من صفات كالاستواء علىٰ العرش ونحوه مع عدم وصف الكيفيّة[١].

والحقيقة أنّ هذا هو التشبيه بعينه، فهو يثبت الأعضاء والأجزاء كالتي للإنسان، إلّا أنّه يقول: هذا لا يشبه هذا! فهل يا ترىٰ وُجد أحدٌ يقول بأنّ الله تعالى كبعض خلقه؟ إنّ أكثر مَن قال بالتجسيم لم يقل بهذا، بل يكرّر دائماً: (ليس كمثله شيء) ثمّ يُثبت له تعالى ما أثبته ابن تيميّة من الأعضاء والحالات، ثمّ يعود فيقول: ليست هي كأعضاء المخلوقات، ولا كحالاتهم!

لكن ابن تيميّة لا يرى هذا من التشبيه، بل هو عنده الاعتقاد الصحيح، فيقول: إنّ السَلَف إنّما كانوا يذمّون المشبّهة الّذين يقولون: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي!![٢].

نعم، إنّه لم يوافق هؤلاء المجسّمة الصرحاء الّذين غلوا في التجسيم، بل حمل عليهم كثيراً وطعن في الأحاديث التي يستندون إليها ووصفها بأنّها موضوعة ليس لها مصدر ولا إسناد معتبر.

أحاديث موضوعة في التجسيم:

عدّ من أحاديثهم الموضوعة حديث: «إنّ الله ينزل عشيّة عرفة علىٰ جمل أورق[٣]، يصافح الركبان ويعانق المشاة»!

وحديث فيه: «أنّه ﷺ رأى ربّه حين أفاض من مزدلفة يمشي أمام الحجيج

(١) التفسير الكبير ٢: ٢٤٩ ـ ٢٥٠، الحمويّة الكبرىٰ: ١٥.

(٢) الفرقان بين الحقّ والباطل: ١٠٥.

(٣) الأورق: الذي في لونه بياض إلى سواد.

وعليه جبّة صوف»!.

وحديث: «إنّ الله يمشي علىٰ الأرض» فإذا كان موضع خضرة قالوا: هذا موضع قدميه، ويقرأون قوله تعالى: ﴿ *فَانْظُرْ إِلىٰ آثارِ رَحمة الله كيفَ يُحيي الأرضَ بعدَ موتها* ﴾.

قال: وهذا من أعظم الكذب علىٰ الله ورسوله، وكلّ حديث فيه أنّ محمّداً ﷺ رأىٰ ربّه بعينه في الأرض فهو كذب.

لكنّه صحّح أحاديث أُخرى، كحديث: «إنّ الله يدنو عشيّة عرفة» و «إنّ الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا كلّ ليلة»[١].

وأمّا دفاعه عن التجسيم فهو دفاع المجسّمة الصُرحاء، فيقول ردّاً علىٰ القائلين بتنزيه الله تعالى عن الأعضاء والأجزاء: إنّهم جعلوا عُمدتهم في تنزيه الربّ عن النقائص علىٰ نفي التجسيم، ومن سلك هذا المسلك لم يُنزِّه الله عن شيء من النقائص ألبتّة[٢].

خلاصة:

ثمّ يُلخّص مصادر عقيدته في ذلك، فيقول مكرّراً قول الأشعري:

«فإن قال قائل: قد أنكرتم قول الجَهميّة والقَدريّة والخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة، فعرّفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

---

(١) الوصيّة الكبرىٰ: ٢٧ ـ ٣١، وانظر أيضاً: نقض المنطق: ١١٩.

(٢) التفسير الكبير ١: ٢٧٥، الفرقان بين الحقّ والباطل: ١١١، وانظر كلامه في «البعض» و «الكلّ» في (الفتاوى الكبرى) ٦: ٤١٣.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسّك بكتاب ربّنا وسُنّة نبيّنا، وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمّة المسلمين، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن حنبل قائلون، ولما خالف قوله مجانبون، فإنّه الإمام الكامل، والرئيس الفاضل الذي أبان الله به الحقّ، وأوضح به المناهج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشكّ الشاكّين، وذكَر جملة الاعتقاد، والاعتقاد علىٰ علوّ الله علىٰ العرش، وعلى الرؤية، ومسألة القرآن ونحو ذلك»[١].

إذن نودّ أن نقف علىٰ مصداقيّة هذا القول، ومن وجهة نظرٍ حنبليّةٍ صرفة، ومع واحدٍ من كبار أئمّة المذهب الحنبلي ومشاهيرهم: أبي الفرج عبدالرحمٰن ابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ) إذ يقول:

«إعلم أنّ الناس في أخبار الصفات علىٰ ثلاث مراتب:

أحدها: إمرارُها علىٰ ما جاءت، من غير تفسير ولا تأويل، إلّا أن تقعَ ضرورةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾[٢] أي: جاء أمرُه، وهذا مذهب السَّلَف».

وهذا كلام صريح في تحقيق خطأ ابن تيميّة، فحتّى هذا الفريق الذي كان يتجنّب التأويل والتفسير وإعطاء شيء من المعاني في هذه الآيات، كان يلجأ إلىٰ التأويل تنزيهاً لله تعالى من التشبيه، كما في المثال المذكور ونظائره. وكلّ هذا نفاه ابن تيميّة عن السَلَف[٣] ليبرّر عقيدته في أنّ الله جلّ جلاله يجيء ويروح وينزل ويصعد!.

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٨٤، الفرقان بين الحقّ والباطل: ١١٧.

(٢) الفجر ٨٩: ٢٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير «ابن تيميّة» ٢: ٢٥٠.

قال ابن الجوزي:

«والمرتبة الثانية: التأويل، وهو مقام خطر» إلّا ما كان على نحو المثال المتقدم، وإنما تكمن خطورة التأويل في الإفراط فيه إلى حدّ التعطيل.

«والمرتبة الثالثة: القول فيه بمقتضى الحِسّ[1]، وقد عَمَّ جَهَلَة الناقلين[2]، إذ ليس لهم حظّ من علوم المعقولات التي يُعرف بها ما يجوز علىٰ الله تعالى، وما يستحيل، فإنَّ عِلْمَ المعقولات يصرف ظواهر المنقولات عن التشبيه، فإذا عدموها تصرَّفوا في النقل بمقتضَى الحِسّ»[3].

وهذا وصف دقيق لمذهب ابن تيميّة، فهو وإن كان له حظٌّ من المعقولات، إلّا أنّه عطّل هذا الحظّ هنا تماماً عندما جزم بوجوب عدم تدخّل المعقولات في شيء من الآيات والأحاديث الدالّة علىٰ الصفات، ولزوم إجرائها بحسب ظاهرها وبمقتضى الحِسّ، كما صنع (جهلة الناقلين) بحسب عبارة ابن الجوزي الإمام الحنبلي، أو كما صنع (جَهَلة المجسّمين) بعبارة ابن عطيّة صاحب أرجح التفاسير كما تقدّم ذكره قبل قليل.

وبعد، فدعوى التمسّك بقول السَّلَف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، أين ذهبت به عن إمام علماء السَّلَف بلا منازع: عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؟!

فهلّا وقف علىٰ شيء من كلامه ؟! وهو أوّل من تكلّم في هذا الباب منهم وأكثرهم كلاماً فيه، تكلّم وكأنّه يعلم كيف ستفترق المذاهب بعده، فأوصد عليهم أبواب التوهّم والاختلاف، وجعل علىٰ حافّة كلّ شبهةٍ طرأت بعده جواباً محكماً،

---

(١) أي إجراء المعنى بحسب الظاهر.

(٢) أراد أهل الحديث.

(٣) دفع شُبَه التشبيه بأكفّ التنزيه: ٧٣ ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ١٩٧٦.

بكلام جليّ وبيان فصيح، فما كان أحوجهم إليه !

فمن كلامه عليه السلام في التوحيد[١]:

«ما وحَّدَه مَن كيَّفَهُ، وَلا حقيقَتَهُ أصابَ مَن مَثَّلَهُ، وَلا إيّاهُ عنى مَن شَبَّهَهُ..

فاعِلٌ لا باضطراب آلة، مُقَدِّرٌ لا بِجَوْلِ فِكرة..

لا يُشْمَلُ بحدٍّ، ولا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإنّما تَحُدُّ الأدوات أنْفُسَها..

ولا يجري عليه السكونُ والحركةُ، وكيف يجري عليه ما هو أجراهُ، ويَعودُ فيه ما هو أبداهُ، ويحدُثُ فيه ما هو أحدَثَهُ ؟! إذاً لتفاوتت ذاته ولتَجزّأ كُنْهُهُ[٢] ولامْتَنَعَ مِن الأزَلِ معناه ! وَلَكانَ لَهُ وراءٌ إذا وُجِدَ لَهُ أمام !! وإذاً لَقامت آيةُ المصنوعِ فيه..

لا تَنالُه الأوهامُ فتُقَدِّرَه، ولا تَتَوَهَّمُهُ الفِطَنُ فتُصَوِّرَه..

لا يُوصَفُ بشيءٍ من الأجزاء، ولا الجوارحِ والأعضاء، ولا بالغيريّة والأبعاض..

ولا يقال: لَهُ حَدٌّ، ولا نهايةٌ، ولا انقطاعٌ ولا غايةٌ..

ولا أنّ الأشياءَ تَحويه، فتُقِلُّه أو تُهْوِيه، أو أنّ شيئاً يحمله، فَيُميلُه أو يُعَدِّلُه !..

ليس في الأشياء بوالجٍ، ولا عنها بخارج..

يُخْبِرُ لا بِلسانٍ وَلَهَوات.. ويَسمعُ لا بخروقٍ وأدوات..

العالي على كلّ شيءٍ بجلاله وعزّته..».

---

(١) نهج البلاغة ـ بشرح د. صبحي الصالح ـ ٢٧٢ خطبة: ١٨٦. والخطبة طويلة انتخبنا منها فقرات متقطّعة.

(٢) أي لتجزّأت حقيقتُه، لأنّ الحركة والسكون من خواصّ الجسم، وهو منقسم مجزّأ.

فهذه الفقرات كلّها قد جاءت بنقيض ما قال به الشيخ ابن تيميّة ثمّ نسبه إلى إجماع الصحابة بلا أدنى خلاف من أحدهم !!

فما كان أحوجه إلى هذا البيان ونظائره الكثيرة التي صحّت عن أمير المؤمنين ﷺ، ليجد نفسه غنيّاً كلّ الغنى عن أخبار الحشويّة وتصوّراتهم القاصرة، غنيّاً عن أخبار عكرمة الخارجيّ الكذّاب[1] ! التي أكثر منها إكثاراً مدهشاً في هذا الباب[2].

عقيدة أهل السُّنّة:

لم يأت نكير فقهاء عصره عليه لدعوته إلى التجديد وجمودهم علىٰ التقليد، كما توهّم الكثير ممّن خدعه زخرف القول وصرعه التهويل المتكرّر باسم السابقين الأوّلين، والسَّلَف الصالح، ودعوى الإجماع المنسوب إليهم ! ثُمّ ممّن تناقل أقوالهم الجاهزة إحساناً للظنّ بهم وإعفاءً للنفس من عناء التحقيق والنظر.

ولقد رأيت فيما قرأتُ أساتذةً كباراً وقعوا في هذه الشراك !

فالحقّ أنّ عقيدته في الصفات كانت واحداً من أهمّ محاور الصراع الذي خاضه مع علماء عصره، فهي السبب الوحيد لما دار بينه وبين المالكيّة من فتن في دمشق، وهي السبب الوحيد لاستدعائه إلى مصر ثمّ سجنه هناك، كما كانت سبباً في عدّة مجالس عُقدت هنا وهناك لمناقشة أقواله.

---

(١) هو عكرمة البربري مولى ابن عبّاس، كان خارجيّاً، رحل إلى المغرب فكان أوّل من أحدث فيهم مذهب الخوارج، وحان موسم الحجّ وهو في أفريقية فكان يقول: وددتُ أنّي اليوم بالموسم بيدي حربة أضرب بها يميناً وشمالاً. وكان عبدالله بن عمر يقول لمولاه نافع: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة علىٰ ابن عبّاس. وكان سعيد بن المسيّب يقول ذلك لمولاه برد، ويسمّي عكرمة (مخبثان). تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

(٢) انظر كتابه: (الردّ علىٰ الطوائف الملحدة) في (الفتاوى الكبرى) ج٦، وغيره من كتبه في الصفات.

ولم ينفرد المالكيّة في الردّ عليه، بل كان هذا هو شأن الحنفيّة والشافعيّة أيضاً، وأمّا الحنبليّة فقد تقدّم ما يفي في إظهار شذوذه عنهم.

قال الشيخ الكوثري الحنفي في وصف عقيدة ابن تيميّة في الصفات: إنّها تجسيمٌ صريح. ثمّ نقل مثل ذلك عن ابن حجر المكّي في كتابه (شرح الشمائل)[1].

وللشافعيّة دورهم البارز في مواجهة هذه العقيدة، فقد صنّفوا في بيان أخطاء ابن تيميّة فيها كثيراً، وربّما يُعدّ من أهمّ تصانيفهم تلك ما كتبه شيخهم شهاب الدين ابن جَهْبَل، المتوفّى سنة ٧٣٣هـ. ويكتسب هذا التصنيف أهميّته لسببين:

أوّلهما: أنّ هذا الشيخ كان معاصراً لابن تيميّة، وقد كتب ردّه هذا في حياة ابن تيميّة موجّهاً إليه.

والثاني: أنّه ختمه بتحدٍّ صريح، قال فيه: «ونحن ننتظر ما يَرِدُ من تمويهه وفساده، لنبيّن مدارج زيغه وعناده، ونجاهد في الله حقّ جهاده». ثمّ لم يذكر لابن تيميّة جواباً عليه رغم أنّه قد وضعه ردّاً على (الحمويّة الكبرى) التي ألقاها الشيخ ابن تيميّة على المنبر في سنة ٦٩٨هـ.

ورسالة الشيخ ابن جَهْبَل هذه ذكرها السُّبكي في طبقاته كاملةً[2]، سنأتي هنا بجُملٍ قليلةٍ منها ليظهر لك اللون الشاسع بين عقيدة أهل السُّنّة، وما سطّره ابن تيميّة في عقائده:

قال ابن جَهْبَل: الذي دعاني إلى تسطير هذه النُبذة: ما وقع في هذه المدّة ممّا

---

(١) انظر: تعليقة الكوثري في ذيل (الأسماء والصفات) للبيهقي: ٣٠١.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٩: ٣٥ ـ ٩١. ولوالد السُّبكي هذا ردود كثيرة وشديدة على ابن تيميّة تركناها لما رُمي به السُّبكي من عداء لابن تيميّة، رغم عدم موافقتنا لهذه التهمة، فالسبكي يمدح ابن تيميّة ويثني عليه كثيراً لأجل كتاب (منهاج السُّنّة) كما سيأتي في محلّه.

علّقه بعضهم في إثبات الجهة، واغترّ بها من لم يرسخ لهُ في التعليم قدمٌ، ولم يتعلّق بأذيال المعرفة، فأحببتُ أن أذكُر عقيدةَ أهل السُنّة والجماعة، ثمّ أبيّن فسادَ ما ذكره، مع أنّه لم يدّعِ دعوى إلاّ نقضها، ولا أطّد قاعدةً إلاّ هَدَمَها..

قال: مذهب الحشويّة في إثبات الجهة مذهبٌ واهٍ ساقط، وهم فريقان:

فريقٌ لا يتحاشىٰ في إظهار الحشو.

وفريق يتستَّر بمذهب السَلَف ويكذب علىٰ السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، ولو أنفق مِلءَ الأرض ذهباً ما استَطاعَ أن يروّج عليهم كلمةً تُـصَدِّق دعواه، وتَستُّر هذا الفريق بالسَلَف حِفظاً لرئاسته والحطام الذي يجتلبه، أو هوىً يجمع عليه الطغام الجَهَلَة والرعاع السَفِلَة..

ومذهب السَلَف إنّما هو التوحيدُ والتنزيه، دون التجسيم والتشبيه.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يخوضون في شيء من هذه الأشياء، مع أنّ سيوف حُججهم مرهفةٌ ورماخها مشحوذة..

ولم يُنقل عن سيّد البشر ﷺ ولا أحدٍ من أصحابه رضي الله عنهم أنّه جمع الناس في مجمعٍ عامٍ ثمّ أمرهم أن يعتقدوا في الله تعالى كذا وكذا..

وبالله أُقسِمُ يميناً برّةً، ما هي مرّة، بل ألف ألف مرّة، أنّ سيّد البشر ﷺ لم يقل: أيّها الناس اعتقدوا أنّ الله تعالى في جهة العلوّ. ولا قال ذلك الخلفاء الراشدون، ولا أحد من الصحابة، بل تركوا الناس وأمر التعبّدات والأحكام، أمّا التحريك للعقائد والتشمير لإظهارها وإقامة نائرها[1] فما فعلوا ذلك، بل حسموا البِدَعَ عند ظهورها..

---

(١) أقام نائرها: هيّجها.

وأضاف مخاطباً ابن تيميّة في عقيدته: ثمّ قلتَ: «عن السّلف في ذلك ـ أي في إثبات الجهة لله تعالى ـ من الأقوال ما لو جمعتُهُ لبلغت مائتين ألوفاً» فنقول:

إن أردت بالسّلَف سَلَف المشبّهة كما سيأتي في كلامك فربّما قاربتَ، وإن أردت سَلَف الأُمّة الصالحين فلا حرفاً ولا شطر حرف، وها نحن معك في مقامٍ مقامٍ ومضمارٍ مضمارٍ..

وبعد متابعته كلام ابن تيميّة وردّه فقرة فقرة، قال:

ونقول له: أوّل ما بدأت به الأوزاعي وطبقته ومن بعدهم! فأين السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار؟!

ثمّ من أين لك صحّة هذا النقل عن الأوزاعي؟!

ثمّ قال: ونَقَلَ ـ أي ابن تيميّة ـ عن مالك بن أنس والثوري والليث والأوزاعي أنّهم قالوا في أحاديث الصفات: أمرُّوها كما جاءت.

فيقال له: لِمَ لا أمسكتَ علىٰ ما أُمِرَتْ به الأئمّة؟!

قال: وحكى عن عبدالقادر الجيلي أنّه قال: الله بجهة العلوّ مستوٍ علىٰ عرشه.

فليتَ شِعري! لِمَ احتجّ بكلامه وترك مثل جعفر الصادق، والشبلي، والجُنيد، وذي النون المصري، وجعفر بن نُصير وأضرابهم، رضي الله عنهم؟!

ثمّ ذكر كلام جعفر الصادق عليه السلام في غير موضع، قال: وذي الحَسَب الزكيّ، والنَّسَب العليّ، سيّد العلماء، ووارث خير الأنبياء، جعفر الصادق عليه السلام، قال: «مَن زَعَم أنّ الله في شيءٍ، أو من شيءٍ، أو علىٰ شيءٍ فقد أشرك! إذ لو كان في شيءٍ لكان محصوراً، ولو كان علىٰ شيءٍ لكان محمولاً، ولو كان من شيءٍ لكان مُحدَثاً».

ثمّ أوجز عقيدة أهل السُنّة، فقال: وها نحن نذكر عقيدة أهل السُنّة، فنقول:

(عقيدتنا: أنّ الله قديمٌ، أزليّ، لا يُشْبِهُ شيئاً، ولا يُشبِهُهُ شيءٌ، ليس له جهةٌ ولا مكان، ولا يجري عليه وقتٌ ولا زمان، ولا يقال له «أينَ» و «حيثُ»، يُرَى لا عن مقابلة ولا علىٰ مُقابلة، كانَ ولا مكان، كوّن المكان، ودبّر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان).

ثمّ ختم الكلام بقوله: ونحن ننتظر ما يَرِدُ من تمويهِهِ وفساده، لنبيّن مدارج زيغه وعناده، ونجاهد في الله حقّ جهاده، والحمد لله ربّ العالمين.

منهجه في التفسير

ماذا فسّر من القرآن؟[1]

لم يفسّر القرآن كلّه، ولا فسّر سورة كاملةً منه، باستثناء بعض السور القصار كالكوثر، والإخلاص، والفلق، والناس، وإنّما اكتفى بتفسير آياتٍ قلائل متفرّقة من بعض السور لا كلّها، لأنّه كان يرى أنّ آيات القرآن الكريم منها ما هو ظاهر المعنى لا يحتاج إلى تفسير، ومنها ما بيّنه المفسّرون بما فيه الكفاية.

ويمكن حصر الآيات التي عُنِيَ بتفسيرها في موضوعين:

الأوّل: آيات الصفات.

والثاني: الآيات التي تقوده إلى الردّ على الصوفيّة وعقائدهم.

وقد كان يسوق الآيات سوقاً عجيباً إلى هذين الموضوعين، وإليك هذا المثال:

في تفسير سورة الكوثر، يقول: سورة الكوثر ما أجلّها من سورة، وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقة معناها تعلمها من آخرها، فإنّه سبحانه وتعالى

(١) جُمع ما كتبه في التفسير في كتاب طُبع لأوّل مرّة بعنوان (التفسير الكبير) بدار الكتب العلمية في بيروت، بتحقيق د. عبدالرحمن عميرة.

يبتر شانئ رسوله من كلّ خير.. وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول وردّه لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره، أو كبيره، كمن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات[١].

تأثير عقيدته في الصفات علىٰ منهجه في التفسير:

ومع هاوية التشبيه، ومن الموقف الحنبليّ أيضاً، لنحدّد موقعاً آخر من مواقع الخطأ التي أوقعت ابن تيميّة في تلك الهاوية:

يقول ابن الجوزي: إعلم أنّ عموم المحدّثين حملوا ظاهر ما تعلّق من صفات الباري سُبحانه علىٰ مقتضى الحسّ، فشبّهوا، لأنّهم لم يخالِطوا الفقهاء فيعرفوا حَمل المُتشابه علىٰ مقتضىٰ الحكم[٢].

فوجود المُتشابه في القرآن والسُنّة أمر مسلّم، أمّا القرآن فنصّه صريح في ذلك، في قوله تعالى: ﴿ *هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ* ﴾[٣].

وأمّا السُنّة فالمتشابه فيها وارد أيضاً، كما في نصّ ابن الجوزي المتقدّم.

لكنّ الذي ذهب إليه الشيخ ابن تيميّة أنّه نفى وجود المُتشابه علىٰ الإطلاق، وجعل القول كلّه محكماً! فهو يقول: إنّ التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثَمّ آيات محكمات لا تشابه فيها علىٰ أحد، وتلك

---

(١) مجموعة الرسائل المنيرية ١: ٢٢٤ ـ دار إحياء التراث العربي.

(٢) تلبيس إبليس: ١٣٤. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٤٠٧ هـ.

(٣) آل عمران ٣: ٧.

المتشابهات إذا عُرف معناها صارت غير متشابهة، بل القول كلّه مُحكم[١].

وعندما يُجمع أهل العلم بالتفسير من الصحابة وتابعيهم علىٰ أنّ المُتشابه، الذي يَحتمِل أكثر من معنى، إنّما يُعرف المراد منه بعد ردّه إلىٰ المحكم، فيُنتَخب المعنى الموافق للمحكم لأنّ القرآن لا يخالف بعضه بعضاً، وإنّما يُفسّر بعضه بعضاً ويُبيّنه..

يرى ابن تيميّة وحده أنّ المتشابه لا وجود له حقيقةً وإنّما يعلم معناه العلماء من غير ردٍّ إلى المحكم.

كلّ ذلك قاله لأجل تقرير عقيدته في الصفات، التي ورد الكثير منها في المُتشابه من القرآن والسُنّة، فإذا وافق علىٰ وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم فسوف تبطل عقيدته في تفسير آيات الصفات وأحاديثها علىٰ ظاهرها!.

ويُعدّ رأيه هذا في نفي المُتشابه في القرآن من أهمّ مزايا منهجه في التفسير..

فهو يقسّم طُرق التفسير الصحيحة إلى أربع طرق:

الأُولى: تفسير القرآن بالقرآن.

وهو محصور عنده بالمُجمَل والمُفصّل، والمختصر والمبسوط، أمّا المحكم والمتشابه فقد عطّله تماماً كما تقدّم[٢].

الثانية: التفسير بالسُنّة.

الثالثة: التفسير بأقوال الصحابة.

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٥٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢: ٢٣١.

الرابعة: التفسير بأقوال التابعين.

تقسيم رائع حين يكون التطبيق رائعاً أيضاً..

فحين يقول: إنّ جَمْعَ عبارات السَّلَف ـ في التفسير ـ نافع جدّاً، لأنّ مجموع عباراتهم أدَلّ على المقصود من عبارةٍ أو عبارتين[١]. تراهُ في نفس الوقت لا يأخذ من أقوال السَّلَف في التفسير إلّا ما وافق مذهبه.

وحين يذكر الاختلاف في التفسير وأسبابه، فيعيب قوماً (اعتقدوا معانٍ ثُمّ أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها)[٢] تراه يحمل ألفاظ القرآن على المعاني التي اعتقدها من مذهبه في التشبيه، ومن عقيدة ابن حزم الأندلسي[٣]، ثمّ يصف كلّ ذلك بأنّه (قول السَّلَف)، و (اتّفاق السَّلَف)، حتّى وإن كان أغلب السَّلَف على خلافه، بل ربّما لم يقل به أحد من السَّلَف، كما في النماذج التي عرضناها في هذا الفصل، وعند الكلام على علم الحديث في الفصل السابق.

ثمّ تراه يأخذ بأخبار الحشويّة التي تخالف ضروريّات الدين وصريح القرآن، لا في آيات الصفات التي تقدّم الحديث عنها فقط، وإنّما في مواضع أُخرى من التفسير، وإليك هذا النموذج الشاهد، الذي يرويه عنه أحد تلامذته الّذين حضروا عنده كثيراً:

يقول صلاح الدين الصفدي: سألته عن تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي

---

(١) مقدّمة في أُصول التفسير: ١٩.

(٢) مقدّمة في أُصول التفسير: ٣٣.

(٣) قال الصفدي في وصف آراء ابن تيميّة: أرى أنّ مادّته كانت من كلام ابن حزم. الوافي بالوفيات ٧: ١٨.
وابن حزم هو: عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم، الظاهري، عالم الأندلس، قلّده جماعة بالأندلس يقال لهم: الحزميّة. حاربه العلماء والفقهاء ونَهوا الناس عن مجالسته، وأُقصي إلى بادية (لَبْلَة) في الأندلس، حتى توفّي فيها سنة ٤٥٦ هـ. الأعلام ٤: ٢٥٤.

*خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ منها زوجها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَتْ حَملاً خفيفاً فَمَرَّت بِهِ فلمَّا أثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُما لَئِن آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرين * فَلَمّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمّا يُشرِكون﴾*[1].

فأجاب بما قاله المفسّرون في ذلك، وهو آدم وحوّاء، وأنّ حوّاء لمّا أثـقلت بالحمل أتاها إبليس في صورة رجل، وقال: أخاف من هذا الذي في بطنك أن يخرج من دبرك، أو يشقّ بطنك، وما يدريكِ لعلّه يكون بهيمةً أو كلباً ! فلم تزل في هَمٍّ حتّى أتاها ثانياً، وقال لها: سألتُ الله تعالى أن يجعله بشراً سويّاً، وإن كان كذلك سمّيه عبدالحارث. وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿ *فَلَمّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا آتاهُما* ﴾ وهذا مرويٌّ عن ابن عبّاس !

قال الصفدي: فقلتُ له: هذا فاسد من وجوه:

الأوّل: لأنّه تعالىٰ قال في الآية ﴿ *فتعالى اللهُ عمّا يُشرِكُونَ* ﴾ فهذا يدلّ علىٰ أنّ القصّة في حقّ جماعة.

والثاني: أنّه ليس لإبليس في الكلام ذكر.

والثالث: أنّ الله تعالى علّم آدم الأسماء كلّها، فلا بُدّ وأنّه كان يعلم أنّ اسم إبليس الحارث.

والرابع: أنّه تعالى قال: ﴿ *أيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقون* ﴾[2] وهذا يدلُّ علىٰ أنّ المراد به الأصنام، لأنّ (ما) لما لا يَعْقِل، ولو كان إبليس لقالَ (مَن) التي هي لمن يَعْقِل.

---

(١) الأعراف ٧: ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) الأعراف ٧: ١٩١ وهي الآية المتّصلة بموضع السؤال في الآيتين السابقتين (١٨٩ ـ ١٩٠).

فقال ﷺ: قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد بهذا قُصَيّ[1]، لأنّه سمّىٰ أولاده الأربعة: عبدمناف، وعبدالعزّى، وعبدقصيّ، وعبدالدار. والضمير في (يُشْرِكون) له ولأولاده من أعقابه الّذين يُسمّون أولادهم بهذه الأسماء وأمثالها!

فقلتُ له: وهذا أيضاً فاسد! لأنّه تعالى قال: ﴿ *خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوجَهَا* ﴾ وليس كذلك إلّا آدم لأنّ الله تعالى خلق حوّاء من ضلعه.

فقال ﷺ: المراد بهذا أنّ زوجه من جنسهِ عربيّةً قرشيّة!

قال الصفدي: فما رأيتُ التطويل معه[2].

ولا نرى نحن التعليق علىٰ ما انتخبه من التفسير، ولا علىٰ تأويله الأخير ﴿ *وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها* ﴾ أي أنّ زوجه من جنسه عربيّة قرشيّة، ولكن اقرأ ما ذكره القرطبي في هذه الأقوال، ثمّ قارن:

قال القرطبي: نحو هذا[3] مذكور من ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليّات كثير ليس لها ثبات، فلا يُعوّل عليها مَن لهُ قلب!

فإنّ آدم وحوّاء ﷺ وإن غرّهما بالله الغَرور، فلا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين. قال: وقال قوم: إنّ هذا راجع إلى جنس الآدميّين، والتبيين عن حال المشركين من ذرّيّة آدم ﷺ. وهو الذي يُعوّل عليه، فقوله: ﴿ *جَعلا لَهُ* ﴾ يعني الذكر والأُنثىٰ الكافرَين، ويُعنى بهما الجنسان، ودلّ علىٰ هذا قوله: ﴿ *عمّا يُشرِكون* ﴾ ولم يقل يشرِكان. وهذا قولٌ حسن[4].

---

(١) هو قُصيّ بن كلاب، جدّ النبيّ ﷺ.

(٢) الوافي بالوفيات ٧: ٢٠ ـ ٢١.

(٣) أراد ما ذكر أوّلاً من أنّ المراد آدم وحوّاء ﷺ.

(٤) تفسير القرطبي ٧: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

مع التَّفاسير والمُفسّرين:

كيف كانت رؤيته للتفاسير والمفسّرين؟

له رؤىً يذكرها في غير موضع من كتاباته، ثمّ جمعها في إجابةٍ له على سؤال ورده عن التفاسير، أيّها أقرب إلى الكتاب والسُّنّة: الزمخشري، أم القرطبي، أم البَغَوي، أم غير هؤلاء؟

فقال: أمّا التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحّها: تفسير محمّد بن جرير الطبري، فإنّه يذكر مقالات السَّلَف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتّهمين كمقاتل بن بكير[(١)]، والكلبي[(٢)].

والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة: كتفسير عبدالرزّاق[(٣)]، وعبد بن حُميد[(٤)]، ووكيع[(٥)]، وابن أبي قتيبة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه[(٦)].

وأمّا التفاسير الثلاثة المسؤول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث

---

(١) كذا، والظاهر أنّه مقاتل بن سليمان بن بشير، المتّهم بالكذب والتجسيم، وتقدّمت ترجمته. وفيهم مقاتل ابن بشير العجلي، قال العسقلاني: مقبول. وقال الذهبي: لا يُعرف. تقريب التهذيب ٢: ٢٧٢ / ١٣٤٥، ميزان الاعتدال ٤: ١٧١.

(٢) محمّد بن السائب الكلبي المفسّر، رمي بالرفض ـ التشيّع ـ توفّي سنة ١٤٦ هـ. تقريب التهذيب ٢: ١٦٣.

(٣) عبدالرزّاق بن همام الصنعاني الحافظ الثقة، كان يتشيّع، له (تفسير القرآن) و (الجامع الكبير)، توفّي سنة ٢١١ هـ. تقريب التهذيب ١: ٥٠٥، الأعلام ٣: ٣٥٣هـ.

(٤) عبد بن حميد بن نصر الكَشّي، الحافظ، له (تفسير القرآن)، توفّي سنة ٢٤٩ هـ. الأعلام ٣: ٢٦٩.

(٥) وكيع بن الجرّاح الرؤاسي، الحافظ، له (تفسير القرآن)، توفّي سنة ١٩٧ هـ. الأعلام ٨: ١١٧.

(٦) إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، ثقة حافظ مجتهد، قرين أحمد بن حنبل، وقيل: تغيّر قبل موته بقليل. توفّي سنة ٢٣٨ هـ. تقريب التهذيب ١: ٥٤.

الضعيفة: البَغَوي[1]، لكنّه مختصر من تفسير الثَعْلبي[2]، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبِدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك.

وأمّا الواحدي: فإنّه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية، لكنّ الثعلبي فيه سلامة من البِدَع وإن ذكرها تقليداً لغيره. وتفسيرهُ وتفاسير الواحدي: البسيط، والوسيط، والوجيز، فيها فوائد جليلة، وفيها غثّ كثير.

وأمّا الزمخشري: فتفسيره محشوّ بالبدعة. وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية![3] والقول بخلق القرآن، وأنكر أنّ الله مريد للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أُصول المعتزلة. وقد حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها، ولا لمقاصده فيها. مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة، ومن قلّة النقل عن الصحابة والتابعين.

وتفسير القرطبي: خيرٌ منه بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُنّة، وأبعد عن البِدَع.

وإن كان كلٌّ من هذه الكتب لا بُدّ أن يشتمل علىٰ ما يُنقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه.

وتفسير ابن عطيّة: خير من تفسير الزمخشري، وأصحّ نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البِدَع، وإن اشتمل علىٰ بعضها، بل هو خيرٌ منه بكثير، ولعلّه أرجح هذه التفاسير،

---

(١) الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، صاحب (مصابيح السُنّة) في الحديث، و (معالم التنزيل) في التفسير، توفّي سنة ٥١٠ هـ. الأعلام ٢: ٢٥٩.

(٢) أحمد بن محمّد بن إبراهيم الثعلبي، النيسابوري، صاحب (الكشف والبيان في تفسير القرآن)، توفّي سنة ٤٢٧ هـ. الأعلام ١: ٢١٢.

(٣) أي أنّهم أنكروا إمكان رؤية الإنسان ربَّهُ جلّ شأنه التي يقول بها أهل السُنّة.

لكن تفسير ابن جرير الطبري أصحّ من هذه كلّها.

وثَمَّ تفاسير أُخر كثيرة جدّاً كتفسير ابن الجوزي[١] والماوردي[٢][٣].

والمعتزلة من أعظم الناس كلاماً وجدالاً، وقد صنّفوا تفاسير علىٰ أُصول مذهبهم، مثل: تفسير عبدالرحمٰن بن كيسان الأصمّ[٤]، وكتاب أبي عليّ الجُبّائي[٥]، والتفسير الكبير للقاضي عبدالجبّار[٦]، والتفسير لعليّ بن عيسى الرمّاني[٧].

ولأبي جعفر الطوسي[٨] تفسير علىٰ هذه الطريقة، لكن يضمّ إلى ذلك قول الإماميّة الاثني عشريّة[٩].

---

(١) أبو الفرج، عبدالرحمٰن بن عليّ بن محمّد الجوزي، إمام الحنابلة في عصره، مولده ببغداد سنة ٥٠٨، ووفاته فيها سنة ٥٩٧ هـ. الأعلام ٣: ٣١٦.

(٢) عليّ بن محمّد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى القضاة في عهد القائم بأمر الله العبّاسي، صاحب (الأحكام السلطانية)، وله كتاب في تفسير القرآن، توفّي سنة ٤٥٠ هـ. الأعلام ٤: ٣٢٧.

(٣) مقدّمة في أُصول التفسير: ٥٠ ـ ٥٢.

(٤) أبو بكر الأصمّ، فقيه مفسّر، معتزلي، توفّي سنة ٢٢٥ هـ أو نحوها. الأعلام ٣: ٣٢٣.

(٥) محمّد بن عبدالوهّاب، من أئمّة المعتزلة، له تفسير مطوّل. توفّي سنة ٣٠٣ هـ. الأعلام ٦: ٢٥٦.

(٦) عبدالجبّار بن أحمد الهمذاني، شيخ المعتزلة في عصره، له تصانيف في التفسير وغيره، توفّي سنة ٤١٥ هـ. الأعلام ٣: ٢٧٣.

(٧) أبو الحسن الرمّاني، متكلّم مفسّر، معتزلي. توفّي سنة ٣٨٤ هـ. الأعلام ٤: ٣١٧.

(٨) محمّد بن الحسن بن عليّ الطوسي، فقيه الشيعة ومصنّفهم، له (التبيان في تفسير القرآن) تفسير كبير، توفّي سنة ٤٦٠ هـ. الأعلام ٦: ٨٤.

(٩) مقدّمة في أُصول التفسير: ٣٤ ـ ٣٥.

الفصل الثالث

مَعَ الصُّوفيّة

هكذا خاطب الصوفيّة

مع ابن عربي في عقائده

العقيدة في التوسّل بالنبيّ (ص)

زيارة قبور الأنبياء والصالحين

هكذا خاطب الصوفيّة

لم يكن خطابه للصوفيّة كخطابه لليزيديّة الغلاة، فحين كان مع غلاة اليزيديّة ذلك الناصح المشفق والودود الرحيم، تراه مع الصوفيّة علىٰ العكس من ذلك، فهو لا يتردّد في وصفهم بالضلال، وتشبيههم بالكفّار والمشركين حتّى حين يوجّه كلامه للعوامّ منهم وبعض من انتحل التصوّف، وإن استثنىٰ بعض مشاهيرهم كالجُنيد وأبي يزيد البسطامي وعبدالقادر الجيلي ونظرائهم.

وفي كتابه (العبادة وحقيقة العبوديّة) تراه كأحد الصوفيّة المصلحين، يكشف عن وجوه أخطائهم، وينتقد إغراقهم في بعض المعاني، ويردّ عليهم بلغتهم، لغة الصوفيّة، لا بلغة الفقهاء..

فكثير من أهل التصوّف قد غرّه حاله، وغرق في جهله، فهم يتكلّمون عن الحقيقة وشهود الحقيقة، فيقع أكثرهم في الوهم الكبير حين لا يميّز بين مراتب الحقيقة وشهودها.

فأوّل الحقائق هي الحقيقة الكونيّة، ومعناها أنّ الله تعالى هو الخالق لهذا الكون وما فيه، وكثير منهم ممّن يتكلّم عن الحقيقة وشهودها إنّما يشهد هذه الحقيقة لا غير، في حين لم يكن هذا الشهود ممّا اختصّ به المؤمنون، بل يشترك فيه المؤمن

والكافر، والبرّ والفاجر ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ والأرض ليقولنّ الله ﴾ بل وإبليس أيضاً معترف بهذه الحقيقة!

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينيّة التي هي عبادته المتعلّقة بإلٰهيّته وطاعة أمره وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

ومن أخذ بالحقيقة الدينيّة في بعض الأُمور دون بعض، أو في مقام أو حال دون آخر، نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينيّة. وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه علىٰ السالكين حتّى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدّعين التحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلّا الله.

ولربّما زعم بعضهم أنّه حين يبلغ الوليّ شهود الإرادة كما بلغ الخضر ونحوه، يسقط عنه الأمر والنهي التعبديّين! وهذا شرٌّ من أقوال الكافرين بالله ورسوله.

ومنهم من يتّكئ علىٰ القدر حتّى يظنّ أنّ المعاصي والذنوب جارية عليه بمشيئة الله وقَدَره، فيسلّم لها ظانّاً أنّ هذا هو حقّ المعرفة والرضا! وهذا جهل كبير، فلو كان هذا عذراً لأحد لكان عذراً لإبليس ولكلّ كافر![1].

ولإغراقهم في دعوى الحبّ تعرّض كثير منهم للانزلاق الخطير، فقد ظهر في المتأخّرين منهم من انبسط في دعوى المحبّة حتّى أخرجه ذلك إلىٰ نوع من الرعونة، فأصبح يدّعي دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلب من الله ما لا يصلح حتّى للأنبياء والمرسلين! وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ، وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بيّنها الرُّسُل، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، فإذا

---

(١) العبادة وحقيقة العبودية: ١٠ ـ ١٤.

ضعف العقل وقلّ العلم بالدين، وفي النفس محبّة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك حتّى يقول: أنا محبّ، فلا يؤاخذني الله! وهذا عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى ﴿ *نحن أبناءُ الله وأحبّاؤه* ﴾.

وكثير من السالكين سلكوا في دعوىٰ حبّ الله أنواعاً من الجهل بالدين، كتعدّي حدود الله، أو تضييع حقوق الله، أو ادّعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد!

ولكن مثل هذا قد يصدر في حال سكر وغَيبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتّى لا يدري ما قال، والسكرُ هو لذّة مع عدم التمييز، لهذا كان بعضهم إذا صحا استغفر من ذلك الكلام[1].

وهذا النوع من الفناء هو (الفناء عن شهود السّويّ) وكثيراً ما يحصل للسالكين، فإنّهم لفرط انجذاب قلوبهم إلىٰ ذكر الله وعبادته ومحبّته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون إلّا به، كما قيل في قوله تعالى: ﴿ *وأَصْبَحَ فؤادُ أُمِّ موسىٰ فارغاً* ﴾ قالوا: فارغاً من كلّ شيء إلّا من ذكر موسى.

أمّا أكابر الأولياء فلم يقعوا بمثل هذا الفناء، ولا كان هذا حال الصحابة الكرام، وإنّما وقع شيء منه بعد الصحابة.

وأمّا مرتبة الكاملين من الأنبياء والأولياء فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ *إلّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ* ﴾ قالوا: هو السليم ممّا سوى

---

(١) العبادة وحقيقة العبودية: ٥٣ ـ ٥٨.

الله. وهو المعنى الذي قصده الشيخ أبو يزيد حين قال: أُريد أن لا أُريد ما يريد[1].

وعلى هذا النحو سار في كتابه (التحفة العراقيّة في الأعمال القلبيّة) وقد فسّر الأعمال القلبيّة بالمقامات والأحوال.

في آفاق الصراع:

أخذ صراعه مع الصوفيّة ـ رجالهم وعقائدهم وممارساتهم ـ ردحاً طويلاً من عمره، وشغل من مصنّفاته حصّةً توازي ما كتبه في الصفات.

ونالت هذه الحصّةُ حظّها الوافر في ما كُتِبَ عنه قديماً وحديثاً، غير أنّ أحداً من الّذين كتبوا لم يقف علىٰ أسرار منهجه في ذلك الصراع، وإنّما أغراهُم أنّه واجه الصوفيّة، وكشف أخطاءهم، وشنّع عليهم، وأبطلَ حِيَلَهُم، من غير أن يلتفتوا إلى سؤال خطير لا بُدّ أن يتصدّر أيّ بحثٍ علميّ في مثل هذا الميدان، ألا وهو: هل كان الشيخ ابن تيميّة مصيباً في كلّ ما واجه به الصوفيّة؟

وحين كان يردّ علىٰ ما أسماه (ضلالهم وانحرافهم) هل وقف هو على الأحكام الحقّة الموافقة للكتاب والسُنّة؟

ثمّ أشياء قد تستنكرها، ولكنّها الحقيقة التي لا غبار عليها ولا تقبل تأويلاً!

لقد وقع ابن تيميّة أثناء ردوده علىٰ الصوفيّة في أخطاء كبيرة ليست أقلّ خطراً من أخطائهم التي ذهب ينتقدها، فحين وجد فيهم ميلاً عن الصواب في بعض ما لديهم، نازعهم فيه، فبالغ في النزاع حتّى مال هو أيضاً عن الصواب ولكن إلى

(١) العبادة وحقيقة العبودية: ٦٣ ـ ٦٥.

الجانب الآخر ليكون علىٰ الطرف النقيض لهم أبداً.

ثمّ استفاد من لباقته التي تستحوذ علىٰ القارئ فسلك أُسلوباً في المناقشة والاحتجاج لا يُبيحُهُ البحث العلمي بشكل من الأشكال!.

في الفقرات التالية نُبَذٌ موجزة من هذا الأُسلوب، وتلك الأخطاء، وذاك التطرّف.

مع ابن عربي في عقائده

في البدء: من هو ابن عربي ؟[*].

هو محمّد بن عليّ بن محمّد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي، المعروف بالشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

مولده بالأندلس في سنة ٥٦٠ هـ. وزار الشأم وبلاد الروم والعراق، ثمّ زار مصر فحُبِس فيها بسبب «شطحات صدرت منه» كما قيل، وأراد بعضهم قتله، ولكن سعى آخرون في خلاصه، فنجا، وخرج من مصر إلىٰ دمشق، فأقام فيها حتى توفّي سنة ٦٣٨هـ.

وكان فيلسوفاً متصوّفاً، من أئمّة المتكلّمين في كلّ علم، وله تصانيف عديدة قدّرت بنحو أربعمئة كتاب ورسالة، وله ديوان شعر أكثره في التصوّف.

وصفه الذهبي فقال: هو قدوة المتكلّمين بوحدة الوجود.

ووحدة الوجود عند ابن عربي تعني كما عبّر عنها هو:

(أنّه ما في الوجود إلّا الله، ونحنُ وإن كنّا موجودين فإنّما وجودنا به ـ تعالى ـ، وفي هذا المعنى قول لَبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ[1]. قال رسول الله ﷺ في

(*) سير أعلام النبلاء ٢٣: ٤٨، لسان الميزان ٥: ٣١١، الأعلام ٦: ٢٨١.

(١) هذا هو النصف الأوّل من بيت لبيد بن ربيعة، ونصفه الثاني: وكلّ نعيم لا محالةَ زائلُ.

هذا البيت: «أصدق بيت قالته العرب قولُ لبيد[١]»)[٢].

وابن عربي مِن أكثر مَن وقع تحت مطرقة ابن تيميّة، فوصفه بالكفر والضلال، ونسب إليه من الأقوال ما يثير الدهشة، فيمرّ علىٰ البسطاء والمقلّدين الواثقين بشيخهم مرور البراهين المحكمة، والحقائق الثابتة! ولكن ما أن يكلّف المرء نفسه قليلاً في البحث عن الحقيقة، ويلقي جلباب التقليد وراءه، حتّىٰ يجد أنّه كلام ليس فيه من الحقّ شيء!

بل يجد أغرب من ذلك، يجد وهو يتنقّل بين الحقيقة والافتراء ما هو أشبه ببعض اللُّعَب السياسيّة، أو المسرحيّات الساخرة!

لذا وسمتُ الفقرات التي سأعرضها هنا (بالمشاهد) وما أن تقرأ شيئاً منها حتّىٰ توافقني علىٰ هذا العنوان.

المَشهد الأوّل:

قال ابن تيميّة:

ومنهم ـ أي الصوفية ـ من يدّعي أنّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأنّ الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب (الفتوحات المكيّة) وكتاب (الفصوص)، فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله وأوليائه[٣].

---

(١) كنز العمّال ٣: ٥٧٧ / ٧٩٧٨.

(٢) الفتوحات المكيّة ٣: ٤٤٣.

(٣) ابن تيميّة (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان): ٨٠ ـ جماعة الدعوة إلىٰ القرآن والسنّة ـ بشاور ـ باكستان.

كلام ابن عربي في الأنبياء والأولياء:

ننقل من كلام محيي الدين بن عربي في كتابه (الفتوحات المكيّة) عدّة نصوص في هذا الشأن ليتّضح الأمر وتسهل المقارنة.

قال ابن عربي: إنّ الله اصطفى من كلّ جنسٍ نوعاً، ومن كلّ نوعٍ شخصاً، واختاره عنايةً منه بذلك المختار... فاختار من النوع الإنساني: المؤمنين، واختار من المؤمنين الأولياءَ، واختار من الأولياء الأنبياءَ، واختار من الأنبياء الرسُلَ، وفضّل الرسُلَ بعضهم علىٰ بعض[1].

وهذا صريحٌ في تفضيل الأنبياء علىٰ الأولياء.

وقال: إعلم أنّ الرسلَ أعدل الناس مزاجاً، لقبولهم رسالات ربّهم، وكلّ شخصٍ منهم قَبِلَ من الرسالة قدر ما أعطاه الله في التركيب، فما من نبيٍّ إلّا بُعِثَ خاصّةً إلىٰ قومٍ معيّنين لأنّه علىٰ مزاجٍ خاصٍّ مقصور، وأنّ محمّداً ما بعثه الله إلّا برسالةٍ عامّةٍ إلىٰ جميع الناس كافّةً، ولا قَبِلَ هو مثل هذه الرسالة إلّا لكونه علىٰ مزاجٍ عامٍّ يحوي علىٰ مزاج كلّ نبيٍّ ورسول، فهو أعدل الأمزجة وأقومها وأكمل النشآت[2].

وقال: إنّ شرط أهل الطريق ـ يعني مشايخ الصوفيّة ـ في ما يُخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق، ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبيٍّ صاحب شريعة في نبوّة التشريع ولا في الرسالة، فكيف نتكلّم في مقامٍ لم نصل إليه،

---

(١) الفتوحات المكيّة ١: ٤٦٥.

(٢) الفتوحات المكيّة ٣: ٢٥١.

أو علىٰ حالٍ لم نذُقْهُ لا أنا ولا غيري ممّن ليس بنبيّ ذي شريعةٍ من الله، ولا رسول ؟! حرامٌ علينا الكلام فيه(١).

وقال أيضاً: حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين، فسأل بعضهم بعضاً: من أيّ مقامٍ سألَ موسى الرؤية(٢).

فقال الآخر: مِن مقام الشوق.

فقلتُ له: لا تفعل، أصل الطريق أنّ نهايات الأولياء بدايات الأنبياء، فلا ذوق للوليّ في حال من أحوال أنبياء الشرائع، ومن أُصولنا أنّا لا نتكلّم إلّا عن ذوق، ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأيّ شيءٍ نعرف من أيّ مقام سأل موسى الرؤية ؟!(٣).

الآن، وبعد أن قرأنا عقيدة ابن عربي أصبحنا قادرين علىٰ معرفة مدىٰ صحّة ما نسبه إليه ابن تيميّة، وسنزداد يقيناً مع المشاهد التالية..

المشهد الثاني:

قال ابن تيميّة:

ولمّا كانت أحوال هؤلاء شيطانيّة، كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكيّة) و (الفُصوص) وأشباه ذلك، يمدح الكفّار مثل: قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، وينتقص

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٤.

(٢) أراد قول موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ الأعراف ٧: ١٤٣.

(٣) الفتوحات المكيّة ٢: ٥١.

الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون! ويذمّ شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمّد، وسهل بن عبدالله التستري وأمثالهما، ويمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلّاج ونحوه[1].

مع ابن عربي:

إنّ الصحيح من عقيدة ابن عربي الثابت في كتبه هو على الضدّ تماماً ممّا ذكره ابن تيميّة.

فعن المقام الأوّل: حيث نسب إليه ابن تيميّة مديح الكفّار وذمّ الأنبياء، اقرأ هذا النصّ من كلام ابن عربي:

قال ابن عربي: ينبغي للمذكّر أن يراقب الله ويستحي منه ويكون عالماً بما يورده، وما ينبغي لجلال الله، ويتجنّب الطامّات في وعظه، فإنّ الملائكة يتأذّون إذا سمعوا في الحقّ وفي المصطفَين من عباده ما لا يليق، وهم عالمون بالقصص، وقد أخبر ﷺ أنّ العبد إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به، فتمقتُهُ الملائكة.

فإذا علم المذكّرُ أنّ مثل هؤلاء يحضرون مجلسه، فينبغي له أن يتحرّى الصِّدق ولا يتعرّض لما ذكره المؤرّخون عن اليهود مِن زلّاتِ مَنْ أثنىٰ الله عليهم واجتباهم، ويجعل ذلك تفسيراً للقرآن، ويقول: قال المفسّرون!

وما ينبغي أن يقدم علىٰ تفسير كلام الله بمثل هذه الطوامّ، كقصّة يوسف وداود وأمثالهم، ومحمّد ﷺ، بتأويلات فاسدة وأسانيد واهية عن قومٍ قالوا في الله

---

(١) الفرقان: ٩٨.

ما قد ذكر الله عنهم[١]، فإذا أورد المذكِّر هذا في مجلسه مقتته الملائكة ونفروا عنه، ومقته الله، ووجد الذي في دينه نقص رخصةً يلجأ إليها في معصيته، ويقول: إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا فمن أكون أنا ؟ وحاشا والله الأنبياء ممّا نسبت إليهم اليهود لعنهم الله..

وهؤلاء الّذين يردّدون افتراءات اليهود نَقَلَةٌ عن اليهود، لا عن كلام الله، لما غلب عليهم من الجهل، فواجبٌ على المذكِّر إقامة حرمة الأنبياء ﷺ، والحياء من الله، وأن لا يقلّد اليهود في ما قالوا في حقّ الأنبياء ﷺ، ونَقَلَة المفسّرين خذلهم الله[٢].

هكذا عظّم ابن عربي حرمة الأنبياء ﷺ، وردّ جميع ما رواه اليهود من الإسرائيليّات التي تناقلها حشويّة المفسّرين.

فأين هذا ممّا نسبه إليه الشيخ ؟!

بل أين هذا من كلام الشيخ نفسه حين ذهب يفسّر قوله تعالى: ﴿ *جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا* ﴾ ؟![٣].

وللشيخ ابن عربي في وصف الأنبياء ﷺ أبيات من الشعر، نذكر منها قوله:

هُمُ أنبياءُ أخيارٌ بأجمعهم — *بلا خلاف، وهُم من جُملة الأُمَمِ*
وهم على فضلهم اعلى التفاضل في — *تقريبهم، ولهم جوامعُ الكَلِمِ*[٤]

وعن المقام الثاني: حيث زعم ابن تيميّة أنّ ابن عربي يَذمّ الجُنيد وسهل بن

---

(١) يريد اليهود وقولهم: يد الله مغلولة.
(٢) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٥٦.
(٣) تقدم تفسيره لهذه الآية مفصّلاً في الفصل السابق ص١٤٥.
(٤) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٥٥.

عبدالله التستري، إقرأ ما قاله ابن عربي في هذين الرجلين وأمثالها من الشيوخ المدوجين:

قال الشيخ ابن عربي في كلامه عن الهَباء باعتباره المخلوق الأوّل في العالم، قال: وقد ذكره ـ أي الهَباء ـ عليّ بن أبي طالب ﷺ، وسهل بن عبدالله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود[١].

وقال في موضع آخر: وطائفةٌ أُخرى من علماء هذه الأُمّة يحفظون عليها أحوال الرسول ﷺ وأسرار علومه كعليّ بن أبي طالب ﷺ، وابن عبّاس، وسلمان ـ إلىٰ أن قال ـ ومن نزل عنهم بالزمان كشيبان الراعي... والجنيد والتُستري ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبويّ والعلم اللدنّي والسرّ الإلهي[٢].

هذا هو قوله في الجُنيد والتُستري، وهكذا أطراهم كلّما ذكرهم، وأثنى عليهم في مواضع يصعب حصرها..

فهل بعد هذا التبجيلِ تبجيلٌ ؟! يقرنهم بعليّ بن أبي طالب ﷺ، ويجعلهم من السادة الّذين حفظوا الحال النبويّ، والعلم اللدنّي، والسرّ الإلهي !

وأمّا المقام الثالث: حيث زعم ابن تيميّة أنّ ابن عربي يمدح الحلّاج، فإنّ خلاصة رأي ابن عربي في الحلّاج قد جمعها في قوله: إنّ الحلّاج ليس من أهل الاحتجاج[٣].

---

(١) الفتوحات المكيّة ١: ١١٩.

(٢) الفتوحات المكيّة ١: ١٥١.

(٣) الفتوحات المكيّة ٤: ٣٢٨.

أفي هذا شيءٌ من المديح، أم هو طعنٌ صريح في الحلّاج ؟!.

فهل رأيت الشيخ أنصف في شيءٍ ممّا ذكره، أم تراه عمد إلىٰ أقوال ابن عربي فقلبها إلىٰ العكس ليتّخذها ذريعةً إلىٰ طعنه ورميه بالكفر والضلال ؟

وفي المشهد الآتي يزداد الوضوح:

المشهد الثالث:

ما زال الشيخ ابن تيميّة ينسب ابن عربي إلىٰ القول بالاتّحاديّة، أي أنّ وجود المُحْدَث هو عين وجود القديم[1].

واستخدم في الردّ عليه عباراتٍ ساخرة استهزاءً به في غير موضع من كتابه (الفرقان) وغيره.

ثمّ تكلّم علىٰ الاتّحاديّة فقال: يجعلون الحقيقة أنّه ـ أي الله تعالى ـ هو عين الموجودات، وحقيقة الكائنات، وأنّه لا وجود لغيره!

ثمّ قال مفسّراً قولهم هذا بأنّه: لا بمعنى أنّ قيام الأشياء به ـ تعالى ـ ووجودها به، كما قال النبيّ ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ»، وكما قيل في قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾، فإنّهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنّهم يريدون أنّه هو عين الموجودات. فهذا كفر وضلال[2].

لاحظ كيف فسّر كلامهم ليرميهم بالكفر والضلال!

---

(١) الفرقان: ٩٩.

(٢) مجموعة الفتاوى ١٠: ٣٤٢ ـ الرياض ـ ١٣٨٢ هـ. عنه محمود الغراب في (شرح كلمات الصوفيّة).

والأكثر من هذا غرابةً شيئان:

الأوّل: أنّ كلامه الذي جعله تفسيراً صحيحاً مطابقاً للحديث النبويّ في شعر لبيد، ومطابقاً للآية الكريمة، ثمّ سمّاه «الشهود الصحيح»، إنّ هذا الكلام بعينه وحروفه هو كلام الشيخ محيي الدين بن عربي، غير أنّ ابن تيميّة قَدّم فيه جملة وأخّر أُخرى، ولكن من غير أدنى زيادة في لفظٍ أو معنى! فاقرأ هذه الفقرة من كلام ابن عربي لترى العجب:

قال ابن عربي:

إعلم أنّ العالَم عبارة عن كلّ ما سوى الله، وليس إلّا الممكنات سواءٌ وُجِدَتْ أو لم توجد، فإنّها بذاتها علامةٌ علىٰ علمنا بواجب الوجود لذاته وهو الله ـ إلىٰ أن قال ـ فالعالَم إن نظرتَ حقيقتَهُ إنّما هو عَرَض زائل، أي في حكم الزوال، وهو قوله تعالى: ﴿كُلّ شيءٍ هالكٌ إلّا وَجْهَهُ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «أصدق بيتٍ قالته العرب قول لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ» يقول: ما لَهُ حقيقةٌ يثبُت عليها من نفسه، فما هو موجودٌ إلّا بغيره، ولذلك قال ﷺ: «أصدق بيت قالته العرب: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ»[1].

فهل زاد ابن تيميّة حرفاً واحداً علىٰ هذا الكلام في ما أسماه الشهود الصحيح؟

والثاني: قوله: إنّ ابن عربي يقول: «إنّ وجود المُحدَث هو عين وجود القديم» والمُحدَث: هو المخلوق، والقديم: هو الخالق جلّ جلاله..

وابن عربي أبرأ ما يكون من هذا، وقد شرح عقيدته في عبارة يفهمها الصغار

---

(١) الفتوحات المكيّة ٣: ٤٤٣.

كما يفهمها الكبار، في مواضع عديدة من كتبه يصعب حصرها، ومنها:

قوله المتقدّم: إعلم أنّ العالَم عبارة عن كلّ ما سوى الله... إلىٰ آخر كـلامه المذكور.

وقوله: يستحيلُ تبدُّلُ الحقائق، فـالعبدُ عـبدٌ، والربُّ ربٌّ، والحـقُّ حـقٌّ، والخلقُ خَلقٌ(١).

وقوله: لا يجتمع الخلق والحقّ أبداً في وجهٍ من الوجوه، فالعبدُ عبدٌ لنفسه، الربُّ ربٌّ لنفسه، فالعبوديّة لا تصحّ إلّا لمن يعرفها فيعلم أنّه ليس فيه من الربوبيّة شيء، والربوبيّة لا تصحّ إلّا لمن يعرفها فيعرف أنّه ليس فيه من العـبوديّة شيء، فأوجب علىٰ عبده التأخّر عن ربوبيّته، فشرع له الصلاة، ليُسمّيه بالمصلّي، وهـو المتأخّر عن رتبة ربّه(٢).

وغير هذا كثير في البراءة من القول بالاتّحاديّة.

إذن لم ينقل الشيخ حرفاً واحداً من كلام ابن عربي بأمانة حين وجده مطابقاً للعقيدة الحقّة!

لقد حَمَلَهُ تعصُّبه الشديد ضدّ ابن عربي علىٰ أن يقلب عقيدته رأساً على عقب ليفتي بكفره وضلاله !!

وربّما يقال إنّه لم يقرأ كتب ابن عربي، ولكنّه سمع مِن بعض مَن يثق به مـن خصوم ابن عربي، فقال ما قال! ولعلّ هذا أحسن الأعذار!

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٣٧١.

(٢) الفتوحات المكيّة ٢: ٣٧٧، وانظر: (شرح كلمات الصوفيّة والردّ علىٰ ابن تيميّة) للأُستاذ محمود محمود الغراب ففيه تفصيل كثير.

العقيدة في التوسّل بالنبيّ ﷺ

من أهمّ محاور صراعه المذهبي عامّةً، ومع الصوفيّة خاصّةً: العقيدةُ في التوسّل بالنبيّ ﷺ وبشفاعته. فقد أكثر فيها الكلام وصنّف فيها كتباً ورسائلَ مفردة.

وخلاصة عقيدته فيها أنّه قسّم التوسّل إلىٰ ثلاثة معانٍ، أباحَ اثنين منها، وحرّم الثالث، فقال:

لفظ التوسّل يراد به ثلاثة معانٍ:

أحدها: التوسّل بطاعة النبيّ والإيمان به. وهذا هو أصل الإيمان والإسلام، ومن أنكره فكفره ظاهر للخاصّة والعامّة.

والثاني: التوسّل بدعائه وشفاعته ـ أي أنّ النبيّ هنا هو الذي يدعو ويشفع مباشرةً ـ وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة، يتوسّلون بشفاعته. ومن أنكر هذا فهو كافر مرتدّ يُستتاب، فإن تابَ وإلّا قُتلَ مرتدّاً.

والثالث: التوسّل بشفاعته بعد موته، والإقسام علىٰ الله بذاته. وهذا من البدَع المُحدَثة[1].

وبعد هذا التقسيم، والتعريف بكلّ قسم، يُطيل الكلام في القسم الثالث،

---

(١) انظر: التوسّل والوسيلة: ١٣، ٢٠، ٥٠.

فيظهر في كلامه الاضطراب، ويكثر فيه التكرار، واللفّ والدوران. والسبب في ذلك كلّه إصراره علىٰ إنكار سُنَنٍ ثابتة وأحاديث صحيحة يعترف بصحّتها حيناً، ثمّ يعود وكأنّه نسي ذلك فينفي وجود شيء منها أصلاً! وينسب إلىٰ الصحابة إجماعاً، ثمّ يأتي عنهم بنقيضه، فيجد نفسه مضطرّاً إلىٰ اللفّ والدوران للخروج من تلك المآزق، ولكن لا مخرج له منها.

وإليك موجزاً لشيء من تلك الاضطرابات ليُريكَ فيها من جُرأته عجباً:

قال ابن تيميّة: كان الصحابة يتوسّلون إلىٰ الله تعالى بنبيّه، وهو توسّلهم بدعائه وشفاعته، ومن ذلك ما رواه أهل السنن وصحّحه الترمذي: «أنّ رجلاً قال للنبيّ ﷺ: ادعُ الله أن يَرُدَّ عليّ بصري.

فأمره أن يتوضّأ ويصلّي ركعتين، ويقول: اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد، يارسول الله، إنّي أتوجّهُ بك إلىٰ ربّي في حاجتي ليقضيها اللّهمّ فشفّعْهُ فيَّ».

قال: فهذا طَلَبَ من النبيّ ﷺ، وأمَرَهُ أن يسأل الله أن يقبل شفاعة النبيّ له في توجّهه بنبيّه إلىٰ الله، وهو كتوسّل غيره من الصحابة به إلىٰ الله، فإنّ هذا التوجّه والتوسّل هو توجّه وتوسّل بدعائه وشفاعته[(١)].

وقال: كان الصحابة يطلبون من النبيّ الدعاء، فهذا مشروعٌ في الحيّ[(٢)].

ثمّ انتقل للردّ علىٰ من توسّل بشفاعته ودعائه بعد موته، فقال:

معلوم أنّ الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ

---

(١) كتاب الزيارة: ٤٧ ـ المسألة الرابعة ـ، التوسّل والوسيلة: ٩٢.

(٢) كتاب الزيارة: ٨٦ ـ المسألة السابعة ـ، التوسّل والوسيلة: ٢٠.

يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ *والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ* ﴾[٢].

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد.

وكذلك ما رويَ أنّ النبيّ ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أُمّته، هو من هذا الجنس، هم يفعلون ما أذِنَ الله لهم فيه بدون سؤال أحد.

قال: وإذا لم يُشرع دعاء الملائكة، لم يُشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون، لوجهين:

أحدهما: أنّ ما أمرهم الله بِهِ من ذلك هم يفعلُونه وإن لم يُطلَب منهم، وما لم يؤمروا به لا يفعلُونه ولو طُلِبَ منهم، فلا فائدة في الطلب منهم!

الثاني: أنّ دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يُفضي إلىٰ الشرك بهم، ففيه هذه المفسدة![٣].

وهنا ثلاث وقفات مع ثلاث مسائل:

الأُولى: مع قوله: «وإذا لم يُشرَع دعاء الملائكة، لم يُشرَع دعاء من مات من

---

(١) غافر ٤٠: ٧.

(٢) الشورى ٤٢: ٥.

(٣) التوسّل والوسيلة: ٣٣ ـ ٣٤.

الأنبياء والصالحين».

فما هو وجه القياس هنا ؟! وما وجه الشبه بين الأمرين حتّى أطلق هذا الحكم القطعي ؟

والثانية: مع قوله في الوجه الأوّل: «إنّ ما أمرهم الله به من ذلك ـ أي الدعاء والشفاعة ـ هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طُلِبَ منهم، فلا فائدة من الطلب منهم».

فيقال: كيف أثبت إذن قبل قليل وفي أكثر من موضع أنّ الصحابة كانوا يطلبون ذلك من النبيّ فيستجيب لهم، وذكر الحديث الصحيح المُثبت في كتب السُنَن ؟!

ومعلوم أنّ الأنبياء عليهم السلام في حياتهم لم يفعلوا إلّا ما يؤمروا به، فلماذا لم يقل النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه: لا فائدة من طلبكم، فإذا أُمرتُ فعلتُ، وإذا لم أُؤمر لم أفعل ؟!.

لو كان ذلك حقّاً لعلّمه النبيّ أصحابه وأُمّته، ولم يلبِّ طلباتهم فيدعو لهم ويشفع كما كان شأنه صلى الله عليه وآله.

والثالثة: مع قوله في الوجه الثاني: «إنّ دعاءهم وطلب الشفاعة منهم يفضي إلى الشرك، ففيه هذه المفسدة».

فيقال بكلّ إيجاز: إن صحّ ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وآله، فليس لأحد أن يقول: إنّه يفضي إلى الشرك ففيه هذه المفسدة. لأنّ المفسدة والشرك لا يأتي من الأحكام الشرعيّة ذاتها، وإنّما يأتي من الجهل بها وبتفاصيلها، وتركِ العلماء إظهار السُنّة وإماتة البدعة. وليس هذا رهن بمسألة الدعاء وحدها، بل بكلّ المسائل، فمتى عمّ الجهل وانقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظهرت المفاسد وشاع الشرك من

أبواب شتىٰ، لا بابٍ واحد.

ثمّ لم يجد الشيخ ابن تيميّة نصّاً عن النبيّ ﷺ يستفيد منه النهي عن التوسّل بشفاعته بعد موته، بل علىٰ العكس، وجد في الصحيح الذي أقرّ بصحّته استمرار الصحابة علىٰ هذا النوع من التوسّل، ولكن رغم ذلك كلّه فهو يتنكّر له بعدما اعترف بصحّته، وينفي وجوده بعبارات متضاربة، فيرمي نفسه بسهامه، ويهدم بناءه بمعاوله!

فهو ينقل بالطرق الصحيحة حديث الصحابي الجليل عثمان بن حُنيف في زمن الخليفة عثمان بن عفّان، فيقول: روى البيهقي أنّ رجلاً كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفّان في حاجةٍ له، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته. فلقي الرجلُ عثمانَ بن حُنيف فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حُنيف: ائتِ الميضأة فتوضّأ ثمّ ائتِ المسجد فصلِّ ركعتين، ثمّ قُل: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّهُ إليك بنبيّنا محمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد، إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي ليقضي لي حاجتي» ثمّ اذكر حاجتك، ثمّ رُح حتّىٰ أروح معك.

قال: فانطلق الرجل فصنع ذلك، ثمّ أتى بعدُ عثمانَ بن عفّان فجاء البوّاب فأخذ بيده فأدخله علىٰ عثمان فأجلسه معه علىٰ الطنفسة، وقال: انظر ما كانت لك من حاجة. فذكر حاجته، فقضاها له.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حُنيف، فقال له: جزاك اللهُ خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتّى كلّمْتَهُ فيّ.

فقال عثمان بن حُنيف: ما كلّمتُه، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ وقد جاءه ضرير وشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبيّ ﷺ: «أوَتصبر؟».

فقال: يا رسول الله، لي قائدٌ، وقد شقّ عليّ.

فقال ﷺ: «ائتِ الميضأة فتوضأ، ثمّ صلِّ ركعتين، ثمّ قل: اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّدٍ نبيّ الرحمة، يا محمّد، إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي فيجلي لي عن بصري، اللّهمّ فشفّعه فيّ» قال عثمان بن حُنيف: فوالله ما تفرّقنا وما طال بنا الحديث حتّى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرٌّ قطّ.

قال البيهقي: ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله. ورواه أيضاً هشام الدستوائي عن أبي جعفر، عن أبي أُمامة بن سهل، عن عمّه عثمان بن حُنيف[(١)].

قال ابن تيميّة: قلتُ: وقد رواه ابن السُّنّي في كتاب (عمل اليوم والليلة) من طريقين، وشبيب هذا صدوق روى له البخاري[(٢)].

ثمّ قال: وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم. ثمّ ذكر الحديث بطوله بأسانيد أُخر، إلىٰ أن قال:

قال الطبراني: روى هذا الحديث شعبة، عن أبي جعفر ـ واسمه عُمير بن يزيد ـ وهو ثقة، تفرّد به عثمان بن عمير، عن شعبة قال أبو عبدالله المقدسي: والحديث صحيح.

قال ابن تيميّة: قلتُ: والطبراني ذكر تفرّده بمبلغ علمه، ولم تبلغه رواية روح ابن عبادة عن شعبة، وذلك إسناد صحيح يبيّن أنّه لم ينفرد به عثمان بن عمير[(٣)].

---

(١) التوسّل والوسيلة: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) التوسّل والوسيلة: ١٠٣. وأراد التشويش علىٰ القارئ فقال: «لكنّه قد روىٰ عن روح بن الفرج مناكير» وهو يعلم أنّ روح بن الفرج لم يرد في طُرق هذا الحديث!.

(٣) التوسّل والوسيلة: ١٠٥ ـ ١٠٦.

وقال أيضاً: ورُوي في ذلك أثرٌ عن بعض السَّلَف، مثل ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (مجاني الدعاء) قال: حدّثنا أبو هاشم، سمعتُ كثير بن محمّد بن كثير بن رفاعة يقول: جاء رجل إلىٰ عبدالملك بن سعيد بن أبجر، فجسّ بطنه، فقال: بك داء لا يبرأ.

فقال الرجل: ما هو؟.

قال: الدُّبَيْلَة[1].

فتحوّل الرجل فقال: الله، الله، الله ربّي لا أُشرك به شيئاً، اللّهمّ إنّي أتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحمة صلّى الله عليه وسلّم تسليماً، يا محمّد، إنّي أتوجّهُ بك إلى ربّك وربّي يرحمني ممّا بي.

قال: فجسّ بطنه فقال: قد برئتَ، ما بك علّة.

قال ابن تيميّة: قلتُ: فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنّه دعا به السَّلَف، ونُقل عن أحمد بن حنبل في (منسك المروذي) التوسّل بالنبيّ ﷺ في الدعاء[2].

فالذي يشهد بكلّ هذا ما تظنّه أن يقول بعد؟!.

إنّه يقول بالحرف الواحد:

«إنّ أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين لم يطلب من النبيّ ﷺ بعد موته أن يشفع له !!

ولا سألَهُ شيئاً!

---

(١) الدُّبَيْلَة: دُمّل كبار تظهر في الجوف وتقتل صاحبها غالباً.

(٢) التوسّل والوسيلة: ٩٧ ـ ٩٨.

ولا ذَكَرَ ذلك أحدٌ من أئمّة المسلمين في كتبهم» !![١].

وهكذا تغدو أسماء الصحابة والتابعين والسَّلَف (أُلعوبةً) و (وسيلةً للتمويه والخداع) إنّها أشبه شيءٍ بأصوات مثيرة يُبدعها المخرج المسرحي أثناء عروضه ليشدّ الناس إلىٰ ما يريد.

آباء النبيّ وأُمّ أبي هريرة !

أشبه شيءٍ بـ(طرفة) !

إقرأها، ثمّ صفها بما ترى، فلكلّ قارئٍ رؤية..

يقول ابن تيمية: التوسّل بدعائه ـ أي النبيّ ـ وشفاعته ينفع مع الإيمان به، وأمّا بدون الإيمان به فالكفّار والمنافقون لا تُغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة، ولهذا نُهيَ عن الاستغفار لعمّه وأبيه وغيرهما من الكفّار ![٢].

ثم قال: وقد يدعو ـ أي النبيّ ـ لبعض الكفّار بأن يهديه الله أو يرزقه، فيهديه أو يرزقه، كما دعا لأُمّ أبي هريرة حتّى هداها الله !

وكما دعا لدَوْس ـ قبيلة أبي هريرة ـ فقال: « اللّهمّ اهد دَوساً وائتِ بهم » فهداهُم الله !

ثمّ تابع فقال: في صحيح مسلم عن أبي هريرة: أنّ النبيّ ﷺ قال: «استأذنتُ ربي أن أستغفر لأُمّي فلم يأذَن لي»[٣].

---

(١) التوسّل والوسيلة: ١٨.

(٢) التوسّل والوسيلة: ٦.

(٣) التوسّل والوسيلة: ٧ ـ ٨.

فمتى كان آباءُ أبي هريرة أكرم علىٰ الله من آباء نبيّه وحبيبه وخاتم رسله؟!
ولسنا في مقام الإطالة في البيان عن آباء النبيّ ﷺ، هل كانوا كفّاراً، أم كانوا موحِّدين علىٰ دين إبراهيم الخليل عليه السلام، لذا سنكتفي بإيراد قبسٍ من كلام الفخر الرازي في هذا، إذ يقول: إن آباء الأنبياء ما كانوا كفّاراً، ويدلّ عليه وجوه:

منها: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ ﴾[١] قيل: معناهُ أنّه كان يُنقَل نورُهُ من ساجدٍ إلىٰ ساجد.

ومنها: قوله ﷺ: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلىٰ أرحام الطاهرات».

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً[٢].

ثمّ نُحيل القارئ إلىٰ ما كتبه السيوطي في ثمان رسائل أثبت فيها جميعاً نجاة آباء النبيّ ﷺ[٣].

فهل غابت هذه الآيات والأحاديث عن ابن تيميّة، أم كان المعنيّ بها أبو هريرة دون النبيّ ﷺ ؟!

---

(١) الشعراء ٢٦: ٢١٨، ٢١٩.

(٢) الرسائل التسع للسيوطي: ٣٠ عن (أسرار التنزيل) للرازي.

(٣) طبعت هذه الرسائل مع رسالة أُخرى في دار إحياء العلوم ـ بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م بعنوان (الرسائل التسع).

زيارة قبور الأنبياء والصالحين

هذه العقيدة والتي قبلها ـ عقيدة التوسّل ـ ليستا من خصائص الصوفيّة وحدهم، ولكنّ الشيخ ابن تيميّة جعلها من أعمدة عقائدهم لظهور تمسّكهم بها، وأكثَرَ الكلامَ بمخالفتهم فيها، ومن هنا أدخلناهما في هذا الفصل.

وقد جمع كلامه في هذه العقيدة في كتاب أسماه (كتاب الزيارة)، وصنّف فيه الزيارة إلىٰ نوعين: (زيارة شرعيّة)، و (زيارة بدعيّة[1]).

قال: فأمّا (الزيارة الشرعيّة): فهي من جنس الصلاة علىٰ الميّت، يُقصَد بها الدعاء للميّت، كما يُقصَد بالصلاة عليه، كما قال الله في حقّ المنافقين: ﴿ *وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ* ﴾[2] فلمّا نهى عن الصلاة علىٰ المنافقين والقيام علىٰ قبورهم، دلّ ذلك بطريق مفهوم الخطاب وعلّة الحكم أنّ ذلك مشروع في حقّ المؤمنين.

والقيام علىٰ قبره بعد الدفن هو من جنس الصلاة عليه قبل الدفن، يرادُ به الدعاءُ له. وهذا هو الذي مضت به السُنّة واستحبّه السَّلَف عند زيارة قبور الأنبياء والصالحين.

وأمّا (الزيارة البدعيّة): فهي التي يُقصد بها أن يطلب من الميّت الحوائج، أو

---

(١) نسبة إلىٰ البدعة، وهي كلّ أمر مُحدَث يُنسَب إلىٰ الدين، وليس عليه دليل من الكتاب أو السُنّة.

(٢) التوبة ٩: ٨٤.

يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظنّ القاصد أنّ ذلك أجْوَبَ للدعاء. فالزيارة علىٰ هذه الوجوه كلّها مبتدعة لم يشرّعها النبيّ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبيّ ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك.

ولو قَصَدَ الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين لكان معرّضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبيّ ﷺ: «اشتدَّ غضب الله علىٰ قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وقال: «قاتَلَ الله اليهود والنصارىٰ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١].

وهل يجوز السفر لمجرّد زيارة قبور الأنبياء والصالحين؟

لا يجوز ذلك لما ورد في الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا تُشدّ الرحال إلّا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ» وهذا الحديث ممّا اتّفق الأئمّة علىٰ صحّته والعمل به[٢].

إلى هنا، ثمّ يأتي بالغرائب!

فهو يقول أوّلاً: ليس عن النبيّ ﷺ في زيارة قبره ولا قبر الخليل حديثاً ثابتاً أصلاً[٣].

ويقول: والأحاديث الكثيرة المرويّة في زيارة قبره كلّها ضعيفة، بل موضوعة، لم يروِ الأئمّة ولا أصحاب السنن المتّبعة ـ كسنن أبي داود والنسائي ونحوهما ـ فيها شيئاً[٤].

---

(١) كتاب الزيارة: ١٣ ـ ١٤، ٣٨ ـ ٣٩، التوسّل والوسيلة: ٢٤.

(٢) كتاب الزيارة ـ المسألة الثانية: ١٨ ـ ٢١.

(٣) كتاب الزيارة ـ المسألة الأُولىٰ: ١٢ ـ ١٣.

(٤) كتاب الزيارة ـ المسألة الرابعة: ٣٨.

لاحظ قوله: «السنن المتّبعة، كسنن أبي داود والنسائي» ثم قال: «ونحوهما» يُريد: الترمذي وابن ماجة. ولم يُسَمِّهما لسرّ قد لا يُدركه إلّا ابن تيميّة نفسه ومن عرف طريقته في التشويش علىٰ عامّة القرّاء والمستمعين! وسوف تقف علىٰ هـذا السرّ قريباً.

وقال أيضاً: ما ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبيّ ﷺ فكلّها ضعيفة باتّفاق أهل العلم بالحديث، بل هي موضوعة، لم يروِ أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها، ولم يحتجّ أحد من الأئمّة بشيءٍ منها(١).

وبعدما قرأت هذا الكلام، اقرأ عنه كلامه الآتي، ثمّ قارن:

في مسألة قَصر الصلاة في سفر الزيارة، هل يجوز أم لا؟ قال ما نصّه:

ويقوله ـ أي جواز القصر ـ بعض المتأخّرين من أصحاب الشافعي وأحمد، [الحنبلي] ممّن يجوّز السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين: كأبي حامد الغزّالي [الشافعي]، وأبي الحسن بن عبدوس الحرّاني [الحنبلي]، وأبي محمّد بن قدامة المقدسي [الحنبلي]، وهؤلاء يقولون: إنّ هذا السفر ليس بمحرّم، لعموم قوله ﷺ: «زوروا القبور».

قال: وقد احتجّ أبو محمّد المقدسي علىٰ جواز السفر لزيارة القبور بأنّه ﷺ كان يزور مسجد قُباء(٢).

قال: وأجاب ـ أي أبو محمّد المقدسي ـ عن حديث: «لا تُشدّ الرحال» بأنّ

---

(١) كتاب الزيارة ـ المسألة الثانية: ٢٢.

(٢) مسجد قُباء أوّل مسجد في الإسلام، في منازل بني عمرو بن عوف من الأنصار، صلّى فيه النبيّ ﷺ في هجرته قبل دخوله المدينة المنوّرة. وفي استحباب زيارة هذا المسجد قال ابن تيميّة: في الحديث الصحيح: «مَن تطهّر في بيته ثمّ أتى مسجد قُباء لا يريد إلّا الصلاة فيه، كان كعمرة». الزيارة: ٢١.

ذلك محمولٌ على نفي الاستحباب[١].

فما هو إذن يذكر جملةً من الأئمّة الّذين جوّزوا السفر للزيارة واحتجّوا بأحاديثها!

هذا ما ذكره هنا فقط، لكنّه في موضع آخر شهد أنّ الإمام أحمد بن حنبل نفسه كان يقرّ زيارة المشاهد وله في ذلك مسائل! فحين كان ابن تيميّة يردّ على زوّار مشهد الإمام الحسين عليه السلام في القاهرة وعسقلان ولأجل أن يُثبت أنّ تلك المشاهد باطلة لا أصل لها، قال ما نصّه: فإذا كانت تلك البقاع لم يكن الناس ينتابونها ولا يقصدونها، وإنّما كانوا ينتابون كربلاء ـ أي يأتون إليها ـ لأنّ البدن هناك كان دليلاً على أنّ الناس في ما مضى لم يكونوا يعتقدون أنّ الرأس في شيء من هذه البقاع.

ثمّ قال: ولكنّ الذي اعتقدوه هو وجود البدن بكربلاء، حتّى كانوا ينتابونه في زمن أحمد وغيره، حتّى أنّ في مسائله: (مسائل فيما يُفعل عند قبره) أي قبر الحسين عليه السلام ذكرها أبو بكر الخلّال في جامعه الكبير في زيارة المشاهد![٢].

قارن هذا كلّه بقوله المتقدّم: «ولم يحتجّ أحد من الأئمّة بشيءٍ منها».

ثم قال: وقد يحتجّ من لا يعرف الحديث! بالأحاديث المرويّة في زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، كقوله: «من زارني بعد مماتي فكأنّما زارني في حياتي» رواه الدارقطني وابن ماجة[٣].

(١) كتاب الزيارة ـ المسألة الثانية: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) رأس الحسين: ٢٠٩.

(٣) كتاب الزيارة ـ المسألة الثانية: ١٩.

عرفتَ إذن سرّ إخفائه اسم ابن ماجة في ذكر أصحاب السنن المتّبعة، حين قال: لم يروِ أحد من الأئمّة ولا أصحاب السنن المتّبعة كأبي داود والنسائي فيها شيئاً!

ثمّ ارجع إلىٰ قوله: «ما ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبيّ فكلّها ضعيفة باتّفاق أهل العلم بالحديث! بل موضوعة! ولم يروِ أحد من أهل السنن المتّبعة شيئاً منها»! وها هو يأتي بالحديث الصحيح الذي يخرجه ابن ماجة والدارقطني!

أمّا قوله: «قد يحتجّ من لا يعرف الحديث» فهو تهويل علىٰ عادته، ولم يذكر في تعليله كلمةً واحدة!

وإليك أخيراً طائفة من أحاديث الزيارة أخرجها البيهقي، منها:

قوله ﷺ: «من زارني بعد موتي فكأنّما زارني في حياتي»[1].

وقوله ﷺ: «مَن زارني متعمّداً كان في جواري يوم القيامة»[2].

وقوله ﷺ: «من زار قبري ـ أو قال: من زارني ـ كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً»[3].

ثمّ ذكر حديثاً رابعاً فيه: «من حجّ فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي» ثمّ قال: تفرّد به حفص بن أبي داود وهو ضعيف في رواية الحديث[4].

---

(١) شُعَب الإيمان للبيهقي ٣: ٤٨٨ ح/ ٤١٥١. وهو الذي أخرجه ابن ماجة والدارقطني.

(٢) شُعَب الإيمان: ح/ ٤١٥٢.

(٣) شُعَب الإيمان: ح/ ٤١٥٣.

(٤) شُعَب الإيمان: ح/ ٤١٥٤.

وهذه شهادة صريحة منه علىٰ صحّة الأحاديث الثلاثة المتقدّمة، خصوصاً وأنّ الأوّل منها قد أخرجه ابن ماجة والدارقطني.

فأين ذهب قوله في هذه الأحاديث: «كلّها ضعيفة باتّفاق أهل العلم، بل موضوعة» ؟!.

فهذا هو منهاجه في مناقشة هذه العقائد، كمنهاجه في آيات الصفات بلا فارق: (لم يرد في الحديث) و (اتّفق السّلف) و (أجمع أهل العلم) و (لم يقل أحد من الأئمّة) !!

وفي حياة الشيخ ابن تيمية تصدّىٰ له إمام الشافعية العلّامة السُّبكي عليّ بن عبدالكافي (٦٨٣ ـ ٧٥٦ هـ) ونقض عقيدته في الزيارة في كتاب أسماهُ: (شفاء السّقام في زيارة خير الأنام)، وسمّي أيضاً: (شنّ الغارة علىٰ مَن أنكر السفر للزيارة).

قال الصفدي: قرأته عليه بالقاهرة، وكتبتُ عليه نظماً، منه:

لِقولِ ابنِ تيميةٍ زُخْرُفٌ	أتىٰ في زيارةِ خيرِ الأنام
فجاءت نفوس الورىٰ تشتكي	إلىٰ خيرِ حِبرٍ وأزكىٰ إمام
فصنّف هذا وداواهُمُ	فكان يقيناً شِفاءَ السّقام (١)

تلك مقتطفات من صميم عقائده، وفي البحوث اللاحقة أسرار أُخرىٰ..

تعقيب جميل:

من جميل ما قيل في زيارة النبيّ ﷺ قول الذهبي تعقيباً علىٰ حديث عَبيدة

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ ١٠: ١٦٧، ٣٠٨، الوافي بالوفيات ٢١: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

السلماني[1]، حين قيل لعَبيدة السلماني: إنّ عندنا من شَعر رسول الله ﷺ شيئاً من قِبَل أنَس بن مالك.

فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحبّ إليّ من كلّ صفراء وبيضاء علىٰ ظهر الأرض.

قال الذهبي: هذا القولُ من عَبيدة هو معيار كمال الحبّ، وهو أن يؤثر شعرةً نبويّةً علىٰ كلّ ذهب وفضّة بأيدي الناس. ومثل هذا يقولُه هذا الإمام بعد النبيّ ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسنادٍ ثابت، أو شِسْعَ نَعلٍ كان له، أو قُلامة ظفرٍ، أو شَقَفةً من إناء شرب فيه ؟!

فلو بذل الغنيّ معظَم أمواله في تحصيل شيءٍ من ذلك، أكنت تعدُّهُ مُبَذِّراً أو سفيهاً ؟! كلّا.

فابذل مالك في زَورةِ مسجده الذي بنىٰ فيه بيده، والسلامِ عليه عند حجرته في بلده، وتملّأ بالحُلول في روضته ومَقعده، فلن تكون مؤمناً حتّىٰ يكون هذا السيّد أحبّ إليكَ من نفسك وولدك وأموالك والناس كلّهم. وقبِّل حجراً مكرّماً نزلَ من الجنّة، وضع فمك لاثماً مكاناً قبّلهُ سيّد البشر بيقين، فهنّأك اللهُ بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخر، ولو ظفرنا بالمِحجَن الذي أشار به الرسول ﷺ إلىٰ الحجر ثمّ قبّل مِحْجَنَهُ، لَحُقّ لنا أن نزدحم علىٰ ذلك المِحجَن بالتقبيل والتبجيل، ونحن ندري بالضرورة أنّ تقبيل الحجرَ أرفع وأفضل من تقبيل مِحْجَنهِ ونَعله.

وقد كان ثابت البُناني إذا رأى أنس بن مالك أخذ بيده فقبّلها، ويقول: يدٌ

---

(١) من كبار التابعين، روى عن عليّ عليه السلام وابن مسعود، وهو من أفاضل أصحاب عليّ عليه السلام ومن أئمّة الحديث والقضاء، وكانوا لا يختلفون في أنّه أقضى من شُريح، توفّي سنة ٧٢ هـ علىٰ الأرجح. سير أعلام النبلاء ٤: ٤٠.

مسّت يد رسول الله ﷺ. فنقول نحن إذا فاتنا ذلك: حجر معظّم بمنزلة يمين الله في الأرض مسّته شفتا نبيّنا ﷺ لاثماً له.

فإذا فاتك الحجّ وتلقّيت الوفد فالتزم الحاجّ وقبّل فمه، وقل: فمٌ مسَّ بالتقبيل حجراً قبّلَهُ خليلي ﷺ[1].

نقول: وآل النبيّ الّذين هم من دمه ولحمه، وما مسّ أحدٌ جسده الشريف عناقاً ولثماً وتقبيلاً كما مسّه هؤلاء، أفلا يكونون أوْلى بالاعتناء من يد أنَس بن مالك، أو شفة حاجّ قبّل الحجر، أو من مِحجنه ﷺ الذي حقّ لنا أن نزدحم عليه بالتقبيل والتبجيل ؟!

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤: ٤٢.

الباب الثالث

مع الشيعة

تمهيد

علّامة الشيعة ابن المطهّر

منهاج السُنّة

إخفاقات ابن تيميّة في تعريف الشيعة

تمهيد:

تميّز الشيعة عن غيرهم من المسلمين في اعتقادهم في أهل البيت أنّهم أفضل هذه الأُمّة بعد النبيّ، وأنّ الإمامة فيهم، لا تصلُح لسواهم، عملاً بالنصوص القرآنيّة والنبويّة الثابتة، فمثّلوا بذلك الامتداد الطبيعي السليم للإسلام المحمّدي الأصيل.

ولأسباب وأحداث مختلفة خرجت من هذه الفئة فرق عديدة انفردت بعقائد جديدة لم تكن معروفة عند الفئة الأُمّ (الشيعة) ولا عند غيرها من فرق المسلمين.

وبالرغم من أنّ هذه الفرق الجديدة قد تميّزت بأسمائها وعقائدها، فهي ما زالت تُنسَبُ خطأً إلىٰ التشيّع، وإلّا فأين الغلاة والباطنيّة من التشيّع، وإنّما نصيبهم منه كنصيب الخوارج والنواصب! بل هُم أكثر بُعداً.

فقد صحّ الحديث عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام: «إن فيك من عيسى مثلاً، أبغضته يهود حتّى بهتوا أُمّه، وأحبّته النصارى حتّى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به»[1].

وصحّ عن عليّ عليه السلام أنّه قال: يهلك فيّ اثنان، محبّ يُقرّظني بما ليس فيّ،

---

(1) مسند أحمد ١: ١٦٠.

ومبغض يحمله شَنَآني علىٰ أن يبهتني»[١].

فهما في البعد عنه سواء، وهو ﷺ بريءٌ منهما علىٰ حدٍّ سواء، ولا فرق في البعد عنه ﷺ بين متقدّم مارق أو متأخّرٍ زاهق، إلّا باتّجاه الانحراف.

بل الفرق الغالية أشدّ انحرافاً من الخوارج لأنّهم ادّعوا أُلوهيّة العبد المخلوق فجحدوا منزلة الخالق وأشركوا بالله تعالى. يقول الشيخ الصدوق: اعتقادنا في الغلاة أنّهم كفّار بالله جلّ اسمه، وأنّهم شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس[٢].

ويبقى التشيّع هو الاعتدال، والنمط الأوسط، فعليّ والأئمّة من أبنائه بشر، عبيدٌ لله، متّبعون لنبيّه، مهتدون بهديه، مؤتمرون بأمره، منتهون عمّا نهى عنه، عابدون، راجون، وهم الأئمّة في الدين، والخلفاء المطهّرون الراشدون المهديّون.

ومع هذا الفارق البيّن فما زال الجميع يُنسب إلىٰ التشيّع علىٰ حدٍّ سواء، ويقع الخلط كثيراً، ولكنّه خلطٌ مصدره التجاهل لا الجهل، والدافع فيه إرادة طعن الجميع بعيوب البعض، والمستهدَف في هذا دائماً هم الشيعة الحقيقيّون، الشيعة الإمامية الاثنا عشرية.

وقديماً، ولأسباب مختلف في تعيينها أطلقت عليهم الجهة المتنفّذة في الحكم اسم (الرافضة).

فجُعل هذا اللقب المولّد عَلَماً لجميع الفرق التي تُنسَب إلىٰ التشيّع، إمامية وغيرها، باستثناء الزيديّة. ولكن مع مضيّ الوقت، وشياع الاسم الجديد، غلب هذا الاسم حتّى علىٰ الزيديّة، فصار لفظ (الرافضة) بديلاً عن لفظ (الشيعة)! وممّن

(١) مسند أحمد ١: ١٦٠.

(٢) الاعتقادات: ٧١.

استخدم هذا التعريف ابن تيميّة أثناء حديثه عن الشيعة.

لقد عرف ابن تيميّة الباطنيّة الإسماعيليّة، وكان هو صاحب الفتوى في وجوب قتالهم، كما عرف الغلاة النصيريّة وكتب في إبطال عقائدهم.

فهل عرف التشيّع بمعناه الصحيح، ليعرف من هم الشيعة ؟

وإن كان قد عرف ذلك، فهل كانت له مساهمة هامّة في التعرّف على عقائدهم ؟

وكيف كان منهجه في ذلك ؟

وحين رأى الشيعة يقدّمون أهل البيت علىٰ سواهم، كيف كانت عقيدته في أهل البيت ؟ وكيف رأى سادتهم الأُوَل: عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام ؟ وكيف كان موقفه مع خصومهم وشانئيهم وأعدائهم ؟ .

ذلك كلّه تجده مبسوطاً ومفصّلاً في كتابه الكبير (منهاج السُنّة)، وتجد أيضاً عقيدته في واحدة من تلك القضايا في رسالته الصغيرة حول رأس الحسين عليه السلام. وإجابات أُخرى نثرها في كتب ورسائل متعدّدة عامّتها موجود في هذين الكتابين.

فأمّا كتابه (رأس الحسين) فقد وضعه ـ جواباً علىٰ سؤال ورده ـ في بيان الموضع الذي دفن فيه رأس الحسين عليه السلام، وحقيقة الآراء المختلفة فيه، إذ ذهب بعضهم إلىٰ أنّه في الشام، وقال بعضهم إنّه في القاهرة، وعدّه آخرون في عسقلان، وأُقيم له في الموضعين الأخيرين مقامان يزاران. فردّ علىٰ ذلك كلّه مضيفاً رأيه القاضي بأنّ الرأس بعث إلىٰ المدينة ودُفن في البقيع.

وفي أثناء ذلك يتعرّض لمقتل الإمام الحُسين عليه السلام، فيرسم لنا عقيدته في هذه

القضيّة، كما يحدّد بوضوح عقيدته في كلٍّ من الرجلين: الإمام الحسين، ويزيد..

عقيدتان لابُدّ لكلّ مسلم وكلّ حرّ أن يقف عليهما ليتعرّف علىٰ هذا الرجل بصورةٍ أتمّ.

عقيدتان أخفاهما كلّ من كتب عن ابن تيميّة، وفاءً له، لا للدين ولا للحقّ، ولا للتاريخ! سيأتي ذكرهما في محلّه.

وأمّا (منهاج السُنّة) فهو كتابه الذي سخّره للردّ علىٰ الشيعة الإماميّة الاثني عشرية في عقائدهم، إذ كان لهم في عصره انتصار كبير في العراق وإيران تحقّق على يد عالمهم ابن المطهّر الحلّي، الذي أفلح في نشر المذهب في هذين البلدين، ولا سيّما في إيران التي كان فيها الشيعة أقلّية، فتزايد عددهم بجهوده تزايداً مذهلاً، فصار يتردّد في الأوساط العلميّة والمجالس الشعبيّة اسم علّامة الشيعة ابن المطهّر، ذلك الاسم الذي أزعج ابن تيميّة كثيراً، فنالَ منه في مجالسه وخُطبه علىٰ ما بينهما من بعد المسافة.

فذلك اسمٌ حظي بنجاح كبير وسمعة فائقة طالما طمح لها ابن تيميّة، فقد أثنى عليه الكبار وشهدوا بفضله وساروا بكتبه في الآفاق.

ومن بين كتبه الواسعة الانتشار كان كتابه (منهاج الكرامة في إثبات الإمامة) قد أحدث هزّةً عنيفة في الأوساط العلميّة والشعبيّة، خصوصاً وأنّه منذ سنين طويلة لم يظهر للشيعة كتاب في هذا الموضوع. فهو كتاب مشحون بعديد من البحوث في الكلام، والعقائد، والقرآن، والتفسير، والحديث المعروف عند الفريقين، والسير والتاريخ، والاستدلال بذلك كلّه علىٰ إمامة الأئمّة الاثني عشر، ورجحان عقائد الإماميّة.

فأثار هذا غيض ابن تيميّة وجماعة من أصحابه وغيرهم ممّن لا يريد النظر إلى الحقائق إلّا بعين واحدة، فانشغل ابن تيميّة في الردّ عليه حتّى أخرج كتابه (منهاج السُنّة) الذي هو كتابنا الأهمّ في هذا الباب.

وقبل الدخول في تفاصيل هذا الكتاب، بل قبل مزيد من التعرّف عليه، لا بُدّ من تعريفٍ وافٍ بذلك الخصم الكبير، ابن المطهّر، ابن العراق، البلد الذي له مع الشأم ـ بلد ابن تيميّة ـ قصّةٌ حوَت نقائض عجيبة:

فحيث ألّفت الجغرافية بينهما جارين حليفين في أرض الهلال الخصيب، باعد التاريخ بينهما قبل الإسلام وبعده.

وحيث جمعتهما وحدة المجتمع عِرقاً وديناً، فرّقت (رؤوس المجتمع) بينهما على الدوام.

فلا غرابة إذن أن يكون هذا الفصل واحداً من فصول الصراع العراقي الشاميّ، وسنرى عند الختام أنّه كان كذلك!.

ـ سنرىٰ ابن المطهّر عَلَويّ المولد والمنشأ والمات والمُعتقد، وابن تيميّة أُمويّاً فيها جميعاً، أُمويّ المولد والمنشأ والمات والمُعتقد.

ـ سنرىٰ عَلَويّاً ينطق بالحجّة التي يعرفها خصمه ويتديّن بها كما يعرفها هو، وأُمويّاً يردّ عليه بما التقطه من عقائد المنحرفين فيذكّرك بقميص عثمان المعلّق على باب المسجد الأُموي بدمشق وما يُشيعه معاوية وعمرو بن العاص من أنّ عليّاً عليه السلام كان شريكاً في دم عثمان ومناصراً لقاتليه..

ـ سنرى علويّاً ينطق بحجّة القرآن والسُنّة، وأُمويّاً يقابله بفنون التأويل التي تذكّرك بدهاء بني أُميّة في إغراء الشاميّين بما أظهروه من تأويل باطل لآي

القرآن وأحكام الدين.

ـ سنرى علويّاً يجدّد أحاديث النبيّ ﷺ في فضائل أهل بيته ووجوب اتّباعهم، وأُمويّاً يجحد ذلك كلّه، فبعضاً يكذّب فيه، وبعضاً يصرفه عن معانيه.

ـ سنرىٰ علويّاً ينتصر لدماء أهل البيت عليهم السلام، وأُمويّاً يهدر تلك الدماء الطاهرة على طريقة في التأويل تذكّرك بجواب معاوية بن أبي سفيان حين قال له جُنده: قتلتم عمّار بن ياسر وقد قال فيه النبيّ ﷺ: « تقتله الفئة الباغية »! فأجابهم معاوية بقوله: ما نحن قتلناه، ولكن قتله الذي أخرجه معه إلىٰ حربنا فوضعه أمام سيوفنا!

ـ سنرى اللغة العلَويّة تمضي علىٰ طريقتها في التذكير بالحقّ المهدور والسُنّة المهجورة، تقابلها لغة أُمويّة تعيش عصرها الذهبي في ريشة ابن تيميّة.

تجد ذلك مبسوطاً في هذا الباب والباب الذي يليه.

الفصل الأول

علّامةُ الشيعةِ ابنُ المُطَهَّرِ

ابنُ المُطَهَّر [1]

العَلَم:

هو الحَسَن بن يوسُف بن عليّ بن محمّد بن مُطَهَّر..

جمال الدين، أبو منصور.. الأسديّ، الحِلّيّ، الشهير بـ(العلّامة) و (آية الله).

المولود في الثُلثُ الأخير من ليل ٢٧ رمضان ٦٤٨هـ [2].

الأُسرة:

أبوه عربيّ أسَديّ، وأُمّه عربية هُذَليّة..

أبوه سديد الدين يوسف، من أعلم أهل زمانه في الفقه والأُصول.

وجدّه لأبيه زين الدين عليّ بن المطهّر، وجدّه لأُمّه الحسن بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهُذلي، من أكابر أهل عصرهما علماً وفضلاً، وكذا جدّ أُمّه أبو زكريّا يحيى بن الحسن.

---

(١) الرجال لابن داود: ٧٨ / ٤٤٦، تاريخ ابن الوردي ٢: ٣٩٨، ذيول العبر ٤: ٧٧، الوافي بالوفيات ١٣: ٨٥، الدرر الكامنة لابن حجر ٢: ٧١، لسان الميزان لابن حجر ٢: ٣١٧ وسمّاه فيهما (الحسين)، ولسان الميزان ٦: ٣١٩، المنهل الصافي ٥: ١٧٤/٩٥٩، أمل الآمل ٢: ٨١/ ٢٢٤، نقد الرجال: ٩٩ـ١٠٠، رياض العلماء ١: ٣٥٨، الجامع في الرجال ١: ٥٦٤، روضات الجنّات ٢: ٢٦٩، الكنى والألقاب ٢: ٤٧٧، أعيان الشيعة ٥: ٣٩٦، مجمع البحرين (علم) ٦: ١٢٣، روضة المتّقين ٩: ٣٠، طبقات أعلام الشيعة ـ المائة الثامنة: ٥٢، الأعلام للزركلي ٢: ٢٢٧، معجم المفسّرين ١: ١٤٩.

(٢) هكذا أرّخ له والده بخطّه، ونقله عن والده في (أجوبة المسائل المهنّائية): ١٣٩.

وخاله، كبير علماء عصره، وزعيم المذهب، المحقّق الحلّي نجم الدين جعفر ابن الحسن بن يحيى الهُذلي (ت ٦٧٦ هـ).

الموطن:

الحلّة السيفيّة، من نواحي بابل، من العراق، وبابل أوّل أرض سكنها إنسان بعد الطوفان.

وأمّا الحلّة السيفيّة، فقد بناها الأسديّون من أُسرة ابن المطهّر، أيّام قائدهم سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد الأسدي، أمير العرب، دامت إمارتُه إحدى وعشرين سنةً (٤٧٩ ـ ٥٠١هـ) واتّسع جاهُه، واستجار به الكبار، وله صنّف أبو يعلى بن الهبّارية العبّاسيّ كتاب (الصادح والباغم) في ألفَي بيت على أُسلوب (كليلة ودمنة) وهي من مفاخر الأدب العربي.

ومن قوله فيها:

وضــعتُه مــختَرعاً مــعناهُ *لمــلكٍ مــا خــابَ مــن رجــاهُ*
بحرِ الندى ربِّ الأيادي والمِنَن *شمسِ العلى صدرِ الهدى أبي الحسن*
الأســديّ المــزيَديّ صَــدَقه *ومَــن إذا كَــذَّبَ مــدحٌ صــدّقه*
ولم تــزل حــلّــتُهم مــعاذا *لكــلّ مَــن يــهربُ مــن بــغداذا*[(١)]

وقد سلمت الحلّة أيّام الغزو التتري بفضل ما تحلّى به والد العلّامة ابن المطهّر من شجاعةٍ وحنكة، وشهد العلّامة ذلك في طفولته..

شهد في السابعة من عمرهِ أهلَ بلدته يفرّون إلى البطائح جماعات جماعات،

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢: ٢٧ أحداث سنة ٥٠١ هـ، تاريخ الأدب العربي ٣: ٢٢٢.

ذعراً من جيوش المغول التي لم تكن تعرف رحمةً، ولا يردعها رادع عن سفك الدماء..

وينظر الصبيّ إلىٰ أبيه، فيراه ثابتاً كالطود، يحاول إقناع الناس بالبقاء في بلدتهم، وحين لا يمكنهم صدّ جحافل التتار المغول فإنّه قادرٌ بالحكمة والتعقّل على أن يأخذ لهمُ الأمان من هولاكو.

ولكن مَن يصدّق في مثل تلك الساعة أنّ رجلاً من العرب المسلمين يستطيع أن يتحدّث بعزم ثابت أمام هولاكو!.

فكيف إذن بمن يحاول انتزاع الأمان من قلب هولاكو الذي لم تهزّه رحمة قطّ؟!

ففرّوا إلّا قليلاً.

ثمّ شهد الصبيّ جنوداً بعثهم هولاكو لاستحضار وجهاء البلدة بين يديه، فخافوا لعدم معرفتهم بما ينتهي إليه الحال، إلّا والده، تقدّم إليهم وقال: إن جئتُ وحدي كفى؟

قالوا: نعم.

فرحل معهم، والقوم ينظرون بعيون جامدةٍ، انتزع الخوف أفئدتهم، وارتعدت فرائصهم، وجفّت حلوقهم، فهم واجمون لا يحسنون حتّى كلمة الوداع.. والصبيّ يشهد ذلك، فيلجأ إلىٰ أُمّه يتقوّى بها ويقوّيها، وهو لا يشكّ ـ ككلّ صبيّ بريء ـ في أنّ أباه سيعود غداً..

وبعد أيّام عاد الأب يحمل كتاب الأمان لأهل الحلّة، والمراقد الشريفة في النجف وكربلاء.

التلميذ:

نشأ ابن المطهّر في بيت الزعامة الدينيّة والعلميّة، وحظي من أبيه وخاله المحقّق الحلّي بكلّ عناية، فخصّصا له منذ صغره معلّماً يعلّمه الكتابة والعربيّة والقرآن، ثمّ صحبها صبيّاً فدرس عليهما الفقه والأُصول وجميع علوم الشريعة، فتقدّم وبرع وأفتى وسبق الفحول ولمّا يزل صبيّاً.

وفي ريعان شبابه صحب العلّامة الموسوعي نصير الدين الطوسي، فقرأ عليه كتبه في الإلهيّات والفلك والرياضيّات، وشيئاً من كتب ابن سينا، ولازَمَهُ حتّى توفّي نصير الدين سنة ٦٧٢هـ وابن المطهّر حينئذٍ في الرابعة والعشرين.

الإمام المصنّف:

نبغ ابن المطهّر، وبرزت فيه سياء الزعامة والإمامة الدينيّة منذ صباه، وتقدّم في ريعان شبابه علىٰ العلماء الكبار، والفقهاء والفحول.

وأمّا في التصنيف: فكان أُعجوبةً في القدرة علىٰ التأليف واستحضار المحفوظ من العلوم، أُعجوبةً في كثرة التأليف. وصفه مترجموه فقالوا: كان في أسفاره يؤلّف وهو راكب.

وألّف كتباً عديدةً في الكلام والحكمة والطبيعيّات وفرغ من تصنيفه في هذه الميادين قبل السادسة والعشرين من عمره. وفاقت كتبه تلك مباحث الحكماء السابقين، وأورد عليهم، وحاكم بين شرّاح الإشارات لابن سينا، وباحث ابن سينا في كتبه وخطّأه، وناقش نصير الدين الطوسي وشرح كتبه شرحاً لا نظير له، حتّى

قيل: لولا ابن المطهّر لم يفهم أحد كلام نصير الدين. غير أنّه لم يكن متابعاً له في كلّ شيء، بل كان حرّاً في تفكيره، مجتهداً لا مقلّداً، فردّ علىٰ أُستاذه نصير الدين أشياء كثيرة، وكتب في معارضته وبيان أخطائه كتاباً أسماه (المباحث السنيّة في المعارضات النصيريّة).

ثمّ أخذ في تحرير الفقه والأُصول، ففاق في تصنيفه فحول عصره، وبرع في الاجتهاد في أبواب لم يُسبق إليها.

وبعد أقلّ من سنتين، وهو في السابعة والعشرين من عمره، توفّي رئيس المذهب، خالُه المحقّق الحلّي، فصارت رئاسة المذهب إليه، في المعقول والمنقول.

واشتغل في التصنيف في علوم الشريعة:

في الفقه: صنّف ما لم يُسبق إلىٰ مثله، ومن ذلك:

١ ــ المُختَلَف: في أقوال علماء الشيعة، واختلافاتهم، وحججهم كما يذكر فيه مختاره ودليله.

٢ ــ التذكرة: في أقوال علماء غير الشيعة، واختلافاتهم، وحججهم.

٣ ــ منتهى المطلب: ذكر فيه جميع مذاهب المسلمين واحتجاجاتهم، وبيّن الصحيح من غيره.

٤ ــ التحرير: جمع ٤٠ ألف مسألة.

٥ ــ القواعد: وكان شُغل العلماء شرحاً وتدريساً منذ عصره إلىٰ اليوم.

وكتب غير هذا كثيراً من الكتب المختصرة وشُرحت بعده شروحاً عديدة، وبلغ المذكور من كتبه في الفقه عشرين كتاباً.

وفي الأُصول: مهر مهارةً لم تُعرف عند غيره، وصنّف فيه مصنّفاتٍ غاية في الدقّة والإحكام، منها:

١ ــ النهاية: في مجلّدين كبيرين.

٢ ــ التهذيب: وكان عليه مدار التدريس في الأُصول.

٣ ــ شرح مختصر ابن الحاجب: أُعجّب فيه جميع أئمّة العلم، فقال فيه ابن حجر العسقلاني: إنّه في غاية الحسن في حلّ ألفاظه وتقريب معانيه.

مع خمسة كتب أُخرى في الأُصول.

وفي التفسير: له كتابان، هما:

١ ــ نهج الإيمان في تفسير القرآن.

٢ ــ القول الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. وسمّي أيضاً (السرّ الوجيز).

وفي الحديث: كان إماماً بلا منازع، وصنّف فيه تصانيف لم يُسبق إليها ولا نظير لها، وبلغت خمسة كتب، هي:

١ ــ استقصاء الاعتبار في تحرير معاني الأخبار: قال عنه في كتابه (خلاصة الأقوال في معرفة الرجال): ذكرنا فيه كلّ حديث وصل إلينا، وبحثنا في كلّ حديث على صحّة السند أو إبطاله، وكون متنه محكماً أو متشابهاً، وما اشتمل عليه من المباحث الأُصوليّة والأدبيّة. وما يستنبط منه من الأحكام الشرعيّة وغيرها.

٢ـ مصابيح الأنوار: قسّم فيه الأحاديث علىٰ الأبواب.

٣ـ الدرّ والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان.

٤ـ النهج الوضّاح في الأحاديث الصحاح.

٥ـ جامع الأخبار، أو: مجامع الأخبار.

ولهذه الكتب الخمسة أعداءٌ ـ سيأتي ذكرهم ـ كانوا علىٰ الأظهر وراء اختفاء معظمها وضياعه، ولعلّ الموجود منها الآن هو الأوّل فقط.

وفي علم الرجال: له أربعة كتب، ومثلها في علم النحو، وفي المعقول والحكمة: أربعة وعشرون كتاباً، وفي الكلام والاحتجاج: ثمانية وعشرون كتاباً، وكتب عديدة أُخرى متنوّعة لم يضبط عددها. علماً أنّ قسماً كبيراً منها مفقود ولم يوجد له أثر!

قالوا فيه:

هو عند الإماميّة شيخ الطائفة في عصره، العلّامة علىٰ الإطلاق، ولم يتّفق هذا لغيره، وأُطلق عليه في عصره أيضاً آية الله، وكان هذا نادراً ما يُطلَق على أحد.

قال فيه معاصره ابن داود صاحب (الرجال): هو شيخ الطائفة، علّامة وقته، صاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الإماميّة إليه في المعقول والمنقول[١].

وقال الأمير مصطفى التفريشي في (نقد الرجال): يخطر ببالي أن لا أصفه، إذ

(١) الرجال لابن داود: ٧٨ / ٤٦٦.

لا يسع كتابي هذا ذكر علومه وتصانيفه وفضائله ومحامده، وإنّ كلّ ما يوصَف به الناس من جميلٍ وفضلٍ فهو فوقه»[١].

وعلى هذا النحو سار الآخرون في ذكره فأطْرَوهُ أحسنَ الإطراء وأتمّه.

ومن غير الإماميّة أثنىٰ عليه الكبار أحسن الثناء:

قال الصفدي، وقد عاصره: هو الإمامُ العلّامة ذو الفنون، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته. وكان إماماً في الكلام والمعقولات كان يُصنّف وهو راكب، وكان ريِّض الأخلاق، مشتهر الذكر، تخرّج به أقوامٌ كثيرة[٢].

وقال الذهبي: شيخ الحلّة، العلّامة المتفنّن، صاحب التصانيف[٣].

وقال ابن حجر: هو عالم الشيعة وإمامهم ومصنّفهم، وكان آيةً في الذكاء، واشتهرت تصانيفه في حياته، وكان مشتهر الذكر وحسن الأخلاق[٤].

صلته بعلماء المذاهب الأُخرى:

كانت له صلات حسنةٌ وثيقة بعلماء المذاهب الأُخرى، معرفةً بقدر العلم وحقّ أهله، لا تحجزه عن ذلك عصبيّة ولا يصدّه هوى كما هو شأن الكثير ممّن غرق في ظلمات الهوى والعصبيّة!

---

(١) نقد الرجال: ١٠٠.

(٢) الوافي بالوفيات ٣: ٨٥ / ٧٩ وسمّاه الحسين خطأً.

(٣) ذيول العبر ٤: ٧٧.

(٤) لسان الميزان ٢: ٣١٧ وسمّاه الحسين أيضاً، وأعاد ترجمته بنحو هذا وأكثر تفصيلاً عند ذكر والده يوسف ٦: ٣١٩، وفي الدرر الكامنة ٢: ٧١.

لقد تلمذ العلّامة علىٰ عدد من علماء المذاهب الأُخرى وحفظ لهم حقّهم وأثنى عليهم كثيراً، ومن هؤلاء العلماء:

الشيخ عليّ بن عمر الكاتبي القزويني، الشافعي، ت ٦٧٥ هـ، المعروف بدَبيران، صاحب المنطق، وصفه العلّامة فقال فيه: كان من أفضل علماء الشافعيّة، وأعلم أهل عصره بالمنطق والهندسة وآلات الرصد، عارفاً بالحكمة.

والشيخ محمّد بن محمّد بن أحمد الكيشي، الشافعي، ت ٦٩٥هـ، المتكلّم الفقيه، قال فيه العلّامة: هذا الشيخ كان من أفضل علماء الشافعيّة، وكان من أنصف الناس في البحث، وكنتُ أقرأ عليه وأُورد عليه اعتراضات في بعض الأوقات، فيفتكر تارةً، وفي بعض الأوقات يقول: حتّى نفكّر في هذا، عاودني في هذا السؤال. فأُعاوده يوماً ويومين وثلاثة، فتارةً يجيب، وتارةً يقول: هذا قد عجزت عن جوابه.

والشيخ برهان الدين محمّد بن محمّد بن محمّد النسفي، الحنفي، ت ٦٨٧ هـ، صاحب التصانيف في التفسير والأُصول والجدل.

والشيخ صالح بن عبدالله بن جعفر، ابن الصبّاغ، الحنفي، المولود سنة ٦٣٩هـ، الفقيه الأديب المتصوّف، وغيرهم.

وكانت له مع القاضي البيضاوي الشيرازي، صاحب التفسير، المتوفّى ٦٨٥هـ مكاتبات تُفصح عن الخُلق الإسلامي والعلمي النبيل، ومن تلك المكاتبات، كتاب بعثه البيضاوي فصدّره بقوله: مولانا جمال الدين، أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الأُصول...

فأجابه ابن المطهّر بكتاب استهلّه بقوله: وقفتُ علىٰ إفادة مولانا الإمام أدام

اللهُ فضائله، وأسبغ عليه فواضله...[١]

وله مع أكثر معاصريه من علماء المذاهب الأربعة صلات علميّة وإجـلال متبادل.

مناظرته علماء المذاهب وتشيّع السلطان إثرها:

كان السلطان المغولي محمّد ـ المعروف بخدابنده ـ قد اعتنق الإسلام، وتديّن بالمذهب الحنفي، ثمّ حدث أن عرضت له مسألة فجمع لها فقهاء المذاهب الأربعة، فاختلفوا وأطالوا البحث، فلم يرضه ما سمع منهم، فذكر له أحد وزرائه عالم الشيعة ابن المطهّر، فقالوا له: إنّ له مذهباً باطلاً.

فقال: حتى يحضر، فبعث إليه، وجمع السلطان علماء المذاهب، فلمّا دخل ابن المطهّر أخذ نعليه بيده ودخل المجلس، وقال: السلام عليكم، وجلس عند السلطان ولم يكن السلطان قد رآه قبلها.

فقالوا للسلطان: ألم نقل لك إنّهم ضعفاء العقول ؟!

فقال: سلوه عن كلّ ما فعل.

فقالوا: لِمَ لمْ تخضع للسلطان وتركتَ الآداب ؟!

وكان من مراسم السلطان أنّ الداخل عليه ينحني له أو يُقبّل الأرض بـين يديه.

فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان سلطاناً وكان يُسَلَّم عليه، وقال الله تـعالى:

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٤٠١.

﴿ فإذا دخلتم بُيوتاً فسلّموا عَلَىٰ أنفُسِكُمْ تحيّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكةً طَيّبةً ﴾[١].

ولا خلاف بيننا وبينكم أنّه لا يجوز السجود لغير الله.

قالوا: لِمَ جلستَ عند الملك ؟!

قال: لم يكن مكان غيره.

ثمّ سأله الملك عن مسألته، فأجابه فيها بجوابه فألزمهم جميعاً، واتّسع البحث فتناول مسألة الإمامة، وكان بين المناظرين نظام الدين عبدالملك المراغي الشافعي، فأفحمهم ابن المطهّر وأثبت عقيدته بالأدلّة والبراهين القاطعة، فشهد نظام الدين بفضله، وأُعجب السلطان بما سمع منه، فأعلن تشيّعه في ذلك المجلس، وأقام مذهب أهل البيت ﷺ، وخطب بأسمائهم، وضُربت بأسمائهم السكّة.

ثمّ عزّز مكانة ابن المطهّر، وأجرى بخدمته (المدرسة السيّارة) تتنقّل معه في أنحاء البلاد فيخطب ويعلّم ويدرّس ويؤلّف، فكان رائد الإصلاح الديني في عصره. ومع ذلك لم ينس السلطان علماء المذاهب الأُخرى ولم يبخسهم حقّهم احتراماً للعلم والدين، وقد شهد المؤرّخون له بالعدل وحسن السيرة واستقرار بلاد الإسلام مدّة حكمه، فلمّا توفّي عاد طيش المغول وسفكهم للدماء[٢].

ابن المطهّر والسيّد الموصلي في مجلس السلطان:

بعد الفراغ من المناظرة الأُولى وتشيّع السلطان محمّد، خطب ابن المطهّر في ذلك المجلس خطبةً، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ وآله، وكان في المجلس

---

(١) النور ٢٤: ٦١.

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢: ٣٨١ أحداث سنة ٧١٨ هـ.

سيّد موصليّ علويّ النسب كان قد أفحمه ابن المطهّر في المناظرة، فاعترض هنا عليه وقطع عليه خطبته فقال: ما الدليل علىٰ جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء ؟

قال ابن المطهّر: قال تعالى: ﴿ *الَّذِين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالُوا إنّا لله وإنّا إليه راجِعُون * أُولٰئِكَ عَلَيهِمْ صَلَواتٌ مِن رَبِّهِم ورحمةٌ* ﴾[1].

قال الموصلي: أيّ مصيبة أصابت عليّاً وأولاده ليستوجبوا بها الصلاة ؟

فقال ابن المطهّر: وأيّ مصيبة أعظم عليهم من كونك وأنت من أبنائهم تفضّل عليهم من لا يستحقّ التفضيل ؟!

فضحك الحاضرون وخجل الموصلي.

هكذا بكلّ حكمة ووقار، فلا طعن، ولا فحش، ولا شتائم، ولا سباب !

خصوم ابن المطهّر:

يعدّ ابن المطهّر ـ من بين علماء الإماميّة ـ أوّل من استخدم الاصطلاحات الخاصّة بتقسيم الحديث إلىٰ: الصحيح، والحسن، والموثّق، والضعيف، والمرسل، والمقطوع، وغير ذلك، فتبعه من بعده إلىٰ اليوم.

ثمّ صنّف في الحديث كتباً كثيرةً بيّن فيها درجة كلّ حديث، وكتاباً جمع فيه الصحاح والحسان فقط، فاشتهر عنه ذلك.

فكان هذا العمل الجديد شديداً علىٰ الأخباريّين الّذين يزعُمون أنّ جميع ما في كتب الأخبار صحيح لا يجوز ردّه ! زعموا هذا واتّخذوه عقيدةً مع أنّه لم يقُل به

---

(١) البقرة ٢: ١٥٦، ١٥٧.

أحد من علماء الإماميّة علىٰ الإطلاق.

من أجل هذا حنقوا عليه حنقاً شديداً، وبالغ بعضهم فقال: هُدم الدين مرّتين، ثانيهما يوم أُحدث الاصطلاح الجديد في الأخبار.

وبالغ بعضهم فقال: بل هو يوم ولد ابن المطهّر ![1].

ونسجوا تدعيماً لقولهم هذا أُسطورةً من أضغاث الأحلام نسبوها إلىٰ ولده الفقيه الفاضل فخر الدين محمّد، وتناقل هذه الأُسطورة بعض من ترجم له من غير أن يدرك أبعادها !

فقالوا: إنّ ولده رآهُ في المنام بعد موته فسأله عن حاله، فقال: لولا كتاب الألفين وزيارة الحسين لقصمت الفتوى ظهر أبيك نصفين !

قال السيّد محسن الأمين: فيما حكاه محمّد أمين الأسترآبادي ـ الأخباري ـ في كتابه (الفوائد المدنيّة): أنّ بعض مخالفي الإماميّة تشبّثَ بهذا المنام، فقال: إنّ العلّامة الذي هو أفضل علمائكم يقول هكذا، فعُلم أنّ مذهبكم باطل !.

فأجابه بعض الأفاضل بأنّ هذا المنام لنا، لا علينا، فإنّ كتاب الألفين يشتمل علىٰ ألف دليل لإثبات مذهبنا، وألف دليل لإبطال مذهب غيرنا.

وأضاف السيّد محسن الأمين قائلاً: كما تشبّث بهذا المنام الملّا محمّد أمين الأسترآبادي الأخباري المذكور بحمل ذلك المنام علىٰ تأليف العلّامة في أُصول الفقه الذي لا يرتضيه الأخباريّة[2].

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٤٠١.

(٢) من هنا يتّضح لك أنّ هذه الأُسطورة إنّما هي من نسج الأخباريّة أنفسهم.

وأضاف السيّد محسن الأمين: ونحن نقول: إنّ هذا المنام مُختَلَق مكذوب على العلّامة، ولا يستند إلىٰ المنامات إلّا ضعفاء العقول، أو من يروّجون بها نِحَلَهُم وأهواءهم[1].

ومن هنا لا يستبعد أن يكون هؤلاء الخصوم وراء ضياع مؤلّفات ابن المطهّر الرائعة في الحديث.

وفاته:

توفّي العلّامة ابن المطهّر ليلة السبت، الحادي والعشرين من محرّم الحرام سنة ٧٢٦هـ في بلدته (الحلّة السيفيّة).

ونُقل جثمانه إلىٰ النجف الأشرف، فدفن في حجرة عن يمين الداخل إلى الحضرة العلَويّة الشريفة، وقبره معروف مَزُور إلىٰ اليوم.

خلاصة:

هذا هو علّامة الشيعة ابن المطهّر الحلّي، الطرف العراقيّ العَلَويّ لذاك الصراع، وقد ظهرت له من خلال تعريفه عدّة مزايا، منها: شهرته بحسن الأخلاق ورياضتها، وذكاؤه المفرط، وعلمه الموسوعي، وغزارة تصنيفه وتنوّعه وسرعته، وتصنيفه المنهجي لسائر المراحل الدراسيّة في شتّىٰ أبواب العلوم الإسلاميّة.

وقد مثّل ابن المطهّر أيضاً مرحلةً هامّة وبارزةً في تاريخ الفكر الشيعي على ثلاثة ميادين:

---

(١) أعيان الشيعة ٥: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

الأوّل: الحديث وعلومه.

الثاني: علم الأُصول.

الثالث: الإصلاح الديني ونشر مذهب أهل البيت عليهم السلام، وكان ابن المطّهر بعد ذلك أوّل عالم شيعي يتّبعه السلطان فيجد أمامه الأبواب مفتّحةً للمناظرات الحرّة، والحوار الحرّ، والتأليف الحرّ، والعمل الحرّ، حتّى توفّي السلطان محمّد وعاد المغول إلىٰ حالهم الأوّل في الظلم والفساد، فانحسر نشاطه وعاد إلىٰ بلدته الحلّة وقصر عمله على التدريس والتأليف، ولم يخرج من بلدته إلّا حاجّاً حتّى وافاه الأجل.

وفي تاريخ الفكر الإسلامي عامّة كان ابن المطهّر صاحب أوسع موسوعة إسلامية في الفقه المقارن، أسماها (منتهىٰ المطلب في تحقيق المذهب) التي زخرت بالفقه الاستدلالي أيضاً إضافة إلىٰ ضمّها أقوال مشاهير الفقهاء من الصحابة والتابعين وأئمّة المذاهب في كلّ مسألة من المسائل.

الفصل الثاني

مِنهَاجُ السُنَّةِ

الكتاب وردود الفعل

نظرة عامّة في بطون الكتاب

الكتاب وردود الفعل

هٰذا الكتاب قصّةٌ وأصداء كما أسلفنا..

فبدء تأليفه كان ردّة فعل عنيفة أحدثتها أصداء كتابٍ أُلِّفَ في العراق في حياة ابن تيميّة، فذاع صيتُه في الآفاق ونُقلت نُسَخُهُ من بلدٍ إلىٰ بلد !

والكتاب هو (منهاج الكرامة في إثبات الإمامة) كتبه عالم الشيعة الإماميّة الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي.

فعكف الشيخ ابن تيميّة علىٰ التأليف في الردّ عليه، فكتب كتابه هذا الذي أسهب فيه وأطال، وأسماهُ (منهاج السُنّة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدريّة)، وعرف في ذلك الوقت باسم (الردّ علىٰ الرافضي)[1].

ووقع هذا الكتاب في أيدي الكبار من أهل العلم والمعرفة، فماذا قالوا فيه ؟

لا شكّ أنّ منهم من يوافق ابن تيميّة في الردّ على الشيعة، ولكن حتّى هؤلاء لم يُخفوا دهشتهم لما انزلق فيه ابن تيميّة من كلام خطير.

وأهمّ مَن تكلّم فيه من هذا الفريق رجلان، هما: إمام الشافعيّة عليّ بن عبدالكافي السُّبكي، وابن حجر العسقلاني.

---

(١) الدرر الكامنة ٢: ٧١.

فماذا قال السُّبكي ؟

قرأ السُّبكي هذا الكتاب بعد وفاة مؤلّفه ابن تيميّة، فوصفه في أبيات من الشعر ابتدأها في الطعن علىٰ ابن المطهّر والثناء علىٰ ابن تيميّة لردّه عليه، فقال:

وابنُ المُطهَّر لم تطهر خلائقُهُ ... داعٍ إلىٰ الرفض غالٍ في تعصُّبِهِ
ولابن تيميّةٍ ردٌّ عليه به ... أجادَ في الردّ واستيفاء أضْرُبِهِ

ثمّ بعد هذا يصف طَرَفاً من عقيدة ابن تيميّة التي بثّها في فصول هذا الكتاب، فيقول:

لكنّه خلط الحقّ المبين بما ... يَشُوبُه كَدَراً في صفوِ مَشْرَبِهِ
يُحاولُ الحَشْوَ أنّىٰ كانَ فهو له ... حثيثُ سيرٍ بشرقٍ أو بمغربِهِ
يرى حوادثَ لا مبدا لأوّلها ... في الله ! سُبحانَهُ عمّا يَظُنُّ بِهِ
لو كانَ حيّاً يرى قولي ويفهمهُ ... رَدَدْتُ ما قالَ أقفُو إثْرَ سَبْسَبِهِ(١)

فهو إذن مزج الحقّ بالباطل، فتحوّل صفاءُ الحقّ كدَراً بما خالطه من باطل !

ثم يذكر صنفين من هذا الباطل:

أوّلهما: الحَشو، في اتّباع أخبار الحشويّة الّذين ينقلون الأحاديث من غير فقه، فهو يتتبّعها ويَجْهَد في جمعها من أجل أن يعزّز رأيه وعقيدته.

والثاني: شذوذ عقيدته في الصفات، وما ينسبه إلىٰ الله تعالى منها، وقد تنزّه عنها الباري جلّ جلاله، سُبحانَه عمّا يَظُنُّ به.

وقبل أن نغادر السُّبكي نقف علىٰ أبياتٍ رائعة لا بُدّ من وقفةٍ عليها..

---

(١) الوافي بالوفيات ٢١: ٢٦٢، طبقات الشافعية الكبرى ١٠: ١٧٦.

أبيات رائعة بما حملته من بُعد علميّ كبير، وأدبٍ إسلاميّ رفيع، في دعوةٍ إلى اتّباع الحقّ والدليل، بعيداً عن التعصّب والطعن والشتم والسباب..

أبيات نَظَمها السيّد محسن الأمين[1] ردّاً علىٰ السُّبكي في بيتيه الأوّلين الّذين يذكر فيهما ابن المطهّر فينال منه ويَسِمُهُ بالرفض ويمتدح ابن تيميّة في الردّ عليه رغم ما يجده عنده من أخطاء عقائديّة خطيرة، فيقول السيّد محسن الأمين:

لا تـتّبع كُـلَّ مَـن أبـدى تـعَصُّبَهُ ... لرأيـــهِ نُـــصرةً مـــنهُ لمـذهبِهِ
بالرفضِ يرمي وليَّ الطُّهرِ حَـيدرةٍ! ... وذاك يُـعرِبُ عـن أقـصَى تـنصُّبِهِ
كُــن دائـماً لدليـل الحـقّ مُـتَّبِعاً ... لا للـــذي قــاله الآبــاءُ، وانـتَبِهِ
وابـنُ المُـطهّر وافَـىٰ بـالدليلِ فـإن ... أردتَ إدراكَ عين الحقّ فـائتِ بِـهِ
إنّ السِّبابَ سلاحُ العاجزين، وبـالـ ... برهان ـ إن كان ـ يبدو كـلُّ مشـتبِهِ
والشّـتمُ لا يـلحقُ المشـتومَ تـبعَتهُ ... لكـنّه عــائدٌ فــي وجـهِ صـاحبِهِ
وابـنُ المـطهّر قـد طـابت خـلائقُهُ ... داعٍ إلىٰ الحقِّ، خـالٍ مـن تـعصُّبِهِ
حسبُ ابن تيميّةٍ ما كان قبلُ جرىٰ ... لهُ وعـــاينَهُ مِــن أهــل مـذهبِهِ![2]

وماذا قال ابن حجر العسقلاني؟

نقد ابن حجر هذا الكتاب من الزاوية التي كان أكثر تأثّراً بها، فلمّا كان تخصّصه الغالب عليه هو الرجال والحديث، قال: طالعتُ الردّ المذكور ـ ردّ ابن تيميّة علىٰ ابن المطهّر ـ فوجدته كما قال السُّبكي في الاستيفاء، لكن وجدته كثير التحامل إلىٰ الغاية في ردّ الأحاديث التي يوردها ابن المطهّر! وإن كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات[3]، لكنّه ردّ في ردّه كثيراً من الأحاديث الجياد، التي لم

---

(١) العلّامة الإمامي الشهير، صاحب (أعيان الشيعة) وغيره، مجتهد ومصلح كبير، توفّي سنة ١٩٥٢م.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٣٩٨.

(٣) هذا الحكم إنّما أتى من طريقة بعضهم في تضعيف كلّ من اهتمّ برواية فضائل عليّ وأهل البيت عليهم السلام، وقد ←

يستحضر حالة التصنيف مظانّها لأنّه كان لاتّساعه في الحفظ يتّكل على ما في صدره والإنسان عامدٌ للنسيان![1].

قال: وكم من مبالغة لتوهين كلام (الرافضي) أدّته أحياناً إلى تنقيص عليّ ﷺ!![2].

فإضافةً إلى الآفتين اللتين ذكرهما السُّبكي، وكانتا:

١ ــ الحشو.

٢ ــ التشبيه والتجسيم.

يكشف لنا ابن حجر عن آفاتٍ أُخَر، هي:

١ ــ كثرة التحامل إلى الغاية.

٢ ــ ردّه الكثير من الأحاديث الجياد.

٣ ــ تنقيصه عليّاً ﷺ!

تلك نبذةٌ من خفايا هذا الكتاب نقلناها عن أبرز من تكلّم فيه من علماء أهل السُّنّة.

فماذا عن علماء الشيعة؟

---

* تناولنا بحث هذه المسألة بشيءٍ من التفصيل في كتابنا (منهج في الانتماء المذهبي) فراجع فيه فصل (قصّة الوضع في الحديث).

(١) ياله من عذرٍ جميل!!.

(٢) لسان الميزان ٦: ٣١٩.

كتب غير واحد من أعلام الشيعة كتاباً مستقلاً مفصّلاً في الردّ علىٰ كتاب ابن تيميّة، والمعروف منها كتابان:

الأوّل: (منهاج الشريعة) ـ في الردّ علىٰ منهاج السُنّة ـ للسيّد مهدي بن صالح القزويني، ألّفه في سنة ١٣١٨هـ.

والثاني: (إكمال المنّة في نقض منهاج السُنّة) ـ للسيّد سراج الدين الحسن بن عيسى اليماني اللكهنوي[1].

وهناك أيضاً ردود متفرّقة، منها ردود الأميني في كتابه (الغدير)، وردود الشيخ المظفّر في كتابه (دلائل الصدق).

والأهمّ في الموضوع: ماذا كان جواب ابن المطهّر نفسه؟.

لقد عُرض الكتاب علىٰ ابن المطهّر، فرآهُ مفتتحاً بالشتائم والسباب، مشحوناً بالحشو والمغالطات، فماذا كان جوابه؟

قال ابن حجر العسقلاني: كان ابن المطهّر مشتهر الذكر حَسَن الأخلاق، ولمّا بلغه كتاب ابن تيميّة قال: لو كانَ يفهمُ ما أقولُ أجبتُه[2].

هذا كلّ ما قاله ابن المطهّر ردّاً علىٰ ابن تيميّة!

ونَقل ابن حجر العسقلاني في (الدُرر الكامنة) كلاماً آخر، قال فيه:

لمّا وصل إليه ـ أي ابن المطهّر ـ كتاب ابن تيميّة في الردّ عليه، كتبَ أبياتاً

---

(١) الكتابان مطبوعان، ذكرهما صاحب (الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة).

(٢) لسان الميزان ٢: ٣١٧.

أوّلها:

لو كنتَ تعلَمُ كُلَّ ما عَلِمَ الورَى	طـرّاً لصرت صـديق كـلِّ العـالَم
لكن جهلتَ فقلتَ إنّ جميعَ مَن	يهوى خلافَ هـواك ليس بعالِمِ[(١)]

والأصحّ أنّ هذين البيتين ليسا في الردّ علىٰ الكتاب، وإنّما بعث بهما إليه لمّا كان يبلغه أنّ ابن تيميّة ينال منه ويشتمه في المجالس. ويؤيّد هذا الترجيح قرينتان:

أولاهـما: المعنى الظاهر في البيتين، فليس فيهما أكثر من الإشارة إلىٰ تحامل وتهجّم صدرا من الرجل لشدّة إعجابه بنفسه ومعلوماته، إعجاباً مصدره النقص في العلم والمعرفة.

والثانية: ما ذكره ابن عراق المصري في قصّة البيتين، قال: إن الشيخ تـقيّ الدين ابن تيميّة كان معاصراً للشيخ جمال الدين ابن المطهّر ويتكلّم علىٰ الشيخ في غيابه، فكتب إليه الشيخ جمال الدين: (لو كنت تَعلمُ...) وذكر البيتين[(٢)].

ومن هنا يظهر أنّ كلّ الذي قاله ابن المطهّر في ردّه علىٰ ابن تيميّة هي تلك الكلمة الوجيزة، كلمة الحكيم المُتّئد: «لو كان يفهمُ ما أقولُ أجبتُه»!

---

(١) الدرر الكامنة ٢: ٧١، وذكر البيت الأوّل فقط، وفي لسان الميزان (٦: ٣٢٠) جاء مكان الأبيات بياضاً. والبيتان ذكرهما ابن عراق المصري في (التذكرة)، ونقل عنه الأمين في (أعيان الشيعة) ٥: ٣٩٨.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٣٩٨.

نظرة عامّة في بطون الكتاب

في هذا الكتاب منعطفات كثيرة، وشطحات خطيرة ممتدّة مع امتداد سيله الهائج، منتشرة علىٰ أنحاء مسيله المتعرّج:

فيه جرأة علىٰ الكتاب والسُنّة لا نظير لها.

فيه صدود عن أهل البيت عليهم السلام وجحد لفضلهم واستنقاص جريء لمنزلتهم.

وفيه قدرة غريبة علىٰ قلب الحقائق الثابتة أو التنكّر لها.

وفيه مشاهد تَدْهَشُ لبعضها، وتضحك من بعضها، وترتعد فرائصك من بعضها الآخر[1].

وإذا طويت الجزء الأوّل منه وبعضاً من الجزء الثاني، تجد إسهاباً في كلام لا يصلح ردّاً علىٰ ابن المطهّر، وإنّما هو استعراض طويل لما جمعه من كلام في عقائد الفرق وآراء الفلاسفة، وبعد أن يمضي في ذلك عشرات الصفحات يصل إلىٰ نتيجة هي من أوّليّات العقيدة عند جميع من يذكرهم من فرق وفلاسفة، فيقول في صفحة ١١٠: «فتبيّن حدوث كلّ ما سوى الله تعالى علىٰ كلّ تقدير، وهو المطلوب»!

وهو في أثناء ذلك كلّه ينتصر لخصمه، وينتهي في كلّ فقرة إلىٰ تصويب ما

---

(١) سنذكر نماذج منها في الفقرات اللاحقة.

قاله ابن المطّهر حين أبطل عقائد القدريّة والجهميّة والأشعريّة والجبريّة وأقوال ابن سينا وابن رشد، فوافق ابن المطّهر في ذلك كلّه، ثمّ صرّح بموافقته في أوائل الجزء الثاني، فقال: «والّذين أثبتوا قدرته (تعالىٰ) ومشيئته وخَلقه، وعارضوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، شرّ من اليهود والنصارى كما قال هذا المصنّف: فإنّ قولهم يقتضي إفحام الرسل»[1].

وهو لا ينسى أبداً الخوض في الكلام في الصفات، وتكرار القول في إثبات الجهة، وينقل في ذلك تصوّراً ساذجاً للعالم وكأنّه محاط بجهات أربع ثابتة، واحدة منها فوق، وأنّ العرش فيها، والله تعالى علىٰ العرش[2].

ويطيل الكلام في هذه العقيدة، ويستدلّ عليها بتجسيم اليهود ووصفهم الله تعالى بالأعضاء والأطراف، ثمّ يجعل قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ تثبيتاً لعقيدتهم تلك لا ردّاً عليها[3].

ذلك التصوّر الساذج للكون لم يخف علىٰ من هو أقدم منه، فقد عرف المسلمون كرويّة الكون قبل ابن تيميّة بزمن ليس بالقليل، ومهما خفي فلا يخفى عليه قول الرازي في تفسيره: إنّ العالم كرة، فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا، هي تحت بالنسبة إلىٰ ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض، وبالعكس، فلو كان المعبود مختصّاً بجهة، فتلك الجهة وإن كانت فوقاً لبعض الناس لكنّها تحت لبعض آخرين[4].

ويمضي ابن تيميّة قدماً في وصف العرش والاستواء، مدافعاً عن رواية عبدالله بن خليفة «ما يفضل من العرش أربع أصابع» فقال: يروى بالنفي

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٨.

(٢) منهاج السُنّة ١: ٢٥٠.

(٣) منهاج السُنّة ١: ٢٥١.

(٤) تفسير الرازي ٢٢: ٦ سورة طه آية ٥.

وبالإثبات، ولفظ النفي لا يرد عليه شيء[١].

وتمام حديث عبدالله بن خليفة هذا نصّه: «إنّ كرسيّه وسع السماوات والأرض، وإنّه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، وإنّ له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد إذا رُكِب، من ثِقَلِه»[٢].

علماً أنّ هذا الحديث ليس في الصحاح ولا غيرها من السنن المعتبرة، وعبدالله بن خليفة تفرّد به، فرفعه مرّة وأسنده إلىٰ عمر مرّة، ولم يروه عن عمر غيره، ولا رواه عنه إلّا أبو إسحاق، ولا عن أبي إسحاق إلّا إسرائيل، فهو غريب في جميع مراتبه.

وعبدالله بن خليفة، الراوي الوحيد لهذا الحديث، هو الهمداني الكوفي وقد اختلفوا فيه، فحين ذكره ابن حبّان في الثقات، قال فيه ابن حجر: مقبول، أمّا الذهبي فقال: لا يكاد يُعرف[٣].

وأمّا الذي وجّهه إلىٰ الشيعة الإماميّة في هذا الكلام الطويل، فهو وصفه قدماءَهم بالقول بالتجسيم ومتأخّريهم بتقليد المعتزلة. وهي دعوى باطلة لم يستطع أن يدعمها بأيّ دليل صحيح، بل سرعان ما هدمها بكلّ يسر وفي كلمة واحدة.

فقد ذكر من قدمائهم القائلين بالجسم هشام بن الحكم لا غير، ولكنّه سرعان ما عاد فنزّهه من القول بالتجسيم والتشبيه حين احتاج إلىٰ ذلك، فقال: لفظ الجسم في اصطلاح أهل الكلام أعمّ من المعروف عند العرب، وبينهم نزاع في ما يسمّى جسماً، هل هو مركّب من الجواهر المنفردة، أو هو مركّب من المادّة والصورة، أو

(١) منهاج السُنّة ١: ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٢) تفسير الطبري ٣: ١٠. آية الكرسيّ.
(٣) الثقات ٥: ٢٨، تقريب التهذيب ١: ٤١٢، ميزان الاعتدال ٢ / ترجمة ٤٢٩٠.

ليس مركّب لا من هذا ولا من هذا، كما يقوله أكثر الناس، وهو قول الهشاميّة والكرّاميّة[١].

وقال: ومن قال إنّه جسم كهشام بن الحكم وابن كرّام، يقولون: إنّ حقيقة الله تعالى ليست كشيء من الحقائق، فهم أيضاً يُنكرون التشبيه[٢].

وهو في غير موضع يقول: إنّ أوّل من خالف التجسيم من الشيعة وتكلّم في التوحيد: الشيخ المفيد (٤١٣هـ) ثمّ المرتضى (٤٣٦هـ) والطوسي (٤٦٠هـ). ففي هذا خطأ فاحش. فقبل هذا بكثير كان كلام أئمّة أهل البيت عليهم السلام في التوحيد هو المحفوظ عندهم. وقد جمع الكثير منه الشيخ الصدوق (٣٨١هـ) في كتاب أسماه (كتاب التوحيد)، كما جمع كثيراً من كلام الإمام الرضا عليه السلام في التوحيد والصفات في كتابه (عيون أخبار الرضا). وقبله صنّف الكليني (٣٢٨هـ) كتاب التوحيد، ثاني أبواب (الكافي). وقبلهم كان أبو إسحاق النوبختي من أعلام القرن الثالث، الذي كتب (الياقوت في علم الكلام)، وللعلّامة ابن المطهّر شرح لهذا الكتاب مطبوع واسمه (أنوار الملكوت في شرح الياقوت). وغير هذا من الكتب المفقودة والمذكورة أسماؤها في فهرس ابن النديم ورجال النجاشي، كلّها غابت عن الشيخ ابن تيميّة.

ويزيد في الأمر غرابة أنّ المستشرق هنري كوربن يقول: إنّ أبا إسحاق النوبختي هو أوّل من نظّم الفلسفة الإسلاميّة في كتابه (الياقوت)[٣].

وممّا يصدمك في هذا الكتاب الكمّ الهائل من كلمات السباب والشتائم، والتكذيب، والمغالطات الكبيرة في الجدل في الحديث النبويّ الشريف، الذي هو

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٢٤٣.

(٢) منهاج السُنّة ١: ٢٥٦.

(٣) عليّ أكبر ضيائي: مقدّمة (الياقوت): ١٦.

أشبه شيء بجدل الجاحظ، فأُسلوب الجاحظ وطريقته في الالتفاف على النصوص، وتزوير الحقائق، تجده هنا مجسّداً مع زيادة عليه في التطويل واللف والدوران.

مؤاخذة على ابن المطهّر:

يؤخذ علىٰ ابن المطهّر اعتماده بعض مصادر الحديث عند أهل السُنّة والاحتجاج بمرويّاتها دون التحقيق في صحّتها وموجبات قبولها أو ردّها.

وإنّما صنع ذلك ـ علىٰ غير منهجه في روايات الشيعة ـ اعتماداً علىٰ أنّ روايتهم لها هو نوع إقرار إن لم يكن كافياً في الدلالة علىٰ صحّتها، فهو مفيد في الاحتجاج على الخصم من مصادر أصحابه ومرويّاتهم، وذلك أدعى للقبول، وأبلغ في الحجّة.

وعلى هذا أسند ابن المطهّر أحاديث إلىٰ تفسير الثعلبي ومناقب ابن المغازلي والخوارزمي، مع أنّ مجرّد رواية هؤلاء لها لا تعني صحّتها ما لم تتوفّر فيها شروط الصحّة.

ولكن هذا لا يعني أنّ كلّ ما ضعّفه الآخرون من أحاديث هذه المصادر هو ضعيف حقّاً، فأكثر حجّة القائلين بالتضعيف أنّ هذه الأحاديث لم ترد في (الصحيحين) ولا في (السنن المعتبرة)، وهذه بذاتها ليست حجّة أصلاً، فأصحاب هذه الكتب لم يجمعوا كلّ الأحاديث الصحيحة، وقد استدرك الحاكم النيسابوري على البخاري ومسلم وحدَهما في ما صحّ عنده علىٰ شروطهما كتاباً كبيراً ضمّ ٨٨٠٣ حديثاً. كما أنّه لا نزاع بين علماء أهل السُنّة علىٰ أنّ في سنن البيهقي والدارقطني والحميدي وعبدالرزّاق وابن أبي شيبة الكثير من الأحاديث الصحاح التي لم يخرجها أصحاب (السنن المعتبرة).

وأكثر من هذا يقال في مسند ابن حبّان و (المختارة) للضياء المقدسي، وقد

عدّهما صاحب كنز العمّال مع البخاري ومسلم، وقال: جميع ما في هذه الكتب صحيح فالرد إليها معلم بالصحة[١].

ومع هذا نعود فنقول: إنّ في تلك الكتب من الأحاديث ما هو بيّن الضعف، ومنها ما هو موضوع تلوح عليه علامات الوضع، ومنها ما هو باطل مردود بلا ريب، وإنّ الاحتجاج أو الاستشهاد بشيء من هذا القبيل ليس له وجه حسن.

ومثال ذلك ما أورده العلّامة في استشهاده، نقلاً عن تفسير الثعلبي الذي أسنده إلىٰ سفيان الثوري في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[٢]، قال: (البحران: عليّ وفاطمة، والبرزخ: النبيّ ﷺ، واللؤلؤ والمرجان: الحسن والحسين).

فمثل هذا التأويل لم يعتمده علماء الشيعة إطلاقاً، ولا هو في حديث صحيح ثابت عندهم، وإن رواه بعضهم فهو علىٰ طريقة بعض أصحاب الحديث الذين يجمعون ما يلتقطون بدون تمييز بين الصحيح والسقيم.

قال الشيخ محمّد جواد مغنيّة في تفسيره (الكاشف) ما نصّه: نُسب إلى الشيعة الإماميّة أنّهم يعتقدون بأنّ المراد بالبحرين عليّ وفاطمة، وبالبرزخ محمّد ﷺ، وباللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين. وأنا بوصفي الشيعي الإمامي أنفي هذه العقيدة عن الشيعة الإماميّة علىٰ وجه الجزم والإطلاق، وأنّهم يحرّمون تفسير كتاب الله تفسيراً باطنيّاً. وإذا وجد فيهم من يقول بذلك فإنّه لا يعبّر إلّا عن رأيه الخاصّ[٣].

---

(١) كنز العمال ١: ٩.

(٢) الرحمٰن ٥٥: ١٩ ـ ٢٢.

(٣) التفسير الكاشف ٧: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

وفي موضع آخر وبعد أن أشار إلىٰ ما يذهب إليه بعض المفسّرين بلا حجّة أو دليل بيّن، قال: أمّا نحن فنقتصر علىٰ ما يدلّ عليه ظاهر اللفظ، ولا يأباه العقل، غير ملتزمين بقول راوٍ أو مفسّر إلّا علىٰ هذا الأساس[1].

وهذا هو قول علماء الإماميّة، وهو الثابت عن أهل البيت عليهم السلام، وأمّا مثل هذه الروايات الباطنيّة فليس في الصحيح عنهم شيء منها، ومهما وجد القارئ من أمثالها فليس عليه أكثر من أن يتناول كتب الرجال المعتمدة عند الشيعة الإماميّة لينظر في حال رواتها، فسوف يرى بكلّ يسر أنّها من أخبار الموصوفين بالضعف، أو الكذب، أو الغلوّ.

فلو أنّ ابن تيميّة وقف في طعونه علىٰ تضعيف هذا وأمثاله لما كان ملوماً، إلّا أنّه طعن بأحاديث لا يجادل في صحّتها إلّا هو، وربّما ابن حزم والجاحظ.

وسوف نقف علىٰ نماذج من ذلك في فقرات لاحقة.

وبعد هذه النظرة السريعة في بعض مزايا الكتاب نقف علىٰ أهمّ ما جاء فيه من مباحث تكشف عن حقيقة عقائد ابن تيميّة، ممّا ينبغي لكلّ حرّ عاقل أن يلمّ به، كما تكشف عن منهاجه وطريقته في البحث عن (الحقيقة) التي لا تعني عنده إلّا رأيه الخاصّ وإن كان قد عدم الدليل.

وأهمّ هذه المباحث ثلاثة، ينطوي تحتها جميع ما في هذا الكتاب (منهاج السُنّة)، وهي:

١ ـ البحث في الكلام والصفات، وقد ذكرنا منه في هذه اللمحة ما فيه الكفاية، فلا نعود إليه.

---

(١) التفسير الكاشف ٧: ١٧٤.

١ ـ البحث في الكلام والصفات، وقد ذكرنا منه في هذه اللمحة ما فيه الكفاية، فلا نعود إليه.

٢ ـ في تعريف الشيعة، وقد أخفق فيه إخفاقات هائلة، نتناول أهمّها في الفصل الآتي.

٣ ـ في منزلة أهل البيت، وقد جحدها جحوداً تحكّمت فيه أهواء أُموية لم يستطع إخفاءها مرّةً واحدة.

وقد أفردنا لها الباب الأخير من هذا الكتاب، مقتصرين على الأهمّ منها فقط.

الفصل الثالث

تَعريف الشيعَة

كيف عرّف الشيعة ؟

الشيعة والطوائف الإسلامية الأخرى

الشيعة والصحابة

كيف عرّف الشيعة ؟

تبّاً لها وتعساً، تلك العصبيّة الرعناء.. تعساً لها من داءٍ وخيم يجعل الفحول الكبار أقزاماً صغاراً يتعثّرون علىٰ حافّات الطريق، تَدمىٰ أقدامُهم، وتتهرّأ ثيابهم، وتتكدّح رُكَبُهم وأكفّهم، بل جباهُهم وآنافهم !

وفي لُجّة هذه الظلمات يرى المسكين أنّ هذه الحال أحبّ إليه من موافقة الخصم علىٰ الحقّ المبين.

فكيف سترى الشيخ ابن تيميّة، ذاك الذي ما خالطه مَللٌ أو كلل، وما فتئ يُعنِّف علىٰ التمسّك بالحديث الضعيف، ويشهّر بمن أورده في شيء من الكلام، كيف ستراه هنا وهو يواجه الشيعة ؟

إنّك سترى رجلاً آخر، سترى ابن تيميّة وهو يتحصّن بالواهيات، ويحشو أُسّ حصنه بما يشهد عليه بنفسه أنّه لا حظّ له من الصحّة، ولا سبيل إلىٰ دفع شبهة الوضع عنه، ثمّ يقيم عليه كلاماً أشدّ تهافتاً، ينقض بعضه بعضاً، من حيث يدري أو لا يدري، لكنّها وسيلته الوحيدة في مواجهة خصمه.

فاقرأ في أوّل تعريفه للشيعة في ديباجة كتابه، وفي صفحاته الأُولى، هذين القولين:

الأوّل: جَعْلَه المذهب الشيعي من تأسيس عبدالله بن سبأ، وقد ذكر ذلك في غير موضع، فقال في ثاني صفحات ديباجته: إذا كان أصل المذهب مِن إحداث

الزنادقة المنافقين الّذين عاقبهم في حياته عليّ أمير المؤمنين ﷺ، فحرّق منهم طائفةً بالنار، وطلب قتل بعضهم ففرّوا من سيفه البتّار[١].

ولكنّه ذكر فيما بعد ما ينافي هذا الكلام، فقال في أواخر الجزء الثالث: أمّا الفتنة فإنّما ظهرت في الإسلام من الشيعة... فأوّل فتنة كانت في الإسلام قتل عثمان[٢].

وقال: وسعَوا ـ أي الشيعة ـ في قتل عثمان، وهو أوّل الفتن[٣].

فالشيعة إذن موجودون في عهد عثمان، ولهم من العدد والقوّة ما مكّنهم من قتل الخليفة بناءً على هذا الكلام، وهذا لا يتيسّر في أعوام قليلة وخصوصاً في ذلك الزمن، فلا بدّ أن يكون وجودهم أقدم من هذا بكثير.

ومن المعلوم الثابت أنّ دعوة ابن سبأ إنّما ظهرت أيّام أمير المؤمنين عليّ ﷺ كما ذكره أوّلاً، وهذا أوّل التناقض.

وإذا كان ابن سبأ قد دعا دعوته الباطلة أيّام عثمان ﷺ فكان الواجب على الخليفة أن يعجّل إقامة الحدّ عليه كما فعل الإمام عليّ ﷺ.

أمّا كون مقتل عثمان أوّل الفتن فلا يقوله من له علم بتاريخ الإسلام، إلّا لهوىً أو عصبيّة، وإنّما هي فتنة سبقتها فتن.

وأمّا أسباب هذه الفتنة فإنّما كانت أحداث أثارت عليه غضب الصحابة

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٣.

(٢) منهاج السُنّة ٣: ٢٤١.

(٣) منهاج السُنّة ٣: ٢٤٣.

وأبنائهم، وعلى هذا اتّفقت كلمة أصحاب التاريخ[١]، ومن تلك الأحداث:

١ ـ تقديمه بني أُميّة، واستئثار هؤلاء بأموال المسلمين وحقوقهم استئثاراً فاحشاً.

٢ ـ خلافه مع عبدالله بن مسعود ﷺ الذي جرّ إلىٰ ضرب عبدالله بن مسعود في مجلسه، وتسبّب ذلك في وفاته، فانحرفت هُذيل عن عثمان لأجله.

٣ ـ ما حدث له مع عمّار بن ياسر ﷺ، وضرب عمّار في مجلسه، وانحراف بني مخزوم عن عثمان لأجله.

٤ ـ نفيه أبا ذرّ ﷺ إلىٰ الشأم، ثمّ ردّه إلىٰ المدينة، ثمّ نفيه إلىٰ الربذة ليعيش وحيداً في أرضٍ لم يسكنها بشر حتّى توفّي.

٥ ـ استعمال الوليد بن عقبة بن أبي معيط علىٰ الكوفة، وهو مشهور بالسُكر والفسوق، وقد سجن الصحابي جندب بن كعب ليقتله، ففرّ من السجن إلىٰ بلاد الروم.

٦ ـ إيواء الحكم بن أبي العاص وابنه مروان، طريدي رسول الله ﷺ، واتخاذه مروان أميناً له في مجلسه.

٧ ـ الكتاب الذي بعثه مروان إلىٰ أهل مصر ليقتلوا محمّد بن أبي بكر ومن معه ممّن بعثهم عثمان إلىٰ هناك، فكتب مروان كتاباً ختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع غلام الخليفة، يأمر أهل مصر بقتلهم والتمثيل بهم، فأدركوه واستخرجوا منه الكتاب فلمّا رأوا ما فيه، عادوا من هناك ناقمين علىٰ عثمان حتّى أتمّوا حصاره.

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٥، ١٧١، ١٧٣ ـ ١٧٤، مروج الذهب ٢: ٣٤٧ ـ ٣٥٢، الكامل في التاريخ ٣: ١٤٩ ـ ١٥٣.

ولا يستطيع أحد أن ينكر ما أثبته التاريخ من تحريض أمّ المؤمنين عائشة على عثمان، وقولها: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»[١]، وتحريض طلحة والزبير وبثّهما الكتب إلىٰ الأمصار يحرّضان علىٰ عثمان، وقد أخرج لهما أهل البصرة هذه الكتب يوم الجمل، وقالوا لطلحة: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم.

قالوا: فما رَدّك علىٰ ما كنت عليه، وكنت بالأمس تكتب إلينا تؤلّبنا علىٰ قتل عثمان، وأنت اليوم تدعونا إلىٰ الطلب بدمه؟![٢].

فأمّا عثمان فقد رأى أنّ طلحة هو رأس هذه الفتنة، فدعا عليه وهو محصور في بيته، فقال: «هذا ما أمر به طلحة، اللّهمّ اكفني طلحة فإنّه حمل عليّ هؤلاء وألّبهم عليّ، والله إنّي لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يُسفك دمه»[٣].

تلك هي فتنة مقتل عثمان، وتلك أسبابها.

أمّا ذاك اليهودي ابن اليهودي عبدالله بن سبأ فهو أحقر بكثير من أن يستدرج كبار الصحابة إلىٰ ما هو أدنى من ذلك بكثير.

ولعمر الحقّ لقد أفنىٰ ابن تيمية كلّ ما يذكره من فضائل الصحابة حين يجعل هذا اليهودي وأتباعه سبباً في هذا النزاع وقادةً له.

فهل يكون ابن سبأ هو الذي حرّض عائشة وطلحة والزبير وأبا ذرّ وعمّار وعبدالله بن مسعود ومئات الصحابة الّذين نقموا علىٰ عثمان تلك الأحداث؟!

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ١٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٦، الإمامة والسياسة ١: ٥٢، الفتوح لابن أعثم ١: ٤٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ١٧٩، الكامل في التاريخ ٣: ٢١٦، الإمامة والسياسة: ٦٨.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ١٧٤.

إنّها من المهازل التي لا تنطلي علىٰ أحد.

أثر اليهود في هذه الفتنة:

نعم، إنّ لليهود أثراً في هذه الفتنة، ولكن ليس كما ذكر ابن تيميّة.

فالسبب الأوّل في محنة أبي ذرّ كان رجلاً من اليهود..

والسبب المهمّ في غليان الكوفة علىٰ الوليد بن عقبة، كان رجلاً من اليهود!

فوراء محنة أبي ذرّ كان اليهودي الذي أسلم حديثاً، كعب الأحبار، وفي مجلس الخليفة عثمان بن عفّان، حيث كان عثمان يستشير الصحابة في أشياء، فيسبقهم كعب الأحبار برأيه دون أن يأذن لأحدٍ بجواب، فثار أبو ذرّ ودفع في صدره، وقال له: كذبت يا ابن اليهودي. فلم ينته كعب، فجدّد عثمان مسألةً، فقال: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه في ما ينوبنا من أُمورنا ونعطيكموه؟

فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

فرفع أبو ذرّ عصاه فدفع بها صدره، وقال: يا ابن اليهودي، ما أجرأك على القول في ديننا!!.

فقال عثمان لأبي ذرّ: ما أكثر أذاك لي! غيّب وجهك عنّي فقد آذيتني.

فخرج أبو ذرّ إلىٰ الشأم[1]، وبقي ابن اليهودي في العاصمة!

ومحنة الصحابيّ الآخر جندب بن كعب الأزدي مع الوليد بن عقبة والي عثمان

---

(١) مروج الذهب ٢: ٣٥٧.

علىٰ الكوفة وأخيه لأُمّه، كان مفتاحها اليهوديّ الساحر، الذي استدعاه الوليد بن عقبة إلىٰ المسجد يلعب بألاعيبه السحريّة، فقام إليه جندب فضربه ضربةً فقتله، ثمّ قال له: أحْيِ نفسك! ثمّ قرأ: ﴿ *أَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ* ﴾. ثمّ قال للوليد: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «حدّ الساحِر ضربةٌ بالسيف».

فأراد الوليد قتل جُندب ثأراً للساحر اليهودي، فقامت عليه الأزد، فحبسه ليقتله غيلةً، فعلم السجّان بذلك فأتاه ليلاً فقال له: أُنجُ بنفسك.

قال جندب: تُقتَل بي! قال: ليس ذلك بكثير في مرضاة الله والدفع عن وليّ من أولياء الله. فلمّا أصبح الوليد دعا به فلم يجده فضرب عنق السجّان وصَلَبه بالكناسة. وأمّا جندب فهرب إلىٰ أرض الروم[1].

وفي قصّة جندب أنشد أخوه:

أفي مضربِ السحّار يُحبس جندبٌ ويُقتَلُ أصحابُ النبيّ الأوائلُ[2]

ولليهود يدٌ أُخرىٰ في هذه القصّة!.

فالوليد بن عُقبة هذا الوالي نفسه هو من سلالة اليهود أيضاً، وهذا ممّا قد لا يعرفه الآن إلّا القليل، لكنّ الأوّلين يعرفونه، فجدّه ذكوان كان عبداً لأُميّة فاستلحقه فصار يقال: ذكوان بن أُميّة[3].

فمن أين جاء هذا العبد؟

عقيل بن أبي طالب العارف بقريش وأنسابها يجيب عن هذا السؤال أمام

---

(١) مروج الذهب ٢: ٣٥٦، أُسد الغابة ١: ٣٠٥.

(٢) أُسد الغابة ١: ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ترجمة جندب بن كعب.

(٣) أُسد الغابة ٥: ٩٠ ترجمة الوليد بن عقبة.

الوليد وفي مجلس الخليفة أخيه لأُمّه، يوم أُتي بالوليد ليقام عليه الحدّ لشربه الخمر وهو يجادل، فقال له عقيل: إنّك لتتكلّم يا ابن أبي مُعَيط كأنّك لا تدري من أنت! وأنت علج من أهل صفوريّة؟ وصفوريّة من مدن اليهود في بلاد الأردن، فكانوا يذكرون أنّ آباء الوليد من يهود صفوريّة[١].

ذلك هو دور اليهود في الفتنة، أمّا أن يبلغ أحدهم القدرة علىٰ خداع الجمع الكبير من أصحاب رسول الله ومن أهل المدينة المنوّرة، فهذا محـال لا يـشهد له التاريخ ولا يرتضيه العقل.

ابن سبأ اليهودي في كتب السُنّة والشيعة:

أمّا الشيعة فقد رووا بالأسانيد الصحاح عن ثلاثة من الأئمّة: زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام، أنّهم لعنوا عبدالله بن سبأ وأصحابه.

ورووا عن الباقر والصادق عليهما السلام أنّ عليّاً عليه السلام قد أحرقه بالنار مع أصحابه[٢].

وإلى هذا ذهب ابن حجر العسقلاني من رجال السُنّة[٣].

وأمّا من كتب أهل السُنّة فلا يستطيع ابن تيميّة أن يأتي بخبر واحد في عقيـدة ابن سبأ إلّا من طريق الكذّابين عنده!

ومن هنا قال طٰه حسين: إن أمر السبئيّة وصاحبهم ابن السوداء ـ ابن سبأ ـ

---

(١) مروج الذهب ٢: ٣٥٤، وانظر: المعارف لابن قتيبة: ٣١٩.

(٢) ترجمة عبدالله بن سبأ في: اختيار معرفة الرجال ١: ٣٢٣ ح/ ١٧٠ ـ ١٧٤، قـاموس الرجـال، مـعجم رجال الحديث ١٠: ١٩٢.

(٣) لسان الميزان ٣: ٣٥٨ / ٤٥٨٩.

إنّما كان متكلّفاً منحولاً قد اختُرع بأخَرَةَ حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلاميّة أراد خصوم الشيعة أن يُدخِلوا في أُصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنَيل منهم ![1].

نعم؛ لا يستطيع ولو طلعت الشمس من مغربها أن يأتي برواية واحدة إلّا وينتهي طريقها إلىٰ سيف بن عمر التميمي الذي اتّفق أهل العلم بالرجال علىٰ أنّه من أكذب الناس، ولا يسوى فلساً. وإن وجد من ذلك شيء من طريق أبي مخنف لوط ابن يحيى فهو عنده كذّاب، وقد عابَ علىٰ الشيعة نقلهم روايته، فقال: إنّهم يعتمدون علىٰ نقل مثل أبي مخنف لوط بن [علي][2].

فإن أراد أن يعرف حقيقة هذا اليهودي المحترق فعليه أن يرجع إلىٰ كتب الشيعة وحدهم.

هذا عن قوله الأوّل في تعريف الشيعة.

الثاني: قوله في الصفحات الأُولى من كتابه[3]: «ومن أخبر الناس بهم ـ أي الشيعة ـ الشعبي وأمثاله من علماء الكوفة».

فمن هو الشعبي؟ وما هي خبرته بهم؟ سيأتي لاحقاً، أمّا الآن فنواصل نقل كلام ابن تيميّة، فهو يقول:

«وقد ثبت عن الشعبي أنّه قال: «ما رأيت أحمقَ من (الخشبيّة)، لو كانوا من

(١) عليّ وبنوه: المجموعة الكاملة لمؤلّفات د. طٰه حسين ٤: ٥١٨.

(٢) منهاج السُنّة ١: ١٣. كذا جاء (لوط بن عليّ) والصواب لوط بن يحيى، ولعلّه من خطأ النسّاخ. ولاستيفاء موضوع عبدالله بن سبأ من مصادر أهل السنّة راجع كتاب (عبدالله بن سبأ وأساطير أُخرى) للسيّد مرتضى العسكري.

(٣) منهاج السُنّة ١: ٦.

الطير لكانوا رخماً، ولو كانوا من البهائم لكانوا حميراً، والله لو طلبتُ منهم أن يملأوا هذا البيت ذهباً علىٰ أن أكذب علىٰ عليّ لأعطوني، ووالله ما أكذب عليه أبداً».

فالشعبي إذن يذكر (الخشبيّة)، فمن هم هؤلاء الخشبيّة؟ سيأتي بيانه بعد تمام هذه الفقرات.

وواصل ابن تيميّة كلامه فقال: «وقد روي هذا الكلام عنه ـ أي الشعبي ـ مبسوطاً، ولكنّ الأظهر أنّ المبسوط من كلام غيره، كما روى أبو حفص بن شاهين في كتاب (اللطف في السُنّة) عن عبدالرحمٰن بن مالك بن مِغْوَل، عن أبيه، قال: قال الشعبي: أُحذّركم أهل هذه الأهواء المضلّة، وشرّها (الرافضة) لم يدخلوا الإسلام رغبةً ولا رهبةً ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم، قد حرّقهم عليّ ﷺ ونفاهم إلىٰ البلدان، منهم عبدالله بن سبأ، يهودي من يهود صنعاء نفاه إلى ساباط، وعبدالله ابن يسار نفاه إلىٰ خازر. وأيّد ذلك أنّ محنة الرافضة محنة اليهود: ـ

قالت اليهود: لا يصلح الملك إلّا في آل داود. وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلّا في ولد عليّ.

وقالت النصارى: لا جهاد في سبيل الله حتّى يخرج المسيح الدجّال وينزل سيّد من السماء. وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتّى يخرج المهدي وينادي منادٍ من السماء.

واليهود يؤخّرون الصلاة إلىٰ اشتباك النجوم، وكذلك الرافضة.

واليهود تزول عن القبلة شيئاً، وكذلك الرافضة.

واليهود تنود في الصلاة، وكذلك الرافضة ...».

إلىٰ آخر هذا الكلام الذي يعيده مرّة أُخرى في الصفحة السابعة، ومرّة ثالثة في الصفحة الثامنة.

وكلام الشعبي هنا عن (الرافضة)، فمن هم هؤلاء الرافضة الّذين اجتمعت فيهم هذه الصفات؟

أمّا الشعبي فقد أشار في كلامه إلىٰ أنّهم أصحاب عبدالله بن سبأ وعبدالله بن يسار، وقد عرفنا هؤلاء، فماذا يقول ابن تيميّة؟

إنّه بعد العَود والتكرار الكثير يقول: «لكن قد لا يكون هذا كلّه في الإماميّة الاثني عشريّة، ولا في الزيديّة، ولكن يكون كثير منه في الغالية وفي كثير من عوامّهم!»[1].

إذن لأيّ شيءٍ كان كلّ هذا الكلام، والعناء في تكراره مرّة بعد أُخرى، وحشوه بما هو مثله من الكلام الباطل وهو يخاطب عالم الشيعة الإماميّة؟!

إن الغرض الوحيد من ذلك العرض الطويل هو تشويه صورة الشيعة عموماً في عين القارئ.

ومع هذا، فما هو نصيب هذه الرواية من الصحّة في نظر ابن تيميّة نفسه؟

إنّه يُثبت صراحة أنّها رواية موضوعة بأكثر من دليل!

فيقول: «روي ذلك عن عبدالرحمٰن بن مالك بن مِغْوَل بطرق متعدّدة، لكن عبدالرحمٰن بن مالك بن مِغْوَل ضعيف.. ولفظ (الرافضة) إنّما ظهر لمّا رفضوا زيد بن

(١) منهاج السنّة ١: ١٣.

عليّ بن الحسين في خلافة هشام، وقصّة زيد كانت بعد العشرين ومئة، سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين ومئة، ومن ذلك الزمن افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، والشعبي توفّي سنة خمس ومئة (١٠٥ هـ) أو قريباً من ذلك، فلم يكن لفظ الرافضة معروفاً إذ ذاك!

قال: وبهذا يُعرف كذب الأحاديث المرفوعة التي فيها لفظ الرافضة»[١].

هذه هي رواية الشعبي الذي هو أعرف الناس بالرافضة!

وبعد ذلك ماذا تظنّ أن يقول العالم المحقّق؟

إنّه يقول بعدما انتهى من هذا الكلام: «إنّه من ذلك الزمان القديم يصفهم الناس بمثل هذا، من عهد التابعين وتابعيهم، كما ثبت بعض ذلك إمّا عن الشعبي، وإمّا أن يكون من كلام عبدالرحمٰن» !!

ثمّ يضيف إلىٰ هذا القول ما هو أدعى للعجب، فيقول:

«وعلى التقديرين فالمقصود حاصل! فإنّ عبدالرحمٰن كان في زمن تابعي التابعين، وإنّما ذكرنا هذا لأنّ عبدالرحمٰن كثيرٌ من الناس لا يحتجّ بروايته المفردة، إمّا لسوء حفظه، وإمّا لتهمته بتحسين الحديث»[٢].

ـ أرأيت كيف عاد إلىٰ ما شهد بكذبه؟

ـ ثمّ أرأيت كيف عاد إلىٰ هذا الراوي الّذي وصفه بالضعف، وعلم إجماع

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٨.

(٢) منهاج السُنّة ١: ١٣.

أهل العلم علىٰ ذلك، عاد إليه ليعدّله ويبرّر قبول روايته لأنّه كان في زمن تابعي التابعين ؟!

ـ إنّه نسي وهو يقول ذلك أنّ الّذين طعنهم عبدالرحمٰن في روايته قد عاشوا قبل عبدالرحمٰن، فكانوا في زمن التابعين الذي هو خير من زمنه، فلماذا شفع هذا العذر لعبدالرحمٰن ولم يشفع لمن هو قبله ؟!

ـ وأمراً رابعاً ارتكبه حين موّه علىٰ القارئ الذي قد لا يعلم ماذا قيل في عبدالرحمٰن هذا، فاكتفى بقوله: «عبدالرحمٰن ضعيف، وكثير من الناس لا يحتجّ بروايته المفردة، إمّا لسوء حفظه، وإمّا لتهمته بتحسين الحديث» وهذا تزوير لكلام العلماء في عبدالرحمٰن، فقد قالوا فيه ما هو أشدّ من هذا بكثير:

فأحمد والدارقطني قالا: متروك[(١)].

وقال فيه أبو داود: كذّاب يضع الحديث[(٢)].

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سمعتُ أبي يقول: خرقنا حديث عبدالرحمٰن ابن مالك بن مِغْوَل من دهر من الدهور، ليس بشيء[(٣)].

وقال السعدي: هو ضعيف الأمر جدّاً[(٤)].

هذه هي أقوالهم فيه التي حاول الشيخ سترها والتخفيف منها ليحاول بعد ذلك رتقها بقوله إنّه كان في زمن تابعي التابعين !

---

(١) و (٢) لسان الميزان ٣: ٥١٩ / ٤١-٥٠.

(٣) كتاب الضعفاء الكبير، للعقيلي ٢: ٣٤٥.

(٤) الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي ٤: ٢٨٨.

أفي مثل هذا النهج يُهدى إلىٰ السُنّة النبوية ؟!

والخشبيّة من هم؟

قال ابن تيميّة: كانوا يسمّون الخشبيّة لقولهم: إنّا لا نقاتل بالسيف إلّا مع إمام معصوم[1].

وهذا القول لا يُنسب إلىٰ الإماميّة ألبتّة، ولم ينسب إليهم أحد اسم الخشبيّة، وإنّما أُطلق هذا اللقب علىٰ جماعة المختار بن أبي عبيد الثقفي، حين اتّخذوا لهم كرسيّاً يقدّمونه أمامهم في الحرب، وكانوا يوم قتلوا عبيدالله بن زياد اتّخذوا عامّة سلاحهم من الخشب، وفيهم قال أعشى همدان: شهدت عليكم أنّكم خشبيّة.

وفي حديث عبدالله بن عمر أنّه كان يصلّي خلف الخشبيّة. وهم هؤلاء.

كما أُطلق علىٰ جماعة الزيديّة الّذين حفظوا الخشبة التي صلب عليها زيد بن عليّ بن الحسين. ولا يصحّ كلام الشعبي في هؤلاء لأنّهم لم يُعرفوا إلّا بعد موت الشعبي بنحو ستّ عشرة سنةً.

بعد أن عرفنا هذا، لنرى من هو الشعبي؟ وما هي حقيقة معرفته بالشيعة؟

من هو الشعبي؟

عامر بن شُراحيل، أمين آل مروان، قاضي الكوفة في أيّامهم، اتّصل بعبدالملك بن مروان فكان نديمه وسميره، اعتمده عبدالملك في حيلةٍ لخلع عبدالعزيز

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٨.

عن ولاية العهد وتولية الوليد بن عبدالملك، فأدّى دوره بمكرٍ عجيب لا يجتمع مع التقوى في قلبٍ واحد!! يُحدّث بذلك عن نفسه بغير حرج[١].

فبعد هذا الولاء المرواني كيف سيكون موقفه من أتباع عليّ بن أبي طالب ؟

لقد كان من فضلاء أصحاب عليّ عليه السلام في زمنه: الحارث الأعور الهمداني، قال فيه الشعبي: «كان كذّاباً» ! فأين وقعت كلمة الشعبي هذه عند أهل العلم ؟

قال ابن عبدالبرّ: أظنّ أنّ الشعبي عُوقب علىٰ تكذيبه الحارث، لأنّه لم تَبِن منه كذبة أبداً، وإنّما نقم عليه إفراطه في حبّ عليّ[٢].

وقال القرطبي في ذكر الحارث: رماه الشعبي بالكذب، وليس بشيء ولم يَبِن من الحارث كذب، وإنّما نقم عليه إفراطه في حبّ عليّ وتفضيله له علىٰ غيره. ومن هنا ـ والله أعلم ـ كذّبه الشعبي[٣].

هذه هي معرفة الشعبي بأصحاب عليّ وشيعته، المعرفة التي استهوت ابن تيميّة فجعله أعرف الناس بأحوال الشيعة، فقال: «ومن أخبر الناس بهم الشعبي وأمثاله من علماء الكوفة»[٤].

وقوله: (وأمثاله)، هل يعني أمثاله في الولاء المرواني، أم يعني أمثاله في العلم ؟!

إن كان الأوّل هو المراد، فهذا حقّ لا مراء فيه، فعقيدة آل مروان وأوليائهم

(١) القصّة في تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨٠.
(٢) تهذيب التهذيب ٢: ١٢٧.
(٣) تفسير القرطبي ١: ٥.
(٤) منهاج السُنّة ١: ٦.

ليس الطعن بشيعة أهل البيت وحسب، بل الطعن في أهل البيت أنفسهم !

وأمّا إن كان مراده أهل العلم في الكوفة، فيكفيك أن تقرأ قول محمّد بن سيرين فيهم، فهو يقول: «أدركتُ الكوفة وهم يُقدّمون خمسةً: من بدأ بالحارث ثنّى بِعَبيدة السلماني، ومن بدأ بعَبيدة ثنّى بالحارث»[1].

والحارث هو الهمداني المذكور آنفاً، وعَبيدة السلماني هو الآخر من خُلّص أصحاب الإمام عليّ عليه السلام ومن شيعته القائلين بتفضيله علىٰ غيره.

فلماذا صدّ ابن تيميّة عن هذا وأمثاله من كلام علماء الكوفة وغيرهم وتمسّك بأخبار يشهد عليها بالكذب، باعثها الوحيد الهوى والعصبيّة ؟! تمسّك بها وهو يعلم ذلك، لا لشيء سوى لأنّها توافق هواه.

إذا رأيت هذا فاقرأ حكمه هو بقوله في هذا الكتاب نفسه: «إنّ الهوى يعمي ويُصمّ ! وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجّة توجب صدقه، ويردّ ما خالف هواه بلا حجّة توجب ردّه» ![2].

فكيف بمن يقبل ما وافق هواه مع علمه بوجوب ردّه ؟!

تناقض متجدّد:

لقد كان ابن تيميّة في صدد الردّ علىٰ عقائد الإماميّة الاثني عشريّة، وكان قد فصل بينهم وبين غيرهم من فرق نُسِبَت خطأً إلىٰ التشيّع، فكان ينبغي عليه أن يلتزم بذلك الفصل أثناء بحثه وردوده اللاحقة. ولكنّه لم يفعل شيئاً من ذلك، فكلّما

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤: ٥٦، ١٠٢، ١٥٣.

(٢) منهاج السُنّة ٣: ٢٠٨.

وجد نفسه في ضيقٍ انفجر بسيل من عيوب الغلاة وانحرافاتهم ليجعل ذلك عيباً على ابن المطهّر والإماميّة !

وفي أثناء ذلك ربّما ذكر أسماء تلك الفرق، وربّما اكتفى بدسّ عقائدهم بما يوهم القارئ أنّها من عقائد الإماميّة لذا وضعها في الردّ علىٰ عالمهم ابن المطهّر !

تناقُضٌ تجدَّدَ في مواضع يصعب حصرها في الأجزاء الأربعة لهذا الكتاب[1].

ويبلغ هذا التناقض أقصاه حين يقف مدافعاً عن مذهبه بعد أن يعرض جملةً من العقائد الضالّة عند بعض عوامّ أهل السُنّة، ثمّ يقول: «وإذا كان في بعض جهّال العامّة مَن يقول هذا، أو أكثر من هذا، لم يَجُز أن يُجعل هذا الاعتقاد لأهل السُنّة والجماعة يعابون به» !

فلماذا إذن يُعاب الإماميّة لا بأخطاء جهّال العامّة منهم، بل بأخطاء فرق أُخرى لا صلة لهم بها ؟!

إنّه تناقض آخر يتجدّد حين يكرّر هذه المقولة في عدّة مواضع[2].

العصبيّة وحدها هي التي تجرّ أسيرها إلىٰ هذا المنحدر الوخيم..

إقرأ هذه المغالطة، واصبر عليها، ثمّ قل فيها ما يهديك إليه رشدك:

قال وهو يذكر العلّامة ابن المطهّر: «وهذا الرجل سلك مسلك سلفه من شيوخ (الرافضة) كابن النعمان المفيد[3] ومتّبعيه، كالكراجكي[4]، وأبي القاسم

---

(١) منها ١: ١٤، ٩٠ ـ ٩٣، ١٠٠، ١٠١، ٢٣١ ـ ٢٤١، ٢: ٨٣ ـ ٨٥، ١٤٢، ١٤٣، ٢٣٨ وغيرها كثير.

(٢) منهاج السُنّة ١: ٢٤١، ٢٥٧، ٢٦١.

(٣) أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان الحارثي البغدادي العكبري (٣٣٨ ـ ٤١٣ هـ) إمام علماء عصره بلا منازع صاحب التصانيف البديعة، له مناظرات مشهودة مع الباقلّاني وشيوخ المعتزلة.

الموسوي[١]، والطوسي[٢] وأمثالهم، فإنّ الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلّة والأحاديث والآثار والتميز بين صحيحها وضعيفها... وعلماؤهم يعتمدون علىٰ نقل مثل أبي مخنف لوط بن يحيى[٣]، وهشام ابن محمّد بن السائب وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم»[٤].

ـ هذا الكلام يقوله في نفس الصفحة التي يتقبّل فيها رواية ذلك «الكذّاب، المتروك، الذي يضع الحديث» عبدالرحمٰن بن مالك بن مِغْوَل !

ثمّ يواصل كلامه الذي يحمل معه نتيجته، فيقول:

«وقد اتّفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد علىٰ أنّ الرافضة أكذب الطوائف والكذب فيهم قديم.. قال أبو معاوية: سمعت الأعمش يقول: أدركت الناس وما يُسَمُّونَهم إلّا الكذّابين، يعني أصحاب (المغيرة بن سعيد).

وكان الشافعي يقول: ما رأيت في أهل الأهواء قوماً أشهد بالزور من الرافضة. ولهذا ذكر الشافعي ما ذكره أبو حنيفة وأصحابه أنّه ردّ شهادة من عُرِف بالكذب (كالخطّابيّة)»[٥].

---

(٤) أبو الفتح محمّد بن عليّ بن عثمان الكراجكي، من تلامذة الشيخ المفيد، ومن كبار علماء الإمامية، له مصنّفات في الفقه والكلام، توفّي سنة ٤٤٩ هـ.

(١) الشريف المرتضى، عليّ بن الحسين بن موسىٰ بن إبراهيم بن موسىٰ الكاظم عليه‌السلام: علم الهدىٰ، شيخ الإمامية، أذعن له أكابر علماء عصره علماً وفضلاً وشرفاً، له تصانيف كثيرة ومنوّعة شاهدة بإمامته. توفّي سنة ٤٢٦ هـ.

(٢) أبو جعفر محمّد بن الحسن بن عليّ الطوسي، شيخ الطائفة الشيعية، وكبير علماء عصره، سابق الفقهاء وإمام المفسّرين والمحدّثين وكتبه الكثيرة المطبوعة شاهدة بإمامته، توفّي سنة ٤٦٠ هـ.

(٣) في الأصل: لوط بن عليّ. وهو خطأ.

(٤) منهاج السُنّة ١: ١٣.

(٥) منهاج السُنّة ١: ١٤.

إذن هؤلاء (الرافضة) الّذين هم أكذب الطوائف هم: أصحاب المغيرة بن سعيد، والخطّابيّة.

هذا كلّ ما وجده الشيخ من أقوال السَّلَف.

ولكنّه لو كان يعرف أئمّة أهل البيت لنقل عنهم أضعاف هذا في هؤلاء وفي غيرهم من الغلاة والكذّابين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لعنَ اللهُ المغيرة بن سعيد، إنّه كان يكذب على أبي فأذاقه الله حرّ الحديد».

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «كان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر فأذاقه اللهُ حرّ الحديد».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لعنَ اللهُ المغيرة بن سعيد، ولعنَ اللهُ يهوديةً كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق».

وقال عليه السلام: «لعنَ اللهُ أبا الخطّاب، ولعنَ اللهُ مَن قُتل معه، ولعنَ اللهُ من بقيَ منهم، ولعنَ اللهُ مَن دخلَ قلبَهُ رحمةٌ لهم»[١].

وقال الشيخ الصدوق في (الاعتقادات):

اعتقادنا في الغُلاة والمفوّضة[٢]: أنّهم كفّار بالله جلّ اسمه، وأنّهم شرٌّ من

---

(١) هذه الأحاديث ونحوها كثيرة مع أقوال علماء الرواية والإسناد، تجدها في ترجمة الرجلين في كتب رجال الشيعة، منها: اختيار معرفة الرجال ـ رجال الكشّي ـ، رجال ابن داود، معجم رجال الحديث، قاموس الرجال، مجمع الرجال.

(٢) صنف من الغلاة يعتقدون أنّ الله تعالى تفرّد بخلق الأئمّة خاصّةً، ثمّ فوّض إليهم خَلق العالَم بما فيه وأرزاق العباد.

اليهود والنصارى والمجوس والقدريّة والحروريّة ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة[١].

أبمثل هؤلاء يُعاب ابن المطهّر وسَلَفه كالمفيد والكراجكي والمرتضى الموسوي والطوسي ؟!

هل نسيَ ما قرّره قبلُ، أم اختلط عليه الأمر ؟!

كلّا، لا هذا ولا ذاك، لكنّها عقدة أُولئك الّذين لا يغيضهم شيء مثلما يغيضهم تقاربٌ يلمحونه بين فئات المسلمين. فحين يلمح اتّفاق الشيعة والسُنّة على نبذ تلك الفرق الشاذّة المارقة عن الدين، يفزع إلىٰ أيّة وسيلة يغري بها العوامّ ليشوّه في أعينهم صورة هذا الوفاق !

وحتّى حين يشهد للإماميّة بصحّة ما هم عليه، لا يطاوعه لسانه في ذكر كلمة سويّة تترك رؤيةً خيّرةً في نفوس قرّائه، فيقول:

«وينبغي أيضاً أن يُعلَم أنّه ليس كلّ ما أنكره بعض الناس عليهم يكون باطلاً، بل من أقوالهم أقوال خالفهم فيها بعض أهل السُنّة ووافقهم بعض، والصواب مع من وافقهم ! فمن الناس من يعدّ من بدعهم: الجهر بالبسملة، وترك المسح علىٰ الخفّين إمّا مطلقاً وإمّا في الحضر، والقنوت في الفجر، ومتعة الحجّ، ومنع لزوم الطلاق البدعي، وتسطيح القبور، وإسبال اليدين في الصلاة، ونحو ذلك من المسائل التي تنازع فيها علماء السُنّة، وقد يكون الصواب فيها للقول الذي يوافقهم!»[٢].

إنّه قلمٌ يأبى أن يُذعن ! إنّه يأبىٰ أن يقول (والصواب معهم، ولقولهم)، فيذكر

(١) الاعتقادات: ٧١.

(٢) منهاج السُنّة ١: ١٠.

أنّ بعض أهل السُنّة قد وافقهم والصواب مع من وافقهم !

وليت التناقض يقف عند هذا الحدّ، لكنّه لم يَدَع للحقّ منفذاً إلّا أوصده بوجوه أتباعه ومقلّديه والمعجبين بإطالته الكلام وتنويعه فيه.

يقول: «أمّا التابعون فلم يُعرف تعمّد الكذب في التابعين من أهل مكّة والمدينة والشأم والبصرة، بخلاف الشيعة فإنّ الكذب فيهم معروف»[1].

فهل كانت مكّة والمدينة والبصرة خالية من الشيعة، والأئمّة في عهد التابعين، زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام، إنّما قضوا أعمارهم الشريفة في المدينة، وأصحابهم ورواة أحاديثهم من حولهم ؟!

أم أنّ عكرمة ومقاتل بن سليمان وعمر بن مصعب بن الزبير وأمثالهم كانوا من الشيعة، أم من أهل الكوفة ؟!

وقول الثاني: الكذّابون المعروفون بوضع الحديث: ابن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمّد بن سعيد بالشأم[2].

فَمَن مِن هؤلاء كان شيعيّاً، ومَن منهم كان كوفيّاً ؟

إعلم أنّ حرفاً من هذا وكثيراً غيره لم يكن غائباً على الشيخ ابن تيميّة، ولا غاب عليه ما صنّفه أعلام الإماميّة الّذين ذكرهم في الجرح والتعديل، وتمييز صحيح الحديث من سقيمه، وخصوصاً ما توسّع فيه ابن المطهّر الذي هو بصدد مقابلته، ولكنّها حاجة في النفس دعته إلى هذا.

---

(١) التوسّل والوسيلة: ٨٦.

(٢) الردّ على المتعصّب العنيد: ٦٣.

رؤية ابن خلدون:

تسالم المؤرّخون علىٰ نقل أحداث استخلص منها ابن خلدون رؤيته في نشأة التشيّع فقال: إعلم أنّ مبدأ (التشيّع) أنّ أهل البيت لمّا توفّي رسول الله ﷺ كانوا يرون أنّهم أحقّ بالأمر، وأنّ الخلافة لرجالهم دون من سواهم من قريش. وفي قصّة الشورىٰ أنّ جماعة من الصحابة كانوا يتشيّعون لعليّ ويرون استحقاقه علىٰ غيره، ولمّا عُدل به إلىٰ سواه تأفّفوا من ذلك وأسفوا له، مثل الزبير ومعه عمّار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم[1].

لا شكّ أنّ هذه الرؤية تلغي رؤية ابن تيميّة بالكامل.

(١) تاريخ ابن خلدون ٣: ٢١٤ ـ ٢١٥.

الشيعة والطوائف الإسلامية الأُخرى

يرى الشيخ ابن تيميّة أنّ «الرافضة بأصنافها، غاليها وإماميّها وزيديّها، كفّروا الأُمّة كلّها أو ضلّلوها، سوى طائفتهم التي يزعمون أنّها الطائفة المحقّة، وأنّها لا تجتمع علىٰ ضلالة»[1].

ونقل هذا القول طائفة ممّن ردّد أقواله بلا رويّة[2]، ناسياً أو متناسياً أنّ هذا الكلام أكثر انطباقاً علىٰ ابن تيميّة من أي شخص آخر أو فئة أُخرى.

والغريب أنّ بعض من انتصر بهذا القول وانتصر له ينقل إلىٰ جانبه قوله: يعتقد ابن تيميّة أنّ أهل السُنّة هم وحدهم الّذين يأخذون بالقصد والعدل في طريقتهم من بين جميع فرق المسلمين![3].

فهذا القول الواحد صار له حسنة، ولغيره سيّئة!

وهو القائل دائماً: «إن أهل السُنّة لم يتّفقوا قطّ علىٰ خطأ»، «ولا يتّفقون على ضلالة»، «وما خالفتهم طائفة في أمرٍ اتّفقوا عليه إلّا والصواب معهم، والخطأ مع غيرهم»[4].

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ٣٩.

(٢) أستثني منهم في ما وقفت عليه: الأُستاذ محمّد أبو زهرة، والأُستاذ عبدالرحمٰن بدوي في (الفقيه المعذّب)، والأُستاذ محمّد حربي في (ابن تيميّة وموقفه من أهمّ الفرق والديانات) إذ أعرض عن هذا وصرف كلام ابن تيميّة إلى الباطنيّة.

(٣) أبو الحسن الندوي: الحافظ ابن تيميّة: ٢٧٨.

(٤) منهاج السُنّة ٢: ١٤، ١٧، ٧٥، ٩١.

وهل سلم أحد يختلف مع ابن تيميّة في مسألة من أن يجعله ضالاًّ، أو من أتباع اليهود والنصارى، أو فراخ الفراعنة والهنود واليونان ؟!

وهو عندما يتبنّى عقيدة الحشويّة في الصفات يصف جميع فرق المسلمين الّذين لا يقولون قوله بأنّهم «الخارجين المارقين من شريعة الإسلام»[١] في كتاب أسماه (الردّ علىٰ الطوائف الملحدة) ولا يعني بهم الهنود واليونان واليهود والنصارى، وإنّما يذكر فيه طوائف المسلمين جميعاً إلّا من وافقه، وقد علمنا أنّه لم يوافقه أحد إلّا طائفة من الحشوية.

وابن تيميّة هو الذي يعتقد أنّ جميع المسلمين في النار إلّا أهل السُنّة[٢]، ويستدلّ لعقيدته هذه بالحديث الذي ردّه الأكابر من علماء أهل السُنّة:

يقول: «لمّا أخبر النبيّ أنّ أُمّته ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنّه قال: هم ما كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي، صار المتمسّكون بالإسلام المحض الخالص من الشوب هم أهل السُنّة والجماعة»[٣].

فمستنده في عقيدته إذن جملتان زيدتا في الحديث: الأُولى: «كلّها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة». والثانية: «هم ما كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

فما نصيب هاتين الزيادتين من الصحّة ؟

يقول الألباني: قال رسول الله : «افترقت اليهود علىٰ إحدى أو اثنتين

---

(١) الفتاوى الكبرى ٦: ٣٣٢.

(٢) العقيدة الواسطيّة: ١٤، ١٣٠.

(٣) العقيدة الواسطيّة: ١٥٦، الوصية الكبرىٰ: ١٢.

وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى إلىٰ إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أُمّتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة».

ثمّ قال: هذا الحديث بهذا النصّ أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبّان والحاكم. أمّا الزيادة «كلّها في النار إلّا واحدة» فلم ترد في شيء من المصادر.

قال ابن الوزير في كتابه (العواصم والقواصم) ما نصّه: إياك أن تغترّ بزيادة «كلّها في النار إلّا واحدة» فإنّها زيادة فاسدة، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة، وقد قال ابن حزم: إنّ هذا الحديث لا يصحّ!

هذه هي الزيادة الأُولى، فماذا عن الزيادة الثانية والتي لم ترد أيضاً في المصادر؟

قال الألباني: الحديث بهذه الزيادة «ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه العقيلي في الضعفاء، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير وقال: لم يروه عن يحيى إلّا عبدالله ابن سفيان، قال العقيلي: لا يتابع علىٰ حديثه[1].

هذا هو مستنده في عقيدةٍ قذف بها الأُمّة في جهنّم، فأيّة عقيدة هذه التي تقوم على مثل هذا المستند، وأين تبلُغ بصاحبها؟!

فحين يقف المرء علىٰ مثل حديث «تفترق أُمّتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة» فأين ينشد النجاة؟ أفي زيادات ليس لها مصدر، وأحسن ما يقال فيها أنّها ضعيفة، ولو جازف بعضهم وزعم صحّتها فهو لا ينفي أبداً أنّها من أخبار الآحاد؟!

أم ينشد النجاة في الصحيح المتواتر عند جميع المسلمين؟!

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٣٥٦ ـ ٣٦٢، الصحوة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي: ٣٤ ـ ٣٨.

وهل أنفع في هذا الموضوع من حديث الثقلين: «كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض» ؟

هذا الحديث المتواتر الذي قدّم له النبيّ بالنذير، وختمه بالتذكير، فقال ﷺ: «ألا أيّها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي»(١).

وفي سنن الترمذي: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»(٢).

وهذا النصّ الذي ذكره الترمذي أخرجه الحاكم في (المستدرك) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين(٣)، وأخرجه البغوي في (مصابيح السُنّة)(٤).

ولكن ثَمّ دينٌ جديدٌ قد لا يعرفه الناس !!

يقول الشيخ ابن تيمية: إنّ الرسول أخبر أنّ أُمّته ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقةً، فقد علم ما سيكون، ثمّ قال: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله» وروي عنه أنّه قال في صفة الفرقة الناجية: «هي ما كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» !(٥).

---

(١) مسلم ٤: ١٨٧٣ / ٢٤٠٨.

(٢) الترمذي ٥: ٦٦٣ / ٣٧٨٨.

(٣) المستدرك ٣: ١٤٨.

(٤) مصابيح السُنّة ٤: ١٨٥ / ٤٨٠٠، ١٩٠ / ٤٨١٦.

(٥) العقيدة الحموية الكبرى: العقود الدرّية: ٨٥.

إنّ العصبيّة لا تهدي إلىٰ الحقّ، كما أنّ اتّباع الحقّ لا يعود بنا إلىٰ العصبيّة أبداً.

تُرى ماذا سيغني هذا اللعب بالدين وإضلال بسطاء المسلمين، هل سيجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً ؟!

أليست هذه هي العصبيّة التي تُذلّ العمالقة ؟

وَلاء الشيعة:

الشيعة عند ابن تيميّة عليهم أن يتحمّلوا أوزار الغلاة دائماً، لا جهلاً منه بالبَون الشاسع بينهما، ولا بالخصام العقائدي الذي بلغ حدّاً أصبحت معه البراءةُ من الغلاة وعقائدهم شرطاً لازماً في صحّة العقيدة عند الشيعة، إنّه لا يجهل شيئاً من ذلك ـ وإن كان عامّة مقلّديه يجهلون ـ لكنّه يتجاهل.

فحين يصف ولاء الشيعة يستعرض جملةً من أخطاء الغلاة ثمّ يقول: «وهذا دأب الشيعة دائماً، يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلىٰ اليهود والنصارى والمشركين في الأقوال، والموالاة، والمعاونة، والقتال، وغير ذلك»[(١)]. «يوالون المنافقين، ويعادون أولياء الله المتّقين»[(٢)].

فمن هؤلاء المنافقين الّذين تولّتهم الشيعة ؟!

أهم ولاة معاوية علىٰ الأمصار، الّذين أفصحوا عن نفاقٍ لا يخفيه شيء ؟!

أم يزيد وولاته ؟!

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٨٣، ونحوه في ٤: ١١١.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ١٠٠.

فهل كان الشيعة هم المدبّرون لبيعة يزيد الخمرة والفجور لإمرة المؤمنين ؟!

أم كانوا عدّته في قتل الحُسين وأصحابه ؟!

أم في غزو المدينة المنوّرة وهدم الكعبة وإحراقها كانوا أولياءه وجنده ؟!

أم بني مروان الّذين اتّخذوا «مال الله دولاً، وعبادَ اللهِ خَوَلاً» كانت الشيعة تتولّاهم ؟!

وأولياء الله الّذين عاداهم الشيعة، مَن هُم ؟!

أعليٌّ وأصحابه الّذين هم من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، كان الشيعة يعادونهم ؟!

وسادة أولياء الله كانوا يُلعَنون على المنابر، الشيعةُ كانت تلعنهم أم مَن ؟!

وحُجر الخير وصحبه من خيرة أصحاب رسول الله، قتلتهم الشيعة، أم مَن الذي قتلهم ؟![1].

ولكلّ فريق أولياء، فمَن هم أولياء عليّ وأبنائه وأصحابه وحُجر وأصحابه، ومن هم أولياء الفريق الآخر ؟

ومع اليهود والنصارى.. هل كان الشيعة هم سلاطين الدولة الأيوبيّة الّذين لم

---

(١) حُجر بن عَديّ الذي سمّاه النبيّ ﷺ حُجر الخير، قتله معاوية صبراً مع سبعة من أصحابه، كتب فيهم زياد بن أبيه والي معاوية على الكوفة كتاباً إلى معاوية قال فيه: إنّهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تُراب فخرجوا بذلك عن الطاعة ! فأمر معاوية بقتلهم، فحُمِلوا إلى مرج عذراء في الشأم فقُتلوا هناك صبراً واحداً بعد الآخر. وفيهم قالت أمّ المؤمنين عائشة لمعاوية: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيُقتل بعذراء ناسٌ يغضبُ الله لهم وأهل السماء» رواه البيهقي في دلائل النبوّة ٦: ٤٥٧، وابن كثير في البداية والنهاية ٦: ٢٣١، وابن حجر في الإصابة ٢: ٣٢٩، وانظر: تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٠.

يشهد لهم التاريخ نظيراً في التعامل مع النصارى لإبادة المسلمين وتجزئة بلادهم، منذ أن غاب صلاح الدين وحتّى تلاشت الدولة الأيوبيّة ؟! وليس عهدهم ببعيد عن ابن تيميّة ولا خفيت أخبارهم عليه.

ولماذا لا نلتفت ولو لفتةً واحدة إلىٰ عصرنا هذا الذي نعيش فيه، وفيه الصحوة الإسلاميّة المتصاعدة التي أزعجت اليهود والنصارى والمشركين، وفي عصرنا من أتباع ابن تيميّة كثير ومن الشيعة أكثر، فأيّ الفريقين هو أوْلى بتلك الوصمة ؟!

أيّ الفريقين قد تعاقد مع اليهود والنصارى علىٰ التصدّي لهذه الصحوة الإسلاميّة ؟!

أيّهم عاهد اليهود والنصارى علىٰ أن يُسكِتَ كلّ صوتٍ ينادي بحكم القرآن والسُنّة، وأن يُسكت كلّ لسان ينادي بالتحرّر من هيمنة اليهود والنصارى والمشركين ؟! وأيّهما مع تلك الصحوة الفتيّة، يؤازرها ويشدّ علىٰ عضدها ؟!

ألا تعجب لأساتذة مسلمين معاصرين يردّدون مقولات ابن تيميّة هذه وهم يتربّعون في أحضان أولياء اليهود والنصارى الصرحاء اليوم، الّذين بذلوا في الولاء لهم والعداء للمؤمنين كلّ ما يبذله العبيد الأذلّاء لأسيادهم ؟!

مَن هو الناصبي في رأي الشيعة ؟

يقول ابن تيميّة: «إنّ الشيعة يُسَمّون مَن أثبتَ خلافة الخلفاء الثلاثة ناصبيّاً، بناءً علىٰ أنّهم لمّا اعتقدوا أنّه لا ولاية لعليّ إلّا بالبراءة من هؤلاء، جعلوا كلّ مَنْ لم

يتبرّأ من هؤلاء ناصبيّاً»(١).

فما هي حقيقة قول الشيعة في هذا ؟ نودّ أن نكتشف ذلك في أسئلة نوجّهها إليهم ليجيبوا عنها بأنفسهم، فنعرف عقيدتهم من أفئدتهم، لا من ألسنة خصومهم:

سؤال: ما هو قول الشيعة في مسلم لا يعتقد بولاية الأئمّة الاثني عشر من آل البيت ؟.

يجيب عالمهم فيقول: «يعتقدون بأنّ الإمامة أصل من أُصول المذهب، لا من أُصول الإسلام، وأنّ من أنكرها فهو مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، إذا اعتقد بالتوحيد والنبوّة والمعاد»(٢).

إذن أنتم لا ترون هذا المُنكر لإمامة عليّ وأبنائه: ناصبيّاً، فمن هو الناصبيّ عندكم ؟

يقول: «الناصبيّ هو من نصبَ العداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ»(٣).

هذا التعريف هو محلّ اتّفاق بين الشيعة والسُنّة، فالسُنّة لا يعرفون معنىً للناصبيّ غير هذا، ولكن بقي أن نعرف كيف يتعامل الشيعة مع هذا الناصبيّ ؟

سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن الناصبيّ: أتصحّ شهادته ؟

فقال: «كلّ من وُلِدَ على الفطرة جازت شهادته بعد أن يعرف منه صلاحٌ في نفسه»(٤).

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٢٥٧.

(٢) محمّد جواد مغنيّة: عقليات إسلاميّة ٢: ٦٦٦، وانظر: (روح التشيّع) للشيخ عبدالله نعمة: ٤٧١.

(٣) محمّد جواد مغنيّة: عقليات إسلاميّة ٢: ٦١٨.

(٤) قرب الإسناد: ٣٦٥ / ١٣٠٩.

هذا هو قولهم إذن، فهل يجد الباحث عن الحقّ عناءً في مثل هذا الحوار ؟

أليس هذا أدعى للصلاح، وأجلب للوئام، وأحفظ للأمانة، وأشبه بأخلاق الإسلام ؟

شرح اللهُ صدورنا جميعاً لما يحبّ ويرضى..

الحقيقة من معدنها:

كيف نظر أهلُ البيت إلىٰ مخالفيهم ؟

لسنا نريد التفصيل في هذا الموضوع، فالبحث فيه يطول، ولكن لنروّح القلب شيئاً مع حديث أهل البيت، وأئمّة أهل بيت النبوّة أوْلى أن يُصغى لحديثهم..

أئمّة أهل البيت الّذين ما فتئوا يذكرون حقّهم في خلافة النبيّ والإمامة في أُمور الدين والدنيا، وهم بهذا الحقّ علىٰ أتمّ يقين..

فهذا أوّل الأئمّة عليّ عليه السلام يقول: «والله ما زلتُ مدفوعاً عن حقّي، مستأثَراً عليَّ، منذ قَبَضَ اللهُ نبيّه صلى الله عليه وآله»[1].

ويقول: «أما والله لقد تقمّصها فلان وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القُطب من الرحا»[2].

ويقول:

---

(١) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح: ٥٣ الخطبة ٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

فإن كنتَ بالشورى ملكتَ أمورَهُم فكيفَ بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقربى حججتَ خصيمَهم فغيرُك أولى بالنبيّ وأقربُ [١]

وغير هذا كثير ممّا ثبت عنه وعن سائر الأئمّة ﷺ.

إذن مع يقينهم الثابت بهذا الحقّ الشرعي، كيف نظر أئمّة أهل البيت إلى مخالفيهم؟

إنّ سيرتهم ﷺ كلّها شاهدة على نقيض ما يصفه خصمهم هذا، ولكن سنكتفي هنا بذكر باقة من حديثهم الطيّب الشريف الذي حُرم أكثر أبناء هذه الأُمّة من النظر إليه، والذي سيعطينا الحقيقة في أصدق صورها:

الإمام الباقر ﷺ:

قال زرارة بن أعين: دخلتُ على الإمام الباقر ﷺ فقلت له: إنّا نمدّ المطمار!.

قال: «وما المطمار؟» قلت: التُرّ ـ أي الحبل ـ فمن وافقنا من علويّ أو غيره تولّيناه، ومن خالفنا من علويّ أو غيره برئنا منه.

فقال لي: «يازُرارة، قول الله أصدق من قولك، فأين الّذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [٢]؟!

أين المُرجَونَ لأمرِ الله؟!

أين الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيّئاً؟!

(١) نهج البلاغة ـ قسم الحِكَم: ٥٠٢ / ١٩٠.
(٢) النساء ٤: ٩٨.

أينَ أصحاب الأعراف ؟! أين المؤلّفةُ قلوبهم ؟!»[١]

الإمام الصادق عليه السلام:

قال: «الإسلامُ: شهادةُ أن لا إله إلّا الله، والتصديقُ برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، به حُقِنَت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس»[٢].

وقال: «الإيمانُ: ما استقرّ في القلب وأفضى به إلىٰ الله عزّ وجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليمُ لأمره.

والإسلامُ: ما ظهر من قولٍ أو فعل، وهو الذي عليه جماعةُ الناس من الفرق كلّها، وبه حُقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأُضيفوا إلى الإيمان»[٣].

فهل بعد هذا الكلام البيّن الصريح، من أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، يبحث المرءُ عن كلام يقوله هذا أو ذاك ؟!

هذا هو قول الشيعة في من أنكر الولاية لعليّ وأهل البيت، فما هو قول ابن تيميّة في من أنكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ؟

إنّه يقول: «من طعنَ في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضلّ من حمار أهله»![٤].

فكم بين هذا وذاك !! أرأيت الذي «يُبصر القَذَىٰ في عين خصمه، ولا يُبصر الجذع المعترض في عينه».

---

(١) الكافي ٢: ٢٨٢ / ٣.
(٢) الكافي ٢: ٢١ / ١.
(٣) الكافي ٢: ٢٢ / ٥.
(٤) العقيدة الواسطية: ١٤٦.

الشيعةُ والصحابة

الشعبي يعود إلىٰ المسرح في مشهد جديد.. وابن تيميّة (داعية التجديد) و(السيف المسلول علىٰ التقليد) يقف كصغار المقلّدين، فيصغي ويدوّن كلّ ما يسمع حرفاً بحرف.

والمسرح (الوطني) الذي أُعدّ لخدمة (الأمير) ما زال قائماً، والمسرحي الشهير عبدالرحمٰن بن مالك بن مِغْوَل يظهر من جديد مرتدياً زيّ الشعبي، مقلّداً هيئته، ناطقاً عن لسانه، و(شيخ الإسلام) علىٰ حافّة المسرح يردّد الصوت مجهراً به، فيقول:

«قال الشعبي: سُئلت اليهود: مَن خير أهل ملّتكم؟ قالوا: أصحاب موسى. وسُئلت النصارى: مَن خير أهل ملّتكم؟ قالوا: حواريّي عيسى. وسئلت الرافضة: من شرّ أهل ملّتكم؟ قالوا: أصحاب محمّد. أُمِروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم»[1].

مشهد تمثيلي ساخر ومثير..

فمن هؤلاء (الرافضة)، أهم أتباع أبي الخطّاب والمغيرة بن سعيد؟

إنّ العودة إلىٰ هذا والعيب به علىٰ الشيعة لمن أجهل الكلام، وأكثره إفصاحاً عن الهوى الجافي.

أم المراد بهم أصحاب عليّ والحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد بن

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٦، ونقلها أبو الحسن الندوي بلا مناقشة في كتابه: الحافظ ابن تيميّة: ٢٥٨.

عليّ.. فهؤلاء كلّ من عرفهم الشعبي من أئمّة الشيعة..

إذن اقرأ ما يقوله ابن تيميّة في هذه الطبقات من الشيعة ..

يقول: إنّ قدماء الشيعة كانوا يقولون بتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان على عليّ![1].

فأيّ القولين يصدق على الشيعة؟ وأيّ قوليه فيهم يُتّبع ؟!!

إنّ أحداً ممّن كتب في عقائد هذا الرجل وأفكاره لم يقف على أمثال هذا التهافت، ولم يخطر ببال أحدهم أن يثير سؤالاً واحداً يكشف عن حقيقة عقيدة هذا الرجل ومدى صدقه.

سؤالٌ واحد:

أرّخ ابن تيميّة وفاة الشعبي في سنة ١٠٥ هـ ، فعلم أنّه قد عاش في العصر الأُموي ومات فيه. كما علم أنّه كان الأمين المقدّم عند عبدالملك بن مروان.

فهل سمع ابن تيميّة أو غيره أنّ الشعبي قال في بني أُميّة مثل قوله هذا في (الرافضة)؟

بنو أُميّة الّذين جعلوا لعن آل النبيّ جزءاً ثابتاً في خطبهم التي نشأ عليها الشعبي وترعرع وشاخ عليها، هل قال يوماً: إنّ بني أُميّة شرّ من اليهود والنصارى، أُمروا بالصلاة على آل بيت نبيّهم، فلعنوهم؟

أم قال هذا ابن تيميّة نفسه.. أم أسف عليه يوماً وأخذته القشعريرة..؟!

(١) منهاج السُنّة ٤: ٩٩.

كلّا أبداً، فهو المدافع عنهم دائماً، والمعتذر لهم بأنّهم متأوّلون مأجورون على خطئهم أجراً واحداً! معرضاً عن الكمّ الهائل من أحاديث النبيّ في أهل بيته، والتي تصرّح بأنّ من حادّهم فقد حادّ الله ورسوله، وخرج عن هذا الدين خروجاً لا شكّ فيه، ومنها:

قوله ﷺ: «مَن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه، اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ من عاداه»[1].

وقوله ﷺ فيهم: «أنا حربٌ لمن حاربتم، وسلمٌ لمن سالمتم»[2].

وقوله ﷺ: «مَن سبّ عليّاً فقد سبّني»[3].

لكنّ هذا وغيره من حديث النبيّ ﷺ لا يُلتفت إليه حين يكون قادحاً بـ(أولياء الأُمور) وفاضحاً لأُمنائهم كالشعبي ونظرائه!

قول الشيعة في الصحابة:

أمّا الصحيح من قول الشيعة في الصحابة فليس هو قولٌ واحد، بل هو مختلف باختلاف مراتب الصحابة ومنازلهم، فليس كلّ الصحابة سواء، فنهم من أثنى عليه الله تعالى في كتابه، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ، كما أنّب بعضاً، ووصف آخرين بالنفاق، وأنبأ بردّةٍ وانحراف ستحصل عند بعضهم بعد موت النبيّ ﷺ.

---

(١) الترمذي ٥: ٦٣٣ / ٣٧١٣، ابن ماجة ١: ٤٣ / ١٢١، ٤٥ / ١٢١، وفي مسند أحمد له ١٦ طريقاً، وفي خصائص النسائي ١٩ طريقاً.

(٢) الترمذي ٥: ٦٩٩ / ٣٨٧٠، ابن ماجة ١: ٥٢ / ١٤٥، مسند أحمد ٢: ٤٤٢، صحيح ابن حبان ٩: ٦١ / ٦٩٣٨، مصابيح السُنّة للبغوي ٤: ١٩٠.

(٣) مسند أحمد ٦: ٣٢٣، الخصائص للنسائي: ١٧، المستدرك ٣: ١٢١ ـ ١٢٢ وصحّحه، البداية والنهاية ٧: ٣٦٧.

وبمثل هذا جاءت السُنّة النبويّة مبيّنة ومفصّلةً.

فلا ريب إذن أن يختلف الناس باختلاف منازلهم، وليس مَن وبّخه القرآن كمن أثنى عليه، ولا من طرده الرسول كمن أمر بحبّه، ولا من قال فيه «إنّه منّي وأنا منه» كمن برئ من عمله فقال: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع [فلان]».

ولا ريب أيضاً أنّ اعتبار الجميع في العدالة على حدٍّ سواء، هو ردّ لصريح القرآن وللسُنّة الثابتة، وهل تجد أحداً يؤمن بالله ورسوله يساوي في العدالة بين رجلين قال النبيّ ﷺ في أحدهما: «اللّهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» وقال في الآخر: «لا أشبع اللهُ بطنه» ؟!.

وكلّ ما في الأمر أنّ كلام الشيعة كان صريحاً في أنّ الصحبة لا تكون عاصمة لصاحبها من الخطأ، فمن الصحابة من يكون من الصدّيقين، ومنهم الّذين تشتاق إليهم الجنّة ويباهي الله بهم ملائكته، ومنهم من يكون في منازل أصحاب اليمين، ومنهم دون ذلك، ومنهم من قد ينقلب على عقبيه ويعود مرتدّاً عن الإسلام.

وهذا ما آمن به ابن تيميّة أيضاً حين رأى تفضيل بعض الصحابة على بعض، وحين جعل عبدالله بن سعد بن أبي سرح مثالاً للمرتدّين!

قال ابن تيميّة وهو يهاجم الفلاسفة: هم لما فيهم من العلم يشبهون عبدالله بن أبي سرح الذي كان كاتب الوحي، فارتدّ ولحق بالمشركين، فأهدر النبيّ دمه عام الفتح[(١)].

فهذا كان صحابيّاً وكان كاتباً للوحي عند الرسول، فلم يمنعه ذلك من أن يرتدّ مشركاً ويلحق بالمشركين ولمّا يزل الرسول حيّاً والوحي يتنزّل، فهل يمتنع

---

(١) نقض المنطق: ٤٦.

أن يحدث مثل هذا أو أقلّ منه في مراتب العصيان بعد وفاة الرسول ﷺ ؟!

وهذا المعنى هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

وذكَره النبيّ ﷺ في حديث الحوض المتّفق عليه إذ يقول: «أنا فرطكم على الحوض، ولأُنازَعَنَّ أقواماً ثمّ لأُغلبنَّ عليهم، فأقول: يا ربّ، أصحابي! فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٢).

وفي حديث آخر: «فأقول: سُحقاً سُحقاً»(٣).

كما أشار إليه النبيّ ﷺ في جوابه لأبي بكر، لمّا قال النبيّ لشهداء أُحد:

«هؤلاء أشهد عليهم» فقال أبو بكر: ألسنا بإخوانهم ؟ أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا!

فقال له النبيّ ﷺ: «بلى، ولكن لا أدري ما تُحدِثونَ بعدي»(٤)!

فإذا تمّ هذا، وإذا كان قول الشيعة في فئتين من الصحابة معروفاً، وهي: الفئة التي عُرفت بالولاء لأهل البيت وحبّهم، والفئة التي نصبت لهم العداء وحاربتهم وتتبّعت أنصارهم ومحبّيهم بالأذى والتقتيل، فما هو قولهم في سائر الصحابة الّذين لم يظهر منهم هذا ولا ذاك ظهوراً واضحاً؟

---

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري ٩: ٣/٨٣ ـ الفتن، صحيح مسلم ٤: ٢٢٩٧/١٧٩٦ حديث الحوض، مسند أحمد ٣: ١٤٠، ٢٨١ وغيرها.

(٣) سنن ابن ماجة ٢: ٤٣٠٦/١٤٣٩ باب ذكر الحوض، مسند أحمد ٦: ٢٩٧، مصابيح السُّنّة ٣: ٥٣٧/ ٤٣١٥.

(٤) الموطّأ لمالك بن أنس ٢: ٣٢/٤٦٢ كتاب الجهاد ـ باب الشهداء في سبيل الله.

لم يكن موقف الشيعة من هؤلاء غامضاً ولا متزلزلاً ، وقد عرّفه الإمام محمّد حسين آل كاشف الغطاء بقوله : « لا أقول إنّ الآخرين من الصحابة ـ وهم الأكثر الّذين لم يتّسموا بسمة الولاء لأهل البيت ـ قد خالفوا النبيّ ولم يأخذوا بإرشاده، كلّا ومعاذ الله أن يُظنَّ فيهم ذلك وهم خيرة من علىٰ وجه الأرض يومئذٍ، ولكن لعلّ تلك الكلمات لم يسمعها كلّهم، ومن سمع بعضها لم يلتفت إلى المقصود منها، وصحابة النبيّ الكرام أسمى من أن تُحلّق إلىٰ أوج مقامهم بُغاث الأوهام »[1] .

ويُضيف آل كاشف الغطاء بعد أن يذكر جملةً ممّا وقع بحقّ أهل البيت في عهود الخلافة المتتابعة، فيقول: « لا يذهبنّ عنك أنّه ليس معنى هذا أنّا نريد أن ننكر ما لأُولئك الخلفاء من الحسنات وبعض الخدمات للإسلام التي لا يجحدها إلّا مكابر، ولسنا بحمد الله من المكابرين، ولا سبّابين ولا شتّامين، بل ممّن يشكر الحسنة ويغضي عن السيّئة، ونقول: تلك أُمّةٌ قد خلَتْ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وحسابهم علىٰ الله، فإن عفا فبفضله، وإن عاقب فبعدله »[2] .

هذا من حيث التفصيل، أمّا الوصف الإجمالي للصحابة فقد أوجزه السيّد الصدر[3] بعبارة رائعة، فقال: إنّ الصحابة بوصفهم الطليعة المؤمنة والمستنيرة كانوا أفضل وأصلح بذرة لنشوء أُمّة رساليّة، حتّى أنّ تاريخ الإنسان لم يشهد جيلاً عقائديّاً أروع وأنبل وأطهر من الجيل الذي أنشأه الرسول القائد.[4]

فالانصاف يستدعي أن نقول : إنّ الشيخ ابن تيميّة لم يستطع فيما كتب أن

---

(١) أصل الشيعة وأُصولها: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) أصل الشيعة وأُصولها: ٩٤.

(٣) السيّد محمّد باقر الصدر : مجتهد ومرجع شيعيّ شهير ؛ ولد سنة ١٩٣٣ م ، له مؤلّفات عديدة لعلّ أكثرها انتشاراً (اقتصادنا) و (فلسفتنا) و (البنك اللّاربوي) وقد جُمعت مؤلّفاته في ١٥ مجلّداً ، عاش مجاهداً داعياً إلى الإصلاح وإلى ازاحة الانظمة اللّادينية وإقامة النظام الإسلامي ، وقُتل شهيداً في السجن ببغداد سنة ١٩٨٠ م ، وله من العمر ٤٧ سنة .

(٤) بحث حول الولاية : ٤٨ ـ المجموعة الكاملة ج ١١.

يمتدح الصحابة بأكثر من هذا الذي قاله فيهم الزعيم الشيعيّ الكبير السيّد الصدر.

الصحابة في حديث أوّل أئمّة الشيعة:

عليّ عليه السلام يقول: «لقد رأيت أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فما أرى أحداً يُشبههم منكم، لقد كانوا يُصبحون شُعثاً غُبراً وقد باتُوا سُجّداً وقياماً يراوحون بين جباهِهم وخُدودهم ويقِفُون علىٰ مثل الجَمْر مِن ذِكرِ معادِهم، كأنّ بين أعينهم رُكَبَ المِعزَىٰ من طولِ سُجودِهم، إذا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أعيُنُهم حتّى تَبُلَّ جُيوبهم، ومادُوا كما يميدُ الشجرُ يوم الريحِ العاصف خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب»[1].

ويقول: «أين إخواني الّذين ركِبوا الطريق ومَضَوا علىٰ الحقّ؟ أين عمّار، وأين ابن التَّيهان، وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانِهم الّذين تَـلَوُا القُرآنَ فأحكمُوهُ، وتدبَّروا الفرضَ فأقاموه، أحْيَوُا السُّنّة وأماتُوا البدعة، دُعوا إلى الجهاد فأجابوا، ووثِقُوا بالقائد فاتّبعوه»[2].

الصحابة في دعاء الشيعة:

من أدعية الإمام السجّاد زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة المعروفة (بالصحيفة السجّادية) التي يتعبّد بها الشيعة، ولا يجهلها ابن تيميّة، هذا الدعاء: «اللّهمّ وأتباع الرسل ومصدّقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب...

اللّهمّ وأصحاب محمّد خاصّة، الّذين أحسنوا الصحبة، والّذين أبلوا البلاء

---

(١) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح: ٩١.

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح: ٢٦٤ خطبة ١٨٢.

الحسن في نصره، وكانَفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته...

وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوّته، وانتصروا به، ومن كانوا مُنطَوين علىٰ محبّته يرجون تجارةً لن تبور في مودّته، والّذين هجرتهم العشائر إذ تعلّقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظلّ قرابته، فلا تنسَ لهم اللّهمّ ما تركوا لك وفيك، وأرضِهم من رضوانك، واشكرهم علىٰ هجرهم فيك ديار قومهم...

اللّهمّ وأوصل إلىٰ التابعين لهم بإحسان، الّذين يقولون: ﴿ *رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ* ﴾ خير جزائك...»[١].

هذه هي عقيدةُ من عرف الحقّ فعرف أهله، أمّا سبّ الخصوم السياسيّين لأهل البيت ﷺ فليس من التشيّع ألبتّة. قال محمّد جواد مغنية: قال الشيعة: إنّ الخليفة يتعيّن بالنصّ لا بالانتخاب، هذا هو التشيّع وهكذا ابتدأ ونشأ دون أن يضاف إليه أيّ شيء آخر، أمّا المغالاة في عليّ وصفاته، أو تكفير خصومه السياسيّين وما إلىٰ ذلك فلا يمتّ إلىٰ التشيّع بسبب[٢].

أمّا الدكتور الوائلي فقد أتى بتحقيق تاريخي بالغ الأهمية ـ علىٰ إيجازه ـ في روّاد الشيعة من الصحابة والتابعين، فقال: أودّ أن ألفت النظر أنّي خلال مراجعاتي كتب التاريخ لم أرَ في الفترة التي تمتدّ من بعد وفاة النبيّ وحتّى نهاية خلافة الخلفاء من عمد إلىٰ الشتم من أصحاب الإمام... يضاف إلىٰ ذلك أنّه حتّى في الفترة الثانية، أي في عهود الأمويّين كان معظم الشيعة يتورّعون عن شتم أحد من الصحابة أو التابعين[٣].

---

(١) الصحيفة السّجادية ـ الدعاء رقم ٤، «الصلاة على أتباع الرسُل ومصدّقيهم».

(٢) الشيعة في الميزان: ١٥.

(٣) هوية التشيّع: ٣٨ ـ ٣٩.

وكيف يكون ذلك وعليٌّ عليه السلام يُغضبه أن يسمع بعض جنده يسبّون أهل الشام أيّام حربهم في صفّين، فيقوم فيهم خطيباً، فيبتدئ خطبته بقوله: «إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين»[1] ؟!

نعم، صحّ عن عليّ عليه السلام أنّه لَعَنَ معاوية وعمرو بن العاص وأبا الأعور السلمي، وقَنَتَ يلعنهم في صلاته، ولولا علمه بأنّ في ذلك قربة إلىٰ الله تعالى لما صنعه في صلاته، والاقتداء بعليّ عليه السلام لا مراء فيه بين أهل الإيمان من جميع الطوائف، ولم يشذّ في هذا إلّا الخوارج والنواصب. ثمّ جاء العاذرون الّذين رأوا في ذلك مزيداً من الورع !

لقد كان ابن خلدون أكثر إنصافاً حين نقل عقيدة الإمامية في الخلافة فقال: ويغمصون في إمامة الشيخين، ولكن لا يُلتفَت إلىٰ نقل القدح فيهما من غلاتهم، فهو مردود عندنا وعندهم[2].

تلك جملة ممّا قاله ابن تيميّة في تعريف الشيعة، ذاك التعريف الذي هو عبارة عن جملة من الإخفاقات والتناقضات، منها تناقضات لاتنطلي علىٰ من له أدنى معرفة، كقوله: إنّ الشيعة ادّعوا الأُلوهيّة والنصّ[3]. وهذا خطأ غير خفيّ علىٰ أحد، فمن ادّعى الأُلوهية لرجل كيف يدّعي النصّ عليه من النبيّ الذي هو بشر دون الإله ؟!

لقد كان أتباع اليهودي ابن سبأ أكثر فطنةً ! فحين ادّعوا الأُلوهيّة لعليّ عليه السلام قالوا له: أنت الذي بعثت محمّداً نبيّاً !

وممّا أضافه إليهم ما هو أكثر بروداً من هذا، كقوله: لقد صنّف المُفيد كتاباً

---

(١) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح: ٣٢٣ / الخطبة ٢٠٦.

(٢) مقدّمة ابن خلدون: فصل ٢٧ ص ٢١٨.

(٣) منهاج السُنّة ١: ٨٣، ٨٤.

أسماه (مناسك حجّ المشاهد)[١]. وهذا عنوان لم يعرفه الشيخ المُفيد ولا عرفه غيره، وإنّما كتاب الشيخ المفيد اسمه (المزار) ولو وجد في نصوصه شيئاً ممّا ينفعه في طعنه لما ترك ذكره، والكتاب مطبوع أكثر من طبعة.

وأشياء أُخرى كثيرة أعرضنا عنها كراهةَ الإطالة الداعية إلىٰ الملالة، في عصر السرعة وانتظار اللقمة الجاهزة، آملين أن تجتمع في إنسان هذا العصر مع هذه الخصال خصلةٌ عظمىٰ جمع القرآن الكريم أطرافها في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾[٢] فيُكرم المرءُ نفسه عن تقليد الغثّ والمتهافت من الكلام ليرى بكلّ وضوح كيف ارتكب هذا الشيخ جنايتين كبيرتين:

جناية في ما نسبه إلىٰ شطر هذه الأُمّة ممّا لا أصل له في عقائدها وتاريخها.

وجناية في حقّ هذه الأُمّة التي كان لزاماً عليه أن يسعى في التأليف بين قلوب أبنائها، فلم يألُ جهداً في تمزيقها!

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٩٣.

(٢) الإسراء ١٧: ٧٠.

الباب الرابع

أهل البيت(ع) في عقيدة ابن تيمية

تمهيد

الاعتقاد بتقديم أهل بيت الرسول (ص)

مع فضائل أهل البيت(ع)

مع خصائص عليّ(ع)

عليّ(ع) والخلافة

نهضة الحسين(ع) واستشهاده

من هم أتباع أهل البيت(ع)؟

تمهيد

ما زالت أجواء دمشق حتّى ذلك الحين محمّلة بالأهواء الأُمويّة..

وقد ظهرت تلك الأهواء في عقائد ابن تيميّة ظهوراً لا نظير له حتّى عند أُولئك الأقطاب الّذين عاصروا الملوك الأُمويّين ووطّدوا أمرهم. فلم يحظ الأُمويّون طيلة أيّامهم برجل برّر أخطاءهم وناضل في تزكيتهم كما صنع ابن تيميّة بعد انقراضهم بستّة قرون!

فلم يكتف بالذبّ عنهم وتبرير أفعالهم من نقضٍ لأحكام الشريعة، وتعطيل لحدود الله، وإفشاء القتل في أصحاب رسول الله وفي غيرهم من المسلمين، واستباحة المحرّمات، واستباحة المدينة المنوّرة وقتل رجالها واستحياء نسائها، وهدم الكعبة الشريفة، وغيرها من الكبائر والفواحش. لم يكتف بهذا، ولم يقف فيه عند حدود وقف عندها قدماء أوليائهم، بل تعدّى ذلك كلّه حين فاقهم جرأةً على السُنّة النبويّة، بل حتّى على النبيّ ﷺ نفسه، فكذّب أحاديث صحيحة، وحرّف معاني أخرى، وتعلّق بالموضوعات، لا دفاعاً فقط، بل تزكيةً وتعظيماً لأُولئك الملوك.

وهاك في هذا التمهيد أُنموذجين فقط:

الأوّل ـ مع معاوية:

كان ابن تيميّة أوّل رجلٍ يحقّق أحلام دمشق القديمة في خلق كتابٍ في

(فضائل معاوية).

فلم يكن معاوية بريئاً فقط من كلّ ما تحمّله في تاريخ حياته، بل هو صحابيّ مقدّم له فضائل كثيرة يجمعها ابن تيميّة، ولأوّل مرّة في التاريخ، في كتاب مفرد بعنوان (فضائل معاوية وفي يزيد وأنّه لا يُسَبّ) ![1] فيزيد هو الآخر وإن كان له ذنوب فإنّ له حسنات ماحية لتلك الذنوب !

ولا بُدّ في البدء أن يبرّئ ساحة معاوية من كلّ ما يلحق بها، حتّى تلك الوصمة التي لحقتها حين استلحق زياد بن أبيه فجعله زياد بن أبي سفيان !

هذه الوصمة يعود منها معاوية نقيّ الثوب في مدرسة التأويل !

يذكر ابن تيميّة أعذار المجتهدين إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فيقول: السبب العاشر: معارضته ـ أي الحديث ـ بما يدلّ على ضعفه أو نسخه أو تأويله ـ إلى أن يقول ـ وكذلك استلحاق معاوية ﷺ زياد بن أبيه المولود على فراش الحارث بن كلدة، لكون أبي سفيان كان يقول إنّه من نطفته، مع أنّ رسول الله ﷺ قد قال: « من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنّة عليه حرام » وقال: « من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » حديث صحيح. وقضى أنّ الولد للفراش، وهو من الأحكام المجمع عليها... فلا يجوز أن يقال: إنّ هذا الوعيد لاحق له، لإمكان أنّه لم يبلغهم قضاء رسول الله ﷺ بأنّ الولد للفراش. واعتقدوا أنّ الولد لمن أحبل أمّه، واعتقدوا أنّ أبا سفيان هو المحبل لسُميّة أمّ زياد ![2].

---

(١) الوافي بالوفيات ٧: ٢٦.

(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ٤٨ ـ ٤٩.

فهل حقّاً خفي هذا القضاء علىٰ معاوية وزياد ؟! إنّه لم يعرف التاريخ أمراً ضجّت له الناس في عهد معاوية أشهر من هذا، وكلّهم يتحدّثون بهذا القضاء النبويّ، وواجهوا به معاوية غير مرّة وشهّروا به، وكان أوّلهم يونس بن عبيدالثقفي، قام إلىٰ معاوية في أول مجلس يعلن فيه استلحاق زياد، فقطع عليه خطبته قائلاً: يا معاوية، قضى رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الولد للفراش وللعاهر الحجر، فعكستَ ذلك وخالفتَ سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال معاوية: أعِد. فأعاد يونس مقاله. فقال له معاوية: يا يونس، والله لتنتهينّ أو لأطيرنّ بك طيرةً بطيئاً وقوعها !(١).

ولو أنّك أقسمت أنّ ابن تيميّة يعلم بهذا كلّه لكنت صادقاً، لكنّه لمّا أغراه الدفاع عن الحاكمين هان عليه الاستخفاف بالدين، بل وكلّ القيم حين أقرّ لمعاوية حدثاً أنكره عليه الصالحون في عصره وعلى مسمع منه ومن زياد كما أنكروه بعدهما، حدثاً عدّه الإسلام من فضائح الجاهليّة، لكن فرضه سلطان معاوية على المسلمين عن علم وإصرار، ولن يعدمَ السلطانُ مفتٍ يبرّر أخطاءه !

وبعد هذا تأتي فضائل معاوية..

فضائل عرف الصالحون من علماء السَّلَف أنّها كلّها موضوعة باطلة وضعها المتزلّفون له ولخَلَفِه، وإلّا فمن أين جاءت تلك الفضائل، وهذا النسائي صاحب السنن يسأله أهل دمشق عن فضيلة لمعاوية، فيقول: لا أعلم له فضيلة إلّا « لا أشبعَ اللهُ بطنه» فداسوا في حضنه ـ أو خصيبه ـ حتّى قتلوه ؟!(٢).

لكن هذا الحديث المتّفق علىٰ صحّته راح بعض دعاة الدفاع عن السَّلَف يعدّه في فضائل معاوية، بل يجعله أوّل فضائله وأهمّها، كما صنع ابن عساكر، وشرب

(١) مروج الذهب ٣: ١٧، الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٧، عليّ وبنوه: المجموعة الكاملة لطه حسين ٤: ٦٣٢، ٦٣٩ عن البلاذري.

(٢) وفيات الأعيان ١: ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٤: ١٣٢.

كأسه ابن تيميّة، ثمّ ناصر الدين الألباني في تأويل يندى له الجبين، ينالون من النبيّ الأكرم ﷺ ليذبّوا عن معاوية !!

فالألباني بعد أن أثبت صحّة الحديث «لا أشبع الله بطنه» يقول: قال ابن عساكر: إنّه أصحّ ما ورد في فضائل معاوية !

فالحمد لله ربّ العالمين علىٰ هذه (الفضيلة) التي أقرّت عيون هؤلاء، فراح الألباني يفسّرها، فيقول: إنّ هذا الدعاء منه ﷺ غير مقصود، بل هو ممّا جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نيّة !

وقال: ويمكن أن يكون ذلك منه بباعث البشريّة، التي أفصح عنها هو نفسه ﷺ في أحاديث كثيرة متواترة، منها حديث عائشة عنه ﷺ قال: «أوَما علمتِ ما شارطتُ عليه ربّي؟ قلتُ: اللّهمّ إنّما أنا بشر، فأيّ المسلمين لعنتُه أو سببتُه فاجعله له زكاةً وأجراً».

ـ ولكنّ هذه الزكاة حبيسة بالحديث الآخر الذي أورده الألباني بعد هذا، وفيه: «فأيّما أحد دعوتُ عليه من أُمّتي بدعوة ليس لها بأهل»(١).

إذن حين نفذوا إلىٰ قلب النبيّ ﷺ فعلموا خفيّ سرّه، وأنّه قد قال هذا القول في معاوية (عن غير قصد) و (بلا نيّة)، أو قاله (بباعث طبيعته البشريّة)، هل يصعب عليهم أن يجزموا بأنّ معاوية (ليس لها بأهل) لتنقلب إذن تلك الدعوة زكاةً وأجراً !

هنا من السهولة بمكان أن يتناسوا حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: كنتُ أكتب عن رسول الله كلّ ما أسمع منه، فقالت لي قريش: أتكتب عن رسول الله وإنّما

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ١٢٣.

هو بشر يغضب كما يغضب البشر؟ فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله فذكرت له ذلك، فأشار إلى شفتيه وقال: «والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلّا حقٌّ، فاكتب»!(١).

نُسيَ هذا لأجل السلطان!!

ترى هل أعجبهم فيه سبق إسلامه، أم كثرة جهاده مع النبيّ صلى الله عليه وآله؟! فإذا لم يجدوا له سابقة فضل ولا جهاد، فهل أغراهم كونه من المؤلّفة قلوبهم؟!

هذا، وهُم يعلمون أنّ دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله عليه قد أصابته، فكانت دعوةً مستجابة، فلابُدّ أن يكون معاوية أهلاً لتلك الدعوة.

ففي دلائل النبوّة نقل البيهقي عن أبي عوانة من حديث ابن عبّاس أنّه قال بعد ذكر الحديث: «فما شبع بطنه أبداً».

وقال: وروي عن أبي حمزة في هذا الحديث زيادة تدلّ على الاستجابة(٢).

وقال الذهبي: قد كان معاوية معدوداً في الأَكَلَة(٣).

ولهذا كان محبّو معاوية القدامى حين علموا أنّه قد أصابته هذه الدعوة، ذهبوا إلى تفسير آخر غير التفسير المتقدّم، ليجعلوا تلك الدعوة المُستجابة منقبةً، فقالوا: قال النبيّ: «لا أشبع الله بطنه» حتّى لا يكون ممّن يجوع يوم القيامة، لأنّ الخبر عنه أنّه قال: «أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»(٤).

إذن هي عندهم دعوة مستجابة، لكنّهم تحيّروا كيف يجعلون منها فضيلةً،

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٠٧، وصحّحه الحاكم والذهبي: المستدرك ١: ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢) دلائل النبوّة ٦: ٢٤٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٤.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٣.

لتكون أصحّ ما جاء في فضائله!

أما فضائله الأُخرى فيقول فيها إسحاق بن راهويه ـ المقرون بالإمام أحمد ابن حنبل ـ: لا يصحّ عن النبيّ في فضل معاوية شيء[(١)].

إذن فدعوى كونه من كتّاب الوحي هي من التزوير المتعمّد، فالمرويّ فيه أنّه كتب بين النبيّ وبين العرب، لا غير[(٢)].

أمّا عند ابن تيميّة فالذي ينكر فضائل معاوية لا يكون إلّا شيعيّاً، تماماً كما حكم أهل دمشق على النسائي، ولهذا السبب بعينه وَصَفَ الحاكم النيسابوري بالتشيّع! فلم يُنسب الحاكم إلى التشيّع لأنّه كان يقول بتفضيل عليّ عليه السلام، بل لأنّه كتب في فضائل عليّ، فقيل له أن يكتب في فضائل معاوية، فامتنع[(٣)].

فلبّى ابن تيميّة ذلك النداء دون أن يسأله أحد!

أمّا الحسن البصري الذي عاصر معاوية ورآه وعرف سيرته، فقال فيه: أربعُ خصالٍ كنّ في معاوية لو لم يكن فيه إلّا واحدة لكانت موبقة:

الأُولى: انتزاؤهُ على هذه الأُمّة بالسيف حتّى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

والثانية: استخدامه بعده ابنه سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

والثالثة: ادّعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر».

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ١٣٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) منهاج السُنّة ٤: ٩٩.

والرابعة: قَتْلُهُ حُجْراً وأصحابُ حُجْر، فيا ويلاً له من حُجْر، ويا ويلاً له من حُجْر[١].

وفوق كلّ ما قيل وما يقال قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله في الحديث الصحيح الذي لم يجادل في صحّته أحد، رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبغوي، ذاك قول النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»[٢].

وهل يجادل أحد في أنّ معاوية كان من أئمّة المُبغضين لعليّ عليه السلام، قاتَلَهُ بُغضاً، وأمر خطباءَه في أنحاء البلاد بلعنه هو وأهل بيته علىٰ المنابر، بغضاً، فضوا علىٰ تلك الحال ستّين عاماً! أمَرَهمُ اللهُ ورسوله أن يتمسّكوا بهم ويصلّوا عليهم، وأمرهم معاوية أن يقاتلوهم ويلعنوهم، فعبدوا معاوية من دون الله.

وأمر معاوية أصحابه أن يختلِقوا أحاديث في النيل من عليّ، بُغضاً.

وأمرهم أن لا يتركوا له منقبةً إلّا وضعوا للخلفاء الأوّلين ما يقابلها، بغضاً.

ولا يتركون أحداً يُعرَفُ بحبّ عليّ إلّا محوا اسمه من الديوان، بغضاً.

ثمّ جاء بعده مَن أُشرِبَ قلبُه هذا البغض وحبَّ ذاك البغيض، فجعل تلك الأفعال كلّها حسناتٍ وفضائل واجتهاداً في الدين! فهو مأجورٌ عليها مشكور السعي!

الأُنموذج الثاني ـ مع طريدَي رسول الله صلى الله عليه وآله:

الحكَم وابنه مروان، طريدَي رسول الله، كانا بريئين من كلّ ذنب!!

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٨٧، تهذيب تاريخ دمشق ٢: ٣٨٤، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٦٢ و ١٦: ١٩٣.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ ١: ٨٦ / ١٣١، سنن الترمذي ٥: ٦٤٣ / ٣٧٣٦، سنن النسائي ـ كتاب الإيمان ٨: ١١٦، سنن ابن ماجة ١: ٤٢ / ١١٤، مصابيح السُنّة ٤: ١٧١ / ٤٧٦٣.

يقول ابن تيميّة: لم يكن لمروان ذنب يُطرد عليه على عهد النبيّ![1].

ثمّ يقول: وغايةُ النفي المقدّر سنةٌ، وهو نفي الزاني والمخنّث. وإذا كان كذلك فالنفي كان في آخر الهجرة، فلم تطُل مدّته في زمن أبي بكر وعمر، فلمّا كان عثمان طالت مدّته![2].

ربّما تحدّث الشيخ عن أعداد كانت في القرون الغابرة لا نعرفها اليوم، أو عن غيب لا نفهمه! وإلّا فمدّة خلافة أبي بكر وعمر كانت ثلاث عشرة سنة، مع ما كان في حياة النبيّ ﷺ وربما كان سنةً أو أقلّ أو أكثر، فيكون المجموع نحو أربع عشرة سنة «فلم تطُل مدّته، فلمّا كان عثمان طالت مدّته» بأُعجوبة أو بمعجزة!!

و«غايةُ النفي المقدّر سنةٌ واحدة» فإمّا أن تكون قد مضت عليه في عهد النبيّ ولكن لم يُعِدْهُ خلافاً للسُنّة على فتوى ابن تيميّة! وإن لم تكن قد تمّت له سنة في عهد النبيّ فقد تمّت له ثلاث سنين في عهد أبي بكر الذي دام سنتين وستّة أشهر، ولكن لم يُعِدْهُ أبو بكر خلافاً للسُنّة أيضاً، وكذا أبطل السُنّة عمر أكثر من عشر سنين، مدّة خلافته!

وبعد، يقول ابن تيميّة: وبالجملة فنحن نعلم قطعاً أنّ النبيّ لم يكن يأمر بنفي أحد دائماً، ثمّ يردّه عثمان معصيةً لله ورسوله ولا ينكر عليه ذلك المسلمون[3].

فهل خفي عليه أنّ هذا الأمر كان من أوّل ما أنكره المسلمون على عثمان؟! كلّا لم يخفَ عليه ذلك أبداً، إنّه أدرى به، ولكن لا بُدّ من الدفاع وإن كان على هذه الطريقة!

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ١٩٥.
(٢) منهاج السُنّة ٣: ١٩٦.
(٣) منهاج السُنّة ٣: ١٩٦.

وبعد هذا فهل تبقى على الحكَم ملامة ؟!

يقول ابن تيميّة: أمّا الحكَم فهو من الطُلَقاء، والطُلقاء حَسُنَ إسلام أكثرهم، وبعضهم فيه نظر، ومجرّد ذنب يعزّر عليه لا يوجب أن يكون منافقاً في الباطن ![١].

فمن أولى أن يكون منافقاً ممّن آذى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهر الاستهزاء به حتّى دعا عليه النبيّ فأصابته دعوته، فلم يزل مختلجاً يرتعش في مشيته حتّى هلك !

بل ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد لعنه:

قالت عائشة أُمّ المؤمنين لمروان بن الحكم: أمّا أنت يا مروان فأشهد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَعَن أباك وأنت في صُلبه[٢].

وأنشد حسّان بن ثابت في هجاء عبدالرحمٰن بن الحكم هذا، أخي مروان بن الحكم:

إنّ اللعينَ أبوك فارمِ عظامَهُ	*إن ترمِ ترمِ مخلَّجاً مجنونا*
يُمسي خميص البطن من عمل التُقى	*ويظلّ من عمل الخبيث بطينا*[٣]

ولكنّ هذا كلّه لا يعدو ـ عند ابن تيميّة ـ أن يكون مجرّد ذنب عُزِّر عليه !

وهلمّ جرّاً في خدمة (أولياء الأُمور)..

فمروان لم يكن له ذنب !

والحكَم مجرّد ذنب عُزّر عليه !

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ١٩٧.

(٢) الاستيعاب ـ بهامش الإصابة ١: ٣١٨، أُسد الغابة ٢: ٣٤.

(٣) ترجمة الحكم بن أبي العاص في: الاستيعاب، وأُسد الغابة.

والنبيّ ﷺ خالف الشرع فيهم مرّات !! فمرّةً نفى مروان بلا ذنب ! ومرّة نفى الحكَم وإنّما النفي جاء بحقّ المخنّث والزاني، ولم يكن الحكَم كذلك ! ومرّة حين زاد في مدّة النفي علىٰ السنة !

وإذا دعا عليهم النبيّ فلا شيء !

ودعاء النبيّ علىٰ معاوية زكاة له وفضيلة !

وماذا في الأمر إذا كان الدين يُساق ليجري علىٰ أبواب الملوك، وإذا كان التاريخ لا يُكتب إلّا بأقلام الفراعنة ؟!

ترى فماذا أبقى أُولئك من حقائق التاريخ ؟ وهل تسرّب منها من بين أيديهم إلّا القليل الذي أعجزتهم شهرته عن ستره ؟ وحتّى هذا القليل الذي تسرّب من بين أيديهم وهم راغمون، أثاروا حوله غباراً كثيفاً، من أخبارٍ مكذوبة، وأحاديث موضوعة تقابله، أو تأويلات باطلة تصرفه عن مراده.

وهكذا كانوا مع كلّ ما يثبت حقّ أهل البيت عليهم السلام، ذاك الحقّ المهدور..

الفصل الأول

الاعتِقَادُ بِتَقدِيمِ أهل بَيتِ الرَّسُول

من هُم أهل بيت الرسول ؟

تقديم آل الرسول

من هُم أهل بيت الرسول ؟

عرَّفَنا اللهُ تعالى أهلَ بيت نبيّه محمّد ﷺ خاصّةً في موضعين من كتابه الكريم :

الأوّل : قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[(١)].

عند هذا جاء النبيّ ﷺ مفسّراً ومبيّناً فدعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ولا أحد سواهم[(٢)].

قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحَسَناً وحُسيناً ، فقال : «اللّهمّ هؤلاء أهلي»[(٣)].

قال البَغَوي : (أبناءنا) أراد الحسن والحسين ، و (نِساءنا) فاطمة ، و(أنفُسَنا) عنى نفسه وعليّاً رضي الله عنه[(٤)].

الثاني : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

---

(١) آل عمران ٣ : ٦١.

(٢) صحيح مسلم ٤ : ١٨٧١ / ٢٤٠٤ ، سنن الترمذي ٥ : ٢٢٥ / ٢٩٩٩ ، مصابيح السُنّة ٤ : ١٨٣ / ٤٧٩٥ ، وسائر كتب التفسير .

(٣) صحيح مسلم ٤ : ١٨٧١ / ٣٢ ـ ٢٤٠٤ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٣٨ / ٣٧٢٤.

(٤) معالم التنزيل ١ : ٤٨٠.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[(١)].

فعند نزول هذه الآية أتى النبيّ ﷺ مفسّراً، قاطعاً القول في هذا النصّ القرآني، فدعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين فجلَّلَ عليهم كساءً وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهلي بيتي وحامّتي، أذْهِبْ عنهم الرِّجسَ وطهّرهم تطهيراً»[(٢)].

رَوَتْ نساء النبيّ ﷺ ـ عائشة وأُمّ سَلَمة ـ هذا الحديث فعرّفنَ الناسَ أنّهنّ لسن داخلات في هذا الخطاب، وإنّما هو محصور بأصحاب الكساء الخمسة: النبيّ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين.

قالت أُمّ سَلَمة: قلتُ: وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال: «إنك على خير».

ورَوَتْ أُمّ سَلَمة أيضاً: جلس النبيّ ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين يأكلون، وما سامني ـ أي ما دعاني ـ النبيّ ﷺ وما أكل طعاماً قطّ وأنا عنده إلّا سامَنيه قبل ذلك اليوم، قالت: فلمّا فرغ التفّ عليهم بثوبه ثمّ قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي»[(٣)].

فهؤلاء إذن هم أهل بيت نبيّنا ﷺ: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كما جاء في النقل المتواتر الذي لا خلاف فيه، وكما هو معروف من أحوال النبيّ ﷺ وسيرته معهم.

---

(١) الأحزاب: ٣٣: ٣٣.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٨٨٣ / ٢٤٢٤، سنن الترمذي ٥: ٣٥١ / ٣٢٠٥، / ٣٧٨٧، / ٣٨٧١، وسائر أصحاب التفسير.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢: ٦٩ / ٧٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده ١٢: ٣٨٣ / ٦٩٥١ وفيه: «اللّهمّ عادِ مَن عاداهم ووالِ من والاهم».

تقديم آل الرسول

لنرى العقيدة في تقديم آل الرسول بين قول الله ورسوله، وقول ابن تيميّة:

قول الله ورسوله:

ـ قال تعالىٰ ﴿ رَحمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيكُمْ أَهْلَ ٱلبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[1].

ما هذا الاختصاص الذي حَظِيَ به أهل البيت، ألم يكن لإبراهيم الخليل أصحابٌ وحواريّون؟

ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَـٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِي يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[2] فقالوا: يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟

فقال ﷺ: «قولو اللّهمّ صلّ علىٰ محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك علىٰ محمّد وعلى آل محمّد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلى آل إبراهيم»[3] فدخل هذا النصّ في فريضة الصلاة جزءاً واجباً، من أخلّ به متعمّداً بطلت صلاته.

فلماذا كلّ هذا التقديم لآل الرسول حتّى أصبحت الصلاةُ عليهم شرطاً لازماً

---

(١) هود ١١: ٧٣.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٥٦.

(٣) صحيح البخاري ٦: ٢١٧ / ٢٩١ متّفق عليه.

في صحّة الصلاة الواجبة التي هي «عمود الدين» «إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت رُدّ ما سواها» لتصبح الصلاة علىٰ آل الرسول شرطاً في قبول الأعمال كلّها ؟

ـ قال تعالى بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيّاً بأسمائهم في أربع آيات من سورة الأنعام: ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

واجتبيناهم، أي اخترناهم وأخلصناهُم. لماذا خُصَّ آل الرُّسُل بهذا الاجتباء ؟ لماذا هذه العناية الخاصّة بآل الأنبياء، آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم دون سائر البشر ؟

ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾.

لماذا خُصَّ أهل البيت بهذه العناية وبهذا التطهير دون سواهم من الصحابة والقرابة ؟

والنبيّ يُفرِدُ أربعةً فقط ممّن حوله من المسلمين، عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، ويدير عليهم كساءً ثمّ يقول: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي» هؤلاء النفر لا غير «أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً».

فلماذا هذا التقديم الذي خُصّ به آل الرسول دون سواهم ؟

جواب ابن تيميّة:

أتدري بمَ يُجيبك ابن تيميّة علىٰ تلك الأسئلة ؟!

---

(١) الأنعام ٨: ٨٣ ـ ٨٧.

إنّه يقول بالحرف الواحد: «إنّ فكرة تقديم آل الرسول هي من أثر الجاهليّة في تقديم أهل بيت الرؤساء» !![1].

إذن هذا الاجتباء الإلٰهي لآل الأنبياء هو مِن أثر الجاهليّة !!

وكلّ هذا الذي في القرآن هو من أثر الجاهليّة !!

وهذه الصلاة علىٰ آل محمّد وآل إبراهيم التي تردّدها في صلاتك هي من أثر الجاهليّة !!

وتقديمك آل محمّد في أوّل دعائك ومناجاتك، وختامك الدعاء بذكرهم هو مِن أثر الجاهليّة !!

فلا تُقبل لك صلاةٌ ولا تُستجاب دعوةٌ ما لم تمزجها بأثر الجاهليّة !!.

ابن تيميّة ـ الجواب الثاني:

يرىٰ ابن تيميّة أنّ تقديم آل الرسول ليس من أثر الجاهليّة وحسب، بل هو أيضاً من عقائد اليهود !

فيقول: قالت الشيعة: لا تصلح الإمامة إلّا في ولد عليّ. وقالت اليهود: لا يصلُح الملك إلاّ في آل داود ![2].

إذن قول إبراهيم الخليل حين قال له الله تعالى: ﴿ *إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا* ﴾[3] فقال إبراهيم: ﴿ *وَمِن ذُرِّيَّتِى* ﴾[4] فقوله هذا في تقديم ذريّته أمِن عقائد

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ٢٦٩.

(٢) منهاج السُنّة ١: ٦.

(٣) و (٤) البقرة ٢: ١٢٤.

اليهود الّذين لم يُخلَقُوا بعد، أم من أثر الجاهليّة ؟!

وقول الله تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾[1] أمِن عقائد اليهود مشيئةُ الله تعالى واختياره ذرّيّة إبراهيم، أم من أثر الجاهليّة ؟!.

وقال تعالىٰ في إبراهيم الخليل ﷺ أيضاً: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۞ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[2].

فلماذا وهبَ له اثنين من الأنبياء وجعل فيهم الإمامة بعده ؟! ولماذا لم يجعلها في أحد أصحابه المؤمنين به ؟! أهذا حكم الله ومشيئتهُ واصطفاؤه، أم هو من عقائد اليهود وأثر الجاهليّة ؟!

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾[3] اصطفاء الله تعالى لآل الرُّسل وذرّيّاتهم، أيُقال فيه إنّه من عقائد اليهود أو من أثر الجاهليّة ؟!

أم رأيت استخفافاً بكتاب الله ومشيئة الله، وبالنبيّين وسننهم أكثر من هذا الاستخفاف ؟!

أتدري لماذا جَدَعَ قصيرٌ أنفه ؟!

لأنّه لا يستريحُ حين يُذكر لآلِ محمّد حقٌّ في ذلك الاصطفاء !

محمّد ﷺ خير الخلق وسيّد الأنبياء أجمعين الذي أظهر عنايته بأهل بيته أشدّ العناية، جهاراً علىٰ الملأ: «فاطمةُ بضعةٌ منّي» «الحسن والحسين سيّدا شباب

(١) العنكبوت ٢٩: ٢٧.
(٢) الأنبياء ٢١: ٧٢ ـ ٧٣.
(٣) آل عمران ٣: ٣٣ ـ ٣٤.

أهل الجنّة» «هذان ابنايَ وريحانتاي من الدنيا» «حسين منّي وأنا من حسين» «إنّ عليّاً منّي وأنا منه وهو وليّكم بعدي» «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي أذهِب عنهم الرجسَ وطهّرهم تطهيراً» «عادِ من عاداهم ووالِ مَن والاهم» وغير هذا كثير. ثمّ يتوجّه إلىٰ أُمّته في أكبر تجمّع لهم معه ﷺ عند عودته من حجّة الوداع، فيقول: «إنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيب، وإنّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله فيه الهدى والنور، وعترتي أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي».

يكرّر هذا التذكير مرّةً بعد أُخرى لأنّه يعلم ما سيحدث بعده من صدودٍ عن أهل بيته وجحود بحقّهم المذكور، ومقامهم الذي لا يسمو إليه أحد من غيرهم، فهم ثاني الثقلين مع القرآن الكريم «وأنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».

فهذا كلّه هل هو من قول الشيعة ليقال إنّه من عقائد اليهود وأثر الجاهليّة ؟! أم أنّ هذا التأويل بعقائد اليهود وأثر الجاهليّة له حقيقة ؟! إن حقيقته الكاملة هي التي وَصَفها الله تعالى في كتابه الحكيم إذ قال وقوله الحقّ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[١] وعند هذه الآية قال الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام: «نحن والله المحسودون»![٢].

فما لهؤلاء إذا ذُكر آل إبراهيم وآل عمران استبشروا، وإذا ذُكر آلَ محمّد

---

(١) النساء ٤: ٥٤.

(٢) الكافي ١: كتاب الحجّة ب ٨ / ٦ بإسناد صحيح، ب ١٦ / ٣ بإسناد حسن، ورواه من أصحاب التفسير: الطوسي في (التبيان)، والطبرسي في (مجمع البيان)، والبلاغي في (آلاء الرحمن) وقال: حديث مستفيض، والطباطبائي في (الميزان) وقال: مستفيض، ورواه العيّاشي والقمّيّ في تفسيرهما، والبحراني في (البرهان) عن أمالي الطوسي، ورواه السيوطي في (الدرّ المنثور) عن ابن عبّاس.

ضاقت صدورهم ؟!

ابن تيميّة ـ الوجه الآخر:

آل أُميّة، آل أبي سفيان وآل مروان، حين توارثوا الحكم، لا يخرج من بيتهم حتّى انقرضت دولتهم، هل رأى فيهم شَبَهاً باليهود، أو نسب سيرتهم إلى آثار الجاهليّة ؟!.

كلّا أبداً، فهم عنده الخلفاء علىٰ المسلمين و (أُمراء المؤمنين)، الطاعة لهم واجبة، ومَن طعنَ عليهم فقد أدخل الفتنة والفساد في أُمور المسلمين، والله يأمر بالصلاح لا بالفساد!

هكذا وجّه كلامه ضدّ الحُسين سبط النبيّ وسيّد شباب أهل الجنّة، حين طعن الحسين في إمارة يزيد بن معاوية!(١).

إذن حين يغيب ذكر آل محمّد ﷺ تنتفي الحاجة إلىٰ هذه النظرية، ويصبح تقديم أهل بيت الرؤساء أمراً طبيعيّاً لا يشوبه شيء، لا مع آل إبراهيم وآل عمران فقط، بل مع آل أبي سفيان وآل مروان أيضاً!

بل مع آل ابن تيميّة أنفسهم!

فهل وصل الشيخ ابن تيميّة إلىٰ زعامة المذهب إلّا بـ(عقيدة اليهود) و (آثار الجاهليّة) ؟!

لم يلتفت إلىٰ ذلك حين رأى نفسه وسَلَفَهُ يتوارثون رئاسة المذهب بصورة لم

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٤١. ويأتي مع كلام كثير مثله في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

يسبق لها نظير في المذهب الحنبلي، فمنذ تزعّم جدّهم محمّد بن الخضر تبنّى هذا المبدأ، فكلّما نبغ رجلٌ ظلّ يضيّق عليه حتّى يخرجه من مدينته حرّان ويبعده عنها[١]، ثمّ ورّث الزعامة لابنه عبدالغني، وهكذا حُبست رئاسة المذهب في هذا البيت حتّى بلغت الشيخ أحمد بن تيميّة!

ولا عيب في هذا، فكلّهم أهلٌ لهذه الرئاسة، كما كان آل أبي سفيان وآل مروان أهلاً لها. أمّا آل محمّد ﷺ فليس فيهم من هو أهل لها، لا عليّ ولا أحد من بنيه، لسبب واحد لا غير، وهو كونهم آل محمّد وسادة بني هاشم! فلو كانوا من غيرهم لمّا شكّ أحد في تقدّمهم!

ابن تيميّة يهدّ حِصنه:

ابن تيميّة في مكان آخر يقول بغير هذا، ويعتقد بتقديم أهل بيت الرسول، فيقول ما نصّه: إنّ بني هاشم أفضل قُريش، وقُريش أفضل العرب، والعرب أفضل بني آدم كما صحّ ذلك عن النبيّ ﷺ قوله في الحديث الصحيح: «إنّ الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش».

وفي صحيح مسلم عنه أنّه قال يوم غدير خمّ: «أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي»[٢].

وفي السنن أنّه شكا إليه العبّاس أنّ بعض قريش يحقّرونهم، فقال: «والذي

---

(١) وفيات الأعيان ٤: ٣٨٧.

(٢) لا يفوتنّك أنّه هنا حذف أوّل الحديث «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي» وسيأتي بيان غايته في فصل (مع فضائل أهل البيت).

نفسي بيده لا يدخلون الجنّة حتّى يحبّوكم لله ولقرابتي » وإذا كانوا أفضل الخلائق فلا ريب أن أعمالهم أفضل الأعمال ![١].

فهل هذا القول هو الحقّ المفهوم من عقيدة الإسلام ودين خاتم الأنبياء، أم هو من عقيدة اليهود وأثر الجاهليّة في تقديم أهل بيت الرؤساء ؟!

لا ضير، إنّها كلمةٌ قالها مرّة واحدة في تفضيل آل الرسول، ثمّ بنى عقيدته في التفضيل والولاء على نقيضها تماماً كما سنرى في الفصول الآتية.

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٠ ـ ٢٠١ . وسيأتي مع زيادة فيه في فصل (عليّ والخلافة). وقريب منه ما ذكره في (الوصية الكبرى): ٤٩.

الفصل الثاني

مَعَ فَضَائِلِ أهلِ البَيتِ(ع)

فضائل أهل البيت عليهم السلام وإن ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحّ الأسانيد فهي مردودة حين تناقض عقيدة ابن تيميّة في التفضيل! لأنّ عقيدته هي الأصل الأوّل الذي يوزن به الدين والتاريخ، فما وافقها قَبِلَهُ، وما خالفها ردّه وإن كان قول النبيّ أو محكم التنزيل!

رأينا أشياء كثيرةً فيما تقدّم، وسنرى في ما يخصّ هذا الباب أشياء أُخرى..

المُؤاخاة:

يقول ابن تيميّة: «أمّا حديث المؤاخاة فباطل»[(١)]. «والنبيّ لم يُؤاخِ عليّاً»[(٢)].

وحديث المؤاخاة حديث صحيح، كان بعد الهجرة، حيث آخى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، ثمّ قال لعليّ عليه السلام: «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

رواه بهذا النصّ من أصحاب السنن: الترمذي، والبغوي، والحاكم[(٣)].

ورواه أحمد بن حنبل في مسنده بنصّ: «أنت أخي وأنا أخوك»[(٤)].

ومن أصحاب السير والتاريخ رواه: ابن إسحاق، وابن هشام، وابن سعد،

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ١١٩.

(٢) منهاج السُنّة ٤: ٧٥، ٩٦.

(٣) سنن الترمذي ٥: ٦٣٦ / ٣٧٢٠، مصابيح السُنّة ٤: ١٧٣ / ٤٧٦٩، المستدرك ٣: ١٤.

(٤) مسند أحمد ١: ٢٣٠.

وابن حبّان، وابن عبدالبرّ، وابن الأثير، وابن أبي الحديد، وابن سيّد الناس، وابن كثير، والسيوطي[١]. ورواه غير هؤلاء كثير من أصحاب الجوامع[٢].

وفي سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقال: «تآخوا في الله أخَوَين أخَوَين» ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ سيّد المرسلين وإمام المتّقين ورسول ربّ العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام أخَوَين[٣].

وفي سيرة ابن حبّان: آخى النبيّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار ثمّ قال لعليّ: «والذي بعثني بالحقّ ما أخّرتك إلّا لنفسي، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي» قال عليّ: يا رسول الله، ما أرث منك ؟ قال ﷺ: «ما ورّثت الأنبياء قبلي» وأنت معي في قصري في الجنّة مع فاطمة ابنتي ثمّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿*إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين*﴾ »[٤].

هذا هو حديث المؤاخاة الذي ينكره الشيخ !

حديث الطائر:

الحديث الذي يعيّن لنا أحبّ الخلق إلى الله ورسوله، تعييناً مصدّقاً لكلّ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ١٠٩، الطبقات الكبرى ٢: ٢٢، السيرة النبوية لابن حبّان: ١٤٩، الاستيعاب ٣: ٣٥، أُسد الغابة ٢: ٢٢١ و٤: ١٦، ٢٩، شرح نهج البلاغة ٦: ١٦٧، عيون الأثر ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، البداية والنهاية ٧: ٣٤٨، تاريخ الخلفاء: ١٣٥.

(٢) جامع الأُصول ٩: ٤٦٨/٦٤٧٥، مجمع الزوائد ٩: ١١٢، الصواعق المحرقة: ١٢٢، كنز العمّال ١١/٣٢٨٧٩.

(٣) سيرة ابن هشام ٢: ١٠٩، الروض الأُنُف ٤: ٢٤٤، عيون الأثر ١: ٢٦٥.

(٤) السيرة النبوية لابن حبّان: ١٤٩.

ما ورد وما يأتي من أحاديث النبيّ التي صدّ عنها الشيخ.

والحديث عن أنس بن مالك، قال: كان عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم طيرٌ أُهدي إليه، فقال: «اللّهمّ ائتني بأحبّ الخلق إليك ليأكل معي هذا الطير» فدخل عليٌّ عليه السلام فأكله معه.

رواه الترمذي من طريق السدّي ووثّقه، ورواه النسائي، وصحّحه الحاكم في المستدرك وقال: رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً، وصحّحه الذهبي وألّف جزءاً في ما صحّ عنده من طُرقه، ورواه البَغَوي أيضاً وآخرون[(١)]، وقال الخوارزمي: أخرج ابن مردويه هذا الحديث بمئة وعشرين إسناداً[(٢)].

مع كلّ هذا، ماذا يقول ابن تيميّة في هذا الحديث؟!

يقول: «إنّ حديث الطائر من المكذوبات الموضوعات عند أهل العلم والمعرفة بحقائق النقل»!

وقال: «وقد سُئل الحاكم عن حديث الطير فقال: لا يصحّ»[(٣)].

أرأيت مثل هذه الأمانة في نقل السُنّة؟! أعد نظرةً سريعةً علىٰ أسماء أهل العلم والمعرفة بالنقل الّذين صحّحوا هذا الحديث، ثمّ انتقل معي إلى الحاكم لتعرف مدى الأمانة في ما نقله عنه الشيخ..

قال سبط ابن الجوزي: قال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري: حديث الطائر

---

(١) سنن الترمذي ٥: ٦٣٦ / ٣٧٢١، الخصائص للنسائي: ٥، المستدرك ٣: ١٣٠ ـ ١٣١، تذكرة الحفّاظ: ١٠٤٣، مصابيح السُنّة ٤: ١٧٣/ ٤٧٧٠، أُسد الغابة ٤: ٣٠، جامع الأُصول ٩: ٤٧١، البداية والنهاية ٧: ٣٦٣.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي: ٤٦.

(٣) منهاج السُنّة ٤: ٩٩.

صحيح، يلزم البخاريّ ومسلم إخراجه في صحيحيهما لأنّ رجاله ثقات، وهو على شرطهما[١].

فأيّ القولين نصدّق عن الحاكم ؟! بلا شكّ أنّ الصحيح منهما ما أيّده الحاكم في مسنده (المستدرك)، وقد أخرج فيه هذا الحديث من طريقين، وقال: رواه عن أنس جماعة من أصحابه زيادة على ثلاثين نفساً، ثمّ صحّت الرواية عن عليّ، وأبي سعيد الخدري، وسَفينة (مولى رسول الله ﷺ)[٢]!

هذا ما أثبته الحاكم، وأثبته المعدودون من أهل العلم والمعرفة: الترمذي، والنسائي، والبَغَوي، وابن مردويه، والذهبي، وغيرهم كثير.

آية الولاية، وحديث الإنذار:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[٣].

تقدّم كلام ابن تيميّة فيها وجوابه، ولكن له هنا كلام جديد، وإخفاق جديد:

فكلامه الجديد: كلام موجّه إلى الشيعة الإماميّة يقول فيه: وحرّفوا القرآن تحريفاً لم يُحرّفه غيرهم، مثل قولهم: إنّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية، نزلت في عليّ لمّا تصدّق بخاتمه في الصلاة. وهو من أعظم الدعاوى الباطلة! بل أجمع أهل العلم بالنقل على أنّها لم تنزل في عليّ بخصوصه.

وأنّ عليّاً لم يتصدّق بخاتمه في الصلاة.

---

(١) تذكرة الخواصّ: ٣٩.

(٢) المستدرك ٣: ١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) المائدة ٥: ٥٥.

وأجمع أهل العلم بالحديث علىٰ أنّ القصّة المرويّة في ذلك من الكذب الموضوع ![١].

وقد تقدّم الردّ علىٰ هذا بذكر إجماع المفسرين علىٰ صحّة نزولها في عليّ عليه السلام، وصحّة تصدّقه في الخاتم في صلاته، وقد استفاد أهل العلم منه جواز الحركة القليلة في الصلاة، وأنّ صدقة التطوّع تسمّى زكاةً، لأنّ عليّاً تصدّق بخاتمه في الركوع[٢].

ونضيف هنا ما أثبته الآلوسي في تفسيره من شعر حسّان بن ثابت في هذه الحادثة، فقال بعد أن ذكر تصدّق عليّ بالخاتم وهو راكع ونزول الآية، قال: فأنشد حسّان:

أبا حَسَنٍ تفديكَ نفسي ومهجتي ... وكلُّ بطيءٍ في الهُدى ومسارعِ
فأنتَ الذي أعطيتَ إذ كنتَ راكعاً ... زكاةً، فدتك النفسُ يا خيرَ راكعِ
فأنزلَ فيك اللّه خيرَ ولايةٍ ... وبيّنها في مُحكماتِ الشرائعِ[٣]

وقال الآلوسي أيضاً: سُئل ابن الجوزي: كيف تصدّق عليّ بالخاتم والظنّ فيه أنّ له شغلاً شاغلاً فيها ؟ فقال:

يسقي ويشربُ لا تُلهيه سكرتُهُ ... عن النديم، ولا يلهو عن الناسِ
أطاعَهُ سكرُهُ حتّى تمكّن من ... فعل الصحاةِ، فهذا واحدُ الناسِ[٤]

فالذي نقله الإماميّة إذن قد نقله عامّة مفسّري أهل السُنّة ومحدّثيهم وليس بينهم فيه أدنىٰ خلاف.

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٩٠.

(٢) تفسير القرطبي ٦: ٢٢١ ـ ٢٢٢ وقد تقدّم في ص٧٤ مع ذكر مزيد من مصادره.

(٣) في المصدر: (وأثبتها أثنا كتاب الشرايعِ).

(٤) روح المعاني للآلوسي٦: ١٦٧.

وأمّا الإخفاق الجديد، فقوله: أمّا ما ينقله ـ ابن المطهّر ـ من تفسير الثعلبي، فقد أجمع أهل العلم بالحديث أنّ الثعلبي روى طائفة من الأحاديث الموضوعات، ولهذا لمّا كان البغوي عالماً بالحديث لم يذكر في تفسيره شيئاً من هذه الأحاديث الموضوعة التي يرويها الثعلبي، ولا ذكر تفاسير أهل البدع التي ذكرها الثعلبي[1].

قال هذا ولم يلتفت إلى أنّ البغوي أيضاً قد ذكر نزولها في عليّ لمّا تصدّق بالخاتم في الصلاة![2] لقد ذكر ذلك البغوي الذي «لم يذكر الموضوعات، ولا ذكر تفاسير أهل البدع»! فهل سيُحدِث الشيخ رأياً آخر؟!

لقد تنبّه مرّة إلى أنّ البغوي الذي وصفه بهذا الوصف، والطبري الذي قال فيه دائماً إنّه لا يروي الأحاديث الموضوعة ولا الضعيفة، تنبّه إلى أنّهما قد أخرجا بالأسانيد الصحيحة عندهما ما لا يوافق مذهبه، فوجّه إليهما سهام الطعن على الفور!.

كان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[3].

فقد ذكر الطبري والبغوي أنّ النبيّ ﷺ جمع بني عبدالمطّلب فأنذرهم، ثمّ قال: «فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟» قال عليّ: فأحجم القوم عنها، وقلت: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي ثمّ قال: «إنّ هذا أخي، ووصيّي، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»[4].

عند هذا قال ابن تيميّة: وحديث الإنذار إذا كان في بعض كتب التفسير التي

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٩٠.

(٢) تفسير البغوي (معالم التنزيل) ٢: ٢٧٢.

(٣) الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٤) انظر تفسير الطبري والبغوي عند هذه الآية (الشعراء ٢٦: ٢١٤) والحديث أيضاً في تاريخ الطبري ٢: ٢١٧، الكامل في التاريخ ٢: ٦٢ ـ ٦٤، ابن أبي الحديد ١٣: ٢١، السيرة الحلبية ١: ٤٦١.

يُنقَل فيها الصحيح والضعيف مثل: تفسير الثعلبي، والواحدي، والبغوي، بل وابن جرير وابن أبي حاتم، لم يكن مجرّد رواية واحد من هؤلاء دليلاً علىٰ صحّته !!(١).

ترى إذا رواه أكثر من واحد من هؤلاء ـ كما هو في حديث الإنذار ـ هل سيكون ذلك دليلاً علىٰ صحّته ؟!

وَيُطعمونَ الطَّعامَ علىٰ حُبّه:

يقول الشيخ ابن تيميّة بأُسلوب يوحي لك بما تحلّى به من أدب الحوار، إضافة إلى الأمانة في نقل السنن وتفسير القرآن ! ما نصّه:

«ذكر الرافضي ـ يعني ابن المطهّر ـ أشياء من الكذب تدلّ علىٰ جهل ناقلها، مثل قوله: نزلَ في حقّهم ﴿ هَل أتىٰ ﴾. فإنّ ﴿ هَل أتىٰ ﴾ مكّية باتّفاق العلماء ! وعليّ إنّما تزوّج فاطمة في المدينة، وولد الحسن في السنّة الثالثة للهجرة، والحسين في السنّة الرابعة، فقول القائل إنّها نزلت فيهم من الكذب الذي لا يخفىٰ علىٰ من له علم بنزول القرآن وأحوال هذه السادة الأخيار» !(٢).

فكم سيُعجب القارئ هذا التقسيم التاريخي الرائع، وهذا التعظيم لأهل البيت !

ولكن لا تعجل، فليس عليك إلّا أن تتناول المصحف الكريم لتنظر في هذه السورة، سورة (الدهر) أو (الإنسان) أو (هل أتى) هذه أسماؤها وهي في المصحف برقم ٧٦، السورة قبل الأخيرة من جزء تبارك الجزء ٢٩، لترى ماذا كتبوا في عنوانها، فسترى أمامك: (سورة الدهر مدنيّة) !

---

(١) منهاج السنّة ٤: ٨٠.

(٢) منهاج السنّة ٢: ١١٧.

هكذا اتّفقوا إذن، وهكذا أثبتوا في المصاحف. نعم، قالوا أنّ القسم الأخير منها ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنْزِيلاً ﴾ نزل بمكّة. أمّا قسمها الأوّل والذي فيه: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَـٰهُمُ ٱللهُ شَرَّ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَـٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ فإنّ هذه الآيات والتي قبلها مدنيّة بلا أدنى خلاف.

- ومتى كان للمسلمين أسرى وهم في مكّة ؟! وإنّما وقع الأسرى بأيدي المسلمين بعد الغزوات التي كانت أوّلها غزوة بدر وهي بعد الهجرة إلى المدينة، وفي السَّنَة الثانية من الهجرة، فكيف تكون الآيات مكيّة ؟!

لتعرف عندئذٍ حقيقة ذاك العلم بنزول القرآن وبأحوال هؤلاء السادة الأخيار.

وبعد، فقد اتّفق أهل التفسير على نزول هذه الآيات في أُولئك السادة الأخيار: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، قاله الطبري، والبغوي، والزمخشري، والرازي، وأبو السعود، والبيضاوي، والنَسَفي، والخازن، والآلوسي، والشوكاني، وإسماعيل حقّي، والواحدي في أسباب النزول[1].

فأين رأيت (الكذب الذي يدلّ على جهل ناقله) ؟!

اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه:

عاد النبيّ ﷺ من حجّة الوداع، فلمّا بلغ غدير خمّ وقف للناس فردّ مَن

(١) انظر هذه المصادر كلّها عند هذه الآيات من سورة الدهر.

سبقه، ولحقه من تخلّف، فقام خطيباً فقال: «ألستُ أوّلى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى. قال: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه».

هذا حديث متواتر، جمع كثير من العلماء طُرقَهُ في أجزاء مفردة، وشهدوا بصحّته وتواتر طرقه، ومنهم الذهبي والطبري. فماذا يرى ابن تيميّة ؟!

يقول ابن تيميّة: حديث الموالاة[١] قد رواه الترمذي وأحمد في مسنده عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» وأمّا الزيادة، وهي قوله: «اللّهمّ والِ من والاهُ، وعادِ مَن عاداهُ» فلا ريب أنّه كذب!

أرأيت الذي يُكذِّبُ بالدين ؟! فهذه (الزيادة) قد رواها أحمد في مسنده من سبعة طُرق، ورواها ابن ماجة في سننه، ورواها النسائي من أكثر من عشرة طرق، وصحّحها الحاكم في المستدرك فقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، وصحّحها الذهبي أيضاً وقال: قويّة الإسناد[٢].

ولكنّها لا ريب علىٰ خلاف عقيدة ابن تيميّة في الموالاة، فهو لا يرضيه أن يرى دعاء النبيّ علىٰ (أولياء الأُمور) ممّن يدين بولايته، دعاءً صريحاً لا يمكن تأويله أو صرفه عنهم، فلا بُدّ من ردّه حفظاً لماء وجه الأمير، وإن كان النبيّ قد قاله علىٰ أكبر ملأ من المسلمين!

وأمّا قوله «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فما أسهل تأويله عند الشيخ، وصرفه عن معناه، فهو لا يعدو كونه وصيّة بالحبّ أو إخبار، فإذا ظهر من الأمير ما

---

(١) في الأصل (المؤاخاة) وهو تصحيف.

(٢) مسند أحمد ١: ١١٩ من طريقين، ١٥٢، ٤: ٢٨١، ٣٧٠، ٣٧٢ من طريقين، سنن ابن ماجة ١: ٤٣ / ١١٦، المستدرك ٣: ١٠٩ ـ ١١٠، الخصائص للنسائي: ٢١ ـ ٢٧، البداية والنهاية ٥: ١٨٣ ـ ١٨٩.

يخالف هذا الإخبار أو تلك الوصيّة فالأمير مجتهد متأوّل، فهو مأجور علىٰ هذا الخلاف!

وعلى هذا النحو سار الشيخ في تكذيب الحديث النبويّ الشريف، وآيات القرآن النازلة في عليّ وأهل البيت ﷺ، وما لم يكذّبه منها جادل فيه جدالاً لا يجرُؤ على بعضه أحد يحرص على كرامة القرآن والسُنّة:

● *فقول النبيّ ﷺ لعليّ:* «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيَّ بعدي»[١] ليس فيه أيّة مزيّة لعليّ، ولا فيه ما يشير إلى حقيقة الاستخلاف، وما هو إلّا كلام أراد منه النبيّ إيناس عليّ لا غير![٢].

● *وقوله ﷺ لعليّ:* «أنت منّي وأنا منك»[٣] ليس فيه مزيّة لعليّ، فالمراد منه الأُخوّة في الدين لا غير، وهذا أمر يشاركه فيه غيره من المسلمين![٤] ذاهلاً عن قوله ﷺ في عليّ ﷺ: «إنّه منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي»[٥].

● *وقوله تعالى:* ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٦]. صحيح أنّ النبيّ ﷺ قد خصّ به عليّاً وفاطمة والحسن والحسين «فلمّا بيّن سبحانه أنّه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيت نبيّه ويطهّرهم تطهيراً،

---

(١) البخاري ٥: ٨٩ / ٢٠٢، مسلم ٤: ١٨٧٠ / ٢٤٠٤ من ستّة طرق، الترمذي: ٥ ـ حديث ـ ٣٧٣٠ وبعده، مسند أحمد ١: ١٧٣، ١٧٥، ١٨٢، ١٨٤، ٣٣١.

(٢) انظر منهاج السُنّة ٤: ٨٧ ـ ٨٨.

(٣) البخاري ٤: ٢٢، ٥: ٨٧، الترمذي ٥: ٦٣٥ / ٣٧١٦، مسند أحمد ١: ١٠٨، ١١٥، مصابيح السُنّة ٤: ١٧٢ / ٤٧٦٥ و ١٨٦ / ٤٨٠١.

(٤) منهاج السُنّة ٣: ٨.

(٥) سنن الترمذي: ٥ / ٣٧١٢، مسند أحمد ٤: ٤٣٨، ٥: ٣٥٦، صحيح ابن حبّان ٩: ٤١ / ٦٨٩٠، المستدرك ٣: ١١٠، ١١١، الخصائص للنسائي: ٢٣، ٢٤.

(٦) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

دعا النبيّ ﷺ لأقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصاً به، وهم: عليّ وفاطمة وسيديّ شباب أهل الجنّة، فجمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبيّ»[١].

ولكن هل في هذا مزيّة لأهل البيت عليهم السلام؟

يقول ابن تيميّة: إنّ هذا مجرّد إرادة من الله لهم بالتطهير، ودعاء من النبيّ لهم بذلك، ولا يعني هذا أن الله قد طهّرهم حقّاً! بل هو أمر أُمروا به، وممّا يبيّن أنّ هذا ممّا أُمروا به، لا ممّا أخبر بوقوعه، ما ثبت في الصحيح أنّ النبيّ ﷺ أدار الكساء على عليّ وفاطمة وحسن وحسين، ثمّ قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، ورواه أهل السنن عن أمّ سلمة![٢].

نسيَ الشيخ أنّه لو لم يفعل النبيّ ذلك، ويخصّهم بالذكر دون سواهم، لكان أهون شيء على الشيخ وغيره أن يخرجهم من هذه الآية وهذه الفضيلة، ولا يعدّهم في أهل البيت، ولكان أهون شيءٍ عليه أن يقول إنّ أهل بيته زوجاته!

النبيّ ﷺ يقول في حديث قسمة الخلق: «إنّ الله قَسَم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثمّ جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله ﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين، ثمّ جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلةً، وذلك قوله: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ

---

(١) ابن تيميّة: (حقوق آل البيت): ١٢. ط ١٩٨١، الجيزة.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ١١٧.

أَكرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر، ثمّ جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً. فذلك قوله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فأنا وأهل بيتي مطهّرون من الذنوب »[١].

وبعد فهو شيءٌ أرادهُ الله لهم دون سواهم، ودعا النبيّ به لهم دون سواهم، وخصّهم بالذكر تميزاً لهم وحصراً لمصداق الآية بهم، ورغم ذلك فهو أمر لم يتحقّق لهم لأنّ الشيخ ابن تيميّة لم يُرد ذلك!

● ومثل هذا تجده في آية المُباهلة: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٢]. خرج النبيّ لمباهلة نصارى نجران وأخذ معه عليّاً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ[٣].

قال البغوي: ﴿ وَأَبْنَآءَنَا ﴾ أراد الحسن والحسين، ﴿ وَنِسَآءَنَا ﴾ فاطمة، ﴿ وَأَنفُسَنَا ﴾ عنى نفسَهُ وعليّاً ﷺ[٤].

وقال الزمخشري: وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء[٥].

أمّا ابن تيميّة فلا يرى فيه فضيلة، وما دعاهم النبيّ لفضيلةٍ لهم، ولكن

---

(١) هذا الحديث أخرجه الحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عبّاس، ورواه عنهم الشوكاني في تفسيره (فتح القدير ٤: ٢٨٠) ثمّ قال بعده: وفي الباب أحاديث وآثار وقد ذكرنا ها هنا ما يصلُح للتمسّك به دون ما لا يصلح.

(٢) آل عمران ٣: ٦١.

(٣) مسلم ٤: ١٨٧١/٢٤٠٤، الترمذي ٥: ٢٢٥/٢٩٩٩، مصابيح السُنّة ٤: ١٨٣/٤٧٩٥، وجميع التفاسير.

(٤) تفسير البغوي ـ معالم التنزيل ـ ١: ٤٨٠.

(٥) الكشّاف ١: ٣٧٠.

دعاهم لأنّهم أقاربه والرجل في المباهلة يأخذ أقاربه، ولو كان النبيّ قد دعا أبا بكر وعمر لكانت إجابة دعائه أوْلى وأسرع !!»[1].

صدق الله ورسوله ..

فهذه الصلاة علىٰ آل محمّد الّذين كانوا معه في المباهلة، والتي يؤدّيها ابن تيميّة في تشهّده وفي دعائه، هل يستطيع أن يحذف منها ذكرهم ويضع مكانهم أبا بكر وعمر لتكون صلاته أتمّ واستجابة دعائه أوْلى وأسرع ؟!

إنّه يعلم أنّ صلاته عندئذٍ ستكون باطلةً ! بل لو أبقى ذكرهم فيها وأضاف معهم أبا بكر وعمر لبطلت صلاته بلا جدال، فكم بين من جُعِلَ ذكره في الصلاة واجباً لا تصحّ بدونه، ومن إذا ذكر في الصلاة بطلت ؟

والثقلان واحدٌ فقط !

قد تكون معجزةً في عالم الأعداد، أو سرّاً من أسرار اللغة لم يُفهم بعد ! في خطاب النبيّ المشهود بغدير خمّ وبلاغه للناس: « ألا أيّها الناس إنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيبُ، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أُذكّركم اللهَ في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم اللهَ في أهل بيتي »[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا بعدي: كتابَ الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلَ بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ١١٨ ـ ١٢٠، ٤: ٣٥.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ / ٢٤٠٨ بعدّة طرق.

الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟»[١].

ماذا يقول الشيخ ابن تيميّة في معنى الثقلين اللّذَين أمر النبيُّ بالتمسّك بهما؟

يقول عجباً من الكلام لا يعرفه عربيّ ولا أعجميّ!

إنّه يقول: الحديث الذي في مسلم إذا كان النبيّ ﷺ قد قاله فليس فيه إلّا الوصية باتّباع الكتاب! وهو لم يأمر باتّباع العترة، ولكن قال: «أُذكّركم اللهَ في أهل بيتي»![٢].

أينَ الثَقل الثاني إذن والنبيّ ﷺ يقول: «الثَقَلين أوّلها كتاب الله»؟!

فهل خفيَ هذا الكلام الفصيح على الشيخ؟! كلّا أبداً، لكنّه لا ينشرحُ صدراً لذلك الثَقَل الثاني! ويندفع مرّةً أخرى فلا يكتفي بحذف الثَقَل الثاني من الحديث وترك الحديث مبتوراً على طريقة الّذين يؤمنون ببعض الكتاب، بل يذهب إلى ما هو أبعد منه وأكثر جفاءً للنصّ النبويّ الثابت الشريف، فيستبدله بجزءٍ آخر لا يعرفه هذا الحديث النبويّ التامّ، ولا يعرفه حتّى ابن تيميّة بإسناد يعتمده أو مصدرٍ ينسبه إليه! فيقول: (إنّ الرسول أخبر أنّ أُمّته ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقةً، فقد علم ما سيكون ثمّ قال: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا: كتاب الله») إلى هنا يقطع الشيخ هذا الحديث ثمّ يصل كلامه بقوله: (ورويَ عنه أنّه قال في صفة الفرقة الناجية: «هي ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»)![٣].

لعلّك لاحظتَ كيف أعرض عن لفظ «الثقلين» الذي رواه مسلم، وانتخب

(١) سنن الترمذي ٥: ٦٦٣ / ٣٧٨٨، مسند أحمد ٣: ١٧، المستدرك ٣: ١٤٨ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) منهاج السُنّة ٤: ٨٥، الفرقان بين الحقّ والباطل: ١٣٩.

(٣) العقيدة الحموية الكبرى (العقود الدرّيّة: ٨٥). وراجع ص ٢٥٥ من هذا الكتاب فقد ذكرنا فيها ما قيل في إسناد هذه الزيادة «ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

النصّ الذي رواه الترمذي وأحمد، ثمّ أخذ نصفه وترك نصفه الثاني ناشداً الهدى على سبيل آخر غير السبيل الذي وصفه النبيّ صلى الله عليه وآله، فتمام هذا الحديث: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي: كتابَ اللهِ حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

وهكذا يا رسول الله خَلَفَك فيهما الشيخ ابن تيميّة!

إذا رأيت هذا فقد أدركت إذن لماذا كرّر النبيّ القول: «أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي» «فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

وفي إسنادٍ آخر: «وإنّي سائلكم حين تردونَ عليَّ عن الثَّقَلَين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»(١).

و«إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض جميعاً»(٢).

ليعلم الشيخ إذن مَن هو الذي سيكون علىٰ مثل ما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه في حياته، هل الذي تمسّك بما لا يضلّ بعده أبداً «الثَّقلين»، أم الذي فرّق بينهما خلافاً لقول النبيّ، والنبيّ يؤكدّ أنّهما «لن يفترقا»؟!

وعلى هذا (المنهاج) مضى ابن تيميّة في التعامل مع السُنّة حين تُصادم عقيدته، فعقيدته عنده هي الأصل، وعلى القرآن الكريم أن يخضع لها! وعلى

---

(١) مصابيح السُنّة ٤: ١٩٠ / ٤٨١٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ١١٢.

(٢) مسند أحمد ٥: ١٨٢، ١٨٩.

النبيّ ﷺ ألّا يقول حرفاً واحداً في خلافها ! وعلى أهل البيت ﷺ أن يرضوا بما رضي لهم ابن تيميّة في عقيدته ! ومن شكّ في هذا فهو ضالّ، خارج عن طريقة السَّلَف، لا تنفعه شفاعة الشافعين !!

تتويج الانحراف:

المسار الذي انحرف عن أهل البيت ﷺ فتنقّص منهم، وكذّب بمناقبهم، وجحد منزلتهم، يُتَوِّجُهُ أصحابه بما ينسبونه إلى أهل البيت ممّا يكون ذريعة للانتقاص منهم، ومَن سيكون عرضةً لهذه المطاعن قبل عليّ ﷺ ؟!

وابن تيميّة يتوّج مساره هذا بما يتشدّق به من رواية شانئ عليّ، حليف الخوارج، المعظِّم لمعاوية، الذي روى أنّ عليّاً خطب ابنة أبي جهل وفاطمة ﷺ عنده، فأغضب النبيّ بذلك فخطب النبيّ خطبةً يشكو فيها عليّاً وأثنى على صهرٍ له من بني عبد شمس قوم معاوية، ثمّ قال: لا تجتمع ابنة رسول الله وابنة عدوّ الله.

ذلك الراوي هو المِسْوَر بن مَخْرَمة، الآبق عن عليّ ﷺ، المعظّم لمعاوية، قال فيه عروة بن الزبير: لم أسمع المِسْوَر ذكر معاوية إلّا صلّىٰ عليه !!

وكان حليف الخوارج وأُسوتهم، قال فيه الزبير بن بكّار: كانت الخوارج تَغْشاهُ، وينتحِلُونه ![1].

فهذا الرجل ثقةٌ إذن، ينقل القوم حديثه ويتديّنون به، لأنّه ليس برافضيّ ![2].

وقال بعض من أنكر هذا الحديث: إنّه من وضع الكرابيسي المشهور ببغضه

---

(١) انظر ترجمته في (سير أعلام النبلاء) ٣: ٣٩٠ ـ ٣٩٣. ومعنى تغْشاهُ: تجيئُهُ، وينتحلونه: ينتسبون إليه.
(٢) روى حديثه هذا: البخاري في (الصحيح) ٥: ٩٥ / ٢٢٢، ومسلم ٤: ١٩٠٢ / ٢٤٤٩.

أهل البيت عليهم السلام [١]. ولم يكن المِسْوَر علىٰ حاله المذكورة بأحسن حالاً من الكرابيسي.

أمّا المعتزلة فقالوا: إنّ هذا الحديث وضعه أبو هريرة في زمن معاوية[٢].

وأمّا ابن تيميّة فلا يجد ألذّ من هذا الحديث، يردّده مرّةً بعد أُخرى ويُطيل الكلام في التفريع عليه وتقوية حجج النواصب به علىٰ عليّ وأتباعه، في كلام يجلّ المرء المسلم عن ترديده[٣].

قال عليّ عليه السلام: « يهلكُ فيَّ اثنان: محبّ يُقرّظني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شَنآني علىٰ أن يبهتني »[٤].

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١٦٧.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٦٤.

(٣) منهاج السُنّة ٣: ١٦٣ ومواضع أُخرى.

(٤) مسند أحمد ١: ١٦٠، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٠١ / ١.

الفصل الثالث

مَعَ خَصَائِصِ عليٍّ(ع)

إنّ الاغضاء عن خصائص عليّ عليه السلام وعظيم مزاياه إغضاء عن الشمس في رائعة النهار، إغضاء عن الخلق النبيل، عن الصدق الذي لا يحجبه شيء، عن اليقين، عن الشجاعة والإيمان والحكمة في أتمّ معانيها، إغضاء عن الكمال، ولكنّ هناك من لا يقف عند حدود الإغضاء، بل يبتعد حتّى ينال منه عليه السلام تلميحاً أو تصريحاً، نيلاً يحمله عليه هوىً في آخرين يريد أن يرفعهم، أو شَنَآن ينقله من باب إلى آخر من أبواب كلامٍ لا يُستحسن له وجه في حالٍ من الأحوال! والفقرات التالية ستوقفنا علىٰ شيء من ذلك:

التعريض بكرامة عليّ عليه السلام:

١ ـ في ذكر الخصام في الخلافة: يذكر ابن تيميّة عليّاً وأبا بكر وعمر، فيقول: والخصم في ذلك عليّ، وقد مات كما مات أبو بكر وعمر.. ونحن نثبت بالحجج الباهرة أنّ أبا بكر وعمر أوْلى بالعدل من كلّ أحدٍ سواهما من هذه الأُمّة، وأبعد عن الظلم من كلّ أحدٍ سواهما!![1].

وهذا المسّ الجريء في عدالة عليّ عليه السلام لم يكن يعرفه أبو بكر وعمر في عهدهما، وقد كانا يقولان فيه: إنّه مولانا ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة[2].

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ١٣٨.

(٢) مسند أحمد ٤: ٢٨١، فضائل الصحابة ٢: ٥٩٦ / ١٠١٦ و ٦١٠ / ١٠٤٢، أُسد الغابة ٤: ٢٨، تفسير الرازي ١٢: ٤٩ ـ ٥٠، تفسير الآلوسي (روح المعاني) ٦: ١٩٤، الصواعق المحرقة: ٤٤، الرياض النضرة ٣: ١٢٧.

٢ ـ في ذكر حروبه ﷺ، يقول: وعليّ ﷺ لم يكن قتاله يوم الجمل وصفّين بأمر من النبيّ ﷺ، وإنّما كان رأياً رآه! وهو الذي ابتدأ أهل صفّين في القتال! وعليّ إنّما قاتل الناس علىٰ طاعتِهِ، لا علىٰ طاعة الله!!

ويضيف قائلاً: فمن قدح في معاوية بأنّه كان باغياً، قال له النواصب: وعليّ أيضاً كان باغياً ظالماً! قاتل المسلمين علىٰ إمارته وصال عليهم!.. فمن قتلَ النفوس على طاعته كان مريداً للعلوّ في الأرض والفساد، وهذا حال فرعون!! والله تعالى يقول: ﴿ *تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* ﴾[1] فمن أراد العلوّ في الأرض والفساد لم يكن من أهل السعادة في الآخرة، وليس هذا كقتال الصدّيق للمرتدّين ومانعي الزكاة فإنّ الصدّيق إنّما قاتلهم على طاعة الله ورسوله، لا علىٰ طاعته، فإنّ الزكاة فرض، فقاتلهم علىٰ الإقرار بها، بخلاف من قاتلَ ليطاع هو![2].

قال: ومَن قال إنّ حرب عليّ كحرب الرسول، فإن الحديث «حربك حربي وسلمك سلمي» كذب. ولو كان حربه كحرب الرسول، والله تعالى قد تكفّل بنصر رسوله، كما في قوله تعالى: ﴿ *إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ* ﴾[3]، وكما في قوله تعالى: ﴿ *وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ* ﴾[4] لوجب أن يغلب محارب رسول الله ﷺ ولم يكن الأمر كذلك، بل الخوارج لمّا أمر النبيّ ﷺ بقتالهم وكانوا من جنس المحاربين لله ورسوله انتصر عليهم!

---

(١) القصص ٢٨: ٨٣.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٠٢ ـ ٢٠٥، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٣) المؤمن ٤٠: ٥١.

(٤) الصافّات ٣٧: ١٧١ ـ ١٧٣.

فلو كانت محاربته محاربةً للرسول لكان المنتصر في آخر الأمر هو، ولم يكن الأمر كذلك، بل كان آخر الأمر يطلب مسالمة معاوية !(١).

وفي هذا الكلام النابي ونحوه جاءت الفتوى من بعض علماء عصره بعدّه في المنافقين، استناداً إلى الحديث الصحيح الثابت عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لعليّ عليه السلام : «لايحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»(٢).

كلامٌ أغمض فيه عينيه عن السُنّة كلّها، وعن التاريخ كلّه، فالجيش الذي هزم الخوارج ألم يهزم أصحاب الجمل قبلهم، فقتل أُمراءَهم وبدّد جمعهم حتّى كاد يفنيهم، فانهزموا، فنادى مناديه عليه السلام : «لاتتّبعوا مُدبراً، ولا تُجهزوا علىٰ جريح»؟!

وهذا الكلام نقله ابن تيميّة في نفس هذا الموضع، ولكنّه سرعان ما نسي !

إنّه نقل ذلك حين كان يدافع عن إسلام أصحاب الجمل، فقال: قد تواتر عن عليّ يوم الجمل لمّا قاتلهم أنّه لم يتبع مدبرهم ولم يجهز علىٰ جريحهم ولم يغنم لهم مالاً ولم يَسْبِ لهم ذريّةً، وأمر مناديه ينادي في عسكره أن لا يُتبَع لهم مُدبر، ولا يُجهَز على جريحهم، ولا تُغنَم أموالهم(٣).

إذن كان انتصار عليّ عليه السلام علىٰ أصحاب الجمل كانتصاره على الخوارج، فحربه فيها كان لله ورسوله، وكذا في صفّين حين كان جيشه هو الغالب المنتصر حتّى أشرف معاوية وأصحابه على الهلاك فابتكروا خدعة رفع المصاحف.

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) نقل هذه الفتوى ابن حجر في الدرر الكامنة ١: ١٥٥. وهذا الحديث النبويّ رواه: مسلم ١: ٨٦ / ١٣١، والترمذي ٥: ٦٤٣ / ٣٧٣٦، والنسائي ٨: ١١٦، وابن ماجة ١: ٤٢ / ١١٤، والبغوي في مصابيح السُنّة ٤: ١٧١ / ٤٧٦٣.

(٣) منهاج السُنّة ٢: ٢٣٢.

وإنّه لمن تدنّي الأفهام بمكان أن يوصف عليّ بأنّه قاتل للرئاسة ولأجل أن يُطاع هو!

فالحقّ (أنّ علياً قد مثّل مُثلاً سامية في الإسلام عزّت على أفهام الكثيرين، وأنّه حارب من أجل «كيف» الإسلام، لا من أجل «كمّه» أي أنّه حارب من أجل معنى الإسلام ومغزاه، لا من أجل اتّساع رقعة الإسلام وزيادة عدد المسلمين، ولكنّ الناس عن المبادئ والقيَم غافلون، بينما هم للأشخاص موالون، بل ومقدّسون)[1].

يقول النبيّ ﷺ في جمع من الصحابة: «إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله» فاستشرف له القوم وفيهم أبو بكر وعمر، فقال أبو بكر: أنا هو؟ قال: «لا». قال عمر: أنا هو؟ قال: «لا، ولكن خاصف النعل» وكان عليّ يخصف نعل النبيّ ﷺ. قال أبو سعيد الخدري: فأتيناه فبشّرناه فلم يرفع به رأسه كأنّه قد سمعه من رسول ﷺ[2].

ويقول ﷺ لعليّ وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حربٌ لمن حاربتم وسلمٌ لمن سالمتم»[3].

فقتال عليّ ﵇ إذن ليس كقتال من قاتل برأيه واجتهاده، إنّما كان بأمر النبيّ وإرشاده، وحربه حرب رسول الله، فمن حاربه كان كمن حارب رسول الله ﷺ، ومن عاداه فقد عادى الله تعالى، ومن أطاعه أطاعَ الله ورسولَه، ومن عصاه فقد

---

(١) د. أحمد محمود صبحي: الزيدية: ٥٢.

(٢) هذا حديث صحيح، وهو في مسند أحمد ٣:٨٢، وصحيح ابن حبّان ٩:٤٦/٦٨٩٨، والمستدرك ٣: ١٢٣ ووافقه الذهبي وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتاريخ بغداد ٨: ٤٣٣، والبداية والنهاية ٧: ٣٧٥، والصواعق المحرقة: باب ٩: ١٢٣.

(٣) هذا حديث صحيح، أخرجه الترمذي ٥: ٦٩٩ / ٣٨٧٠، وابن ماجة ١: ٥٢ / ١٤٥، وأحمد في المسند ٢: ٤٤٢، والبغوي في مصابيح السُنّة ٤: ١٩٠، والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٩. وآخرون.

خرج عن طاعة الله ورسوله. قال ﷺ: «من أطاع عليّاً فقد أطاعني، ومن عصى عليّاً فقد عصاني»[(١)] و«من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وقال ﷺ: «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض».

قال أبو ثابت مولى أبي ذرّ: كنت مع عليّ عليه السلام يوم الجمل فلمّا رأيت عائشة واقفةً دخلني بعض ما يدخل الناس، فكشف الله عنّي ذلك عند صلاة الظهر فقاتلت مع عليّ أمير المؤمنين، فلمّا فرغ ذهبتُ إلى المدينة فأتيتُ أُمّ سَلَمة فقلتُ: إنّي والله ما جئت أسأل طعاماً ولا شراباً ولكنّي مولى أبي ذرّ، فقصصتُ عليها قصتي، فقالت: أحسنت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض» صحّحه الحاكم والذهبي[(٢)].

هذا هو دين خاتم النبيّين، وهذه هي سنّته، وهذا هو هُداه.

في علم عليّ عليه السلام:

١ ـ يقول: لا نُسلّم أنّ عليّاً كان أحفظ للكتاب والسُنّة وأعلم بهما من أبي بكر وعمر، بل هما كانا أعلم بالكتاب والسُنّة منه![(٣)].

دعوى باردة، ومقارنة فاترة، ليس لها وجه مقبول. فهل ذكر أحد أنّ أبا بكر وعمر كانا ممّن حفظ القرآن، أو عُرِف في تفسير آياته، أو برز في معرفة السُنّة فقهاً

---

(١) حديث صحيح، صحّحه الحاكم والذهبي في المستدرك ٣: ١٢١، ١٢٨ وتلخيصه.
(٢) المستدرك ٣: ١٢٤ وتلخيصه للذهبي في ذيل الصفحة.
(٣) منهاج السُنّة ٣: ٢٧٠.

وروايةً على غيره ؟! وهل أنكر أحد أنّ علياً قد جمع هذا كلّه ؟!

لقد عُدّ عثمان بن عفان في من حفظ القرآن على عهد الرسول ﷺ مع عليّ وابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، أمّا أبو بكر وعمر فلا ذكر لهما في هذا المكان.

وفي القراءات لا ذكر لهما إلى جنب عليّ عليه السلام الذي تنتهي إليه قراءة عـاصم المتداولة الآن بين الناس.

وفي تفسير القرآن يقول ابن عطيّة: فأمّا صدر المفسّرين، والمؤيّد فيهم فعليّ ابن أبي طالب عليه السلام، ويتلوه عبدالله بن عبّاس، وهو تجرّد للأمر وكمّله.

وقال ابن عبّاس: ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب.

ويتلو عبدالله بن عبّاس: عبدالله بن مسعود، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمرو بن العاص[1]. فلا ذكر فيه لأبي بكر ولا عمر، ولا أثرَ عنهما شيءٌ في التفسير يرفعهما إلى مراتب المفسّرين.

وهذا باب لا جدال فيه عند أهل العلم وهم ما زالوا يروون ما تواتر عـن عمر بن الخطّاب في قوله: «لولا عليّ لهلك عمر» واستعاذته من معضلة ولا أبـا حسنٍ لها!

٢ـ ويبالغ ابن تيميّة في الجفاء، فيقول: ليس في الأئمّة الأربعة ولا غيرهم من أئمّة الفقهاء من يرجع إلى عليّ في فقهه، أمّا مالك فإنّ علمه عن أهل المدينة، وأهل المدينة لا يكادون يأخذون عن عليّ!

---

(١) تفسير القرطبي ١: ٢٧.

وأمّا أبو حنيفة والشافعي وأحمد فيُنهي ابن تيميّة علمهم إلى ابن عبّاس، ثمّ يقول: وابن عبّاس كان مجتهداً مستقلاً، وكان إذا أفتى بقول الصحابة أفتى بقول أبي بكر وعمر، لا بقول عليّ ![1].

قد يثيرك هذا الكلام لما فيه من تحامل شديد، وتنكّر لما هو متيقّن من تراث المسلمين، ولكن يهوّن عليك أنّ أحداً من المسلمين لم يصغ إلى هذا، وجوابه عندهم معلوم، وقد قرأوا ما رواه ابن تيميّة نفسه من قول ابن عبّاس: «أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله. ويقولون: نَهى أبو بكر وعمر !».

ولم يلتبس هذا الأمر على أحد، بل كلمة المسلمين فيه واحدة:

يقول الدكتور محمّد روّاس في (الموسوعة الفقهيّة): يُتوّج فقه السَّلَف فقه الصحابة، ويتوّج فقه الصحابة فقه المُكثرين وأئمّة الفتوى منهم: عمر بن الخطّاب، وعليّ بن أبي طالب، وعبدالله بن عبّاس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعائشة رضي الله عنهم جميعاً.

فلا تجد ذكراً لأبي بكر بينهم، ثمّ يواصل كلامه فيقول:

ويُعتبر عليّ بن أبي طالب عليه السلام أكثر هؤلاء علماً بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسند أحمد رحمه الله: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لابنته فاطمة: «أما ترضين أن أُزوّجك أقدم أُمتي سِلماً ـ إسلاماً ـ وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً»[2].

وفي سنن الترمذي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة الحكمة، وعليّ بابها»[3].

---

(١) منهاج السُنّة ٤: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) مسند أحمد ٥: ٢٦.

(٣) سنن الترمذي ٥: ٦٣٧ / ٣٧٢٣.

وأفتى عليّ ﷺ في حياة رسول الله وأقرّه الرسول ﷺ على ذلك ثقةً منه بقدرته على الفُتيا.

قال: وفي مصنّف عبدالرزّاق أنّ رجلاً سأل عمر عن بعض النعام يُصيبُه المُحرِم، فقال له عمر: أرأيتَ علياً؟ اسأله، فإنّا أُمرنا أن نُشاوره» فقول عمر «أُمرنا» ينصرف إلى أنّ الآمِر لهم هو رسول الله كما هو معهود من كلام السَّلَف رضوان الله عليهم.

ومن هنا كان كثير من الصحابة يلتمسون قول عليّ، فإذا ثبت لهم عنه قولٌ لم يستجيزوا لأنفسهم مخالفته، فقد نقل قدامة المقدسي في (المغني) عن حبر الأُمّة عبدالله بن عبّاس أنّه كان يقول: «إذا ثبتَ لنا عن عليّ قول لم نَعْدُهُ إلى غيره»[(١)].

وفي (طبقات الفقهاء) عن عبدالله بن عبّاس: أُعطي عليّ تسعة أعشار العلم، وإنّه لأعلمهم بالعشر الباقي.

وعن عائشة: أما إنّه ـ أي عليّ ـ أعلم الناس بالسُنّة.

وسئل عطاء: أكان من أصحاب النبيّ ﷺ أحد أعلم من عليّ؟

قال: لا والله ما أعلمه[(٢)].

وتواتر عند أهل التاريخ وكثير من أهل السنن قول الإمام الحسن ﷺ في خطبته بعد وفاة الإمام عليّ ﷺ: «لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأوّلون بعلم، ولم يُدركه الآخرون، كان رسول الله ﷺ يبعثه بالراية، جبريل عن يمينه

---

(١) د. محمّد روّاس قلعه جي: الموسوعة الفقهيّة.

(٢) طبقات الفقهاء: ٤٢ ـ ٤٣، وكثير ممّا تقدّم مذكور في ترجمة الإمام عليّ ﷺ في الاستيعاب وأُسد الغابة.

وميكائيل عن شماله، لا ينصرف حتّى يُفتح له»[١].

وفي رواية أهل التاريخ: «والله ما سبقه أحدٌ كان قبله، ولا يدركه أحدٌ يكون بعده»[٢].

وليس بعد شهادة النبيّ صلى الله عليه وآله: «أكثرهم علماً» يعتدّ بكلام يخالفه، ولكنّ هذا الرجل صدّ عن عليّ عليه السلام صدوداً أزرى به على نفسه حين بعثه هذا الصدود إلى أن يطلق أحكاماً متهافتةً كانت مدعاةً للسخرية، ناهيك عن كونها مردية، فيجعلها كأنّها اليقين الذي لا نزاع فيه، كجداله في علم عليّ وفصاحته وشجاعته وجهاده.

في جهاد عليّ عليه السلام:

١ـ جهاد عليّ، آية الجهاد الذي لم يشهد له التاريخ نظيراً بعد سيّد البشر، هو عند ابن تيميّة ليس بشيء، ولم يكن عليّ عنده سوى جنديّ قاتل كما قاتل غيره من المسلمين!

«وأبو بكر وعمر أعظم إيماناً وجهاداً، لا سيّما وقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٣] ولا ريب أنّ جهاد أبي بكر بماله ونفسه أعظمُ من جهاد عليّ» ![٤].

نعم لا ريب في ذلك حين نبادل الأدوار كلّها بإتقان، فنُقدّم المتأخّر، ونؤخّر المتقدّم، ونَعْمَد إلى من كان في حامية الوطيس يصدّ عن رسول الله فنضعه وراء

---

(١) صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي ١: ٣١٣ عن مسند أحمد، ورواه البزّار والطبراني أيضاً.
(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٠، البداية والنهاية ٧: ٣٢٣ مكتبة المعارف ـ بيروت.
(٣) التوبة ٩: ٢٠.
(٤) منهاج السُنّة ٣: ٦، و ٤: ٤٤ نحوه.

جبل أُحد، وإلى الّذين يصعدون ولا يلوون على أحد فنجعلهم محلّه، ونـعمد إلى صاحب لواء النبيّ الثابت بين يديه يُجندل الصناديد فنجعله مع الّذين يُسابقون الريح طلباً للنجاة، وإلى مَن ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت فنجعلهم محلّه، فحينئذٍ لا ريب أبداً في أنّهم أعظم جهاداً وإيماناً منه!

وحين نَعْمَدُ إلى (ذي الفقار) المخضّب بدماء الكفّار، فننتزعه من يد عـليّ ونضعه في يد أحدهما، ونُعطيه واحداً من سيفيهما (النظيفين) اللذَين لم يعرف التاريخ أنّهما خدشا كافراً واحداً، فلا ريب أنّه ليس له جهاد أمام جهادهما!

ألا ترى إلى هذا الذي يريد أن يمدح، فيقدح! فهلّا ترك المقارنة حين يريد أن يُطري مَن يُطريه! وهل نُقل عن أحدٍ من الصحابة أنّه نازع عليّاً في هذه المنزلة، أو عرف لغيره فضلاً يدانيه؟!

إنّها مرّة واحدة في يومٍ واحد في حياة أبي بكر، ومرّة واحدة في يوم واحد في حياة عُمر، حملا فيها راية رسول الله ﷺ في جهاد. ولكن حتّى هذه المرّة الواحدة سلبها إيّاها ابن تيمية، فماذا أبقى لهما إذن يفضّلهما به على حليف تلك الراية الذي أحبّها وأحبّته؟!

تلك هي راية خيبر، حملها أبو بكر فعاد ولم يصنع شيئاً، وحملها بعده عـمر فعاد ولم يصنع شيئاً، ثمّ دفعها النبيّ إلى عليّ فكان الفتح على يديه، تلك الراية يقول عنها ابن تيميّة: «لم تكن الراية قبل ذلك لأبي بكر ولا لعمر، ولا قـرّبها واحـد منهما»![1].

هي المرّة الوحيدة التي حملا فيها راية الجهاد، يقول فيها: لم تكن لهـما، ولا

---

(١) منهاج السُنّة ٤: ٩٨.

قَرّبها واحد منها !

وبعد أن رأيت كيف سلبها شرف الصدارة في الجهاد ولو لمرّةٍ واحدة، انظر كيف أوقع نفسه في أثناء ردّه على ابن المطهّر بما كان ينبغي ألّا يقع فيه:

٢ ــ نقل ابن المطهّر قصة راية خيبر كما أوجزناها آنفاً، فردّ ابن تيميّة قائلاً:

«بعد أن يقال: لعنةُ اللهِ على الكاذبين، يقال: من ذكر هذا من علماء النّقل؟ وأين إسناده وصحّته، وهو من الكذب؟»[(١)].

فإذا شدّك هذا النذير وهذا النكير، فانظر إلى ما قاله علماء النقل، وإلى صحّة إسناده، لترى أين هو الكذب الذي ستدور عليه تلك اللعنة:

قال علماء النقل: إنّ رسول الله بعث أبا بكر بالراية يوم خيبر فعاد ولم يصنع شيئاً، فأرسل بعده عمر فعاد ولم يفتح، فقال: «لأُعطيَنّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، لا يُخزيه الله أبداً، ولا يرجع حتّى يفتح عليه» وفي بعض النقول «كرّار غير فرّار». هذا ما نقله النسائي والحاكم والذهبي، ونقله كافّة أصحاب التاريخ والسير[(٢)]. فهو كالمُجمَع عليه عندهم.

وأمّا النصّ الذي اختاره الطبري والحاكم والذهبي، فبعد أن ذكروا أبا بكر ورجوعه بالراية، قالوا في عُمر: «فعاد يُجبّن أصحابه ويجبّنونه» وقال بصحّته الحاكم والذهبي، فقد جاء بإسناد صحيح رجاله رجال الصحيح[(٣)].

---

(١) منهاج السُنّة ٤: ١٧٥.

(٢) سنن النسائي ٥: ٨٤٠٢/١٠٩ كتاب الخصائص، المستدرك ٣: ٣٧ وتلخيصه للذهبي في ذيل الصفحة، سيرة ابن هشام ٣: ٢١٦ عن سيرة ابن إسحاق، تاريخ الطبري ٣: ٩٣، الكامل في التاريخ ٢: ٢١٩، أُسد الغابة ٤: ٢١، البداية والنهاية ٧: ٣٤٩، دلائل النبوّة للبيهقي ٤: ٢٠٩، حلية الأولياء ١: ٦٢، الروض الأُنُف ٦: ٥٠٧.

(٣) المستدرك وتلخيصه ٣: ٣٧، تاريخ الطبري ٣: ٩٣.

هذا الذي نقله أهل العلم بلا خلاف بينهم، ولا تظنّ أنّ شيئاً منه كان خافياً على الشيخ أبداً! ولكن لأمرٍ ما نفاه! والأمر معلوم ليس بخفي، فإقراره بهذا سينقض عقيدته في التفضيل رأساً على عَقِب، ولكن فاته كما فات الكثير ممّن لا يهمّه إلّا الانتصار لرأيه، فاتهم أنّ الحقّ سيبقى هو الحقّ سواء رضوا به أم صدّوا عنه وجحدوه.

٣ــ وأنكر كلّ شيءٍ يشهد لجهاد عليّ عليه السلام..

أنكر ما نزل في ذلك من القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

أنكر أن تكون هذه الآيات قد نزلت في فضل عليّ عليه السلام عند تفاخره بالسّبق في الإيمان والهجرة والجهاد وردّه على العبّاس وطلحة حين افتخرا بالسقاية وسدانة الكعبة، فقال: هذا لا يُعرف، ودلالات الكذب عليه ظاهرة[2].

والحديث رواه الخطيب من رواية عبدالرزّاق عن مَعمر[3]. ورواه أهمّ أصحاب التفاسير المعتمدة، منهم: الطبري، والبغوي، والقرطبي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن. رووه جميعاً عند تفسير هذه الآيات من سورة التوبة.

---

(١) التوبة ٩: ١٩ ــ ٢٢.

(٢) منهاج السُنّة ٣: ٥.

(٣) الأسماء المبهمة والأنباء المحكمة للخطيب: ٤٧٣.

لكنّه أنكر هذا كما أنكر جميع ما جاء في تفضيل عليّ عليه السلام حتّى المتواتر، والمتّفق على صحّته، كما رأيت في الفقرة السابقة (فضائل أهل البيت عليهم السلام).

٤ـ أبو بكر في جيش أُسامة:

لأجل أن يثبت أنّ أبا بكر رضي الله عنه هو الأعظم منزلةً والأعظم إيماناً وجهاداً لا بُدّ أن ينفي عنه كلّ ما يبعده عن هذه المنزلة، فبعد أن أنكر كون راية خيبر كانت عنده أوّلاً فهُزم بها، أنكر أن يكون أبو بكر جنديّاً في بعثة أُسامة التي جهّزها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيّام مرضه الذي توفّي فيه، وشدّد على سرعة إنفاذها فقال: «أنفذوا بعثة أُسامة» فتأخّروا لمّا ثقل بالنبيّ مرضه، فأكّد القول «أنفذوا بعثة أُسامة» فلمّا أحسّ منهم التباطؤ جعل يقول: «أنفذوا بعثة أُسامة» يكرّر ذلك[1]، وروى بعضهم أنّه قال: «لعن الله من تخلّف عنه»[2]. ولكن توفّي رسول الله ولم تنفذ البعثة.

ابن تيميّة يقول: وأبو بكر لم يكن في جيش أُسامة باتّفاق أهل العلم، لكن رويَ أنّ عمر كان فيهم[3].

فما هي حقيقة قول أهل العلم في هذا؟

قال أصحاب التاريخ في ذكر أُسامة: استعمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جيش فيه أبو بكر وعمر، قاله ابن سعد في الطبقات[4]، وقد شهد ابن تيميّة لابن سعد صاحب الطبقات أنّه من أهل العلم والثقة والاطّلاع والصدق في النقل[5].

---

(١) الطبقات الكبرى ٤: ٦٨، المغازي ٣: ١١١٩، تهذيب تاريخ دمشق ١: ١٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢: ٤٨٤، عيون الأثر ٢: ٣٥٢.

(٢) الملل والنحل ١: ٢٩.

(٣) منهاج السُنّة ٣: ٢١٣.

(٤) الطبقات الكبرى ٤: ٦٦ ترجمة أُسامة بن زيد.

(٥) رأس الحسين: ١٩٨.

وقاله ابن عساكر في (تاريخ دمشق) وهو منقول في (تهذيب تاريخ دمشق)[١] و (مختصر تاريخ دمشق)[٢].

وذكره اليعقوبي في تاريخه[٣]، وابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة)[٤]، وصاحب (تاريخ الخميس)[٥].

هؤلاء جميعاً ذكروا أنّ أبا بكر كان جنديّاً في جيش أُسامة، فعلى أيّ شيءٍ إذن كان اتّفاق أهل العلم؟

لقد كان اتّفاقهم كما رأيت على انّ أبا بكر وعمر كانا في جيش أُسامة الذي أمره النبيّ ﷺ بالخروج، وشدّد كثيراً على الإسراع بإنفاذه قبل وفاته ﷺ.

كما اتّفقوا على أنّ راية خيبر كانت أوّلاً عند أبي بكر فعاد بها ولم يفتح، ثمّ كانت بعده عند عمر فعاد بها ولم يصنع شيئاً، أو عاد يجبّن أصحابه ويجبّنونه كما رواه الطبري وصحّحه الحاكم والذهبي، واتّفقوا هُم وأصحاب الصحاح والسنن على أنّ النبيّ قال بعدهما: «لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، لا يُخزيه اللهُ أبداً، ولا يعود حتّى يفتح عليه» فلمّا أصبحوا، قال: «أين عليّ» فدعَوه وكان قد أصابه رمدٌ في عينيه، فداواهما النبيّ ﷺ بريقه الشريف ودعا له وأعطاه الراية فمضى بها ففتحَ عليهم حصنهم واقتلع باب الحصن بيده وألقاه جانباً[٦]، وقتل قائدهم (مرحباً) واقتحم عليهم الجيش الحصن فكان الفتح على يديه عليه السلام.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٢: ٣٩٥، ٣: ٢١٨.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٤: ٢٤٨ / ٢٣٧، ٥: ١٢٩ / ٥٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٧٧.

(٤) شرح نهج البلاغة ١: ١٥٩، ٢٢٠.

(٥) تاريخ الخميس ٢: ١٧٢.

(٦) شهد ابن تيميّة هنا بصحّة هذا الخبر.

على هذه الكلمات اتّفقوا، ونحن على يقين من أنّ الشيخ لم يخف عليه شيء منها، ولكن ما العمل وهو يريد أن ينتصر ؟ فحيث يمتنع عليه التأويل فلا بُدّ من التكذيب بكلّ شيء !

الفصل الرابع

عليّ (ع) والخِلافة

هل كان أحد من الصحابة يعلم أنّ لعليٍّ عليه السلام حقّاً في الخلافة، أو يرى أنّه أوْلى بها من غيره ؟

سؤالٌ ينبغي أن يُعرَض علىٰ سنن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى حقائق تاريخ الإسلام.

أمّا سنن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فقد رأينا كيف كان الكلام فيها.

وأمّا حقائق التاريخ فالمراد منها هنا تلك الأحداث التي تلت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فتمخّضت عن تعيين أوّل خليفة للمسلمين.

وهل يجهل أحد أحداث السقيفة ومقدّماتها، وردود الفعل إزاء نتائجها ؟!

هل غاب علىٰ أحد كيف تَسَرّب نبأ اجتماع بعض الأنصار هناك ؟ تلك الشرارة التي قدحت من نزاع الأوس والخزرج فيُبصرها عمر، فيدسّ بنبئِها سرّاً إلى أبي بكر ويأخذ بيده، فينسَلّا من بين جموع المؤمنين الحافّين بجثمان النبيّ، خاتم سفراء السماء، فيصحبها أبو عبيدة، فينطلق الثلاثة من المهاجرين لا غير إلى السقيفة، وينفذ الثلاثة أحكم نفوذ من خلال الفجوة التي أحدثها تنافر القطبين الأوس والخزرج، لتظهر فجأةً (البيعةُ الفلتةُ) لأوّل خليفة.

تعجّل عمر الأمر فالتفت إلى أبي عبيدة فقال له: ابسط يدك أُبايعك، فأنت

أمين هذه الأُمّة! فامتنع منها أبو عبيدة، فتحوّل عمر إلى أبي بكر فبسط يده وصفق عليها بالبيعة لخلافة رسول الله، أخطر أمرٍ يَعرفه الدين وتشهده الدنيا بعد غياب آخر النبيّين! فلمح الشيخ الأوسي أُسيد بن حُضير من بين الكفّين منفذاً للإجهاز على آخر آمال الطامح الخزرجي سعد بن عبادة، فقفز يسابق الزمن ليصفق بيديه على كفّيها، فيتدافع أتباعه وكلٌّ يريد أن يكون هو السابق، فوطئوا سعداً شيخهم، فتصايح بعضهم: قتلتم سعداً!

فجاءهم الصوت الذي لا يريد شيئاً إلّا إنجاز تلك البيعة في أسرع وقت: «قَتَلَ اللهُ سعداً» إنّه صوت عمر[1].

وتبدّدت عاصفة السقيفة، ولكن لتظهر في أرجاء مدينة الرسول في ألوان شتّى..

فأعداد من الصحابة يتجمّعون حَلَقاً حَلَقاً هنا وهناك، يمرّ بهم عمر فيقول: قوموا فبايعوا خليفة رسول الله!

وجماعة من الأنصار يعتصمون في أحيائهم فينطلق إليهم عبدالرحمٰن بن عوف يعاتبهم على تخلّفهم عن البيعة ويذكُر لهم حقّ قريش والمهاجرين، فيردّوا عليه قائلين: «إنّ ممّن سمّيت مِن قريش مَن إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: عليّ بن أبي طالب»!

وينطلق البراء بن عازب إلى فئةٍ ثالثة لا تدري إلى الآن بما يجري، منهمكةً بجثمان النبيّ ﷺ حافّةً به، فيقول: يا بني هاشم، بويع أبو بكر..

فيستغرب ذلك بعضهم فيقول: ما كان المسلمون يُحدِثونَ حَدَثاً نغيبُ عنه،

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الحدود ـ ٨: ٢٠٤ / ٢٥.

ونحن أوْلى بمحمّد!

لكنّ العبّاس عمّ النبيّ كان أعرف بقومه، فردّ قائلاً: فعلوها وربّ الكعبة!!

فمن قرأ التاريخ وقف على تفصيل ما وقع، ومن لم يقرأ لا يهديه عقله إلاّ إلى ما وقع.

لكنّ الشيخ ابن تيميّة ـ بالرغم ممّا قرأ وما يقوده إليه عقله ـ يتنكّر لكلّ ذلك كما تنكّر لسنن النبيّ الهادية إلى سبيل الرشاد، فيصوّر لك تلك البيعة وكأنّها كلمة إجماع، وكأنّ المسلمين جميعاً، أو المهاجرين والأنصار علىٰ الأقلّ اجتمعوا فرأوا أنّ الخليفة بعد النبيّ لا يكون إلاّ أبو بكر! ثمّ كأنّهم قد توصّلوا إلى هذا الاختيار من مجموع المناقب والمآثر التي أحصوها له فوجدوها قد فاقت ما أحصوه لغيره من أصحاب رسول الله، فهتفوا هتافاً واحداً باسم الخليفة المنتخب!

وليس في هذه المرّة فقط، بل مع خليفته أيضاً، ثمّ مع ثالث الخلفاء عثمان أيضاً، ففي كلّ ذلك يقول ابن تيميّة: كلّ من له خبرة بأحوال القوم يعلم علماً ضرورياً أنّه لم يكن مخاصمة في إمامة الثلاثة![1] «علماً ضرورياً» ما أقبح التكلّف وإقحام الكلام في غير محلّه!

ويقول: ولا كان بين المسلمين في زمنهم نزاع في الإمامة![2].

ويقول: لم ينازع قطّ أحدٌ من المسلمين في إمامة عثمان وخلافته، ولا تخاصم اثنان في أنّ غيره أحقّ بالإمامة منه، وكذلك أبو بكر وعمر![3].

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ٢١٧، ٢١٨.

(٢) منهاج السُنّة ٣: ٢١٥.

(٣) منهاج السُنّة ٣: ٢١٧.

هذا كلّه يقوله رجلٌ يقرأ في أصحّ الكتب عنده وأثبت الأسانيد لديه أنّ عليّاً عليه السلام وبني هاشم قاطبةً لم يبايعوا لأبي بكر ستّة أشهر حتّى توفّيت فاطمة الزهراء عليها السلام[1] اعتقاداً منهم بحقّ عليٍّ في الخلافة، اعتقاداً لا تشوبه شائبة!

فمن أنكر هذا الذي اتّفق عليه البخاري ومسلم كيف سيرضى بما نقله أصحاب التواريخ والسير وإن تواتر عندهم ؟!

فما هي قيمة الحقيقة إذا كانت لا تصبّ في ساقية الأُمراء! نعم، حتّى لو أقرّ بتلك الحقيقة عمر بنفسه، ونقلها عنه جميع من نقل أحاديث الإسلام وأحداثه، البخاري ومسلم وأصحاب السير، فهؤلاء جميعاً نقلوا خطبة عمر في أواخر خلافته، تلك الخطبة التاريخيّة التي صرّح فيها بأشياء من أسرار البيعة الأُولى في السقيفة، فوصف تلك البيعة بأنّها كانت (فلتةً) ولكن وقى الله شرّها، وشهد بتخلّف عليٍّ والزبير وبني هاشم عنها، وخلاف الأنصار فيها[2].

وأبو بكر أيضاً يشهد بذلك النزاع، ويُبطل دعوى الإجماع، فيقول في كلامه للعبّاس بعدما أشار عليه المغيرة بلقاء العبّاس الذي ما زال يرفض البيعة، فزاره هو وعمر وأبو عبيدة وصحبهم المغيرة، فتكلّم أبو بكر، إلى أن قال: فاختاروني ـ أي المؤمنين ـ عليهم والياً ولأُمورهم راعياً.. وما انفكّ يبلغني عن طاعنٍ يقول الخلاف على عامّة المسلمين، يتّخذكم لجأً فتكونون حصنه المنيع وخطبه البديع.

فأجابه العبّاس على كلّ كلامه حتّى قال له: وإن كان هذا الأمر إنّما وجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنّا كارهين.

---

(١) صحيح البخاري ـ باب غزوة خيبر ـ ٥: ٢٨٨ / ٢٥٦، صحيح مسلم ـ الجهاد والسير ـ ٣: ١٣٨٠ / ٥٢، السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٣٠٠، تاريخ الطبري ٣: ٢٠٢، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣١.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الحدود ـ ٨: ٣٠٢ / ٢٥، مسند أحمد ١: ٥٦، سيرة ابن هشام ٤: ٣٠٨ ـ ٣٠٩، تاريخ الطبري ٣: ٢٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٦.

وما أبعد قولك إنّهم طعنوا عليك، من قولك إنّهم اختاروك ومالوا إليك!(١).

فهذا الكلام مردودٌ أيضاً عند الشيخ وإن قاله عمر وأبو بكر لأنّه يخدش في تلك الصورة التي رسمها الشيخ للخلافة فأعمل فيها ريشته ليخرجها صورةً صافية من كلّ شائبة: فجميع الصحابة والتابعين كانوا يقولون: إنّ أبا بكر وعمر أفضل من عليّ، وحتّى الشيعة الّذين صحبوا عليّاً كانوا يقولون ذلك، وعليّ نفسه كان كذلك لا يعرف لنفسه فضيلة علىٰ أبي بكر أو عمر أو عثمان، ولا حقّ في الخلافة دونهم!(٢) ثمّ أضاف إلى هذه الصورة إجماعاً آخر يحسبُه زاد في صفائها ونضارتها، فقال: وأيضاً فإنّ الصحابة أجمعوا علىٰ أنّ عثمان أفضل من عليّ!(٣).

إجماع مزعوم، يتلوه آخر مثله، لا يعرف الصحابة ولا التابعون حرفاً منها، ولا استطاع أن يدعمها بنقل صحيح سوى ما نقله عن عبدالله بن عمر: إنّا كنّا نقول: أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ نسكت. وهذا مردود بما رواه البخاري عن عبدالله بن عمر وقد سُئل في زمن بني أُميّة عن عثمان وعليّ، فقال: أمّا عثمان فقد عفا الله عنه وكرهتم أن يعفوَ الله عنه، وأمّا عليّ فابن عمّ الرسول وخَتنه ـ وذكر محاسن عمله ثمّ أشار بيده وقال ـ: وهذا بيته في أوسط بيوت النبيّ(٤).

وفي هذا القول أكثر من إشارة إلى تفضيل عليّ عليه السلام، هذا مع كونه قد جفا عليّاً عليه السلام مدّة خلافته لكنّه ندم على ذلك وعلى عدم قتاله معه ندماً لم يندمه على شيء في حياته(٥).

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٥، شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٢١.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ١٣٨، ٣: ٢١٣، ٤: ٩٩.

(٣) منهاج السُنّة ٤: ١٠٢.

(٤) البخاري ٥: ٨٩ / ٢٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٢٩.

(٥) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٢٩.

ومع هذا فإنّ ابن تيميّة يقرأ كلام أبي ذرّ الغفاري في خطبته في المسجد النبوي أيّام عثمان بن عفّان فيؤنّب المسلمين فيها على تركهم عليّاً وأهل البيت عليهم السلام ويصرّح بتفضيلهم على غيرهم، يقرأ ذلك ثمّ يقول: إنّ هذا الكلام موقوفٌ على أبي ذرّ![1].

ترى ألم يكن أبو ذرّ من الصحابة الّذين تتحدّث عن إجماعهم، أم لم يكن كلامك الأوّل موقوفاً علىٰ عبدالله بن عمر ؟!

الصحابة والبيعة:

وإليك صورة عن ذلك الإجماع الذي يتحدّث عنه الشيخ:

ـ قال الأنصار أو بعض الأنصار: لا نُبايع إلّا عليّاً.

ـ وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتّى يُبايَعَ عليّ.

ـ وتخلّف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة[2].

ـ وانضمّ إلى بني هاشم في بيت عليّ: المقداد بن عمرو، وخالد بن سعيد، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبَيّ بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وابن التّيهان، وعبادة بن الصامت[3].

ففي هذه الجماعة التي تعتقد بحقّ عليّ عليه السلام في الخلافة وترفض البيعة لغيره:

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ١٧، ٤: ١٠٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٥، تاريخ الطبري ٣: ١٩٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٤، تاريخ أبي الفداء ٢: ٦٣، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٩، ٥٦، ٦: ١١، تاريخ ابن خلدون ٣: ٢١٤ ـ ٢١٥.

عليٌّ عليه السلام الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه». وقال فيه: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[(١)].

وهو عميد أهل البيت الّذين قال فيهم النبيّ مخاطباً المسلمين: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» «إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

وفيهم عمّار بن ياسر الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا اختلف الناسُ كان ابن سُميّة مع الحقّ»[(٢)].

وفيهم الأربعة الّذين أمر اللهُ بحبّهم وأخبر أنّه يحبّهم: «عليّ، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان»[(٣)].

وفيهم حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله[(٤)].

ـ وبعد: الفضل بن العبّاس يقوم خطيباً فيقول: يا معشر قريش، إنّه ما حقّت لكم الخلافة بالتمويه! ونحنُ أهلُها دونكم وصاحبنا أَوْلى بها منكم[(٥)].

ـ وعُتبة بن أبي لهب يُنشد فيهم:

---

(١) صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي: المستدرك ٣: ١٢٤، وقد تقدّم في الفصل السابق.

(٢) سير أعلام النبلاء ١: ٤١٦، وأخرج نحوه الحاكم عن حذيفة بن اليمان وقد سُئل عن الفتن فقال: «انظروا الفئة التي فيها ابن سميّة ـ عمّار ـ فاتبعوه فإنّه يدور مع كتاب الله حيثما دار» وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي: المستدرك ٣: ٣٩١.

(٣) سنن الترمذي ٥: ٦٣٦ / ٣٧١٨، سنن ابن ماجة ١: ٥٣ / ١٤٩، مسند أحمد ٥: ٣٥١.

(٤) سيأتي في هذا الفصل كلامه في الخلافة.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٤، وقوله: صاحبنا، يعني علياً عليه السلام.

ما كنتُ أحسبُ أنّ الأمرَ منصرِفٌ — عن هاشمٍ ثمّ منها عن أبي الحسنِ
عن أوّل الناس إيماناً وسابقةً — وأعلم الناس بالقرآن والسننِ (١)

ـ وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في عليّ (٢).

أهل البيت والبيعة:

موقف أهل البيت ﷺ من البيعة يرسم لك الحدث على صورته الحقيقيّة:

أهل البيت وبنو هاشم وجمع من المهاجرين والأنصار يعتصمون في بيت عليّ ﷺ احتجاجاً علىٰ نتائج السقيفة، وإصراراً علىٰ البيعة لعليّ أوْلى الناس بهذا الأمر.. ويأتيهم عمر بجمع مسلّح ممّن معه فيدعوهم للخروج للبيعة، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب، وقال: والذي نفسُ عمر بيده لتخرجنّ أو لأُحَرِّقنّها علىٰ من فيها..

فقيل له: إنّ فيها فاطمة!

فقال: وإن!!

وأتى داعي الخليفة الجديد إلى عليّ ﷺ، فقال: يدعوك خليفة رسول الله.

فقال عليّ ﷺ: «لسريع ما كذبتم علىٰ رسول الله».

فرجع الداعي إلى أبي بكر فأبلغه، فبكى أبو بكر طويلاً، فقال عمر: لا تمهل هذا المتخلّف عنك في البيعة! فبعث رسوله إليه ثانيةً، فقال: خليفة رسول الله

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٤، الاستيعاب ٣: ٥٥٠ ترجمة النعمان بن العجلان، شرح ابن أبي الحديد ٦: ٢١.

يدعوك لتبايع.

فقال عليّ عليه السلام: «سبحان الله! لقد ادّعى ما ليس له».

فرجع الرسول وأبلغ الرسالة، فبكى أبو بكر طويلاً، فقام عمر ومشى معه جماعة حتّى أتوا باب فاطمة فدقّوا الباب، فلمّا سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: «يا أبتِ، يارسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطّاب وابن أبي قحافة ؟!».

فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تنصدع وأكبادهم تنفطر، إلّا عمر! بقي عمر فبقي معه بعضهم، فأخرجوا عليّاً ومضوا به إلى أبي بكر، فقال له: بايع. فقال: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أُبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي».

فقيل له: لستَ متروكاً حتّى تُبايع.

فقال: «إن أنا لم أفعل فَمَ ؟!».

قالوا: إذن والله الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك !!

فقال: «إذن تقتلون عبدالله وأخا رسوله !».

فقال عمر: أمّا عبدالله فَنَعم، وأما أخو رسوله فلا ! وأبو بكر ساكت، فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك ؟!

فقال: لا أُكرهه علىٰ شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه !

فلحق عليّ بقبر رسول الله يصيح وينادي: ﴿ *ابنَ أُمَّ إنَّ القَومَ استَضعَفونى*

وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ ![1].

وأتى الرجلان أبو بكر وعمر فاطمةَ يلتمسان رضاها، فقالت لهما: نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: «رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟!».

قالا: نعم سمعناه من رسول الله.

قالت: فإنّي أُشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيتُ النبيّ لأشكونّكما إليه[2].

فما زالت غضبىٰ عليهما حتّى توفّيت، ولم يبايع عليٌّ ولا أحد من بني هاشم ستّة أشهر حتّى توفّيت فاطمة[3].

تلك هي صورة البيعة التي لم ينازع فيها أحد !!

ابن عبّاس يُجهز على دعوىٰ الإجماع:

أيّ إجماع هذا الذي أبكى ابن عبّاس ـ حبر الأُمّة ـ حتّى بلّ دمعه الحصىٰ !

أيّ إجماع هذا الذي يصفه ابن عبّاس بأنّه الرزيّة كلّ الرزيّة ؟!

البخاري ومسلم وأصحاب السنن والتاريخ ينقلون توجُّع ابن عبّاس وهو

(١) الإمامة والسياسة: ١٢ ـ ١٣، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٦، ٦: ١١، الفتوح لابن أعثم ١: ١٣، أعلام النساء ٤: ١١٤ ـ ١١٥، تاريخ اليعقوبي ـ مختصراً ـ ٢: ١٢٦.

(٢) الإمامة والسياسة: ١٣.

(٣) صحيح البخاري ٥: ٢٨٨ / ٢٥٦، صحيح مسلم ٣: ١٣٨٠ / ٥٢، وقد تقدّم.

يقول: «يوم الخميس وما يوم الخميس» ثمّ بكى حتّى بلّ دمعه الحصى.

فقيل له: يابن عبّاس، وما يوم الخميس؟!

قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي» فتنازعوا، وما ينبغي عند نبيّ تنازع، وقالوا: ما شأنه، أهَجَر؟ استفهموه!!

فقال: «دعوني، فالذي أنا فيه خير» فكان ابن عبّاس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[1].

فلأيّ شيءٍ ذاك البكاء وتلك الرزيّة لو كان الصحابة قد وُفّقوا إلى ما كان يريده النبيّ ﷺ؟! ولأيّ شيءٍ هذا التوجّع لو كان هناك رائحة للإجماع؟!

عمر يُفصِح عن السرّ:

ابن عبّاس ينتزع السرّ من صدر عمر أكثر من مرّة!

قال ابن عبّاس: إنّي لأُماشي عمر في المدينة إذ قال لي: يابن عبّاس، ما أرى صاحبك إلّا مظلوماً.

فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها. فقلت له: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظُلامته! فانتزع يده من يدي ومضى يُهمهم ساعةً ثمّ وقف فلحقتُه، فقال: يا بن عباس ما أظنّهم منعهم عنه إلّا أن استصغره قومه!

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المرضى ـ ٧: ٢١٩ / ٣٠، صحيح مسلم ٣: ١٢٥٧ / ١٦٣٧ و ١٢٥٩ / ٢٢، مسند أحمد ١: ٢٢٢، مسند أبي يعلى ٤: ٢٩٨/ ٢٤٠٩، تاريخ الطبري ٣: ١٩٣، الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٠، البداية والنهاية ٥: ٢٠٠.

فقلتُ في نفسي: هذه شرٌّ من الأُولى، فقلتُ: والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك![1].

إذن فحقّ الخلافة لعليّ، ولم يُبايَع أبو بكر لفضيلةٍ تميّز بها! إنّما القوم استصغروا عليّاً كما ظنّ عمر هنا!

ولكنّه في مرّة أُخرى يكشف لابن عبّاس عن سرّ البيعة مفصّلاً، فيقول: أتدري ما منع الناس منكم؟

قال ابن عبّاس: لا.

قال عمر: لكنّي أدري.

قال ابن عبّاس: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: كرهت قُريش أن تجتمع فيكم النبوّة والخلافة فتجخَفوا جَخْفاً[2]، فنظرتْ قريش لنفسها فاختارت، ووفّقت فأصابت!

قال ابن عبّاس: أَتُميطُ عنّي أمير المؤمنين غضبه فيسمع؟

قال: قل ما تشاء.

قال: أمّا قولك: إنّ قريشاً كرهت، فإنّ الله تعالىٰ قال لقوم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٦: ٤٥، ١٢: ٤٦ عن الزبير بن بكّار في كتابه (الموفّقيّات). وآيات سورة براءة بعث بها النبيّ مع أبي بكر يلقّنها على الحاجّ، ثمّ بعث خلفه عليّاً وأمره أن يأخذها منه ويردّ أبا بكر، فرجع أبو بكر إلى النبيّ فقال له: أنزَلَ فيّ شيء يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لا، ولكن أُمرت أن لا يُبلّغ عنّي إلّا أنا أو رجلٌ منّي» راجع مسند أحمد ١: ٣، ٣٣١ و٣: ٢١٢، ٢٨٣ و٤: ١٦٤، ١٦٥، سنن الترمذي ٥: ٦٣٦/ ٣٧١٩، الخصائص للنسائي: ٢٠، جامع الأُصول ٩: ٤٧٥/ ٦٤٩٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ٧٦، مجمع الزوائد ٩: ١١٩، الجامع الصغير ٢: ١٧٧/ ٥٥٩٥، البداية والنهاية ٧: ٣٥٠، ٣٧٠، المستدرك ٣: ١٣٢ ـ ١٣٤، الإصابة ٤: ٢٧٠.

(٢) جَخَفَ: تكبّر.

كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾[١]

وأمّا قولك: إنّا كنا نجخف، فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقّة من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال فيه الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢]، وقال له: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وأمّا قولك: فإنّ قريشاً اختارت، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[٤]، وقد علمت يا أمير المؤمنين أنّ الله اختار من خلقِه لذلك مَن اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر اللهُ لها لوُفِّقت وأصابت.

ثمّ قال: وأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو، ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله، واحتجّت قريش علىٰ سائرالعرب بحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فنحنُ أحقّ برسول الله من سائر قريش.

هذا الكلام رواه الطبري وابن الأثير وغيرهم[٥].

إذن فإنّ الله قد اختار لهذا الأمر مِن خلقه مَن اختار، وأمير المؤمنين ـ عمر ـ كان عالماً بهذا عارفاً بصاحب الحقّ المُختار، ولكن كرهت قريش ما اختاره الله ورسوله فاختارت لنفسها !!

بنود السقيفة شاهدة بحقّ عليّ عليه السلام:

دخل الثلاثةُ من المهاجرين سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع بعض الأنصار

---

(١) محمّد ٤٧: ٩.

(٢) القلم ٦٨: ٤.

(٣) الشعراء ٢٦: ٢١٥.

(٤) القصص ٢٨: ٦٨.

(٥) تاريخ الطبري ٥: ٣١، الكامل في التاريخ ٣: ٦٣ ـ ٦٥، شرح ابن أبي الحديد ١٢: ٥٣ ـ ٥٤.

يتداولون أمر الخلافة ويذكرون فضائلهم ونصرتهم للنبيّ وللمهاجرين ذريعةً إلى حيازة الخلافة، فبمَ احتجّ عليهم المهاجرون ؟

قال عمر بن الخطّاب: كنت زوّرتُ كلاماً أقوله لهم، فلمّا دنوتُ أقولُ أسكتني أبو بكر وتكلّم بكلّ ما أردتُ أن أقول!

فماذا قال أبو بكر ؟

يواصل عمر نقل الخبر من داخل السقيفة فيقول: فتكلّم أبو بكر فحمد الله وذكر نبيّه ثمّ قال: فخصّ الله المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه... فهم أوّل مَن عَبَدَالله في هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلّا ظالم!

ـ هذه هي حجّة أبي بكر: المهاجرون الأوّلون من قومه هم أولياؤه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر بعده، لا ينازعهم إلّا ظالم!

فتكلّم أحد الأنصار يحثّ أصحابه على التمسّك بكلمتهم وعدم تسليم الأمر للمهاجرين، فيردّ عليه عمر هذه المرّة منتصراً بحجّته التي لم يأت بغيرها، فما كانت حجّته ؟!

قال عمر: فقلتُ: هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد، والله لا ترضى العرب أن تؤمّركم ونبيّنا من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولّي أمرها مَن كانت النبوّة فيهم، ولنا بذلك الحجّة الظاهرة، مَن نازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته إلّا مُدلٍ بباطلٍ، أو متجانفٍ لإثمٍ، أو متورّط في هَلَكة !!

هذه هي حجّة عمر، الحجّة الظاهرة: سلطان محمّد في أوليائه وعشيرته الّذين كانت النبوّة فيهم، لا ينازعهم عليه إلّا مبطل آثمٌ متورّط في هَلَكة!

فتكلّم بعدُ بشير بن سعد ـ من زعماء الأنصار ـ فقال: يا معشر الأنصار، إنّا والله وإن كنّا أُولي فضيلةٍ وسابقة في الدين، إلّا أنّ محمّداً من قريش، وقومه أوْلى بـه، وايمُ الله لا يـراني اللهُ أُنازعهم هذا الأمر أبداً[١].

وهكذا تمّت بنود السقيفة وعقدت البيعة عـلى أسـاسها: قـوم محـمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأولياؤه وعشيرته أوْلى به، لا ينازعهم على ذلك إلّا ظالم مبطل آثمٌ متورّط في هَلَكة !!

فهل نطقت هذه البنود بشيء إلّا وعليّ عليه السلام أوْلى به من سائر الناس ؟!

إنّها بيعة صريحة لعليّ بن أبي طـالب لو أُذِنَ لهـا أن تـتمّ، ولكـن تـعجّلها المتعاقدون علىٰ الخلافة قبل أن يأذنوا بفرصةٍ يراجع فيها القوم أنفسهم ليروا من هو الرجل الذي تجتمع فيه هذه الشرائط علىٰ أتمّها بلا منازع.

ومن هنا لمّا خاصمهم عليّ عليه السلام فقال: الله الله يا معشر المهاجرين، لا تُخرجوا سلطان محمّد عَن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحنُ أحقّ الناس به، لأنّا أهل البيت، ونحنُ أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا: القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله المضطلع بأمر الرعيّة، القاسم بينهم بالسويّة، والله إنّه لفينا فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحقّ بعداً.

فلمّا سمعوا منه هذا الكلام قال بشير بن سعد الأنصاري ـ الذي أقـرّ بـنود السقيفة ـ: لو كان هذا الكلام سمِعَتْهُ الأنصارُ منك قبل بيعتها لأبي بكر ما اخـتلف عليك اثنان[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٩ ـ ٣٣٠، الإمامة والسياسة: ١٢ ـ ١٦.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٢.

ووفقاً لهذه البنود خاصمهم عليّ ﷺ، فقال لأبي بكر حين دعاه للبيعة: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ ﷺ وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً!»[١]

وقال:

فإن كنتَ بالشورى ملكتَ أُمورَهم ... فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقُربى حججتَ خَصيمهم ... فغيرُك أولى بالنبيّ وأقربُ[٢]

وقال لمّا بلغته أخبار السقيفة: ما قالت الأنصار؟

قالوا: قالت: منّا أمير ومنكم أمير.

فقال ﷺ: فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله ﷺ وصّى بأن يُحْسَن إلى مُحسِنهم ويُتجاوز عن مُسيئهم؟!

قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟!

قال: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصيّة بهم

ثمّ قال ﷺ: فماذا قالت قريش؟

قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول ﷺ.

فقال ﷺ: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثّمَرة![٣].

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١١، شرح ابن أبي الحديد ٦: ١١.

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ قسم الحكم: ٥٠٢ / ١٩٠.

(٣) نهج البلاغة: ٩٧ الخطبة ٦٧.

هكذا شهدت بنود السقيفة بحقّ عليّ في الخلافة بلا منازع.

مصير بنود السقيفة:

إن كانت بنود السقيفة لم تبلغ منتهاها في أوّل الأمر بل توقّفت عند (قريش) الدائرة الكبرى في عشيرة النبيّ دون أن تأخذ طريقها إلى قلب الدائرة ومجتمع شرائطها ـ أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنّها قد لقت حتفها علىٰ يد منشئها الأوّل آخر الأمر!

توفّي أبو بكر، وتوفّي أبو عبيدة، وبقي قائد الثلاثة إلى السقيفة عمر، فلمّا أشرف علىٰ الوفاة ترحّم علىٰ رفيقه الماضي أبي بكر إذ ترك له حجّة يستطيع أن يتّكئ عليها فيوصي لمن يشاء بالخلافة بعده، فتذكّر رفيقه الثاني أبا عبيدة، فقال: لو كان أبو عبيدة حيّاً لولّيته.

فلمّا لم يجد أبا عبيدة حيّاً رجع إلى بنود السقيفة فنقضها علانيةً وكأنّه لم يقل بحرف منها ولم يسمع من صاحبيه منها حرفاً، فقال: لو كان سالم مولى أبي حُذيفة حيّاً لولّيته!

وسالمٌ مولىً، لا هو من قريش ولا تربطه بقريش صلة، فكيف استحقّ الخلافة وفي قريش رجالها القادرون علىٰ الأمر؟! هل سترتضي قريش ذلك؟!

تنهّدَ مرّة أُخرى ثمّ قال: لو كان معاذ بن جبل حيّاً لولّيتُهُ![1].

ومعاذ بن جبل من الأنصار الّذين أغار عليهم عمر في السقيفة يحاججهم بحقّ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٥: ٣٤، الكامل في التاريخ ٣: ٦٥، صفة الصفوة ١: ٣٦٧، ٣٨٣، ٤٩٤، منتخب كنز العمّال بهامش مسند أحمد ٢: ١٨٨.

المهاجرين وحقّ قريش فقال: (ولنا بذلك الحجّة الظاهرة، مَن نازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته إلّا مدلٍ بباطل أو متجانفٍ لإثم أو متورّط في هَلَكة!).

فكيف أصبح صاحب تلك الحجّة الظاهرة علىٰ الأنصار يعيد إليهم الخلافة بنفسه؟!

فهل ترى من هذا أنّ بنود السقيفة كانت عقيدةً وديناً، أم أنّها ذريعة فقط لانتزاع الخلافة؟!

أيّاً كانت تلك البنود فقد لقت حتفها علىٰ هذه الطريقة علىٰ يد منشئها الأوّل والمُمهّد لها والقائد إليها.

كلمة واحدة تكفأ الميزان:

إنّها كلمة «نعم»، أو إشارة بالقَبول لو صدرت من أبي عبيدة حين ابتدأ به عمر في السقيفة، لكانت قد غيّرت ميزان ابن تيميّة بالكامل.

ولو أنّ أبا عبيدة أشار بيده إشارة القبول، أو قال: «نعم» لوجدته أفضل هذه الأُمّة بعد نبيّها، ولوجدت أنّ كلمة الإجماع تلتقي عند البيعة له، ولوجدت كلّ ما تقرأه من (أحاديث) في تفضيل أبي بكر قد دارت عنه إلى أبي عبيدة!

كلمة واحدة كانت قادرة علىٰ تغيير التاريخ، بل وتغيير كمٍّ كبير من أحاديث الفضائل بلا ريب، لأنّه حين يُبايَع بالخلافة فسوف يكون الأفضل علىٰ هذه الطريقة، ومن لم يقل أنّه أفضل الصحابة فقد أزرى علىٰ المهاجرين والأنصار!

فهكذا قضى ابن تيميّة علىٰ من قال بتفضيل عليّ علىٰ عثمان، يقول: من جعل

عليّاً أفضل من عثمان فقد أزرى علىٰ المهاجرين والأنصار[١].

إذن هي كلمة «نعم» لو قالها أبو عبيدة حين قال له عمر: ابسط يدك أُبايعك، لأصبح بها أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان بلا نزاع!

ويوم أشرف عمر علىٰ الوفاة ألم يقل: لو كان أبو عبيدة حيّاً لولّيتهُ؟[٢] إذن لو كان حيّاً لأصبح أفضل من عثمان، ومَن فضّل عثمان عليه فقد أزرى على المهاجرين والأنصار!

هذه هي قاعدة التفضيل عند الشيخ، وعلى هذه القاعدة صيغت أحاديث الفضائل التي تقرأها اليوم..

يقول الإمام محمّد الباقر بن عليّ بن الحُسين عليهما السلام: «وجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقُضاة السوء وعمّال السوء في كلّ بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة... حتّى صار الرجل الذي يذكر بالخير، ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً، يحدّث بأحاديث عظيمةً عجيبةً من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلُق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت وقعت، وهو يحسب أنّها حقّ لكثرة من رواها ممّن لم يُعرَف بالكذب ولا بقلّة ورع»[٣].

وقال نفطويه محمّد بن عَرَفة: إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة اختُلِقت في أيّام بني أُميّة تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يُرغِمون بهِ أُنوف بني هاشم[٤].

---

(١) العقود الدرّية: ٢٠٩.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٣٤، الكامل في التاريخ ٣: ٦٥، صفة الصفوة ١: ٢٦٧.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١١: ٤٤.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١١: ٤٦ عن تاريخ نفطويه.

وقال المدائني: كتب معاوية إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

وكتب إليهم: أن انظروا مَن قِبَلَكُم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل بيته والّذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم واكتبوا لي بكل ما يروي كلّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

قال: ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه عليهم في العرب والموالي، وكثر ذلك في كلّ مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عمّاله: إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجهٍ وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وشيعته!

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها... حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى الديّانين الّذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها[1].

إذن هذا الكمّ الهائل من الأحاديث الموضوعة في فضائل الخلفاء الأوّلين مَن سيكون أوْلى به من أبي عبيدة لو أشار بيده، أو قال «نعم»؟

---

(١) ابن أبي الحديد ١١: ٤٤ ـ ٤٦ عن كتاب (الأحداث) للمدائني.

ذاك كلّ ما بنى عليه عقيدته في الخلافة والتفضيل.. سرابٌ توهّم إلى حدّ اليقين أنّه الماء، فظنّ أنّ الماء الذي أدار له ظهره سراباً! فتعصّب لهذا (اليقين الوهم) أيّما تعصّب، فكذّب بكلّ ما يقوّضه من حقائق الدين والتاريخ، غروراً بسرابٍ كذبٍ ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[1] وجحوداً بماءٍ فراتٍ عذبٍ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[2].

الصحابة والتفضيل:

لم يعرف الصحابة شيئاً ممّا رسمه ابن تيميّة في لوحته، لم يعرفوا ما وصفه من إجماع علىٰ تفضيل أبي بكر، وأنّ أبا بكر وعمر وعثمان أفضل من عليّ.

لم يعرف الصحابة ذلك، ولا عرفه عمر نفسه يوم وقف في السقيفة بين أبي بكر وأبي عبيدة فأدار ظهره لأبي بكر، ومدّ يده لأبي عبيدة قائلاً: ابسط يدك أُبايعك فأنت أمين هذه الأمّة!.

لم يعرف عمر آنذاك أنّ أبا بكر كان أفضل من أبي عبيدة، ولا أوْلى منه بالخلافة.

هذا، مع أنّ عمر هو أكثر الصحابة تقديماً لأبي بكر، وهو الذي رأى فيه رأيه وقاده إلى السقيفة، ولولا ذلك لكان كلّ شيءٍ قد تغيّر، فغيره من الصحابة إذن أوْلى أن لا يعرف هذا لأبي بكر.

لقد كان ابن حزم أكثر دقّةً وأقرب إلى الصواب بكثير حين تكلّم في

---

(١) النور ٢٤: ٣٩.

(٢) الانبياء ٢١. ٣٠.

التفضيل، فهو وإن كان شديد الحماس في نصرة رأيه، إلّا أنّه لم يتنكّر لكلّ ما ثبت في خلافه، فقال في مستهلّ كلامه: ذهب بعض أهل السُنّة، وبعض المعتزلة وبعض المرجئة وجميع الشيعة إلى أنّ أفضل الأُمّة بعد رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب.

قال: وقد روينا هذا القول نصّاً عن بعض الصحابة (رضي الله عنهم) وعن جماعة من التابعين والفقهاء..

وقال: وروينا عن نحو عشرين من الصحابة أنّ أكرم الناس على رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب[١].

فهل كان ذاك الإجماع إلّا أمانيّ !!

أمّا معاوية بن أبي سفيان فقد أقرّ إجماعاً معكوساً ! فكتب يخاطب محمّد بن أبي بكر: قد كنّا وأبوك معنا في حياة نبيّنا نرىٰ حقّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرّزاً علينا، فلمّا اختار الله لنبيّه ما عنده قبَضَهُ إليه، فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه وخالفه، علىٰ ذلك اتّفقا واتّسقا !![٢].

وهذا الإجماع الذي أقرّه معاوية هنا هو عند حبر الأُمّة عبدالله بن عبّاس عقيدةٌ راسخة، وجزمٌ لا تردّد فيه، وسيرته كلّها شاهدة بذلك، ثمّ هو القائل في مجلس معاوية: كان والله عليٌّ عَلَم الهدى، وكهف التقى.. خير من آمن واتّقى، وأفضل من تقمّص وارتدى، وأبرّ من انتعل وسعى.. وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبيّ المصطفى، وهو أبو السبطين، فهل يقارنه بشر ؟!.. فعلى من انتقصه لعنةُ الله والعباد إلى يوم التناد[٣].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ١١١.
(٢) مروج الذهب ٣: ١٢ ـ ١٣، وقعة صفّين: ١١٨ ـ ١٢٠، شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٨٨.
(٣) مروج الذهب ٣: ٦٣.

ومع هذا يقول ابن تيميّة: مَن عرف حال ابن عبّاس علم أنّه كان يفضّل أبا بكر وعمر على عليّ![1].

ويقول: ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقدّمهما علىٰ جميع الصحابة![2].

ابن تيميّة ينقض غزله:

أوّلاً: إذا كان هناك قد أطلق الإجماع علىٰ تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان، وأنّ أحداً لم ينازع فيه، فهو يتراجع هنا فيجعل هذا الموضوع محلّ نزاع بين المسلمين منذ عهد الصحابة الأوّلين!

فحين يقول ابن المطهّر: عليّ بن أبي طالب كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن تيميّة في جوابه: إنّها دعوى مجرّدة تنازع فيها جمهور المسلمين من الأوّلين والآخرين![3].

وثانياً: يقول: فإن قيل: إذا كان ما صحّ من فضائل عليّ عليه السلام كقوله: «لأُعطينَّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله» وقوله: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى» وقوله: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» ليس من خصائص عليّ، بل له فيه شركاء[4]، فلماذا تمنّى

(١) منهاج السنه ٣: ٢١٣.
(٢) منهاج السُنّة ٤: ٩٨.
(٣) منهاج السُنّة ٢: ١١٩.
(٤) الذي قال بهذا هو ابن تيميّة، قاله تقليداً للجاحظ وابن حزم، ثمّ علم أنّه سيرد عليه إشكال فذكر هذا الإشكال بعده ثمّ أجاب عنه بجواب سينقض فيه حجّته بنفسه.

بعض الصحابة أن يكون له ذلك كما روي عن سعد بن أبي وقّاص وعمر بن الخطّاب ؟!

فالجواب : إنّ في ذلك شهادة النبيّ ﷺ لعليّ بإيمانه باطناً وظاهراً، وإثباته لموالاته لله ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له[1].

إذن كان عمر وغيره من الصحابة يتمنّون أن تكون لهم واحدة من خصائص عليّ، ويتمنّون لو أنّ النبيّ ﷺ قد شهد لهم بفضيلة واحدة ممّا شهد به لعليّ، أليس في هذا إقرار منهم بأنّ علياً ﷺ هو الأفضل ؟! وهل يكون الإقرار غير هذا ؟!

وثالثاً : لم يقف الشيخ عند هذا القدر من الإقرار بالتنازع، وبالشهادة لعليّ وحده بكمال الإيمان ظاهراً وباطناً، بل يذهب في موضع آخر إلى نقيض عقيدته تلك في التفضيل تماماً ! فيستدلّ بأحاديث صحاح على أنّ أهل البيت ﷺ أفضل من سائر المسلمين، وأنّ أوّلهم بعد النبيّ هو عليّ ﷺ !

هكذا استجّ الشيخ مرّةً لم يكن فيها منشغلاً بالدفاع عن المذهب، بل كان مسترسلاً في حديث ساقه إلى ذكر بني هاشم، فقال :

إنّ بني هاشم أفضل قريش، وقريشاً أفضل العرب، والعرب أفضل بني آدم، كما صحّ ذلك عن النبيّ ﷺ قوله في الحديث الصحيح : «إنّ الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قُريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش».

وفي صحيح مسلم عنه أنّه قال يوم غدير خمّ : «أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي».

---

(١) منهاج السُنّة ٣ : ١١ ـ ١٢.

وفي السنن: أنّه شكا إليه العبّاس أنّ بعض قُريش يحقّرُونَهم، فقال:

«والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنّة حتّى يحبّوكم لله ولقرابتي».

قال: وإذا كانوا أفضل الخلائق فلا ريب أنّ أعمالهم أفضل الأعمال! وكان أفضلهم رسول الله الذي لا عدل له من البشر.

ففاضلهم أفضل من كلّ فاضل من سائر قبائل قريش والعرب، بل وبني إسرائيل وغيرهم.

ثمّ عليّ، وحمزة، وجعفر، وعبيدة بن الحارث، هم من السابقين الأوّلين من المهاجرين، فهم أفضل من الطبقة الثانية من سائر القبائل، ولهذا لمّا كان يوم بدر أمرهم النبيّ بالمبارزة[1].

وهل بعد هذا الإقرار إقرار: «ففاضلهم أفضل من كلّ فاضل من سائر قبائل قريش والعرب، بل وبني إسرائيل وغيرهم»، «وإذا كانوا أفضل الخلائق فلا ريب أنّ أعمالهم أفضل الأعمال».

فعليه إذن أن يقول بتخطئة من خالف هذا القول في التفضيل، لأنّه تفضيلٌ ربّانيّ واصطفاء إلٰهي، ولكنّه علىٰ العكس ذهب يحرّم القول بهذا التفضيل ويردّ عليه جاعلاً القول به إزراءً علىٰ الصحابة الّذين قدّموا عثمان، فكيف بتفضيله علىٰ أبي بكر وعمر؟! ناسياً أنّه قد ردّ بذلك علىٰ الاصطفاء الإلٰهي والتفضيل النبويّ لأهل البيت.

تُرى هل يكون قول عدد من الصحابة مقدّماً علىٰ قول الله ورسوله؟! فإذا

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٠ ـ ٢٠١ مطبوع مع (استشهاد الحسين) للطبري، بتحقيق د. السيّد الجميلي ـ دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤٠٦ هـ.

تعارض القولان فأيّهما نأخذ ؟! هل يصحّ أن يكون هذا موضوعاً لسؤال يتنازع فيه المسلمون ؟!

أيُرَدُّ قولُ الله ورسوله بقول صحابي، أو حتّى بإجماع الصحابة الذي يتخيّله الشيخ ؟!

أم بعد هذا تسأل عن عجب ؟!

لا محلّ للمفاضلة:

إنّ نصوص القرآن والسنّة قاطعة بانتفاء أوجه المقابلة والمفاضلة بين عليّ وغيره من الصحابة.

ـ فعليّ قضى له الله تعالى بالطهارة في آية التطهير، وخصّه النبيّ بها في حديث الكساء.

ـ وعليّ وليّ المؤمنين في آية الولاية من سورة المائدة: ﴿ *إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ* ﴾[١].

وفي خطبة الغدير: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ مَن ولاه وعادِ مَن عاداه» فكلّهم داخلون في ولايته.

ـ وكلّهم مأمورون بالتمسّك بطاعته وولايته بنصّ خطبة الغدير أيضاً: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» وتمسّكهم بولايته شرط للهداية والأمان من الضلال كما في قوله ﷺ: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا

---

(١) المائدة ٥: ٥٥.

بعدي: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي».

مع عشرات من النصوص الأُخرى الثابتة في وجوب طاعته[١].

وهل أبقى حديث راية خيبر موضعاً للمقايسة ؟![٢].

وأيّ محلّ للمفاضلة بين أوّل من يجثو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة وبين غيره ؟!

روى البخاري عن عليّ عليه السلام قال: «أنا أوّل مَن يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة»[٣]. وروى غيره قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «أوّل هذه الأُمّة وروداً علىٰ نبيّها أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب»[٤].

وبعد، فهذا قول عليّ عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، وهم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة»[٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نحن بنو عبدالمطّلب سادة أهل الجنّة: أنا وحمزة وعليّ وجعفر والحسن والحسين والمهديّ»[٦].

---

(١) راجع فقرة (مع فضائل أهل البيت) من هذا الباب.

(٢) راجع فقرة (مع جهاد عليّ) من هذا الباب.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير: سورة الحجّ / ٤٤٦٧.

(٤) صحّحه الحاكم والذهبي في المستدرك ٣: ١٣٦ وتلخيصه، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٢ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، وهو في تاريخ بغداد ٢: ٨١، والاستيعاب بثلاث طرق ٣: ٢٧ ـ ٢٨، وأُسد الغابة ٤: ١٨.

(٥) نهج البلاغة: القسم الأخير من الخطبة رقم ٢.

(٦) سنن ابن ماجة ٢ ح/٤٠٨٧.

سلمان وصهيب وبلال أفضل أم أبو بكر؟:

لا أُريد من وراء هذه المفاضلة إلّا الدعوة إلىٰ التحرّر من تقليد كلّ ما صنعه التاريخ، فليس من الضروري أن يكون التاريخ منصفاً في كلّ شيء..

أخرج مسلم في صحيحه: أنّ سلمان وصهيباً وبلالاً كانوا قُعوداً فمرّ بهم أبو سفيان، فقالوا: ما أَخَذَتْ سيوفُ اللهِ من عُنق عدوّ الله مأخذها.

فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قُريش وسيّدها؟! فأخبرَ النبيّ ﷺ بذلك، فقال له النبيّ ﷺ: «يا أبا بكر، لعلّك أغضبتهم؟! لئن أغضبتهم لقد أغضبتَ ربّك»[(١)].

وفي هؤلاء الثلاثة وخبّاب معهم نزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[(٢)]، وفي أبي بكر وعمر نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[(٣)]، فأيّ الفريقين أولىٰ بالتفضيل؟!

خاتمة القول علىٰ لسان عليّ عليه السلام:

إنّ لعليّ عليه السلام عشرات من البيانات والخطب يضع فيها القول الفصل في أمر

(١) صحيح مسلم ٤: ١٩٤٧ / ١٧٠، مصابيح السُنّة ٤: ٢١١ / ٤٨٧٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٢٠، حياة الصحابة ٢: ٤٤٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري وعامّة التفاسير عند هذه الآية ٢٧ من سورة الكهف.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ ٦: ٢٤٣ ح/ ٢٣٩ و ٢٤١ تفسير سورة الحجرات، سنن الترمذي ٥: ٣٨٧/ ٣٢٦٦، سنن النسائي كتاب آداب القضاة ـ ٨: ٢٢٦، تفسير الطبري ٢٦: ٧٦، أسباب النزول: ٢١٥ وغيرها.

الخلافة والتفضيل، فمن ذلك قوله:

ـ «أما والله لقد تقمّصها فلان وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحا، ينحدِر عنّي السيل، ولا يرقى إليّ الطير...

فيا عَجَباً، بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته !! لشدَّما تشطّرا ضرعيها[1]... صبرتُ على طول المدّة وشدّة المحنة... حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعَمَ أنّي أحدهم ! فيا لله وللشورى، متى اعترض الريبُ فيَّ مع الأوّل منهم حتّى صرتُ أُقرنُ إلى هذه النظائر !»[2].

ـ «أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً علينا، أن رفعنا اللهُ ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم ؟!

بنا يُستعطى الهُدى ويُستجلى العمىٰ... إنّ الأئمّة من قريش، غُرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح علىٰ سواهم ولا تصلُح الولاة من غيرهم»[3].

ـ «فأينَ تذهبون ؟! وأنّى تؤفكون ؟! والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاهُ بكم ؟! وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدين، وألسنة الصدق ؟!

فأنزِلوهم بأحسنِ منازل القرآن، ورِدُوهم ورود الهيمِ العطاش...»[4].

---

(١) أي اقتسماه بينهما.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣ المعروفة بالشقشقيّة.

(٣) نهج البلاغة: ٢٠١ الخطبة ١٤٤.

(٤) نهج البلاغة: ١١٩ الخطبة ٨٧.

الفصل الخامس

نَهضَةُ الحُسَين (ع) واستِشهَاده

«حسينٌ منّي وأنا من حُسين ..

أحبَّ اللهُ مَن أحبَّ حُسيناً ..

حسينٌ سبطٌ من الأسباط»

رسول الله (ص)

كان بنو إسرائيل يُقتّلون الأنبياء ،،

وقتل الحسين ليس بأعظم من قتل الأنبياء !!

ابن تيميّة

تلفّتنا يميناً وشمالاً فلم نجد بيننا أنبياء نُقتّلهم، فطفقنا نُقتّل أبناء نبيّنا خاتم الأنبياء!

لقد كنّا سراعاً جدُّ سِراع في تصديق ذاك النذير النبويّ الخطير: «لَتَتّبِعُنَّ سُنَنَ مَن كانَ قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتّى لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتُموه» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن إذن؟!»[1].

وهل أعرف مِن بني إسرائيل بـ(سُنّة) قتل الأنبياء؟! أم هل افتقدوا علماء سوء يزيّنون لهم ذلك؟!

وهل رأت أُمّتنا من أبناء الأنبياء غير الحسن والحُسين اللّذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «هذان ابناي»[2]، فماذا لو ركبت فيهم سُنّة بني إسرائيل؟! فهل ستعدم المفتين الّذين يتّبعون سنن علماء بني إسرائيل؟!

إنّ (شيخ الإسلام) ابن تيميّة يقول: إنّ بني أُميّة ليسوا بأعظم جرماً من بني إسرائيل:

فمعاوية حين أمر بسمّ الحسن فهو من باب قتال بعضهم بعضاً![3].

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم: كنز العمّال ١١: ١٣٣.

(٢) سنن الترمذي: ٥ / ٣٧٦٩.

(٣) منهاج السُنّة ٢: ٢٢٥.

ويزيد ليس بأعظم جرماً من بني إسرائيل، كان بنو إسرائيل يقتّلون الأنبياء، وقتل الحُسين ليس بأعظم من قتل الأنبياء !![١].

معذرة يا رسول الله أن تلدَ أُمّةٌ تنتسب إليك أبناءً علىٰ هذا المدى من العقوق!

لا شكّ ـ يا سيّدي ـ أنّ عجبك لهذا اللسان السليط أشدّ من عجبك لتلك الأيدي الجريئة التي لم تتورّع في سفك دماء سبطك وريحانتك!

عقوقٌ جمدت معه كلّ قسمات الوجه، فلمّا لم يجد ما يستر فيه سَوْأة يزيد اكتشف له عذراً آخر فقال: ولا نَقَلَ أحدٌ أنّه كان على أسوأ الطرائق التي توجب الحدّ![٢].

لا ريب أنّ مفتي البلاط لا يندى له جبين..

سترى كيف ألقى ابن تيميّة باللاّئمة علىٰ الإمام الحسين عليه‌السلام، وعلى أهل المدينة المنوّرة، وعلى أهل مكّة، لأنّهم كانوا سبباً في فساد كبير وشرٍّ عظيم لم يكن يحصل لو قعدوا في بيوتهم وأحسنوا الطاعة للخليفة يزيد!

سُنّةٌ أُخرى من سنن بني إسرائيل! ﴿ *لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ* ﴾[٣].

ولكن في مدرسة التأويل قَتَلَةُ الأنبياء مُثابون على فعلهم هذا الحسن

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٤٧.

(٢) رأس الحسين: ٢٠٧.

(٣) المائدة ٥: ٧٨ ـ ٧٩.

اجتهادهم في طلب الحقّ والصلاح !!

يقول ابن تيميّة: وأمّا أهل التأويل المحض فأُولئك مجتهدون مخطئون، خطؤهم مغفورٌ لهم، وهم مُثابون علىٰ ما أحسنوا فيه من حسن قصدهم واجتهادهم في طلب الحقّ واتّباعه[١].

هذا الكلام يقوله ابن تيميّة في الجدال عن يزيد وتبرير أخطائه، فمن المناسب جدّاً أن يدعمه باتّفاق العلماء علىٰ أنّهم لا يكفّرون أهل القبلة بمجرّد الذنوب ولا بمجرّد التأويل، وأنّ الشخص الواحد إذا كانت له حسنات وسيّئات فأمره إلى الله تعالى[٢].

ويزيد من أين له الحسنات ؟

قلّب الشيخ أوراق يزيد فوجد إجماع المؤرّخين علىٰ أنّه كان لا يقيم الصلاة، ولا يَدَع الخمرة، ولا يفارق الغانيات ! فأغمض عينيه عن كلّ هذا، ووضع إصبعيه في أُذُنيه، وغاص في بحور التأويل ليستنقذ غريقه، ومضى حتّى أخرجه بريئاً من قتل الحسين غير ملوم فيه، بكلام سيأتي ذكره لاحقاً، ثمّ قال: ولكن ظهر من أمره في أهل الحرّة ما لا نستريب أنّه عدوانٌ محرّم، وكان له موقف في القسطنطينيّة ـ وهو أوّل جيش غزاها ـ ما يعدّ من الحسنات ![٣].

فهل ذهب يزيد إلى القسطنطينيّة فاتحاً، حاملاً رسالة القرآن وآداب النبوّة بين جنبيه يبلّغها هناك، أم كان أبوه قد حشره في ذلك الجيش ليصطنع له منقبةً يردّدها عبّاد الملوك فيجعلون منه بطلاً مغفوراً له ما تقدّم وما تأخّر ؟ فمن سيكون

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٤.

(٢) رأس الحسين: ٢٠٦.

(٣) رأس الحسين: ٢٠٧.

إذن أوْلى منه بخلافة أبيه ؟!.

حين أشار المغيرة بن شعبة على معاوية بولاية العهد ليزيد، قائلاً: لقد وضعتُ رجل معاوية في غرزٍ بعيد الغاية علىٰ أمّة محمّد، وفتقتُ عليهم فتقاً لا يُرتَقُ أبداً ![1].

منذ ذلك الحين كان معاوية وأصحابه يحتالون لإقناع الناس بالمرشّح الجديد لخلافة أبيه، بعث معاوية إلى زياد بن أبيه عامله علىٰ البصرة يذكر له ما أظهره المغيرة ويحثّه علىٰ الدعوة ليزيد بولاية العهد، فاستشار زياد أصحابه في أن يكتب جواباً لمعاوية يقول فيه:

إنّ كتابك ورد عليَّ بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبّغ ويدمن الشراب ويمشي علىٰ الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن عليّ، وعبدالله بن عبّاس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر ؟!.

فأشاروا عليه أن لا يكتب هذا فيغيض معاوية، ولكن يتوصّلون إليه أن يأمر يزيد بأن يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً وحولين فعسانا أن نُموّه علىٰ الناس ![2].

وكان معاوية عارفاً بذلك، بعث إليه المغيرة عشرةً ـ وقيل أكثر ـ من أهل الكوفة أعطاهم ثلاثين ألف درهم وبعث معهم ابنه موسى بن المغيرة، فأتوا معاوية يزيّنون له البيعة ليزيد.

فقال لهم معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا علىٰ رأيكم.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٠، وتاريخ الطبري ٥: ٣٠٢ـ٣٠٣، والكامل في التاريخ ٣: ٥٠٥ بمعناه.

ثمّ قال لموسى بن المغيرة: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟

قال: بثلاثين ألف درهم.

قال معاوية: لقد هان عليهم دينهم ![1].

فلمّا كانت غزوة القسطنطينيّة كانت الفرصة الذهبيّة أمام معاوية ليرفع فيها من شأن يزيد، فكيف كان اشتراك يزيد فيها ؟

قال ابن الأثير في أحداث سنة ٤٩ هـ: في هذه السُنّة، وقيل سنة خمسين، سيّر معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزاة، وجعل عليهم سفيان بن عوف، وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتلّ ! فأمسك عنه أبوه.

قال: فأصاب الناسَ في غزاتهم جوعٌ ومرض شديد، فأنشأ يزيد يقول:

مـا إن أبـالي بـما لاقتْ جُـموعُهُمُ ... بـالفرقَدونة مـن حـمّىً ومـن مُـومِ

إذا اتّكأْتُ عـلىٰ الأنـماطِ مـرتفعاً ... بـدَيرِ مُـرّانَ عـندي أُمُّ كـلثومِ

وأمّ كلثوم امرأته بنت عبدالله بن عامر.

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحَقَنّ بسفيان في أرض الروم، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه[2].

هكذا انضمّ يزيد إلى جيش القسطنطينيّة، وهكذا اشترى معاوية والمغيرة وزياد من الناس دينهم بثمنٍ بخس.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٤.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٨. وذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان عند تعريف (دير مُرّان) نقلاً عن الطبراني، وقال: (دير مُرّان) دَير بالقرب من دمشق علىٰ تل مشرف علىٰ مزارع الزعفران ورياض حَسَنة وبناؤه بالجصّ، وأكثر فرشه بالبلاط الملوّن، وهو دير كبير فيه رهبان كثيرة.

ثمّ لنرى مصير تلك الحسنات التي يذكرها الشيخ هنا، لنرى مصيرها في هذا الحديث الذي يسوقه ابن تيميّة نفسه:

يقول ابن تيميّة: يزيد بن معاوية قد أتى أُموراً منكرة، منها وقعة الحرّة، وقد جاء في الصحيح عن عليّ عليه السلام عن النبيّ ﷺ قال: «المدينةُ حَرَمٌ ما بينَ عائرٍ إلى كذا، فمن أحدث فيها حَدَثاً أو آوى محدِثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبلُ اللهُ منه صرفاً ولا عدلاً»[١].

هذا هو مصير (حسنات) يزيد إذن!

ولكن لا تظنّ أنّ المفتي سيترك مولاه في هذه الورطة، فهو أشدّ وفاءً لمولاه ممّا ظننت، وميدان التأويل ميدان مفتوح، ولأيّ شيء يراد التأويل إن لم يسخّر لخدمة الأمير؟!

يقول ابن تيميّة: فأمّا أهل الحَرّة فإنّهم لمّا خلعوا يزيد وأخرجوا نوّابه، أرسل إليهم مرّةً بعد مرّة يطلب الطاعة فامتنعوا، فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المرّي وأمره إذا ظهر عليهم أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا هو الذي عظُم إنكار الناس له من فعل يزيد![٢].

هكذا كان الخليفة معذوراً في غزو المدينة، وفي قتل أهلها حتّى لم يكد ينجُ منهم أحد، وفيهم الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، فهو في كلّ ذلك كان متأوّلاً لحفظ ملكه!

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٥، والحديث رواه أحمد والبيهقي وأبو داود والترمذي عن عليّ عليه السلام، ورواه مسلم عن أبي هريرة: كنز العمّال ١٢ / ٣٤٨٠٥.

(٢) منهاج السُّنّة ٢: ٢٥٣، الوصيّة الكبرى: ٥٤ نحوه.

إنّما عظم إنكار الناس لإباحته المدينة واغتصاب نسائها (حتى افتضّت نحو ألف عذراء) ![١].

يقول ابن تيميّة متمّماً عذر الخليفة: لكنّه ـ أي يزيد ـ لم يقتل جميع الأشراف، ولا بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، ولا وصلت الدماء إلى قبر النبيّ !![٢].

فأين منه أُناس تفيض أعينهم لذكر النبيّ، وينتحبون انتحاب الثاكلات عند ذكر قبره الشريف ؟!

هل آلمه أنّ الدماء البريئة لم تصل قبر النبيّ ؟!

أم فرح بذلك ليتّخذ منه عذراً يعود به يزيد خفيف الذنب ؟!

أين منه أُولئك ؟!

وأين منه أُناس تذوّقوا الأخلاق الكريمة وعشقوها ؟! وأين منه أُناس اشمأزّوا من ذكر القبائح والجرائم وسفك الدماء البريئة ؟!

ولم يكلّ (الناصر للسُنّة) (المكافح عن السَّلَف) من الكلام، يلفّ ويدور، ويروح ويجيء، ورغم إطالته الكلام في الكفاح عن يزيد، فهو لم يذكر حرفاً واحداً في أسباب خروج أهل المدينة المنوّرة على يزيد؛ لأيّ شيءٍ كانت وقعة الحرّة ؟

وماذا أراد منهم يزيد بعدها ؟!

إنّ زعيم حركة المدينة المنوّرة كان عبدالله بن حنظلة، وأبوه حنظلة هو

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٥.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٥٣.

غسيل الملائكة الذي استشهد في أُحد جُنُباً صبيحة عرسه ، فقال فيه النبيّ ﷺ : «إنّ صاحبكم تُغسّله الملائكة».

قال عبدالله بن حنظلة الثائر في أسباب نهضته على يزيد: «والله ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء ! إنّه رجلٌ ينكح أُمّهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة»[1].

ذاك كان ذنب أهل المدينة المنوّرة في خروجهم علىٰ (الخليفة) ! فلعلّه فاتهم أنّ (الخليفة) كان متأوّلاً في ذلك كلّه، كما كان متأوّلاً في قتلهم، والمتأوّل مُثاب على حسن قصده !!

وبعد ذلك أوجب علىٰ من بقي حيّاً من أهل المدينة المنوّرة أن يبايع علىٰ أنّه عبد ليزيد بن معاوية ! ومن أبى ضربت عنقه، ومن قال أُبايع علىٰ كتاب الله وسُنّة رسوله ضربت عنقه ! وليس هذا ممّا يغيض ابن تيميّة (المنتصر للسُنّة والمكافح عن السَلَف) لأنّ ذلك كان بتأويل ! فلم يفعله يزيد إلّا لحفظ ملكه !

وإحراق الكعبة كان أيضاً بتأويل !

قال المؤرّخون: إنّ جيش يزيد لمّا قضى علىٰ حركة أهل المدينة في وقعة الحرّة توجّه إلى مكة قاصداً ابن الزبير الذي كان معتصماً بها، فحاصروه ورموه بالمنجنيق حتّى أحرقوا الكعبة، فصعد قاضي ابن الزبير ينادي: يا أهل الشأم، هذا حرم الله الذي كان مأمناً في الجاهليّة ! فاتّقوا الله.

فيصيح الشاميّون: الطاعة الطاعة ! الكرّة الكرّة ! الرواح قبل المساء ! فلم

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٦٥.

يزالوا علىٰ ذلك حتّى احترقت الكعبة. وقال أهل الشأم: إنّ الحُرمةَ والطاعة اجتمعتا، فغَلَبت الطاعةُ الحرمةَ!.

وفي تلك الأثناء جاءهم النبأ بهلاك يزيد، فانصرفوا، فماذا ترى مدرسة التأويل ؟!

ابن تيميّة يقول: إنّ حريق الكعبة لم يقصده يزيد، وإنّما كان مقصوده حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان له لا للكعبة! ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها لا هو ولا نوّابه باتّفاق المسلمين!![1].

بمثل هذا التأويل وهذا الاتّفاق ينتصر (شيخ الإسلام) لدين الإسلام وحرماته وحدوده!

فلماذا لا يكون الدين (أفيون الشعوب) عندما لا يكون سوى آلة لتمهيد دنيا (الخليفة)؟ حتّى هذا الخليفة الذي لم يترك شرب الخمرة حتّى في بيت الله حين بعثه أبوه معاوية أميراً علىٰ الحجّ![2].

ثمّ ختم عمره بفاجعة المدينة المنوّرة، ثمّ حريق الكعبة!

مع حديث الإمام أحمد في لعن يزيد:

للإمام أحمد بن حنبل حديثٌ في يزيد بن معاوية ينقله ابن تيميّة هنا، فلنرى كيف ينقله ..؟! وكيف يستفيد منه ؟!:

يقول ابن تيميّة: ويزيد بن معاوية قد أتى أُموراً منكرة منها وقعة الحرّة..

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٥٤.

(٢) الكامل في التاريخ ٤: ١٢٧.

ولهذا قيل للإمام أحمد: أتكتب حديث يزيد ؟

فقال: «لا، ولا كرامة، أوَليس هو الذي فعل بأهل الحرّة ما فعل؟!».

وقيل له: إنّ قوماً يقولون: إنّا نحبّ يزيد!

فقال: «وهل يحبّ يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ؟!».

فقال له ـ ابنه صالح ـ: فلماذا لا تلعنه ؟!

فقال الإمام أحمد: «ومتى رأيت أباكَ يلعن أحداً» انتهى.(١)

لعلّك علمت لماذا قال (انتهى) ؟ قالها لأنّ الحديث لم ينته، ولأنّه يريد أن يستبدل تتمّة الحديث بكلام من عنده، فقال على الفور: ومذهب أهل السُنّة والجماعة أنّهم لا يكفّرون أهل القبلة بمجرّد الذنوب ولا بمجرّد التأويل!

أيّ ذنوب هذه ..؟! وأيّ تأويل ؟! حتّى لو كان استباحة نساء المهاجرين والأنصار وبناتهم حتّى ولدت منهن نحو ألف بنت لا يُعرف مَن أولادَهنّ ؟!

أُولئك المُهاجرون والأنصار الّذين يقول فيهم ابن تيميّة: (إنّ من طعن فيهم فهو أضلّ من حمار أهله) يجعل قتلهم وانتهاك أعراضهم وقتل أبنائهم مجرّد ذنب أو مجرّد تأويل!

وحتّى لو كان الذنب قتل أولاد النبيّ، سيكون عنده مجرّد تأويل !!

وحتّى حين يرتكب يزيد العمل الذي أنذر منه النبيّ ﷺ وقال في فاعله: «عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبلُ الله منه صرفاً ولا عدلاً» حتّى

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، وهذا القدر فقط من هذا الحديث ذكره أيضاً في الوصيّة الكبرى: ٥٤.

هذا حين يرتكبه يزيد يقال: إنّه تأويل !!

تركهُ الصلاة عمود الدين تأويل، وشرب الخمر تأويل، وقضاء الليالي مع الغانيات تأويل، وإحراق الكعبة تأويل ! فلم يبق إلّا استبدال القرآن بكتاب جديد، ولو فعله لدخل أيضاً في ساحة التأويل، بل بحور التأويل التي ابتلعت كلّ معالم الدين وما زالت تتّسع للمزيد، حتّى يكتفي يزيد !

ولنعد إلى حديث الإمام أحمد حيث قال الشيخ إنّه انتهى، ولم ينته بعد، بل واصل الإمام أحمد قائلاً: «ولِمَ لا يُلعَن مَن لَعَنَهُ اللهُ تعالى في كتابه ؟!».

فقيل له: وأين لَعن اللهُ يزيد في كتابه ؟

فقرأ أحمد قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾.

ثمّ قال: فهل يكون فساد أعظم من القتل ؟![1].

هذا هو حديث الإمام أحمد الذي أثبت فيه أنّ يزيد ملعون في كتاب الله، وتلك هي أمانة (شيخ الإسلام) في نقل عقائد السَّلَف وأحاديثهم.

وأبو الفرج ابن الجوزي الفقيه الحنبلي الشهير ينقل هذا الحديث كاملاً في كتابٍ صنّفه في الردّ على مَن منع لعن يزيد، وأسماه (الردّ على المتعصّب العنيد) وقال فيه:

صنّف القاضي أبو الحسين محمّد ابن القاضي أبي يعلى بن الفرّاء كتاباً في بيان

---

(١) هذا القدر من الحديث جاء في نسخة (الردّ على المتعصّب العنيد): ١٦ بتحقيق المحمودي وهو القدر الذي نقله الهيتمي في (الصواعق المحرقة: ٢٢٢) عن كتاب ابن الجوزي، ولكنّ الشبراوي نقل عن ابن الجوزي أكثر من هذا، وسيأتي في محلّه من هذا الفصل.

من يستحقّ اللعن وذكر فيهم يزيد، وقال: المُمتنع من ذلك إمّا أن يكون غير عالم بجواز ذلك، أو منافقاً يريد أن يوهم بذلك، وربّما استفزّ الجهّال بقوله: «المؤمن لا يكون لعّاناً» وهذا محمول على من لا يستحقّ اللعن[١].

فهل كان ابن تيميّة جاهلاً بجواز ذلك ؟

لقد قرأ ابن تيميّة كتاب أبي الفرج ابن الجوزي المذكور، فقال: أمّا أبو الفرج ابن الجوزي فله كتاب في إباحة لعنه[٢]. ثمّ بعد ذلك صنّف ابن تيميّة في المنع مِن سبّ يزيد في كتابه (فضائل معاوية وفي يزيد وأنّه لا يُسَبّ) !

كما استفزّ الجهّال بقوله «المؤمن لا يكون لعّاناً» في كتابه (منهاج السُنّة) ! وقال فيه: فمن أين يعلم الإنسان أنّ يزيد لم يتب من هذه، أو لم تكن له حسنات ماحية ؟[٣].

أرأيتَ تقوى كهذه ؟!

فهل غاب عليه شيءٌ من حال يزيد ؟! أم غاب عليه ما قاله معاوية بن يزيد نفسه بعد هلاك أبيه ؟!

قال معاوية بن يزيد: إنّ أعظم الأُمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقُبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرّق الكعبة ![٤].

وبعد، فهذا الرجل الذي يُريك هذا التحرّج الشديد في أمر يزيد هو بعينه صاحب ذلك الكلام الجريء بحقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام !

---

(١) الردّ على المتعصّب العنيد: ١٩.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٥٣.
(٣) منهاج السُنّة ٢: ٢٥٢.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٤.

مَقتل الحُسين عليه السلام في فلسفة ابن تيميّة

إلى هنا وابن تيميّة لا يرى أنّ قتل الحسين عليه السلام ممّا يعدّ في ذنوب يزيد، ولا هو من الأُمور المنكرة التي ارتكبها!.

يقول ابن تيميّة: إنّ يزيد لم يُظهر الرضى بقتله، وإنّه أظهر الألم لقتله، والله أعلم بسريرته! وقد عُلِمَ أنّه لم يأمر بقتله ابتداءً، ولكنّه مع ذلك ما انتقم من قاتليه، ولا عاقبهم علىٰ ما فعلوا إذ كانوا قتلوه لحفظ ملكه! ولا[1] قام بالواجب في الحسين وأهل بيته، ولم يظهر له من العدل وحسن السيرة ما يوجب حمل أمره على أحسن المحامل، ولا نَقَلَ أحد أنّه كان علىٰ أسوأ الطرائق التي توجب الحدّ! ولكن ظهر من أمره في أهل الحرّة ما لا نستريب أنّه عدوان محرّم![2].

هكذا إذن لم يكن في قتل الحسين عليه السلام وما جرى له ولأهل بيته عدوانٌ ولا عمل محرّم!.

وحتّى في تعطيل حدود الله بحقّ قاتليه، لأنّه هنا متأوّل! فهؤلاء إنّما قتلوا الحسين لحفظ ملكه!.

سُنّة بني إسرائيل!!.

---

(١) في النصّ: «ولو»، ولا تصحّ لأنّ «لو» ستبقى هنا بلا جواب.

(٢) رأس الحسين: ٢٠٧.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1] وإن نصرَهم أصحاب التأويل وجادلوا عنهم في الحياة الدنيا ﴿ فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[2]؟!

روى الطبري بإسناده: كان الوحي يأتي أنبياء بني إسرائيل فيُذكِّرون فيُقتَلُون، فيقومُ رجالٌ ممّن اتّبعهم وصدّقهم فيُذكِّرون قومهم فيُقتَلُون، فهم الّذين يأمرون بالقسط من الناس.

وروى أيضاً عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل: مَن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة؟.

فقرأ النبيّ ﷺ هاتين الآيتين، ثمّ قال: «قَتَلَتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار في ساعةٍ واحدة، فقام مئةُ رجلٍ واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا من قَتَلَهُم بالمعروف ونَهوهُم عن المُنكر فقُتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم، وهم الّذين ذكر الله عزّ وجلّ»[3].

هذا قول الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، لكنّ ابن تيميّة يقول: إنّ خروج هؤلاء على سلطان زمانهم فسادٌ كبير وشرّ عظيم وسببٌ للفِتَن!

أمّا قوله: «إنّ يزيد لم يُظهر الرضى ... وإنّه أظهرَ الألم، وإنّه لم يأمر بقتله ابتداءً» فهي دعوى بوسع كلّ امرئٍ أنْ يُطلقها حين لا تكون هناك مسؤوليّة عن الكلمة، ولا أظنّك نسيت قوله في حديث الإمام أحمد «انتهى»، فقوله هنا «قد

---

(١) آل عمران ٣: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) النساء ٤: ١٠٩.

(٣) تفسير الطبري ٣: ٢١٦.

عُلم» هو أشبه شيءٍ بقوله هناك: «انتهى». أو قوله: «باتّفاق العلماء» ونحوه، فالذي قد عُلِم حقّاً هو العكس تماماً!

فهل استبعد هذا من يزيد لعلمه بصلاح حاله وتقواه؟! الرجل الذي ارتكب في مدينة الرسول ما لم يفعله حتّى المغول، أيحجزه شيء عن الفظائع؟!

وما الذي يحجزه عن قتل الحسين؟! ألم يرِث من أُسرته ذاك العداء التاريخيّ لأُسرة الحسين؟!

ألم ينشأ وملء أُذنيه لعن عليّ والحسن والحسين علىٰ منابر أبيه، ثمّ كان ذلك ملء فيه منذ تعلّم الكلام، فأمضاه علىٰ منبره سُنّةً يتعبّد بها كلّ يوم مرّات؟!

وبالأمس كان أبوه قد اغتالَ الحسن أخا الحسين بالسُمّ، وحاربَ عليّاً أبا الحسين بسيفه ولسانه حتّى هلك، وجدّه أبو سفيان كان شيخ المحاربين لجدّ الحسين محمّد صلى الله عليه وآله، وجدّته هند حالها لا يخفى!

فالجدّ أبو سفيان، والجدّة هند، والأبُ معاوية، والابن يزيد، والابن شرّ الأربعة بلا خلاف، فلم ينسب إليه أحد شعرةً من دين كانت تنسب لأبيه أو جدّه وحتّى جدّته، بصدقٍ أو بمَيْن. فمن يستنكر إقدام يزيد علىٰ قتل الحسين عليه السلام؟!

ولقد كان مروان بن الحكم الذي هو فَضَضٌ من لعنةِ نبيّ الله، كما وصفته أُم المؤمنين عائشة[1]، كان هو الآخر خيراً من يزيد، ولقد قال لوالي المدينة حين دعا الحسين عليه السلام ليأخذ منه البيعة ليزيد، قال له مروان: أُشدد يدك بالحسين فلا يخرج حتّى يبايع، فإن أبىٰ فاضرب عنقه![2].

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٥٠٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ١٧٥، الكامل في التاريخ ٤: ١٥، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤١.

وفوق هذا المعلوم من أمره شهادةُ عبيدالله بن زياد واليه علىٰ قتل الحسين:

عاش عبيدالله بن زياد بعد موت يزيد، فاضطربت عليه الأحوال في العراق فخرج إلى الشأم ومعه مئة رجلٍ من الأزد يحفظونه، وفي بعض الطريق رأوه قد سكتَ طويلاً، فخاطبه أحدهم ويدعى مسافر بن شُرَيح اليشكري، فقال له: أنائمٌ أنت ؟

قال: لا، كنتُ أُحدِّث نفسي.

قال له مُسافر: أفلا أُحدِّثك بما كنتَ تحدِّث به نفسك ؟.

قال: هات.

قال مسافر: كنت تقول: ليتني لم أقتُل حسيناً.

فقال عبيدالله بن زياد: أمّا قتلي الحسين فإنّه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي، فاخترتُ قتله[1].

تذكّر الآن قوله «قد عُلِم» ثمّ انظر القول الآتي:

قال ابن العماد الحنبلي: قال التفتازاني في (شرح العقائد النسفيّة): «اتّفقُوا على جواز اللعن علىٰ من قتل الحُسين، أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به، والحقّ أنّ رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانته أهلَ بيت رسول الله ﷺ ممّا تواتَرَ معناهُ وإن كان تفصيلُهُ آحاداً، فنحنُ لا نتوقّف في شأنه، بل في كفره وإيمانه، لعنةُ الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه»[2].

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ١٤٠.

(٢) شذرات الذهب ١: ٦٨ ـ ٦٩.

ونقل هذا الكلام الشبراوي أيضاً، وذكر أعمال يزيد ثمّ قال: ولا شكّ عاقلٌ أنّ يزيد بن معاوية هو القاتل للحسين عليه السلام لأنّه هو الذي ندب عبيدالله بن زياد لقتل الحسين[(١)].

ثمّ لعنه الإمام أحمد بن حنبل بسبب قتل الحسين عليه السلام، ونقل الشبراوي حديثه كاملاً عن ابن الجوزي، وفي آخره: قال أحمد: وكيف لا يُلعن من لعنه الله تعالى في كتابه ؟ قال له ابنه صالح: وأين لعن اللهُ يزيد في كتابه ؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ وهل يكون فساد أعظم من قتل الحسين عليه السلام ؟! وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وأيّ أذى أشدّ على محمّد صلى الله عليه وآله من قتل الحُسين الذي هو لهُ ولابنتِهِ البتول قُرّة عين ؟![(٢)].

قال أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي في ردّه على المتعصّب العنيد: إنّ إنكاره على من استجاز ذمّ المذموم ولعن الملعون من جهلٍ صراح، فقد استجازه كبار العلماء، منهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وقد ذكر أحمد في حقّ يزيد ما يزيد على اللعنة[(٣)].

ثمّ قال ابن الجوزي: وما يكاد أحد ينصح عن أحد إلاّ وهو محبّ له، وقد صحّ عن رسول صلى الله عليه وآله: «المرءُ مع من أحبّ»[(٤)].

---

(١) الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٢، ٦٦.

(٢) الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٣ ـ ٦٤ ورواه من طريق آخر في ص ٦٤.

(٣) الردّ على المتعصّب العنيد: ١٣.

(٤) الردّ على المتعصّب العنيد: ٣٠.

نهضة الحُسين عليه السلام في فلسفة ابن تيميّة

«لا والله، لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ إقرار العبيد»[1].

«أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَن رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثمّ والعدوان، فلم يُغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قول كان حقّاً علىٰ الله أن يُدخِلَه مدخله.

ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَن غيّر»[2].

وخير لبني الإنسان ألف مرّة أن يكون فيهم خُلقٌ كخُلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية، من أن يكون جميع بني الإنسان علىٰ ذلك الخُلق الذي يرضى به يزيد[3].

أمّا ابن تيميّة فيقول: هذا رأي فاسد، فإنّ مفسدته أعظم من مصلحته، وقلّ مَن خَرجَ علىٰ إمامٍ ذي سلطان إلّا كان ما تولّد علىٰ فعله من الشرّ أعظم ممّا تولّد من الخير ![4].

(١) الحسين السبط الشهيد عليه السلام / الكامل في التاريخ ٤: ٦٢.

(٢) الحسين السبط الشهيد عليه السلام / الكامل في التاريخ ٤: ٤٨.

(٣) عبّاس محمود العقّاد: أبو الشهداء: ١٠٨.

(٤) منهاج السُنّة ٢: ٢٤١.

ويقول: ولم يكن في خروجه مصلحة لا في دين ولا في دنيا ! وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده ![١].

ولا ينسى أن يدسّ بين هذه العبارات الجافية عبارةً رقيقة تستهوي العواطف، فيقول: بل تمكّن أُولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتّى قتلوه مظلوماً شهيداً ![٢].

لا ريب أنّه كان صادقاً حين يتكلّم بلغة الدنيا والمصلحة الزائلة، وحين ينظر إلى هذه الأحداث بمنظار بني إسرائيل الّذين يمنحون التقديس دائماً للسلطان المنتصر، ويلقون باللائمة علىٰ السلطان المغلوب في ميدان السيف والحصان، وإن كان غالباً قاهراً في ميدان القيم !

ولكن ما أبعده عن الصدق حين يوزن بلغة القرآن ومنظار الأنبياء، فهل مجّد القرآن أحداً بعد الأنبياء كتمجيده الشهداء ؟.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[٣].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٤].

إذن هم يستبشرون بإخوانهم الّذين سيمضون بعدهم على هذا الطريق،

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٤١ .
(٣) البقرة ٢: ١٥٤.
(٤) آل عمران ٣: ١٦٩ ـ ١٧٠.

طريق الشهادة والكرامة التي لا تفنىٰ، طريق كلّه خيرٌ وحياة!

ـ ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾[١].

أمّا ابن تيميّة فيرىٰ أنّ هؤلاء المؤمنين حين أنكروا دين المِلك كانوا سبباً لفساد كبير وشرّ عظيم لم يكن ليحصل لو أنّهم سكتوا وقعدوا في بيوتهم ومضوا على دين المَلِك!

إنّه يقول: إنّ ما قَصَده الحُسين من تحصيل الخير ودفع الشرّ لم يحصل منه شيء بل زاد الشرّ بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك وصار سبباً لشرٍّ عظيم![٢].

صار الحُسين عليه السلام بخروجه علىٰ يزيد سبباً لشرّ عظيم!!

لماذا؟ لأنّ خروجه ممّا أوجب الفِتَن![٣].

ويعني بالفتن التي كان الحُسين سبباً فيها: حركة أهل المدينة المنوّرة، وحركة ابن الزبير، وحركة التوّابين، وحركة القرّاء، وحركة زيد بن عليّ، وغيرها من النهضات التي خرجت علىٰ الأُمويّين في زمن يزيد وبعده!

إنّها لُغةُ العبيد الّذين لا يفهمون للكرامة والحرّية معنى، ولا يدركون لرسالة السماء حقيقة، فكيف لا يستنكرون صُنع من يضع روحه وأهله وكلّ ما يملك فداءً على طريقها؟!

---

(١) البروج ٨٥: ٤ ـ ٧.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٤٢.

(٣) منهاج السُنّة ٢: ٢٤٢.

وكم بين لُغة بني إسرائيل ولغة الأنبياء ؟!

قال النبيّ ﷺ: «إنّ مَن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عَمِل فيهم العامل الخطيئة فنهاهُ الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنّه لم يره على خطيئة بالأمس، فلمّا رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم علىٰ لسان داود وعيسى بن مريم ذلكَ بما عَصَوا وكانوا يعتدون.

والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، ولتأخُذنّ علىٰ أيدي المسيء، ولتأطُرُنّهُ علىٰ الحقّ أطراً، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم علىٰ بعض، ويلعنكم كما لعنهم»[١].

«وأعجبُ شيءٍ أن يُطلب إلى الحسين بن عليّ أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكّيه أمام المسلمين ويشهد له عندهم أنّه نِعْمَ الخليفة المأمول صاحب الحقّ في الخلافة وصاحب القدرة عليها ! ولا مناص للحسين من خصلتين: هذه، أو الخروج، لأنّهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه.

إنّ بعض المؤرّخين من المستشرقين، وضعاف الفهم من الشرقيّين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيباً من الرجحان في كفّ الميزان. وكان خليقاً بهؤلاء أن يذكروا أنّ مسألة العقيدة الدينيّة في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة، وأنّه كان رجلاً يؤمن أقوىٰ الإيمان بأحكام الإسلام، ويعتقد أشدّ الاعتقاد أنّ تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأُمّة قاطبةً في حاضرها ومصيرها، لأنّه مسلم، ولأنّه سبط محمّد، فمن كان إسلامه هدايةُ نفس، فالإسلام عند الحسين هدايةُ نفس وشرف بيت»[٢].

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح: مجمع الزوائد ٧: ٢٦٩، كنز العمّال ٣: ٧٧ / ٥٥٧٣.

(٢) عبّاس محمود العقّاد: أبو الشهداء الحسين: ١١٤ ـ ١١٥.

لكنّ مدرسة التأويل ترىٰ أنّ صنع الحسين كان خطأً، وسبباً في فتنة تُخشى على هذه الأُمّة !

يقول ابن تيميّة: وممّا يتعلّق بهذا الباب أن يُعلم أنّ الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوعٌ من الاجتهاد مقروناً بالظنّ ونوع من الهوى الخفيّ، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتّباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتّقين، ومثل هذا إذا وقع صار فتنة ![1].

هكذا يصف نهضة الحسين عليه السلام: هي نوعٌ من الاجتهاد، مقرون بالظنّ، ونوع من الهوى الخفيّ !! وعلى هذا لا يجوز اتّباعه فيه.

ومزيداً من التقدّم تراهُ في تأويل مدرسة بني إسرائيل، حين تستنتج من كلّ ما تقدّم أنّ نهضة أبناء الأنبياء هي من نوع الفساد الذي نهى الله عنه، واللهُ يأمر بالصلاح لا بالفساد !

ابن تيميّة الذي قال آنفاً: قد كان في خروج الحسين وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده. يعزّز عقيدته بقوله: لذا أشار عليه بعضهم أن لا يخرج، وهم بذلك قاصدون نصيحته، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين ! والله ورسوله إنّما يأمر بالصلاح، لا بالفساد !![2].

بُؤْ إذن بالبعد عن الحسين كلّ البعد، فالحسين الذي خرج (مفسداً يطلب الفساد في الأُمّة) هو سيّد شباب أهل الجنّة، فاختر لنفسك منزلاً غير ذلك فأنتَ

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٤٥.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٤١.

داعية الصلاح !

أرأيت تسخير الدين في خدمة السلطان كيف يكبّ أصحابه علىٰ مناخرهم في مستنقعات الحيرة والضلال ؟!

«إنّ القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة، والتماس العذر للحسين معناه إلقاء الذنب علىٰ يزيد، وليس بخافٍ كيف يُنسى الحياء وتُبتذل القرائح أحياناً في تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب !

فليس الحكم علىٰ صواب الحسين أو علىٰ خطئه إذن بالأمر الذي يُرجَع فيه إلى أُولئك الصنائع المتزلّفين الّذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها، ولا لصنائعَ مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير ذلك السيف، ويغنمون من عطاءٍ غير ذلك العطاء»[1].

وأنّى يتسنّى لهؤلاء الصنائع أن يُصغوا لكلمةٍ واحدة تُدير الكيل عن كفّة السلطان القائم، وحتّى لو كانت تلك الكلمة هي كلمة الإمام الحسين الذي هم بصدد الحكم عليه ؟!

وحين سمع الشيخ كلام الناصحين، فما له وضع إصبعيه في أُذنيه حين أجابهم الحسين عليه السلام ؟!

نعم، أشار بعض الصالحين علىٰ الإمام الحسين عليه السلام بالبقاء في مكّة لأنّها حرم الله الآمن، وهم يظنّون أنّ يزيد لا ينتهك حرمتها، فأجابهم الإمام الحسين عليه السلام بجوابه الذي لا تجد منه حرفاً واحداً في كلّ ما كتب ابن تيميّة، وكيف يأتي منه بحرف

(١) عبّاس محمود العقّاد: أبو الشهداء الحسين: ١٠٦ ـ ١٠٧.

فيعود اللوم علىٰ يزيد ؟!

قال الإمام الحسين عليه السلام في جوابهم: «والله لئن أُقتل خارجاً منها ـ أي مكّة ـ بشبر أحبّ إليّ من أن أُقتل فيها، ولئن أُقتلَ خارجاً منها بشبرين أحبُ إليّ من أن أُقتل خارجاً منها بشبر..

وايمُ اللهِ لو كنتُ في جحر هامّةٍ من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتّى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدُنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت»![1].

سُنّة بني إسرائيل !!.

وكان عليه السلام يقول: «والله لا يَدَعُونني حتّى يستخرجوا هذه العَلَقة من جوفي»![2].

كان عبدالله بن عبّاس أحد أُولئك الناصحين الّذين أشاروا علىٰ الإمام الحسين عليه السلام بالمكث في مكّة، فهل كان ابن عبّاس يرى ما رآه ابن تيميّة في نهضة الحسين وخروجه ؟

كتب يزيد إلى ابن عبّاس كتاباً يتقرّب به إليه، فأجابه ابن عبّاس في كتاب طويل، قال فيه:

«لا تحسبَنّي ـ لا أبا لك ـ نسيتُ قتلك حسيناً وفتيان بني عبدالمطّلب... وما أنسى من الأشياء فلستُ بناسٍ اطّرادك الحسين بن عليّ من حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حرم الله ودسّك إليه الرجال لتغتاله فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة. ثمّ إنّك

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٣٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

الكاتب إلى ابن مرجانة ـ عبيدالله بن زياد ـ أن يستقبل حسيناً بالرجال، وأمرته بمعاجلته وترك مطاولته، والإلحاح عليه حتّى يقتله ومن معه من بني عبدالمطّلب، أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[١].

إذن كان فارقٌ كبير بين ما أدركه أُولئك الناصحون، وما وقع فيه ابن تيميّة.

وإنّه لفارق كبير أيضاً بين الحسين عليه السلام وبين أُولئك الناصحين، حتّى عظمائهم وأجلّائهم..

فارق بين رجلٍ خُلِقَ لمثل هذا الأمر العصيب، وبين آخرين خُلقوا لغيره.

فارق بين رجلٍ تجمّعت فيه مزايا وسجايا جعلته سيّد شباب أهل الجنّة، وبين آخرين لم يعرفوا بين جوانحهم شيئاً من ذلك.

فارق بين رجلٍ نشأ في حجر النبيّ وترعرع في بيت عليّ، وآخرين لم يدركوا سرّ هذا البيت.

فارق بين سبط النبيّ، وأفاضلَ صالحين.

ولكنّ مدرسة التأويل لا تقف عند حدٍّ من هذه الحدود!

وذلك لسبب بسيط، هو أنّها لم تفهم أنّ سبط النبيّ هو غير أُولئك الأفاضل والمجتهدين الكبار، لم تفهم أنّ السبط من سنخٍ آخر، هو فرعٌ من سنخ النبيّ، فروحه وسجاياه وإحساسه ونظراته للأحداث هي من سنخ ذلك الأصل النبويّ الذي لا يمكن أن يُحكَمَ عليه بحكم المنظار الأرضي.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٩.

إنّ مَن يفهم هذا لا يصف عمل الأسباط بأنّه من جنس الاجتهاد الممزوج بالظنّ ونوعٍ من الهوى الخفيّ!

إنّ مدرسة بني إسرائيل حين نظرت إلى سلوك الأنبياء بمنظار الأرض لا بمنظار السماء حكمت بكلّ بساطة بخطأ موسى وهارون حين قادا أتباعهما إلى ذلك التيه العجيب الذي دام أربعين سنةً حتّى مات فيه موسى وهارون جميعاً!

وبهذا المنظار نفسه وقع حكمهم علىٰ دعوة زكريّا ويحيى عليهما السلام بأنّها دعوة إلى إفساد أمر الناس، فالخير الذي أرادا تحصيله لم يحصل منه شيء، بل حصل بقتلهما تلك القتلة الشنيعة شرّ عظيم وفساد لم يكن يحصل لو قعدا في بيوتهما!

وبهذا المنظار وبهذا المنطق حكم ابن تيميّة على مسيرة سبط خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلم أنّه سبط النبيّ ويقول بذلك، ولكنّه وقع بما وقعت به بنو إسرائيل من جرّاء نظرتها القاصرة.

وفي حُكم تلك النظرة وذاك المنظار أيّ خير أو صلاح خلّفه المؤمنون حين أعلنوا خروجهم علىٰ دين الملك، فخدّ لهم الأُخدود وأضرم فيه نيرانه ثمّ أمرهم أن يلقوا بأنفسهم فيه أو يعودوا إلى دين الملك، فثبتوا جميعاً علىٰ دينهم وألقوا بأنفسهم في ذلك الأُخدود المشتعل، ومن تلكّأ منهم زخّه فيه زبانية الملك، فلم ينجُ منهم حتّى الرضّع في حجور أُمّهاتهم؟! أيّ خير أو صلاح صنعوه ليمجّدهم القرآن كلّ ذلك التمجيد، ويتوعّد الله أعداءهم بأشدّ وعيد فيقول جلّ جلاله: ﴿ *قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ* ﴾ ؟!

إنّ هذا الفعل الذي مجّده القرآن ورفع أهله إلى أحسن منزلة هو في منطق ابن تيميّة فساد وشرّ عظيم، لا لشيء إلّا لأنّهم لم يتمكّنوا من أن يغلبوا الملك فيصبحوا

ملوكاً يحكمون فيمجّدهم التاريخ الذي مضى علىٰ سُنّة بني إسرائيل في تعظيم السلطان الغالب وتخطئة المغلوب !

كما أنّ هذا الملك الذي توعّده الله تعالى بكلّ ذاك الوعيد هو في فلسفة ابن تيميّة ليس عليه بأس لأنّه كان متأوّلاً، فلم يقتل أُولئك المؤمنين الخارجين عليه إلّا لحفظ ملكه، وفي هذا صلاح للمملكة !!

تأويل جديد:

ما زال ابن تيميّة مصرّاً علىٰ أنّ خروج الحسين عليه السلام هو من الفساد الذي نهى عنه الله ورسوله ! فيؤيّد عقيدته هذه بتأويل جديد ربّما طرب له عُمْي القلوب، ولكن سيسخر منه بسطاء النّاس ناهيك عن عقلائهم.

إنّه يقول: والدليل علىٰ أنّ ما قام به الحسين كان خلافاً لما أمر به النبيّ: ما ثبت في الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يأخذ الحسن وأُسامة بن زيد ويقول: «اللّهمّ إنّي أحبّهما فأحبّهما» ففي هذا الحديث جمعُهُ بين الحسن وأُسامة رضي الله عنهما وإخباره بأنّه يحبّهما ودعاؤه الله أن يحبّهما، وحبّه صلى الله عليه وآله وسلم لهذين مستفيض عنه في أحاديث صحيحة، كما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والحسن علىٰ عاتقه وهو يقول: «اللّهمّ إنّي أُحبّه فأحبّه». وهذان اللذان جمع بينهما بالمحبّة، وكان يعرف حبّه لكلّ واحد منهما منفرداً، لم يكن رأيهما القتال في تلك الحروب ![1].

فِكرٌ ثاقب ! واستنتاجٌ رائع ! له بريقٌ أعشى عيون أقوام لا يفقهون أن يقولوا

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٤٣.

له كلمة واحدة، لا يفقهون أن يقولوا له: تُرى كيف كان قول النبيّ صلى الله عليه وآله في الحسين ؟! أكان جافياً له ساخطاً عليه ؟!

لا يفقهون هذا ولا أقلّ منه لأنّ مبدأ (نبذ التقليد الأعمى) لا يصحّ تطبيقه مع أحاديث (شيخ الإسلام) !

لقد استنتج هنا استنتاجاً رائعاً من حُبّ النبيّ صلى الله عليه وآله للحسن ودعائه الله أن يحبّه، حين رأى أنّ هذا دليلٌ علىٰ أنّ كلّ ما يقوم به الحسن عليه السلام هو ممّا يرضي الله ورسوله، فحين ترك القتال كان في تركه رضى لله ورسوله. إنّه استنتاج رائع بلا شكّ، ولكن أين كان عن هذا الاستنتاج وهو يدافع عن معاوية حين قتل الحسن بالسُمّ ؟! لِمَ لَمْ يقل إنّه قتل رجلاً أحبّه الله ورسوله ؟!

لعلّك لم تنسَ أنّه قال هناك: إنّ معاوية حين أمر بسمّ الحسن وقتله كان ذلك من باب القتال الدائر بينهما[1].

إذن هو قتال دائر بينهما، ولم يترك الحسن القتال !

وإذا كان قتالاً دائراً فما يفعله الحسن هو المرضيّ عند الله ورسوله بحكم الاستنتاج السابق، فقتال الحسن لمعاوية إذن هو من رضى الله ورسوله، فكان معاوية إذن يحارب الله ورسوله في قتاله للحسن، أو بمجرّد عدائه له !

وأين كان عن مثل هذا الاستنتاج مع أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله في حبّ عليّ، كقوله المتواتر: «لأُعطينّ الرايةَ غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله» ؟! وفي حبّه لفاطمة البتول الذي قد لا يضاهيه حبّ ؟! ألم يعلم أنّ فاطمة ماتت ولم

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٢٥.

تبايع لأبي بكر، بل ماتت ساخطةً عليه وعلى عمر ؟!

لِمَ لَم يلتفت إلى هذا الاستنتاج هناك ؟!

ألم يعلم أنّ عليّاً سخط فعل السقيفة فلم يبايع ستّة أشهر حتّى توفّيت فاطمة، وأنّ الحسن كان معه ؟! وحين جادل في حروب عليّ عليه السلام لأصحاب الجمل وصفّين أين كان عن هذا الاستنتاج حتّى ذهب يقول: عليّ لم يقاتل على طاعة الله، ورسوله بل قاتل ليُطاع هو ؟!(١).

ولنعد الآن إلى الحسين عليه السلام وهذا الموضع من الكلام.

جمع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرّة بين الحسن عليه السلام وأُسامة فحفظها ابن تيميّة، وجمع صلى الله عليه وآله وسلم بين الحسن والحسين عليهما السلام سبع سنين حتّى توفّي النبيّ وعُمر الحسين سبع سنين فلم يحفظ منها ابن تيميّة مرّةً واحدة !

وهل فرّق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بين الحسن والحسين في حبّ وحباء وتكريم ومنزلة ؟!.

فكم مرّةً يلقاه أصحابه وهو يلثمُ هذا مرّةً وهذا مرّةً حتّى إذا اجتمع الصحابة عنده قال: «هما ريحانتاي من الدنيا»(٢).

وقال: «هذان ابناي، وابنا بنتي، اللّهمّ إنّي أُحبّهما، فأحبّهما، وأحبّ من يُحبّهما»(٣).

وقال: «اللّهمّ إنّي أُحبّهما فأحبّهما»(٤).

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٠٢ ـ ٢٠٥، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢) صحيح البخاري / كتاب فضائل الصحابة، وكتاب الأدب ـ باب رحمة الولد. سنن الترمذي ٥ ح / ٣٧٧٠.

(٣) هذا الحديث أخرجه الترمذي عن أُسامة بن زيد نفسه: ٥ ح / ٣٧٦٩.

(٤) سنن الترمذي: ٥ / ٣٧٨٢.

وقال: «مَن أحبّها فقد أحبّني، ومن أبغضها فقد أبغضني»(١).

هذا وكثير غيره كلّه في الصحاح، وما أشهر قوله ﷺ فيهما: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»! فَلِمَ لم تدلّ هذه الأحاديث الصحيحة على رضا النبيّ ﷺ بما صنع الحسين عليه السلام ؟!

وهل يشكّ أحد في منزلة الحسين عند النبيّ ﷺ ؟! ألم يكن الحسين من الأربعة الّذين جمعهم النبيّ ﷺ تحت الكساء وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» ؟!

ألم يكن واحداً ممّن أمر النبيّ بالتمسّك بهم حين قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» ؟!

وفوق كلّ ذلك جاء في الحسين حديثاً لم يأت حتّى في أخيه الحسن عليه السلام، لا تفضيلاً للحسين على الحسن عليه السلام، ولكن لما كان يعلمه النبيّ ﷺ من موقف الحسين عليه السلام الذي ستقف بوجهه دولة كاملة بكلّ ما فيها، وممّا فيها محدّثوها ومؤرّخوها ومفتوها، فقال فيه قولاً يهدي من آمن بالله ورسوله إلى أنّ صُنع الحسين هو من هدي رسول الله ومن جنس صنعه، فقال: «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ اللهُ من أحبّ حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط»(٢). فزيادة على الحبّ ينصّ النبيّ ﷺ على مزيد من الاختصاص إلى حدّ الاتحاد في الرضا والغضب والحبّ والبغض والموالاة والبراءة، مع الاتّفاق في المواقف كلّها: «حسينٌ منّي وأنا من حسين» «حسين سبط من الأسباط».

---

(١) مسند أحمد ٢: ٥٣١، سنن البيهقي ٤: ٢٨، المستدرك ٣: ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٨: ٤١٥ / ٣٥٣٦، والترمذي ٥: ٦٥٨ / ٣٧٧٥، وابن ماجة ١: ٥١ / ١٤٤، وأحمد في المسند ٤: ١٧٢، والبغوي في مصابيح السُنّة ٤: ١٩٥ / ٤٨٣٢، والحاكم في المستدرك ٣: ١٧٧.

فأين غاب هذا وغيره عمّن يريد أن يرسم منهاج السُّنّة النبويّة بعيداً عن الهوى والعصبية ؟! .

هذا وهو القائل: «لكنّ أهل الأهواء لا يقبلون إلّا ما يظنّون أنّه يوافق أهواءَهُم» !

الصحابي أنس بن الحارث الذي استشهد مع الحسين عليه السلام لم يكن حديثه غائباً عن ابن تيميّة، وقد رواه كلّ من ترجم لهذا الصحابي، كما رواه البغوي الذي قال فيه ابن تيميّة: إنّه من أعلم وأصدق من كتب مقتل الحسين لأنّه يسند ما ينقله عن الثقات ![1].

قال الصحابي أنس بن الحارث: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ ابني هذا ـ يعني الحسين ـ يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصره»[2].

إنّ مستشرقاً ألمانياً لا يشدّه إلى يزيد هوى، ولم تحرّكه لنصرة الدين عقيدة، كان أقدر من ابن تيميّة علىٰ تفسير نهضة الحسين ! كان ذاك ماربين الألماني حيث يقول: إنّ حركة الحسين في خروجه علىٰ يزيد كانت عزمةُ قلبٍ كبير عزّ عليه الإذعان وعزّ عليه النصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويُحيي به قضيةً مخذولةً ليس لها بغير ذلك حياة»[3].

لكنّ هذا النصر الآجل سمّاه ابن تيميّة فِتَناً !

هذا كلّ ما أبداه ابن تيميّة من تفاعل مع مصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته، ذلك

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٦.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٢٠١ عن البغوي، وانظر (أُسد الغابة) و (الإصابة) عند ترجمة أنس بن الحارث، و (تهذيب تاريخ دمشق) ٤: ٣٢٨، ٣٤١.

(٣) أبو الشهداء: ١١٨ عن ماربين في كتابه (السياسة الإسلامية).

المصرع الذي أبكى رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته وحزن له جبريل عليه السلام !

روى أحمد في مسنده أنّ علياً عليه السلام مرّ بكربلاء في طريقه إلى صفّين، فنادى: إصبر أبا عبدالله بشطّ الفرات! ـ وأبو عبدالله هو الحسين عليه السلام ـ.

قيل له: ما ذاك؟

فقال: دخلتُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم وعيناه تفيضان، فقلتُ: ما أبكاك يا رسول الله؟

فقال: «بلى، قام من عندي جبريل قبل فحدّثني أنّ الحسين يُقتل بشطّ الفرات، وقال لي: هل لك أن أشمّك من تُربته؟ ـ قال ـ فمدّ يده فقبض قبضةً من تراب فأعطانيها فلم أملك عينيّ أن فاضتا»(١).

وعن ابن عبّاس قال يوم مصرع الحسين عليه السلام: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله في المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم، فقلتُ: بأبي وأُمّي يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «هذا دمُ الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم» قال: فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه يوم مقتله(٢).

لكنّ هذا المصرع لم يهزّ لابن تيميّة شَعرة، ولا خفق له قلبه خفقة، ولا أحدث في ضميره نقمة علىٰ رؤوس قومٍ قتلوا آل النبيّ ذلك القتل الشنيع، ثمّ تبعوه باستنقاص بعد استنقاص، واستشفاء بعد استشفاء بمحمّد وآله صلى الله عليه وآله!

---

(١) مسند أحمد ١: ٨٥، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٨٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠١، مجمع الزوائد ٩: ١٨٧ وقال: أخرجه البزّار ورجاله ثقات.

(٢) مسند أحمد ١: ٢٨٣، تهذيب تاريخ دمشق ٤: ٣٤٣، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٥، البداية والنهاية ٨: ٢٠٢ وقال: رواه أحمد وإسناده قوي.

يا للشقاء..

أُمّةٌ لا ترتوي من دموع الأنبياء!

بل من دماء الأنبياء..

وأبناء الأنبياء!!

لا ترتوي.. لا ترعوي..

يا للندامة والشقاء!!

ويتابع الجرعة إلى آخر فصولها، يدافع عن يزيد ويكذّب لأجله حتّى نفسه ومن يشهد له بالصدق من أصحاب التاريخ!!

هذا ما ستراهُ في الفقرتين الآتيتين:

الفقرة الأُولى ـ يزيد ورأس الحسين عليه السلام:

أجمع المؤرّخون الّذين كتبوا في استشهاد الحسين عليه السلام على أنّ الرعاع الّذين باشروا قتله حملوا الرأس الشريف على رمح وساروا إلى عبيدالله بن زياد مع رؤوس جميع من صُرع معه من أهل بيته وأصحابه. فلمّا قضى ابن زياد حاجته في التشفّي برأس السبط الشهيد بعث به إلى يزيد في الشأم ليقضي هو الآخر حاجته تلك وتقرّ بذلك عينه ويُري أهل الشأم ثمار انتصاره الأوّل في مطلع حكمه.

فماذا قال ابن تيميّة؟

قال بالحرف الواحد: «إنّ نقل رأس الحسين إلى الشأم لا أصل له في

زمن يزيد»[١].

ولمزيد من التفصيل يقول: «إنّ القصّة التي يذكرون فيها حمل الرأس إلى يزيد ونكته بالقضيب كذبوا فيها»[٢].

بأيّ شيء كذبوا؟ كذبوا لأنّهم نقلوا ما لم يكن حقّاً؟ أم لأنّهم نالوا بذلك من كرامة الخليفة؟!

انظر كيف سيُبرهن لك علىٰ كذب الناقلين وبراءة ساحة يزيد:

يقول: «والمصنّفون من أهل الحديث في ذلك كالبغوي وابن أبي الدنيا ونحوهما هم بذلك أعلم وأصدق بلا نزاع بين أهل العلم»[٣].

وأيضاً: «من المعلوم أنّ الزبير بن بكّار ومحمّد بن سعد صاحب (الطبقات) ونحوهما من المعروف بالعلم والفقه والاطّلاع أعلم بهذا الباب، وأصدق في ما ينقلونه من الجاهيل الكذّابين»[٤].

إذن ماذا يقول هؤلاء؟

نرجو أن لا يفجأك الجواب بعد أن رأيت من أمثاله ما رأيت!

إنّه يقول: «إنّ الّذين جمعوا أخبار الحسين ومقتله مثل ابن أبي الدنيا والبغوي وغيرهما لم يذكر أحدٌ منهم أنّ الرأس قد حُمل إلى عَسقلان أو القاهرة»!![٥].

---

(١) رأس الحسين: ٢٠٧، الوصيّة الكبرىٰ: ٥٣.
(٢) رأس الحسين: ٢٠٦.
(٣) رأس الحسين: ٢٠٦.
(٤) رأس الحسين: ١٩٨.
(٥) رأس الحسين: ١٩٧.

هذا كلّ ما وجده عندهم !

ولكن ماذا قال هؤلاء أهل العلم بالنقل والصدق في الحديث، ماذا قالوا عن نقل الرأس إلى الشام بين يدي يزيد، هل كذّبوه أم أثبتوه ؟!

لم ينقل الشيخ عنهم حرفاً من ذلك لسببٍ واحد، هو أنّهم أثبتوه بأسانيدهم التي وصفها الشيخ آنفاً بأنّها أسانيد أهل العلم والصدق !

وكلام هؤلاء نقل طرفاً منه الفقيه الحنبلي أبو الفرج ابن الجوزي في ردّه على المتعصّب العنيد الذي كذّب بكلّ ما ينال من كرامة يزيد، وبعد أن ذكر أحاديثهم في نقل الرأس إلى عبيدالله بن زياد وما جرى في مجلسه قال ابن الجوزي:

قال ابن أبي الدنيا: ثمّ دعا ابن زياد زحر بن قيس، فبعث معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد ![1].

وقال ابن أبي الدنيا: وضع رأس الحُسين بين يدي يزيد، وعنده أبو برزة، فجعل يزيد ينكت بعصاهُ علىٰ فيه[2] ويقول:

يُفَلِّقنَ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فقال له أبو برزة: إرفع عصاك، فوالله لربّما رأيت فا النبيّ ﷺ علىٰ فيه يلثمه.

قال ابن أبي الدنيا: قال الحسن ـ البصري ـ: جعل يزيد بن معاوية يطعن

(١) الردّ علىٰ المتعصّب العنيد: ٤٥.

(٢) أي فمه، وهي من الأسماء الخمسة تُرفع بالواو «فوه» وتنصّب بالألف «فاه» وتُجرّ بالياء فتقول «فيه»، وعند الإضافة تحذف الهاء فتقول: رأيتُ فا النبيّ ﷺ ، وموضع في رسول الله، أي موضع فمه، كما سيأتي في هذا الكلام.

بالقضيب موضع في رسول الله ﷺ، وا ذُلّاه! ـ ثمّ أنشد الحسن إثر هذا الكلام:

سميّة أمسىٰ نسلها عدد الحصى ... وبنتُ رسول الله ليس لها نسلُ

قال ابن الجوزي وهو ينقل عن ابن أبي الدنيا ومحمّد بن سعد[1] عن مجاهد قال: جيء برأس الحسين بن عليّ فوضع بين يدي يزيد بن معاوية، فتمثّل هذين البيتين:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ

فأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا لي بغيبٍ لا تُشَلّ

قال مجاهد: نافق فيها، ثمّ والله ما بقي في عسكره أحد إلّا تركه، أي عابه وذمّه[2].

وأخرج الذهبي عن الزبير بن بكّار والليث بن سعد أنّهما ذكرا حمل الرأس إلى الشأم ووضعه بين يدي يزيد وتمثّل يزيد بهذا البيت:

يفلّقنَ هاماً من رؤوس أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

وزاد الليث بن سعد قوله: فضرب يزيد علىٰ ثنيّتي الحسين عليه السلام وقال البيت.

قال الذهبي: وقال ابن سعد ـ صاحب الطبقات ـ والمديني عن رجالهما: قُدم برأس الحسين علىٰ يزيد[3].

---

(١) كما صرّح ابن الجوزي بذلك في مقدّمة نقله: ص ٣٠. وانظر ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من كتاب الطبقات لابن سعد المطبوعة في مجلّة تراثنا العدد ١٠ بتحقيق السيّد عبدالعزيز الطباطبائي من نسخة مكتبة السلطان أحمد الثالث في إسلامبول، علماً أنّ هذه الترجمة وترجمة الإمام الحسن عليه السلام وتراجم أُخر لم تطبع في كتاب الطبقات المطبوع لاعتمادهم نسخة ناقصة.

(٢) الردّ علىٰ المتعصّب العنيد: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) تاريخ الإسلام ٥: ١٨ ـ ١٩.

هكذا إذن كان الشيخ ابن تيميّة يوجّه سهامه إلى نحره فيكون هو المصروع بها دون خصمه، ويضع نفسه موضع سخرية الجميع وهو يظنّ أنّه قد حفظ كرامة يزيد!

فحين أراد الذبّ عن يزيد كذّب بنقل الرأس إليه وبفعله الشنيع معه تكذيباً مطلقاً لم يلتفت فيه إلى شيء قاله في موضع آخر. وحين أراد التكذيب بالمشاهد المبنية بعسقلان والقاهرة رجع إلى طائفة من أهل العلم فوثّقهم وصدّق بما نقلوه من غير أنْ يلتفت إلى أنّهم جميعاً قد أثبتوا نقل الرأس إلى يزيد، وهو يعلم بذلك جيّداً ولكن لا ينقل منهم إلّا ما وافق هواه، ولم يجد عندهم حرفاً واحداً يحفظ شيئاً من ماء وجه يزيد لينقله عنهم ويحتجّ به، وكلّ الذي استفاده منهم، قوله: لم يذكر أحد منهم أنّ الرأس قد نُقل إلى القاهرة أو عسقلان! ولو شاء أيضاً أن يقول: لم يذكر أحد منهم أنّ الرأس قد نُقل إلى النرويج أو اسكتلندا أو الأرجنتين لكان صادقاً أيضاً!

قال أبو الفرج ابن الجوزي: ليس العجب من فعل عمر بن سعد وعبيدالله بن زياد، وإنّما العجب من خذلان يزيد، وضربه بالقضيب على ثنيّة الحسين، وإعادته إلى المدينة وقد تغيّرت ريحه لبلوغ الغرض الفاسد! أفيجوز أن يُفعل هذا بالخوارج؟! أوَليس في الشرع أنّهم يُصلّى عليهم ويدفنون؟!"[١].

أوَليس أعجب من فعل يزيد فعلُ من فعَل المستحيل من أجل تبرئته من كلّ ما تلطّخت به يداه؟!!

الفقرة الثانية ـ يزيد وسبي أهل البيت:

حين أجمع المؤرّخون على أنّ رجال يزيد بعد قتل الحسين عليه السلام ورجاله حملوا

(١) الردّ على المتعصّب العنيد: ٥٢.

رؤوسهم إلى ابن زياد وحملوا معها نساء أهل البيت عليهم السلام اللاتي كنّ مع الحسين كما تُحمل السبايا وانتهبوا ما راق لهم ممّا رأوه على النساء أيضاً بعد سلبهم الشهداء وتركهم مجرّدين على الرمضاء، ثمّ إنّ عبيدالله بن زياد بعث بهذه السبايا مع رؤوس رجالها بأقبح هيئة إلى يزيد في الشأم، ماذا قال ابن تيميّة في هذا الإجماع ؟!

إنّه إجماع يهدر كرامة يزيد بلا ريب، فكيف سيتعامل معه رجلٌ تبنّى تزكية يزيد أوّلاً وآخراً ؟! إنّه سينفيه بكلّ بساطة نفياً قاطعاً لا ريب فيه ولا رجعة عنه، وهو في مثل هذه المواقف لا ينسب قوله إلى مصدر معيّن لا من أصحاب العلم والفقه والصدق في النقل، ولا من غيرهم، بل يطلق أحكامه النهائيّة جزافاً وكأنّها من المسلّمات التي لا نقاش فيها، في حين لم يعرف التاريخ منها شيئاً، بل كلّه شاهد على نقيضها، ولا عرف الناس من أهل العلم وغيرهم حرفاً منها، ولا رآها هو نفسه في كتاب ولا سمعها من شيخ ذي معرفة !

إنّه هنا يقول: «ويزيد لم يَسْبِ للحُسين حريماً بل أكرم أهل بيته» ![1].

ويقول: «لا سَبَى أهلَ البيتِ أحد، ولا سُبيَ منهنّ أحد» ![2].

ثمّ يبرهن لك على صحّة قوله بطريقة ساخرة ودهاء جديد، فيقول:

«أمّا ما يرويه من لا عقل له يميّز به ما يقول، ولا له إلمام بمعرفة المنقول، من أنّ أهل البيت سُبوا، وأنّهم حُملوا على البخاتي، و (أنّ البخاتي نبت لها من ذلك الوقت سنامان) ! فهذا من الكذب الواضح الفاضح لمن يقول به»[3].

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٢٢٦.

(٢) رأس الحسين: ٢٠٨.

(٣) رأس الحسين: ٢٠٨.

تُرى أليسَ هو فاضحٌ أيضاً لمن يزوّره ؟! فمن أين هذه الفقرة المضحكة التي حشرها مع الخبر المتّفق عليه عند أصحاب التاريخ ليحكم علىٰ الموضوع كلّه بالبطلان مع ما يضفيه عليه من سخرية ؟!

ولماذا صدّ بوجهه عمّا نقله ابن أبي الدنيا ومحمّد بن سعد صاحب (الطبقات) ونحوهما من أهل العلم والصدق في النقل ؟!

لا شكّ أنّ من يقول: (إنّ البخاتي نبت لها من ذلك الوقت سنامان) هو جاهل صاحب هوى، ولكنّه ليس بأسوأ حالاً ممّن يأخذ هذا الكلام فيدسّه في الأخبار الموثّقة ليضفي عليها لوناً من السخرية، فيخدع بذلك أعداداً كبيرة من البسطاء المقلّدين. هذا، وهو يعلم بالحقيقة التي اتّفق المؤرّخون علىٰ نقلها !

قال محمّد بن سعد صاحب (الطبقات) وابن أبي الدنيا بعد ذكر مقتل الحسين عليه السلام وانتهابهم ثيابه وسيفه وعمامته، قالا ما نصّه: وأخذ آخر ملحفة فاطمة بنت الحسين، وأخذ آخر حليّها ! وبعث عمر بن سعد برأس الحسين إلى عبيدالله بن زياد، وحَمَل النساء والصبيان، فلمّا مرّوا بالقتلى صاحت زينب بنت عليّ: يا محمّداه! هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء..

يا محمّداه ! وبناتك سبايا، وذريّتك قتلى تسفي عليها الصَبا.

قال: فما بقي صديق ولا عدوّ إلّا بكى ![1].

اللّهمّ إلّا ابن تيميّة !!

ثمّ واصل ابن الجوزي نقله عن محمّد بن سعد، قال: ثمّ دعا ابن زياد زحر بن

(١) الردّ علىٰ المتعصّب العنيد: ٤٠.

قيس فبعث معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد. وجاء رسول من قِبَل يزيد فأمر عبيدالله بن زياد أن يرسل إليه بثقل الحسين ومن بقي من أهله.

قال: ثمّ دعا يزيد بعليّ بن الحسين والصبيان والنساء وقد أُوثِقُوا بالحبال !! فأُدخِلُوا عليه، فقال عليّ بن الحسين: يا يزيد، ما ظنّك برسول الله ﷺ لو رآنا مقرّنين بالحبال، ما كان يرقّ لنا ؟!.

فقال يزيد: يا عليّ، أبوك الذي قطع رحمي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت !.

ودعا بالنساء والصبيان فأُجلسوا بين يديه، فقام رجل من أهل الشأم فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه، يعني فاطمة بنت الحُسين[1] ! وكانت وضيئةً، فأرعدت وظنّت أنّهم يفعلون، فأخذت بثياب عمّتها زينب، فقالت زينب: كذبت والله ماذلك لك ولا له.

فغضب يزيد لذلك وقال: كذبتِ، إنّ ذلك لي لو شئتُ لفعلتُه !.

قالت: كلّا والله ما جعل الله عزّ وجلّ ذلك لك إلّا أن تخرج من ملّتنا أو تدين بغير ديننا.

ثمّ بعث بهم إلى المدينة.

ثمّ قال ابن الجوزي: هكذا قال محمّد بن سعد[2].

---

(١) في المصدر: بنت عليّ، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الردّ على المتعصّب العنيد: ٤٩ ـ ٥٠، وهو في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من الطبقات لابن سعد: مجلّة تراثنا عدد ١٠ ص ١٩٢.

هذا هو قول محمّد بن سعد، وهو قول ابن أبي الدنيا وغيره، وقول سائر المؤرّخين، لم يكتمه منهم أحد ولا جادل فيه أحد. فأين رأيتَ الكذب الذي يفضح صاحبه ؟!

قال ابن حبّان في كتاب (الثقات) أنفذ عبيدالله بن زياد رأس الحسين بن عليّ إلى الشأم مع أُسارى النساء والصبيان من أهل بيت رسول الله ﷺ على أقتاب مكشّفات الوجوه والشعور... وأُدخلوا دمشق كذلك، فلمّا وضع الرأس بين يدي يزيد بن معاوية جعل ينقر ثنيّته بقضيب كان في يده، ويقول: ما أحسن ثناياه !(١).

وإليك هذه الفقرة الواحدة من كتاب عبدالله بن عبّاس الذي أجاب فيه على يزيد، فقال: «ألا ومن أعجب العجائب، وما عشتَ أراك الدهر العجب، حَمْلُكَ بنات عبدالمطّلب وغلمةً صغاراً من ولده إليك بالشأم كالسبي المجلوب تُري الناسَ أنّك قهرتنا !»(٢).

فماذا سيقول ابن عبّاس لو سمع كلام ابن تيميّة وهو يبرّئ يزيد من كلّ إثمٍ حتّى إنّه ليقول: ويزيد لم يَسْبِ نساء أهل البيت ولكن أكرمهنّ ؟!

وأعجب من هذا قوله في أثناء دفاعه عن يزيد ما نصّه: «وأنّ يزيد ظهر في داره الندب لقتل الحسين، وأنّه لمّا قدِمَ عليه أهلُه وتلاقى النساء تباكينَ، وأنّه خيّر ابنه عليّاً بين المقام عنده والسفر إلى المدينة، فاختار السفر إلى المدينة فجهّزه إلى المدينة جهازاً حسناً»(٣).

---

(١) الثقات لابن حبّان ٢: ٣١٢ ـ ٣١٣ وذكر خلاله قصّة راهب رأى ذلك الموكب فسأل الجند عن الرأس فلمّا أجابوه بأنّه رأس الحسين قال: بئس القوم أنتم ! والله لو كان لعيسى ولد لأدخلناه أحداقنا !.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٠.

(٣) رأس الحسين: ٢٠٧.

فدليله علىٰ براءة يزيد أنّه ظهر في داره الندب لقتل الحسين، فكيف ظهر هذا الندب ؟! يقول: لمّا قدِم عليه أهله وتلاقى النساء تباكين، فبكاء النساء دليل على براءة يزيد !!.

وبعد، لاحظ قوله: «لمّا قَدِم عليه أهله» يعني لمّا قدم أهل الحسين علىٰ يزيد، فهل سأل نفسه كيف قدموا علىٰ يزيد إن لم يكن هو الذي جَلَبهم كسبايا حرب ؟! هل قدموا عليه رغبةً منهم وشوقاً لرؤية يزيد ؟! أم قدموا مصطافين فأحبّوا زيارته ؟!.

أم رأيت استخفافاً بالإسلام وأهله وتاريخه كهذا ؟!.

كلّ هذا في حفظ كرامة (السلطان القائم) علىٰ سنّة بني إسرائيل !.

إنّه منطق لا يشبه في شيء منطق الأحرار الّذين يعرفون معنى الكرامة ويفهمون ماذا يعني انتصار القيم.

إنّه لا يشبه حتّى منطق المستشرقين من النصارى الّذين أدركوا شيئاً من قيم الإسلام وأخلاق النبيّ الكريم وإن لم يتحلّوا بها !.

فنهضة الحسين عليه السلام ليست للمؤمنين وحدهم، بل هي لبني الإنسان حيث كان، وما من إنسان تحلّى بطرفٍ من مكارم الأخلاق إلّا وهو يجد في تلك النهضة مثلاً أعلى في تاريخ بني الإنسان (فكلّ صفةٍ من تلك الصفات العُلْوية التي بها الإنسان إنسان، وبغيرها لا يحسب غير ضربٍ من الحيوان السائم، فهي مقرونة في الذاكرة بأيّام الحسين عليه السلام..

وليست في نوع الإنسان صفات عُلْويّات أنبل ولا ألزم من الإيمان والفداء

والإيثار ويقظة الضمير وتعظيم الحقّ ورعاية الواجب والجَلَد في المحنة والأَنَفَة من الضيم والشجاعة في وجه الموت المحتوم، وهي ومثيلات لها من طرازها هي التي تجلّت في حوادث كربلاء يوم نزل بها ركب الحسين، ولم تجتمع كلّها ولا تجلّت قطّ في موطن من المواطن تجلّيها في تلك الحوادث..

وقد شاء القدر أن تكون في جانب منها أشرف ما يشرُف به أبناء آدم، لأنّها في الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات.

إنّهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة.. فهم اليوم مزار يطيف به المسلمون متّفقين ومختلفين، ومن حقّه أن يطيف به كلّ إنسان لأنّه عنوان قائم لأقدس ما يشرُف به هذا الحيّ الآدميّ)[١].

إنّها نهضة اليقين الذي لا يحدّه حدّ، ولا يدنو من سمائه شكّ..

نهضة بلغت فيها مبادئ السماء وسنن الأنبياء ومعالي الأخلاق قمّة ازدهارها، فجدّها كلّ من عاشت تلك المعاني بين جنبيه، أو أحبّها.

نهضة أزرت على مبادئ تنتهي عند البطون وراحة الأبدان فأثارت مَنْ هذا همّه، فنقموا منها!

---

(١) عبّاس محمود العقّاد: أبو الشهداء الحسين.

الفصل السادس

مَنْ هُم أتبَاعُ أهل البَيت(ع)؟

ما أيسر تحصيل الجواب بعد المشوار الذي أمضيناه !

ابن تيميّة يدعو لإثارة هذا السؤال حين يقول: لا نُسلّم أنّ الإماميّة أخذوا مذهبهم من أهل البيت، فإنّ الثابت عن عليّ ﷺ وأئمّة أهل البيت من إثبات الصفات والقَدَر وإثبات خلافة الخلفاء الثلاثة وإثبات فضيلة أبي بكر وعمر، وغير ذلك من المسائل كلّها يناقض مذهب الرافضة ![1].

هكذا قال، ابتدأ بذكر الإماميّة ثمّ ختم بذكر الرافضة !

فإن كان يريد بالرافضة تلك الفرق من الباطنيّة والغلاة، فلم يزد عن قول الإماميّة فيهم شيئاً.

وإن كان يُريد بهم الإماميّة بالذات الّذين افتتح الكلام بذكرهم، فتلك دعوى عرفت عنها الكثير من رجلٍ قضيت معه تلك الفصول الطويلة يعيب فيها على الشيعة اقتداءهم بأئمّة أهل البيت ويطعن بهؤلاء الأئمّة ويرفع من خصومهم !

فمن هم أئمّة أهل البيت الّذين عناهم ؟

أهم آل أبي سفيان وآل مروان الّذين كافح فيهم كفاحاً مريراً وكذّب فيهم أحاديث النبيّ الكريم ﷺ، وكذّب حتّى من شهد له بالصدق والعلم والأمانة ؟!.

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ١١٦.

إن كان هؤلاء هم أهل البيت فقد صدق والله وما عدا الحقّ في قوله، فما أشدّ ولاءه لهم وما أبعد الإماميّة عنهم!

وإن كان أئمّة أهل البيت هم الشعبي والزهري اللذين عَضَّ على أحاديثهم بالنواجذ لمّا رأى أمانتهم لبني أُميّة، فقد صدق أيضاً وقال حقّاً!

وإن كان أئمّة أهل البيت هم عكرمة والأوزاعي وعبدالقادر الجيلي الّذين أخذ عنهم عقائده في الصفات، فهو على الحقّ الذي لا ينازعه فيه أحد!

أمّا إذا كان أئمّة أهل البيت هم عليّ وبنوه كما ذكر في حديثه فقد كشف لك عن حقيقة دينه ومعتقده..

أليس أهل البيت هؤلاء هم الّذين عاب على الشيعة تقديمهم، فقال: إنّ فكرة تقديم آل الرسول هي من أثر الجاهليّة، ومن عقائد اليهود؟!

أليس أئمّة أهل البيت هم الّذين كذّب بفضائلهم وجادل فيها كلّ ذلك الجدال؟!

أليسوا هم الّذين استثقل ذكر واحدٍ منهم وهو يعدّ أولياء الله الّذين ظهرت لهم الكرامات المشهودة، حتّى أحصى نحو أربعين رجلاً ولم يذكر فيهم رجلاً واحداً من أهل البيت؟![1].

أليس أوّل أئمّة أهل البيت هو عليّ بن أبي طالب الذي قال فيه ابن تيميّة: ليس في الأئمّة الأربعة ولا غيرهم من أئمة الفقهاء من يرجع إليه بفقه؟!

أليس منهم الحسن والحسين سبطي رسول الله اللذين هدر ابن تيميّة دمهما واعتذر لقاتليهما؟!

---

(١) انظر كتابه: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان): ١٤١ ـ ١٤٨.

هذا، وابن تيميّة يقول: «على المسلمين موالاة أهل البيت» فما هو معنى المعاداة إذن حين يكون الولاء على هذه الطريقة ؟!.

أوَليس رابع أئمّة أهل البيت هو عليّ بن الحسين زين العابدين، والمعروف أيضاً بالسجّاد ؟! فماذا أخذ عنه ابن تيميّة ؟! لقد جاء إلى أشهر ما تواتر عنه فكذّب فيه، فقال: وعليّ بن الحسين كثير من أهل العلم والوعّاظ كانوا يدعون بالأدعية المأثورة في صحيفة عليّ بن الحسين، وإن كان أكثرها كذباً على عليّ بن الحسين ![1].

كذّب بها لا من جهة أسانيدها، ولكن لأنّه رآها تخالف عقيدته في الصفات والقَدَر، وفي الخلافة والتفضيل، فلا بُدّ أن تكون كذباً حتّى لو صحّت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل بتصديقها القرآن !!.

ثمّ كان بعده الإمام محمّد الباقر، الذي بقر العلوم بقراً فسمّي الباقر، فما هي منزلته عند ابن تيميّة ؟!.

ابتدأ أوّلاً بإنكار حديث سلام النبيّ عليه وتسميته إيّاه بالباقر[2]. وهذا الحديث أخرجه الذهبي عن الحسين بن عليّ عليه السلام مرّةً، وعن جابر بن عبدالله الأنصاري مرّةً، فحديث الإمام الحسين رواه جعفر الصادق عن أبيه الباقر عن جدّه الحسين عليه السلام، وحديث جابر رواه أبان بن تغلب عن محمّد الباقر عن جابر[3].

وثبت هذا أيضاً عن زيد بن عليّ، وقد ردّ به على هشام بن عبدالملك حين نال من الباقر عليه السلام[4].

---

(١) منهاج السُنّة ٣: ٢٠٩.

(٢) منهاج السُنّة ٢: ١٢٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤: ٤٠٤.

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٢١٢.

فهذا أوّل ما عنده في الإمام الباقر! وبعده قال: الزهري من أقران الباقر، وهو عند الناس أعلم منه! [(١)].

فإذا كان (الناس) هم أولياء دار الخلافة فلا شكّ في هذا، ولماذا لا يقدّم الزهري وهو صاحب شرطة بني أُميّة ؟! ولم يزل مع عبدالملك وأولادهُ: هشام وسليمان ويزيد، ثمّ استعمله يزيد علىٰ القضاء [(٢)].

وإن كان الناس هم أهل العلم فتلك دعوى فضحت صاحبها، وإليك نقلاً موجزاً عن نفرٍ من أهل العلم في الزهري:

ـ سئل يحيى بن معين: الأعمش خيرٌ أم الزهري ؟

فقال: برئتُ منه إن كان مثل الزهري، إنّه كان يعمل لبني أُميّة والأعمش مجانب للسلطان، ورع [(٣)].

ـ قال خارجة بن مصعب: قدمتُ علىٰ الزهري وهو صاحب شرطة بني أُميّة، فرأيته يركب وفي يده حربةٌ وبين يديه الناس وفي أيديهم الكافركوبات [(٤)]، فقلتُ: قبّحَ الله ذا من علمٍ.

فلم أسمع منه [(٥)].

(١) منهاج السُنّة ٢: ١٢٢، ومثله في ١: ٢٣٠.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ٣٧١.

(٣) معرفة علوم الحديث: ٥٤، والأعمش واحد من تلامذة الباقر ورواة حديثه.

(٤) صيغة جمع معرّبة للكلمة الفارسية (كافركوب) المركّبة من (كافر) و (كوب) وتعني: قَرع الكافر؛ وهي آلة كانت في الأصل معدّة لمحاربة الكفّار.

(٥) ميزان الاعتدال ١: ٦٢٥. وانظر ترجمة الزهري في كتاب (جهاد الإمام السجّاد: ٢٦٩) للسيد محمّد رضا الحسيني الجلالي.

فهذا هو الزهري، بريءٌ منه قوم، وقوم قبّحوه، وبعد فهو معدود في مَن كان ينال من عليّ عليه السلام[1]، كيف لا وهو صاحب شرطة بني أُميّة؟ وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في عليّ عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق» فهذه أحسن حال الزهري عندالله وعند عباده الصالحين! أيُفضّل مَن هذه حاله علىٰ الإمام الباقر، باقر العلوم الذي ملأ الدنيا حديثاً وفقهاً وهو مع ذلك أشرف أهل الأرض في زمانه وأعلاهم فضلاً ومنزلةً؟!

وعلى هذا النحو مضى مع سائر أئمّة أهل البيت عليهم السلام منكراً لفضلهم، منتقصاً من منزلتهم، مجادلاً في أحاديثهم جدال المعاندين..

فحين يذكر ابن المطهّر حديث الامام الكاظم موسىٰ بن جعفر عليه السلام في صباه، في جوابه لأبي حنيفة في بعض الآداب وفي القَدَر: قال أبو حنيفة: دخلتُ المدينة فأتيت جعفر بن محمّد فسلّمتُ عليه وخرجتُ من عنده فرأيت ابنه موسى في دهليز قاعداً في مكتب له وهو صبيّ صغير السنّ، فقلت له: يا غُلام، أين يُحدِث الغريب عندكم إذا أراد ذلك؟

فنظر إليّ ثمّ قال: يا شيخ، اجتنب شطوط الأنهار ومسقط الثمار وفيء النزّال وأفنية الدور والطرق النافذة والمساجد، وارفع وضع بعد ذلك حيث شئت.

قال: فلمّا سمعت هذا القول منه نَبُلَ في عيني وعظُم في قلبي، فقلت له: جعلتُ فداك، ممّن المعصية؟

فنظر إليّ ثمّ قال: اجلس حتّى أُخبرك، فجلستُ بين يديه، فقال: إنّ المعصية لا بُدّ أن تكون من العبد أو من خالقه أو منهما جميعاً، فإن كانت من الله تعالى فهو

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٠٢.

أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويأخذه بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه والقويّ أولى بإنصاف عبده الضعيف، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر، وإليه توجّه النهي، وله حقّ الثواب وعليه العقاب ووجبت له الجنّة أو النار.

قال أبو حنيفة: فلمّا سمعتُ ذلك قلتُ: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فهذا الكلام حين يقوله الإمام موسى الكاظم عليه السلام في صباه، فيدهش له أبو حنيفة فيقول: ذريّة بعضها من بعض! ترى ابن تيميّة يضيق بهذا صدراً فيعلّق قائلاً: إنّ هذا الكلام يعرفه صبيان المعتزلة!![2].

لقد أذهله ما غاظه من ذكر أهل البيت فطعن على أبي حنيفة قبل طعنه على الإمام الكاظم عليه السلام، فصبيان المعتزلة على قوله هذا أعلم من أبي حنيفة!

وحين يذكر ابن المطهّر حديث الإمام الجواد محمّد بن عليّ الرضا عليهما السلام وهو في الثامنة من عمره، في مجلس المأمون، قال: اجتمع بعض الفقهاء ومعهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم عند المأمون ليُفحموا أبا جعفر محمّد الجواد عليه السلام في مجلسه، فاستأذن يحيى بن أكثم الخليفة المأمون أن يسأل، فأذِن له، فقال يحيى: ما تقولُ في محرِم قتلَ صيداً؟

فقال الإمام الجواد عليه السلام: قَتَلَهُ في حلٍّ أو حَرَم؟ عالماً كان أو جاهلاً؟ قَتَلَهُ عمداً أو خطأً؟ حرّاً كان المحرم أم عبداً؟ صغيراً كان أم كبيراً؟ مبتدئاً أم معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها؟ من صغار الصيد أم من كبارها؟ مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟ بالليل في وكرها أم بالنهار عياناً؟ محرماً للعمرة أو مفرداً للحجّ؟

---

(١) رواه الشيخ المفيد في (الفصول المختارة) ١: ٤٥، والشريف المرتضى في (الأمالي) ١: المجلس العاشر.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ٢٤.

فتحيّر يحيى بن أكثم وانقطع[١].

فذلك الحديث الذي أفحم فيه يحيى بن أكثم فقيه القصر العبّاسي ومن معه من الفقهاء، يستشيط له ابن تيميّة غيظاً فيجادل فيه جدالاً أهون ما يقال فيه أنّه يخرجه من ساحة العلماء إلى ساحة عشّاق المراء[٢].

وهو في كلّ هذا يُثبت (ولاءه) اللامحدود لأهل البيت عليهم السلام !

أما اسم الإمام الصادق فيقفز عن ذكره ويروغ عنه لواذاً لعلمه أنّه قد عاصره أوّل رجلين من أئمّة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة ومالك، وأنّ الرجلين لم يبلغا ما بلغه علماً وفضلاً وهيبةً، وقول أبي حنيفة فيه: «ما رأيت أفقه ولا أعلم من جعفر الصادق» قول مشهور لا يستطيع أن يخفيه !

وهو مع هذا كلّه يقول: مَن عَدَل عن نقل الأصدق عن الأعلم إلى نقل الأكذب عن المرجوح كان مصاباً في دينه أو عقله أو كليهما ![٣].

فحين اجتمع جعفر الصادق وأبو حنيفة ومالك، لِمَ عدلت عن الأعلم إلى المرجوح، هل لأنّك لم تجد أحداً من أهل الصدق نقل أحاديث ذلك الأعلم ؟! فيا لها من شهادةٍ إذن علىٰ صدود هذه الأُمّة عن معدن العلم من أهل بيت النبوّة !

إن كان هؤلاء هم أئمّة أهل البيت الّذين لم يرجع إليهم الشيخ في فقهٍ ولا تفسير، ولا نَقَلَ حديثاً واحداً من أحاديثهم في الصفات أو القدر أو التفضيل، فقد ذبح نفسه وأظهر الحجّة لخصمه، ومن شهد على نفسه فقد كفاك..

---

(١) رواه المسعودي في إثبات الوصية: ١٨٩، والشيخ المفيد في الإرشاد: ٢: ٢٨٣.
(٢) منهاج السُنّة ٢: ١٢٧.
(٣) منهاج السُنّة ١: ٢٣٢.

ابن تيميّة والمصلحة من وجود أهل البيت عليهم السلام:

قال رسول الله ﷺ: « مَثَلُ أهل بيتي مَثَلُ سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرِق »[١].

قال ابن حجر: جاء ـ الحديث ـ من طرق عديدة يقوّي بعضها بعضاً... وأنّ وجه تشبيههم بالسفينة: أنّ من أحبّهم وعظّمهم، وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النِعَم، وهلك في مفاوز الطغيان[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «النُّجومُ أمان لأهل الأرض من الغَرق، وأهل بيتي أمان لأُمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[٣].

قال ابن حجر: المراد بأهل البيت الّذين هم أمان: علماؤهم؛ لأنّهم الّذين يُهتدى بهم كالنجوم، والّذين إذا فُقدوا جاء أهل الأرض من الآيات ما يوعدون[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضلّوا: كتاب

---

(١) المستدرك ٢: ٣٤٢ وصحّحه على شرط مسلم، عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٢١١، المعارف: ١٤٦، تاريخ بغداد ١٢: ٩١، تفسير ابن كثير ٤: ١٢٣، مجمع الزوائد ٩: ١٦٨، الصواعق المحرقة: ٢٣٦، روح المعاني ٢٥: ٣٢، الخصائص الكبرى ٢: ٤٦٦.

(٢) الصواعق المحرقة: باب ١١ فصل ١، الآية السابعة: ١٥٢.

(٣) المستدرك ٣: ١٤٩ وقال حديث صحيح، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٦٧٢ / ١١٤٥، الخصائص الكبرى ٢: ٤٦٦، الجامع الصغير ٢: ٦٨٠ / ٩٣١٣، الصواعق المحرقة: ١٥٢ ـ ١٥٣، ٢٣٦.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٥٢.

الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[١].

قال ابن حجر: في أحاديث الحثّ علىٰ التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة كما أنّ الكتاب العزيز كذلك[٢].

قال الشبراوي: قد أكرم الله تعالى آل بيت نبيّه بأن جعل فيهم القطبانيّة، ومنهم المجدّد علىٰ رأس كلّ سنة هذه الأُمّة أمر دينها. فقد قال هارون الرشيد لموسى الكاظم وهو جالس عند الكعبة: أنتَ الذي تُبايعك الناس سرّاً ؟!

فقال له: أنا إمام القُلوب، وأنت إمام الجسوم.

قال: وما أحسن ما قيل:

ملوكٌ علىٰ التحقيق ليس لغيرهم	*من الملك إلّا وزرهُ وعِقابُه*
شموس الهدى منهم، ومنهم بدورُهُ	*وأنجُمهُ منهم، ومنهم شهابه*[٣]

أمّا ابن تيميّة فله قولٌ آخر، فهو يرى أنّه لم تكن هناك مصلحة للعباد في وجود أيّ واحد من هؤلاء الأئمّة!

يقول: ومن المعلوم المتيقّن أنّ (هذا المُنتظَر) الغائب المفقود لم يحصل به شيء من المصلحة واللطف سواء كان ميّتاً كما يقول الجمهور، أو كان حيّاً كما تظنّه الإماميّة، وكذلك أجداده المتقدّمون لم يحصل بهم شيء من المصلحه واللطف الحاصلة من إمام معصوم ذي سلطان كما كان النبيّ ﷺ بالمدينة بعد الهجرة! فإنّه كان إمام المؤمنين الّذين يجب عليهم طاعته ويحصل بذلك سعادتهم!![٤].

---

(١) تقدّم مع تخريجه عن مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٥١.

(٣) الشبراوي: الإتحاف بحبّ الأشراف: ٢٠.

(٤) منهاج السُنّة ٢: ٨٤.

تُرى قبل الهجرة ماذا كان ؟!

ألم يكن من بعثة النبيّ ﷺ ووجوده مصلحة ؟! ولم يكن لبعثته مصلحة حتّى تحقّق له السلطان فأطاعه الناس ؟!

تُرى لو قُدّر أنّه لم يتحقّق له سلطان، فماذا ؟!

وأُولئك الأنبياء عليهم السلام الّذين عصتهم أقوامهم أو قتلتهم، ألم يكن من بعثتهم مصلحة ؟!

إنّه بهذا يقول : إنّ المصلحة المتحقّقة من وجود سلطان قائم لا يتحقّق منها شيء بوجود نبيّ ليس له سلطان ولا يطيعه قومه، فلا معنى عنده لوجود هذا العدد الكبير من الأنبياء الّذين عَصَتْهُمْ أقوامهم وقتلوهم وحالوا دون نشر رسالاتهم !

إنّه يقول بهذا تماماً حين يواصل برهانه قائلاً:

ولم يحصل بعد النبيّ أحد له سلطان تُدّعى له العصمة إلّا عليّ عليه السلام زمن خلافته، ومن المعلوم أنّ المصلحة واللطف الذي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة أعظم من المصلحة واللطف الذي كان في خلافة عليّ زمن القتال والفتنة والافتراق !

فلا مصلحة إذن إلّا بالسلطان ! هذه هي النتيجة التي يبلغها فيقول: فعُلم بالضرورة أنّ ما يدّعونه من اللطف والمصلحه الحاصلة بالأئمّة المعصومين باطلة قطعاً ![1].

لماذا ؟! لأنّ أحداً منهم لم يتحقّق له السلطان ولم تدخل كلّ الأُمّة في طاعته !

---

(١) منهاج السُنّة ٢: ٨٤، ويكرّر هذا المعنى في ص ١٠٨ ـ ١٠٩ من هذا الجزء أيضاً.

ماذا يقول عاقل مرّ علىٰ قريةٍ غلب علىٰ أهلها التخلّف فهم لا يفقهون حتّىٰ مبادئ الزراعة الأوّليّة، وغلب عليهم العناد فهم يستكبرون حتّىٰ عن إلقاء البذور على وجه الأرض، ويرى أنّ السماء تمطرهم بين الحين والحين وهم مع ذلك جياع منهكون، أيقول إنّه ليس للمطر فائدة، وإنّ ما يزعمونه من المصلحة الحاصلة بنزول المطر باطلة قطعاً ؟!

ذاك حديث الجاهلين.. حديث لا يرتضيه حتّىٰ أُولي الأهواء الهابطة.

فما المصلحة ـ عند هؤلاء ـ من سفينة نوح حين لم يركبها قومه فغرقوا جميعاً وهلكوا ؟!

أيقول أحد يؤمن بالله واليوم الآخر إنّه ليس في نوح وسفينته مصلحة ولا لطف لأنّ قومه عاشوا في زمانه فتناً واختلافاً كثيراً انتهى بهلاكهم جميعاً غير نفرٍ قليل كانوا معه ؟!

إنّها لغةٌ بعيدة عن معاني لغة السماء، بعيدة عن معاني القيم التي عرفها بني الإنسان، فعرفوا للعظماء حقّهم، وعظّموا قدرهم، وأنّبوا الإنسان الجافي لصدوده عنهم وإخلاده إلى الأرض !

لقد عظّم أُولو النفوس الكريمة دعاة الإصلاح وحَمَلَة مشاعل النور والخير أبداً..

فمن جهل قدر المسيح عليه السلام وهو يعلم أنّ قومه لم يجنوا من معين الخير الذي جاء به إلّا نزراً يسيراً، ثمّ أهدروه ؟!

ومن يُنكر أنّ يحيى بن زكريّا كان خيراً كلّه ولطفاً وصلاحاً للإنسانيّة، وإن أضاعه عبيد الأرض فلم ينتفعوا من خيره شيئاً لدنياهم أو أُخراهم ؟!

وهذا كتاب الله الحكيم الذي جمع خير الدنيا والآخرة ،وقد تركه الناس وراء ظهورهم بين كافر ومعاند وجاهل ومسلم لم يدخل الإيمان قلبه، فلم ينتفعوا به شيئاً، أيقال إنّ المصلحة من إنزاله باطلة قطعاً ؟! عدنا إلى حديث الجاهلين..

نورٌ علىٰ نور، يهدي اللهُ لنوره من يشاء: «الثقَلَين» «إن تمسّكتُم بهما» «لن تضلّوا بعدي» ! معادَلة رياضية ذات طرفين:

(الثقلين) + (التمسّك بهما) = «لن تضلّوا بعدي»

«الثقَلَين» = «كتاب الله» + «عترتي أهل بيتي» وقال النبيّ: «لن يتفرّقا»

∴ (كتاب الله + عترتي أهل بيتي) + (التمسّك بهما) = «لن تضلّوا بعدي».

وهو المطلوب.

(أرض صالحة للإنبات + ماء فرات) + حُسن الانتفاع بهما = ثروةٌ ورفاه.

فهل يلقي باللاّئمة علىٰ التربة والماء من لم يُحسن الانتفاع بهما وهَدَرَ ما فيهما من ثروة ؟! ومن أخذ التربة يزرعها ويداريها وقد حبس عنها الماء فلم يحصد إلاّ العناء والشقاء، أيقول إنّه لا خير في الماء ولا لوجوده مصلحة ؟!

كانت تُحدّثنا الأساطير بأحكام كهذه يقصّها علينا أجدادنا ونحن صغار ليُضحكونا، فنضحك لها ونغيب في الضحك حتّى يخشىٰ علينا أهلونا الاختناق، فما فجأنا إلاّ أن نرى تلك الأحكام عقيدةً يدين بها (الفقيه) (الإمام)، ويختم بها تصوّره للدين والحياة، ونظرته للأنبياء والأوصياء والأسباط !!

الخاتمة

الموروث والمُكتَسَب كيف سيتركان بصماتهما على المرء سلباً أو إيجاباً؟

في الموروث: مزاجٌ حادّ، وذكاء حادّ.

وفي المكتسَب: أجواءٌ حادّة: ـ في البيئة..

ـ وفي أحداث العنف المتعاقبة على أيدي التتار.

ـ وفي رُعبٍ لا يوصَف بين جنبي الصغير الذي يرى أهله وأهل بلدته يذعرون ويفرّون بأرواحهم في المسالك الوعرة والموتُ يطاردهم.

ـ وفي نشأة مع شباب الحنابلة الّذين يميلون إلى العنف في مواجهة أخطاء العوامّ، وفي تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ ونزعة إلى الرئاسة الدينيّة في بيت احتفظ بهذه الرئاسة قرناً من الزمن.

ـ وزعامة المذهب في مستهلّ العمر، في الحادية والعشرين.

كلّ هذه عوامل قد تأثّر بها الشيخ ابن تيميّة تأثّراً إيجابيّاً، إلّا واحدة منها، وهي تلك الهزيمة المؤلمة أمام الاجتياح التتري، فقد كان تأثّره بها سلبيّاً، فنشأ ناقماً عليهم محبّاً لمهاجمتهم ومطاردتهم محرّضاً على ذلك بكلّ ما يملك من وسائل حتّى شارك بنفسه في قتالهم. فلا شكّ أنّ الرعب والهزيمة قد يخلقان في المرء الميل إلى الانتقام.

أمّا العوامل الأُخرى فقد وجدت لها بين جنبيه مستقرّاً تجمّعت فيه وتكاملت حتّى برزت في سلوكه بروزاً قلّ نظيره، فنشأ الرجل حادّاً في ذكائه، حادّاً في أحاسيسه، حادّاً في مزاجه، مسارعاً إلى العنف في مواجهة خصومه ومهاجمة أفكارهم، يرى أنّ الزعامة الدينيّة طبعٌ فيه لاينبغي أن ينازعه عليها أحد، بل لا ينبغي لأحد أن يشكّ في زعامته!

هاجم المذاهب الفقهيّة والكلاميّة، وهاجم الفرق والعلماء، وهاجم المواقع التي يرتادها الصوفيّة فخرّبها يتبعه مؤيّدوه من الشباب المتسارعين إلى مثل هذا، وبقي مدّة من الزمن يستدعي أفراداً فيعاقبهم بيده على مخالفة بعض السنن، وحارب المخالفين في جبال سورية بالسيف وغزاهم مع الجيش وأباح للجيش تخريب بساتينهم وهدم منازلهم وإجلائهم من أراضيهم.

إنّه لا بُدّ أن يهاجم، وقد شغف بمهاجمة الفرق الإسلاميّة وعلماء المسلمين، وكان معهم على الدوام حادّ اللسان، جارح العبارة، يهاجم ويُكذّب خصمه، ويطعنه دون أدنى تردّد حتّى لم يترك أحداً خاصمه إلّا ويصفه بالضلال أو الكذب والافتراء، أو الجهل، أو تقليد اليهود والنصارى، أو اتّباع الفراعنة والهنود واليونان! ولا فرق في ذلك بين خصمٍ يناظره وجهاً لوجه، وآخر يردّ عليه في كتابٍ أو خطاب، وآخر قد مات منذ عهد طويل..

إنّه لا يوفّق للصواب من يتنكّر لتأثير البيئة والوراثة في صناعة هذه السجايا.

وثمّة عامل آخر ساهم في إلهاب حدّة هذا الرجل وسرعة تأجّج غضبه، رافقه حتّى النهاية، وهذا العامل لا يعدو في أصله أن يكون وليداً لمؤثّرات البيئة والوراثة، أو نقصاً عضويّاً، لكنّه أصبح فيما بعد عاملاً مستقلّاً له آثاره الخاصّة في

حياة الرجل وسلوكه بلا شكّ، وذاك هو: عزوفه عن الزواج !

ولا يخفى أنّ العزوف عن الزواج ليس بالأمر الطبيعي، وخصوصاً مع كون الرجل من الفقهاء في دينٍ لا يبيح ذلك، ويعيب الرهبانيّة لأجله !

ومن الطريف أن أقرأ عند بعض الأساتذة تشخيص هذه الظاهرة عند الشيخ ابن تيميّة عن غير قصد منه، وربّما لم يخطر ذلك له ببال !

فقد قرأتُ عند الدكتور عبدالرحمٰن صالح وهو يحدّد معنى الزهد كما جاء به الإسلام، حين قال: يرى ابن تيميّة أنّ الزهد عكس الرغبة، فعندما نقول إنّ هذا الرجل زاهد في شيء معيّن، فالمقصود أنّه لا يرغب في الحصول عليه.

ثمّ أتى الدكتور بمثال علىٰ ذلك فقال: وإذا كان الأمر كذلك فإنّه لا يحقّ للمسلم أن يترك أمراً أو عملاً أمره الله به بحجّة الزهد، فربّ العالمين حثّ على الزواج وحاربَ الرهبانيّة، ولا يُعقل أن يقبل الإسلام العزوف عن الزواج بدعوى الزهد والورع ![1].

ولم يكن الدكتور حين كتب هذا يقصد التشنيع علىٰ الشيخ ابن تيميّة، وإنّما الموافقات هي التي ساقته إلىٰ هذا المثال في هذا الموضع !

إنّه حين يكون المرءُ حادّاً في طبعه فلا يُنكر ما ستضفيه عليه حالة العزوبة الدائمة من زيادة في الحِدّة، وسرعة في الغضب، وتوتّر في المزاج قد لا يدرك المرء أسبابه الحقيقيّة، وقد يستهجن النظرة العلميّة والآثار الواقعيّة التي تؤكّد بأن الاستمرار في كبح الغريزة الجنسية يولّد أنواعاً مِن التوتّر والانشداد العصبي تظهر على السلوك بألوان مختلفة، قد يدركها الشخص المصاب وقد لا يدركها.

---

(١) دراسة في الفكر التربوي الإسلامي: ٢٣.

وأيضاً فثمّةَ ناحية أُخرى قد تُعزىٰ إليها بعض الملاحضات المأخوذة علىٰ تراث الشيخ ابن تيميّة ، وهي أنّ علماء النفس يقولون : إنّ هناك تناسباً عكسياً بين قوّة الحافظة، وقوة النّظم الفكري، فزيادة الحافظة لا تكون إلّا على حساب القدرة الفكرية في تنظيم الأفكار وترتيب الأحكام. والعكس بالعكس.

لذا كان الأديب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي يرى أنّ سرّ براعته الأدبيّة هو ما كان يعانيه من ضعف في الذاكرة، أو أنّ براعته تلك كانت على حساب حافظته.

وهكذا رأى بعض الدارسين في السيّد جمال الدين الأفغاني حين لاحظوا أنّ تفوّقه الكبير في نظم الأفكار والأحكام كان على حساب قوّته الحافظة، إذ كانت دون ذلك بكثير.

وعلى العكس منهما كان الشيخ ابن تيميّة، فقد تميّز بحافظة ثاقبة عزيزة النظير، فلا غرابة أن تغتصب قدراً من انتظام الأفكار والأحكام الفكريّة لديه.

إنّ تجمّع هذه الظواهر بشكلها البارز في سلوك الشيخ ابن تيميّة وفي آفاقه الفكريّة ليرجّح صحّة الرسالة المنسوبة إلى الذهبي يخاطب بها ابن تيميّة فيعطي فيها تشخيصاً دقيقاً لنزعته الثابتة قد لا يقدر عليه ممّن عاصر الشيخ وعايشه غير الحافظ الذهبي.

ويؤيّد صحّة نسبتها إلى الذهبي أيضاً أنّه لم يكتبها لينشرها في كتبه فيُشهّر بالشيخ ابن تيميّة ويعيب عليه نزعته الخاصّة، وإنّما وجّهها إليه خطاباً شخصيّاً فقط، فحُفظت نسختها ونُقلت من خطّ الذهبي.

وممّا قاله الذهبي في رسالته مخاطباً ابن تيميّة :

ـ إلى كم ترى القذاةَ في عين أخيك، وتنسى الجذع في عينيك ؟!

ـ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك، وتذمّ العلماء وتَتبّع عورات الناس مع علمك بنهي الرسول ﷺ «لا تذكروا موتاكم إلّا بخير فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا» ؟! بل أعرف أنّك تقول لي لتنصر نفسك: إنّما الوقيعة في هؤلاء الّذين ما شمّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمّد ﷺ، وهو جهاد! بل والله عرفوا خيراً كثيراً ممّا إذا عمل به [المرء] فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً لا يعنيهم، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ـ يا رجل، بالله عليك كفّ عنّا، فإنّك محجاج عليم اللسان، لا تقرّ ولا تنام!

ـ والله لقد صرنا ضحكةً في الوجود، فإلى كم تبثّ دقائق الكفريّات الفلسفيّة ؟!

ـ يا رجل، قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرّات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم، وتكمن والله في البدن!

ـ وا شوقاه إلى مجلسٍ يُذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بل عند ذكر الصالحين يُذكَرون بالازدراء واللعنة !!

كان سيف الحجّاج ولسان ابن حزم شقيقين، فواخيتَهما!

ـ إلى متى تمدح كلامك بكيفيّةٍ لا تمدح واللهِ بها أحاديث الصحيحين ؟! يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كلّ وقت تُغِير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار.

ـ وهل معظم أتباعك إلّا قعيد مربوط خفيف العقل! أو عامّي كذّاب بليد

الذهن ! أو غريب واجم قويّ المكر ! أو ناشف صالح عديم الفهم ؟! فإن لم تصدّقني ففتّشهم وزِنْهم بالعدل.

ثمّ ختمها بقوله:

فما أظنّك تُقبل على قولي، ولا تصغي إلى وعظي، بل لك همَّةٌ كبيرةٌ في نقض هذه الورقة بمجلّدات، وتقطع لي أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتّى أقول: ألبَتَّةَ سَكَتُّ !!(١).

تلك أبرز الملامح الغريبة في ذلك الرجل الغريب..

إنّه لا بُدّ أن يهاجم، وإذا هاجم فلا بُدّ أن ينتصر، فإن لم تسعفه الحجّة لجأ إلى التضعيف والإهدار، أو التأويل والإنكار، أو العيب والجرح والتكذيب، ومن الطبيعي جدّاً أن لا يجد بين أهل العلم مَن يقابله بمثل هذه الكلمات النابية لأنّهم أبعدوها عن ساحتهم، بل طالما ابتعد العلماء عن مواجهته تحاشياً من ذلك.

مع هذا فقد كان بارعاً في استخدام جملة من المصطلحات الرنّانة، كـ(اتّفاق أهل العلم) و (إجماع السَّلَف) و (قول السَّلَف) و (عقيدة السَّلَف) و (لم يذكر ذلك أحد)، ونحو هذا ممّا استحوذ على كثيرٍ من معاصريه، ومن المقلّدين في كلّ جيل، من دون أن يتطرّق إلى مخيّلاتهم أنّها مجازفات بعيدة عن الواقع !

لكنّ تلك المجازفات وما رافقها من إصرار وحماس، جعلت منه لدى بعض الدارسين وكثير من المقلّدين رجلاً عبقريّاً لا يضاهى. ثمّ أضفى المقلّدون على هذه العبقريّة صفة القداسة، وهذا شأن المقلّدين دائماً مع كلّ شخصيّة يعظّمونها.

---

(١) هذه فقرات من الرسالة أخذناها عن كتاب (الغدير) ٥: ٧٨ ـ ٨٩، ونقل هو عن (تكملة السيف الصقيل) للكوثري: ١٩٠، وكتبه الكوثري من خطّ قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة، وكتبه الأخير من خطّ الحافظ أبي سعيد بن العلائي وقد كتبه من خطّ الذهبي.

ومن ناحية أُخرى فقد بالغ في الانتصار لما تمسّك به المقلّدون قديماً من آثار الثقافة الأُمويّة ، ثمّ تقدّم عليهم كثيراً ليجرّ وراءه تيّاراً جديداً يحفظ له إبداعه ..

لقد حدّثنا التاريخ صراحةً أنّ كثيراً من الحقائق التي تمسّ قضيّة الخلافة كانت تُخفى تحاشياً لإثارة العامّة التي أصبحت لا تعتقد إلّا بما سمعته ونشأت عليه ممّا أذِن به الأُمويّون وأشاعوه ، وترى أنّ كلّ ما خالفه فهو باطل ، وقد لا تحتمل سماعه !

هكذا حدّثنا الطبري صراحةً في قصّة أبي ذرّ الغفاري ، وفي المكاتبة التي جرت بين معاوية ومحمّد بن أبي بكر ، قال الطبري : كرهت ذكرها لاحتوائها أُموراً لا تحتملها العامّة ![1].

وكلّ الذي انطوى عليه ذانك الحَدَثان هو الإثارة في قضيّة الخلافة وتسليط الضوء على حقّ عليّ عليه السلام خاصّة .

فجاء ابن تيميّة فثار على تلك الأُمور ثورةً ينتصر فيها لعقائد العامّة أشدّ انتصار ، ثمّ تقدّم عليهم غلوّاً في الأمر فأنكر كثيراً ممّا كانت العامّة ترتضيه ولو على نوع من التأويل ، أو قدر من التردّد ..

أنكر أن يكون أبو بكر في جيش أُسامة ، وهذا شيء سمعته العامّة ورضيت به .

وأنكرأن يكونأبوبكر وعمر قد حملا راية خيبرأوّلاً ثمّ عادا بهامن غيرفتح ، وهذا أيضاً ممّا كان يجرؤ المؤرّخون على ذكره ، فذكروه ، وذكره الطبري الذي كان صريحاً في تجنّب ما يثيرالعامّة ، فكانت العامّة تحتمله إذن ، لكنّابن تيميّة لم يحتمله !

ثمّ ذهب إلى أبعد من هذا ، فتنكّر لكثير من فضائل عليّ عليه السلام وخصائصه التي تسالم أصحاب الحديث والسِيَر على ذكرها ، كحديث المؤاخاة وحديث محاربة

(١) تاريخ الطبري / أحداث سنة ٣٠ ج ٤ : ٢٨٣ ، أحداث سنة ٣٦ ج ٤ : ٥٥٧ .

الناكثين والقاسطين والمارقين .

فلماذا لا تجد فيه تلك الطبقة أملها المنشود ، وإمامها الموعود ؟!

تلك المزايا مجتمعةً هي التي شكّلت الأسباب الحقيقيّة لبروزه وتصدّره على رأس تيّار كان مشتّتاً فوجد له من ينظّم أمره .

ذلك هو حال المقلّدين معه .

وأمّا الدارسون فكانوا على قسمين ، انضمّ أحدهما إلى طبقة المقلّدين بالكامل ، يكرّر الأقوال بلا تميز بين صواب وخطأ ، أو حقّ وباطل ، ويُقدّس ويعظّم إلى نهاية المطاف ، ليجعل منه صورة حيّة للسّلَف الصالح في أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم !!

بينما التزم القسم الثاني النهج العلمي في الدرس ، ولا غرابة أن يتفاوت الالتزام بالنهج العلمي ، ولأن تتفاوت نتائج الدراسات ، فهذا أمر مألوف في كلّ دراسة .

وقد رأى هذا الفريق من الدارسين في الشيخ ابن تيميّة ملامح إمام فتح أبواباً جديدةً في الإفتاء والاجتهاد ، وفي الكلام والعقائد ، وربّما في التفسير أيضاً ، فاخترق حواجز التقليد ، ومهّد للتجديد طريقاً لا تنتفي الحاجة إليه .

لكن فاتهم أنّ هذه في الحقيقة ما هي إلّا دعوى اكتُشِفت أخيراً للظهور بتبرير علمي مقبول لمتابعة ابن تيميّة ونشر سائر أفكاره ، وقد روّج لها بعض المستشرقين أيضاً ، وساعد على رواجها أنّ الفئات السياسيّة المتنفّذة أمس واليوم لم تجد في هذه الدعوى ما ينفّرها ، بل وجدت فيها ما يطمئنها حين أدركت أنّ الشيخ ابن تيميّة كان دائماً شديد التحذير من الخروج على السلطان وإن كان ظالماً ومجاهراً بالفسق وركوب المحرّمات ، وأيضاً فإنّ هذه النقطة بالذات قد أصبحت نقطة التقاء الفُرقاء

المتخاصمين على الدوام ، يلتقي عندها الظالم والمظلوم ، والمفسد والمُصلح ! فكثير من دعوات التغيير قد اتّخذت من هذه النظرية مبدأ لها ، فهي تحرّم الخروج على السلطان وإن عطّل الحدود وتجاوز في الظلم والإفساد أقصى مداه .

فاتّخذ هؤلاء من تلك النظرية ذريعةً لتقصيرهم وتباطئهم ، واتّخذ منها أُولئك آلةً لبقائهم في الملك وتماديهم !

وإذا أغفلنا هذه الحقيقة الظاهرة فإنّ التقييم المتقدّم ـ الذي يرى في ابن تيميّة إمام التجديد ـ قد يصدق في النظرة الكليّة إلى دراسات الشيخ ابن تيميّة ومصنّفاته وعناوين بحوثه، ولكنّه لا يصدق مع التفاصيل التي رأينا كيف كانت مليئةً بالأخطاء والمغالطات والمجازفات الخطيرة .

وقد تنبّه بعض الدارسين إلى هذا فرأى أنّ ما أصاب به الشيخ فهو لنا، ننتفع به بقدر ما يمكنه أن ينفعنا . وأمّا أخطاؤه في التفاصيل وفي بعض العناوين فهي عليه، وقد أفضى إلى عمله .

وهذه نظرة جيّدة وفهم صحيح يعرف للعلم حقّه من دون أن يحمله هذا على الغلوّ في الرجال وتقديسهم ومتابعتهم حتىّ على الخطأ والمحذور الشرعي .

ولكنّ الواجب في منهج كهذا أن لا يغفل التنبيه إلى هذه النقطة المهمّة التي بُني عليها، لأنّ الاقتصار على ذكرِ الجوانب الصحيحة علميّاً وشرعيّاً سيغري المقلّدين الّذين يتمسّكون بأيّ ذريعة مهما كانت واهية، لأجل تعزيز اعتقادهم في الرجل الذي غالَوا في تعظيمه، وبالخصوص حين تكون تفاصيل أفكاره وجملة من كبريات مبادئه مليئةً بالمخاطر والمسالك المُردية، والانحرافات العقائديّة المُهلكة، إذ سيكون الأمر أشدّ خطراً، وتكون عاقبة الإغراء أكثر سوءاً .

وهذا الأمر هو الذي دفعنا للكتابة في هذا الرجل وعقيدته ..

فإلى متى نقدّس الرجال، أصابوا أو أخطأوا ؟!

إلى متى نقدّس أسماءً لا نعرف عن بواطنها وخفاياها شيئاً ؟!

فلنكن أكياساً كما أراد لنا الله تعالى، وكما أرشدنا ديننا الحنيف وقد رسم لنا المنهاج الحقّ بكلّيّاته وتفاصيله، فما طابقه فهو الصواب، وما خالفه فهو الباطل المردود على أهله أيّاً كانوا، ومهما كانت أسماؤهم أو عناوينهم.

علينا أن نعبد الله بهديه وسُنّة نبيّه، لا بأقوال الرجال وإن أخطأوا، لئلّا نكون كقوم سخط الله عليهم فقال فيهم: ﴿ *ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ* ﴾[1].

فالمحجّة بيضاء، والصراط مستقيم، وللحقّ علامات، وعليه نورٌ وبهاء لا يطلب في متاهات المتكلّمين والتواءات المجادلين، ولكن ﴿ *مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ* ﴾[2].

ألا وإنّ «**أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمّد ﷺ، وشرّ الأُمور محدَثاتُها**»[3].

ـ و «**إنّ الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أُمورٌ متشابهات، فمن تركهنّ سَلِمَ دينهُ وعِرضُه، ومن أوضَعَ[4] فيهنَّ يوشك أن يقع فيه**»[5].

ـ و «**إنّ الله أنزلَ كتاباً وافترض فرائضَ فلا تنقُصوها، وحدّ حدوداً فلا**

---

(١) التوبة ٩: ٣١.

(٢) الحشر ٥٩: ٧.

(٣) مسند أحمد ٣: ٣١٠.

(٤) أي: أسرعَ.

(٥) أخرجه الدارقطني في السنن ـ كنز العمّال ٣: ٤٣٣ / ٧٣١٤.

تُغيّروها، وحرّم محارمَ فلا تقربوها، وسكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً، كانت رحمةً من الله فاقبلوها، إنّ أصحاب الرأي أعداء السنن! تفلّتت منهم أن يعوها، وأعيتهم أن يحفظوها، وسُلبوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإيّاكم وإيّاهُم»(١).

ـ «ألا أيّها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسولُ ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي»(٢).

ـ «إنّي لكم فَرَطٌ، وإنّكم واردون عليَّ الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بُصرى، فيه عدد الكواكب من قدحان الذهب والفضّة، فانظروا كيف تخلُفوني في الثقَلين.

قيل: وما الثقلان يا رسول الله؟.

قال: الأكبر: كتابُ الله، سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به لن تزلّوا ولن تضلّوا؛ والأصغر: عترتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يرِدا عليَّ الحوض، وسألتُ لهما ذاكَ ربّي، فلا تَقَدّمُوهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم»(٣).

ربّنا تقبّل منّا، واشرح صدورنا لما تحبّ وترضى

٢٥ رجب ١٤١٤.

---

(١) منتخب كنز العمّال ١: ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٤: ١٨٧٣ / ٢٤٠٨.

(٣) أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم ـ منتخب كنز العمّال ١: ١٢٠، مجمع الزوائد ٩: ١٦٣ ـ ١٦٤، الصواعق المحرقة ـ باب ١١ فصل ١، ومختصراً في سنن الترمذي ح/ ٣٧٨٨، والمستدرك ٣: ١٤٨.

المصادر

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**: محمد جواد البلاغي ـ ط ٢ ـ مكتبة الوجداني ـ قم.

٣ ـ **ابن تيميّة**: حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي.

٤ ـ **ابن تيميّة وموقفه من أهم الفرق والديانات**: الدكتور محمد حربي ـ عالم الكتب ـ ط ١ ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

٥ ـ **أبو الشهداء الحسين بن علي**: عباس محمود العقاد ـ ط ٢.

٦ ـ **الإتحاف بحبّ الأشراف**: الشبراوي الشافعي ـ المطبعة الأدبية بمصر ـ دار الذخائر للمطبوعات.

٧ ـ **إثبات الوصية**: المسعودي (٣٤٦ هـ) ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٨ ـ **أجوبة المسائل المهنّائية**: العلّامة ابن المطهّر الحلّي (٧٢٦ هـ) ـ مطبعة الخيام ـ ١٤٠١ هـ.

٩ ـ **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان**: ابن بلبان الفارسي (٧٣٩ هـ) ـ تحقيق كمال يوسف الحوت ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠ ـ **أحسن التقاسيم**: البشاري ـ دار احياء التراث العربي ـ ١٤٠٨ هـ.

١١ ـ **الإرشاد**: الشيخ المفيد (٤١٣ هـ) ـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ ط ١ ـ ١٤١٣ هـ.

١٢ ـ **أسباب النزول**: الواحدي (٤٦٨ هـ) ـ عالم الكتب ـ بيروت.

١٣ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: ابن عبد البرّ النمريّ (٤٦٣ هـ) ـ بهامش الإصابة ط ١ ـ ١٣٢٨ هـ ـ دار إحياء التراث العربي.

١٤ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين ابن الأثير (٦٣٠ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي.

١٥ ـ **الأسماء المبهمة والأنباء المحكمة**: الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) ـ إخراج الدكتور عز الدين علي السيد ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ ط ١ ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤م.

١٦ ـ **الأسماء والصفات** : البيهقي (٤٥٨ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** : ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٢٣ هـ .
١٨ ـ **أصل الشيعة وأصولها** : الإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ط ١٤ ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م .
١٩ ـ **الاعتقادات في دين الإمامية** : محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١ هـ) ـ تحقيق غلام رضا المازندراني ـ المطبعة العلمية ـ قم ـ ١٤١٢ هـ .
٢٠ ـ **الأعلام** : خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة السابعة .
٢١ ـ **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام** : عمر رضا كحّالة ـ مؤسسة الرسالة ـ ط ١٠ ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١م .
٢٢ ـ **أعيان الشيعة** : السيد محسن الأمين ـ تحقيق وإخراج حسن الأمين ـ دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ـ ١٩٨٣م .
٢٣ ـ **الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد)** : الشريف المرتضىٰ (٤٣٦ هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ٢ ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م .
٢٤ ـ **الإمامة والسياسة** : ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) ـ مكتبة ومطبعة مصطفىٰ بابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩م .
٢٥ ـ **أمل الآمل** : الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي (١١٠٤ هـ) ـ تحقيق السيد أحمد الحسيني ـ مكتبة الأندلس ـ بغداد .
٢٦ ـ **الإيمان** : ابن تيمية ـ تلخيص وتحقيق وشرح الشيخ حسين يوسف الغزال ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م .
٢٧ ـ **بحث حول الولاية** : السيد محمد باقر الصدر ـ المجموعة الكاملة ج ١١ ـ دار التعارف للمطبوعات ـ ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م .
٢٨ ـ **البداية والنهاية** : ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .
٢٩ ـ **البدر الطالع** : الشوكاني (١٢٥٠ هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٣٠ ـ **البرهان في تفسير القرآن** : هاشم البحراني ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٣١ ـ **بلدان الخلافة الشرقية** : كي لسترنج ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م .
٣٢ ـ **تاريخ ابن خلدون** : عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) ـ تحقيق الاستاذين خليل شحادة وسهيل زكّار.
٣٣ ـ **تاريخ ابن الوردي** : عمر بن مظفّر الشهير بابن الوردي (٧٤٩ هـ) ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الاشرف ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م .
٣٤ ـ **تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)** : عماد الدين إسماعيل أبو الفداء (٧٣٢هـ) ـ دار الفكر ودار البحار .
٣٥ ـ **تاريخ الأدب العربي** : عمر فرّوخ ـ دار العلم للملايين ـ ط٥ ـ ١٩٨٤م .
٣٦ ـ **تاريخ الاسلام** : شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ ط١ ـ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م .
٣٧ ـ **تاريخ بغداد** : الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١م .
٣٨ ـ **تاريخ الخلفاء** : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٨ هـ .
٣٩ ـ **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** : الامام حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري ـ مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ـ بيروت .
٤٠ ـ **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** : فيليب حتّي ـ دار الثقافة ـ بيروت .
٤١ ـ **تاريخ الطبري (تاريخ الامم والملوك)** : محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) ـ ط١، وأحياناً ط٢ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار التراث ـ بيروت .
٤٢ ـ **التاريخ الكبير** : الإمام البخاري (٢٥٦ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٤٣ ـ **تاريخ اليعقوبي** : أحمد بن أبي يعقوب الكاتب العباسي (القرن الثالث الهجري) ـ دار صادر ـ بيروت .
٤٤ ـ **التبيان في تفسير القرآن** : الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ) ـ تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي ـ مكتبة الأمين ـ النجف الأشرف ـ ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣م .
٤٥ ـ **التحفة العراقية في الأعمال القلبية** : ابن تيميّة ـ بغداد .

٤٦ ـ **التذكرة** : ابن عراق المصري / بالواسطة .

٤٧ ـ **تذكرة الحفّاظ** : شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ تصحيح عبدالرحمٰن بن يعلىٰ المعلمي ـ دار إحياء التراث العربي ـ مكتبة الحرم المكي بمكّة المعظّمة .

٤٨ ـ **تذكرة الخواص** : سبط ابن الجوزي (٦٥٤ هـ) ـ تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم ـ ط ١ .

٤٩ ـ **تراثنا (مجلّة)** : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم .

٥٠ ـ **تعليقة الكوثري (محمد زاهد) ـ في ذيل الأسماء والصفات للبيهقي** : ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٥١ ـ **تفسير ابن كثير** : أبو الفداء ابن كثير الدمشق (٧٧٤ هـ) ـ دار المعرفة .

٥٢ ـ **تفسير أبي السعود** : أبو السعود محمد بن العمادي (٩٥١ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي .

٥٣ ـ **تفسير البغوي (معالم التنزيل في التفسير والتأويل)** : البغوي (٥١٠ هـ) ـ دار الفكر ـ ١٤٠٥ هـ .

٥٤ ـ **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)** : أبو سعيد عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي ـ دار الكتب العلمية ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

٥٥ ـ **تفسير الثعلبي (الكشف والبيان في تفسير القرآن)** : أبو إسحاق الثعلبي (٤٢٧ هـ) ـ الجزء الأول منه مطبوع على الحجر .

٥٦ ـ **تفسير الرازي** : الفخر الرازي (٦٠٦ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي .

٥٧ ـ **تفسير سورة النور** : ابن تيمية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٥٨ ـ **تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)** : محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) ـ دار الفكر ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

٥٩ ـ **تفسير العياشي** : محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي ـ تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي ـ المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران .

٦٠ ـ **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)** : أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني .

٦١ ـ **تفسير القمي** : علي بن إبراهيم القمّي ـ تصحيح السيد طيّب الموسوي الجزائري ـ مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر .

٦٢ ـ **تفسير الكاشف** : محمد جواد مغنية ـ دار العلم للملايين ـ ط ٤ ـ ١٩٩٠ م .

٦٣ ـ **التفسير الكبير** : ابن تيمية ـ تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

٦٤ ـ **تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)** : أبو البركات النسفي (٧٠١ هـ) ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٦٥ ـ **تقريب التهذيب** :الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٦٦ ـ **تكملة السيف الصقيل** : محمد زاهد الكوثري / بالواسطة .

٦٧ ـ **تلبيس إبليس** : أبو الفرج ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٤٠٧ هـ .

٦٨ ـ **تلخيص المستدرك** : شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ ذيل المستدرك على الصحيحين .

٦٩ ـ **تنزيه الأنبياء** : الشريف المرتضى (٤٣٦ هـ) ـ منشورات الشريف الرضي ـ ط١ .

٧٠ ـ **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** : تهذيب وترتيب الشيخ عبدالقادر بدران (١٣٤٦ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م .

٧١ ـ **تهذيب التهذيب** : ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط١ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٥ هـ .

٧٢ ـ **الثقات** : ابن حبان التميمي ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ ط١ ـ ١٩٧٣م .

٧٣ ـ **جامع الأصول** : ابن الاثير الجزري (٦٠٦ هـ) ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط٤ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .

٧٤ ـ **الجامع الصغير** : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار الفكر ـ بيروت .

٧٥ ـ **جهاد الإمام السجّاد**: السيد محمد رضا الحسيني الجلالي ـ ط١ ـ ١٤١٣ هـ .

٧٦ ـ **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح** : ابن تيميّة / بالواسطة .

٧٧ ـ **الحافظ أحمد بن تيميّة** : ابو الحسن الندوي ـ تعريب سعيد الأعظمي ـ دار القلم ـ الكويت .

٧٨ ـ **حسن المحاضرة** : السيوطي / بالواسطة .

٧٩ ـ **الحسنة والسيئة** : ابن تيميّة ـ دار الكتب العلمية .

٨٠ ـ **حقوق آل البيت** : ابن تيميّة ـ الجيزة ـ ط١٩٨١م / بالواسطة .

٨١ ـ **حلية الأولياء** :الحافظ أبو نعيم (٤٣٠ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م .

٨٢ ــ **الحمويّة الكبرى** : ابن تيميّة ـ (نفائس : الرسالة التدمرية ، والحمويّة الكبرى) ـ تحقيق حامد الفقي ـ معمل ومطبعة جمال العبدلي ـ بغداد .

٨٣ ــ **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة** : ابن الفوطي البغدادي ـ دار الفكر الحديث ـ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ .

٨٤ ــ **حياة الصحابة** : محمد يوسف الكاندهلوي ـ تحقيق الاستاذ علي شيري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٦ هـ .

٨٥ ــ **خصائص أمير المؤمنين** : الحافظ النسائي (٣٠٣ هـ) ـ مطبعة التقدّم بالقاهرة .

٨٦ ــ **الخصائص الكبرى** : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٥ هـ .

٨٧ ــ **دائرة المعارف الاسلامية** : دار الفكر .

٨٨ ــ **دراسة في الفكر التربوي الإسلامي** : الدكتور عبدالرحمن صالح عبدالله ـ مؤسسة الرسالة ـ دار البشير ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م .

٨٩ ــ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** : ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

٩٠ ــ **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور** : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٣ هـ .

٩١ ــ **دفع شُبَه التشبيه بأكفّ التنزيه** : المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ـ ١٩٧٦م / بالواسطة .

٩٢ ــ **دلائل النبوة** : أبو بكر البيهقي (٤٥٨ هـ) ـ تحقيق الدكتور عبدالمعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ ط ١ ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .

٩٣ ــ **الذريعة إلى تصانيف الشيعة** : الشيخ آقا بُزرك الطهراني ـ دار الأضواء ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٩٤ ــ **الذيل على طبقات الحنابلة** : ابن رجب الدمشقي (٧٩٥ هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٩٥ ــ **رأس الحسين** : ابن تيميّة ـ مطبوع مع (استشهاد الحسين) للطبري ـ تحقيق السيّد الجميلي ـ دار الكتاب العربي ـ ط ١ ـ ١٤٠٦ هـ .

٩٦ ــ **كتاب الرجال** : تقيّ الدين الحسن بن علي بن داود الحلّي (٧٠٧ هـ) ـ تحقيق السيد محمد صادق آل

بحر العلوم ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ١٩٧٢م .
٩٧ ـ **رجال الكشّي (اختيار معرفة الرجال)** : الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) ـ مطبعة جامعة مشهد ـ ١٣٤٨ هـ.ش .
٩٨ ـ **رحلة ابن بطّوطة** : شمس الدين ابن بطّوطة (٧٠٤ ـ ٧٧٩ هـ) ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .
٩٩ ـ **رحلة ابن جبير** : ابن جُبير الأندلسي (٦١٤ هـ) ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت.
١٠٠ ـ **الرحلة المدرسية** : محمد جواد البلاغي ـ تحقيق يوسف الهادي .
١٠١ ـ **الرد على الطوائف الملحدة** : ابن تيميّة ـ الفتاوىٰ الكبرىٰ ـ ج٦ .
١٠٢ ـ **الرد على المتعصّب العنيد** : أبو الفرج ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ـ تحقيق محمد كاظم المحمودي ـ ١٤٠٣ هـ .
١٠٣ ـ ***الرسائل التسع*** : السيوطي (٩١١ هـ) دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٥ هـ .
١٠٤ ـ **رفع الملام عن الأئمة الأعلام** : ابن تيميّة ـ منشورات دار الكتب العلمية .
١٠٥ ـ **روح التشيع** : الشيخ عبدالله نعمة ـ دار الفكر اللبناني ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .
١٠٦ ـ **روح المعاني (تفسير)** : السيد شهاب الدين محمود الآلوسي (١٢٧٠ هـ) ـ إدارة الطباعة المنيريّة ـ دار إحياء التراث العربي ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .
١٠٧ ـ **الروض الأُنف** : السُهيلي (٥٨١ هـ) ـ تحقيق عبدالرحمن الوكيل ـ دار إحياء التراث العربي ـ مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م .
١٠٨ ـ **الروض المعطار** : محمد عبدالمنعم الحِميري ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ مؤسسة ناصر للثقافة .
١٠٩ ـ **روضات الجّنات في أحوال العلماء والسادات** : الميرزا محمد باقر الموسوي الخونساري الأُصبهاني ـ مكتبة اسماعيليان ـ طهران .
١١٠ ـ **روضة المتّقين** : محمد تقي المجلسي (١٠٧٠ هـ) ـ مؤسسة فرهنك إسلامي ـ ١٤٠٦ هـ .
١١١ ـ **رياض العلماء وحياض الفضلاء** : الميرزا عبدالله أفندي الاصبهاني (القرن الثاني عشر) ـ تحقيق السيد أحمد الحسيني ـ مكتبة آية الله المرعشي النجفي .
١١٢ ـ **الرياض النضرة** : المحبّ الطبري (٦٩٤ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١١٣ ـ **كتاب الزيارة** : ابن تيميّة ـ دار مكتبة الحياة .

١١٤ ـ **الزيديّة** : الدكتور أحمد محمود صبحي ـ الزهراء للإعلام العربي ـ ط٢ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .
١١٥ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة** : ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ ط٤ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
١١٦ ـ **سنن ابن ماجة** : ابن ماجة القزويني (٢٧٥ هـ) ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الفكر .
١١٧ ـ **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)** : محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩ هـ) ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
١١٨ ـ **السنن الكبرىٰ** : البيهقي (٤٥٨ هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت .
١١٩ ـ **السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة** : ابن تيميّة ـ تحقيق أبو يعلىٰ القويسنيٰ ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٤٠٩ هـ .
١٢٠ ـ **سير أعلام النبلاء** : شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
١٢١ ـ **السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)** : علي بن برهان الدين الحلبي (١٠٤٤هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .
١٢٢ ـ **السيرة النبوية** : ابن هشام (٢١٣ هـ) ـ تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨٥م .
١٢٣ ـ **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء** : ابن حبّان التيمي (٣٥٤ هـ) ـ تصحيح الحافظ سيد عزيز بك وجماعة من العلماء ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ ط١ ـ ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧ .
١٢٤ ـ **السيرة النبوية (عيون الأثر)** : ابن سيّد الناس (٧٣٤ هـ) ـ مؤسسة عزّالدين للطباعة والنشر ـ ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م .
١٢٥ ـ **شذرات الذهب** : ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ) ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م .
١٢٦ ـ **شرح حديث النزول** : ابن تيميّة ـ منشورات المكتبة الإسلامية .
١٢٧ ـ **شرح كلمات الصوفيّة والرّد على ابن تيميّة** : محمود محمود الغراب ـ مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق ـ ١٩٨١م .

١٢٨ ـ **شرح نهج البلاغة** : ابن أبي الحديد (٦٥٦ هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر .

١٢٩ ـ **شعب الإيمان** : البيهقي (٤٥٨ هـ) ـ تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ ط ١ ـ ١٩٩٠م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٣٠ ـ **شواهد الحق** : الشيخ يوسف النبهاني / بالواسطة .

١٣١ ـ **الشيعة في الميزان** : محمد جواد مغنيّة ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

١٣٢ ـ **صبح الأعشى** : القلقشندي (٨٢١ هـ) ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٣٣ ـ **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرّق المذموم** : الدكتور يوسف القرضاوي ـ مؤسسة الرسالة .

١٣٤ ـ **صحيح البخاري** : الإمام البخاري (٢٥٦ هـ) ـ عالم الكتب ـ ط ٥ ـ ١٤٠٦ هـ ، وأحياناً الطبعة المرقّمة بتحقيق د . مصطفىٰ ديب البغا .

١٣٥ ـ **صحيح مسلم** : مسلم بن الحجّاج النيسابوري (٢٦١ هـ) ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م .

١٣٦ ـ **الصحيفة السجاديّة** : الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه‌السلام (٩٥ هـ) .

١٣٧ ـ **صفة الصفوة** : أبو الفرج ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ـ تحقيق محمد فاخوري ، و د . محمد رواس قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م .

١٣٨ ـ **الصواعق المحرقة** : ابن حجر الهيتمي (٩٧٤ هـ) ـ تحقيق عبدالوهاب اللطيف ـ مكتبة القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م .

١٣٩ ـ **الضعفاء الكبير** : أبو جعفر العقيلي (٣٢٢ هـ) تحقيق د . عبدالمعطي أمين قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م .

١٤٠ ـ **طبقات أعلام الشيعة** : الشيخ آقا بُزرك الطهراني ـ مؤسسة اسماعيليان ـ قم ـ ط ٢ .

١٤١ ـ **طبقات الشافعية الكبرىٰ** : ابن السُبكي (٧٧١ هـ) ـ تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ـ دار إحياء الكتب العربية .

١٤٢ ـ طبقات الفقهاء : أبو إسحاق الشيرازي الشافعي (٣٩٣ هـ) ـ دار الرائد العربي ـ ط ٢ ـ ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م .

١٤٣ ـ الطبقات الكبرى : ابن سعد الزهري (٢٣٠ هـ) ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .

١٤٤ ـ العبادة وحقيقة العبودية : ابن تيمية ـ قدّم له وخرّج أحاديثه عامر طاهر الشيخلي ـ مكتبة تعز للنشر ـ بغداد .

١٤٥ ـ عبدالله بن سبأ وأساطير أُخرى : السيد مرتضى العسكري ـ مطبعة دار الكتب ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م .

١٤٦ ـ العبر في خبر من غَبر : للحافظ الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ تحقيق وضبط أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٤٧ ـ عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان : بدر الدين العيني (٨٥٥ هـ) ـ حققه د . محمد محمد أمين ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٤٠٧م .

١٤٨ ـ عقليات إسلامية : محمد جواد مغنية ـ دار الجواد ـ دار التيار ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .

١٤٩ ـ العقود الدرية في مناقب ابن تيمية : محمد بن أحمد بن عبدالهادي (٧٤٤ هـ) ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٥٠ ـ العقيدة ، للإمام أحمد بن حنبل : رواية أبي بكر الخلّال ـ تحقيق عبدالعزيز عزّالدين السيروان ـ دار قتيبة ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

١٥١ ـ عقيدة الشيعة : دوايت م . رونلدسن ـ تعريب ع . م ـ مؤسسة المفيد للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٩٠م .

١٥٢ ـ العقيدة الواسطية : ابن تيمية ـ شرح محمد خليل هراس ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ـ ط ٣.

١٥٣ ـ علم الحديث : ابن تيمية ـ دار الكتب العلمية .

١٥٤ ـ عليّ وبنوه : طه حسين ـ المجموعة الكاملة ج ٤ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

١٥٥ ـ عيون الأخبار : ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) ـ دار الكتاب العربي .

١٥٦ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام : الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (٣٨١ هـ) ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .

١٥٧ ـ الغدير في الكتاب والسُنّة والأدب : عبدالحسين أحمد الأميني النجفي ـ دار الكتاب العربي ـ ط ٥

١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

١٥٨ ـ **فتاوى ابن الصلاح** : القاهرة ـ طبعة سنة ١٣٤٨ ـ نشر منير الدمشق / بالواسطة .

١٥٩ ـ **الفتاوى الكبرى** : ابن تيميّة ـ تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، ومصطفى عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م .

١٦٠ ـ **فتح القدير (تفسير)** : الشوكاني (١٢٥٠ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي .

١٦١ ـ **الفتوح** : ابن أعثم الكوفي (٣١٤ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ ط ١ ـ ١٤٠٦ هـ .

١٦٢ ـ **الفتوحات المكية** : محيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ) دار صادر ـ بيروت .

١٦٣ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان** : ابن تيميّة ـ جماعة الدعوة إلى القرآن والسنّة ـ بشاور .

١٦٤ ـ **الفرقان بين الحقّ والباطل** : ابن تيميّة ـ تعليق الاستاذ محمد أبو الوفا عيد ـ مكتبة بسّام .

١٦٥ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل** : ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) ـ مكتبة المثنّى ـ بغداد .

١٦٦ ـ **الفصول المختارة من العيون والمحاسن للشيخ المفيد** : الشريف المرتضى (٤٣٦ هـ) ـ دار الأضواء ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٤٠٥ هـ .

١٦٧ ـ **فضائل الصحابة** : الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) ـ مركز البحث العلمي و إحياء التراث الإسلامي بمكّة المكرّمة ـ ط ١ ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

١٦٨ ـ **فقه الكتاب والسنّة** : ابن تيميّة ـ دار الكتب العلمية .

١٦٩ ـ **الفقيه المعذّب ابن تيميّة** : الدكتور عبدالرحمٰن الشرقاوي ـ سلسلة كتاب اليوم .

١٧٠ ـ **قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة** : ابن تيميّة ـ دار الكتب العلمية .

١٧١ ـ **قاموس الرجال** : محمد تقي التستري ـ مركز نشر كتاب ـ طهران ـ ط ١ .

١٧٢ ـ **قرب الإسناد** : عبدالله بن جعفر الحميري ـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ ١٤١٣ هـ .

١٧٣ ـ **القياس في الشرع الإسلامي** : ابن تيميّة وتلميذه ابن قيّم الجوزية ـ مطبعة الزمان ـ بغداد .

١٧٤ ـ **الكافي** : محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٨ هـ) تحقيق علي أكبر غفّاري ـ منشورات المكتبة الإسلامية .

١٧٥ ـ **الكامل في التاريخ** : ابن الأثير (٦٣٠ هـ) ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

١٧٦ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال** : ابن عدي الجرجاني (٣٦٥ هـ) ـ تحقيق الدكتور سهيل زكّار ـ دار الفكر ـ ط ٣ ـ ١٩٨٨م .

١٧٧ ــ الكشّاف (تفسير) : الزمخشري (٥٢٨ هـ) ـ ط ١ .

١٧٨ ــ كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون : حاجي خليفة ـ منشورات مكتبة المثنّىٰ ـ بغداد .

١٧٩ ــ كنز العمال : المتّقي الهندي (٩٧٥ هـ) ـ مؤسسة الرسالة ـ ط ٥ ـ ١٤٠٥ هـ .

١٨٠ ــ الكنىٰ والألقاب : الشيخ عباس القمّي ـ مكتبة الصدر ـ طهران ـ ١٣٦٨ هـ . ش .

١٨١ ــ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

١٨٢ ــ لباب النقول في أسباب النزول : السيوطي (٩١١ هـ) ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

١٨٣ ــ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٦ هـ .

١٨٤ ــ مآثر الإنافة في معالم الخلافة : القلقشندي (٨٢٠ هـ) ـ تحقيق عبدالستار أحمد فرّاج ـ عالم الكتب .

١٨٥ ــ مجمع البحرين : فخر الدين الطريحي (١٠٨٥ هـ) ـ تحقيق السيد أحمد الحسيني ـ المكتبة المرتضوية ـ طهران .

١٨٦ ــ مجمع البيان في تفسير القرآن : الإمام الطبرسي ـ دار المعرفة للطباعة والنشر .

١٨٧ ــ مجمع الرجال : القهپائي ـ تحقيق ضياء الدين الاصفهاني ـ مؤسسة اسماعيليان ـ قم .

١٨٨ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : أبو بكر الهيثمي (٨٠٧ هـ) ـ دار الكتاب العربي ـ ط ٣ ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

١٨٩ ــ مجموعة الرسائل المنيرية : دار إحياء التراث العربي .

١٩٠ ــ مجموعة فتاوى ابن تيميّة : / بالواسطة .

١٩١ ــ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : محمد بن مكرّم المعروف بابن منظور ـ تحقيق رياض عبدالحميد مراد ـ دار الفكر ـ ط ١ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .

١٩٢ ــ مختصر كتاب البلدان : ابن الفقيه ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ .

١٩٣ ــ مراصد الاطّلاع : صفيّ الدين البغدادي (٧٣٩ هـ) ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م .

١٩٤ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي (٣٤٦ هـ) ـ تحقيق عبدالأمير مهنّا ـ مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م .
١٩٥ ـ **المستدرك على الصحيحين** : الحاكم النيسابوري (٤٠٥ هـ) ـ طبع حيدرآباد ـ الهند .
١٩٦ ـ **مسند أبي يعلى** : أبو يعلى الموصلي (٣٠٧ هـ) ـ تحقيق حسين سليم أسد ـ دار المأمون للتراث ـ ط ٢ ـ ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م .
١٩٧ ـ **مسند أحمد** : الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) ـ دار الفكر ـ بيروت .
١٩٨ ـ **مصابيح السُنّة** : البغوي (٥١٦ هـ) ـ تحقيق الدكتور يوسف عبدالرحمن المرعشلي ، ومحمد سليم سمارة ، وجمال حمدي الذهبي ـ دار المعرفة ـ ط ١ ـ ١٤٠٧ هـ .
١٩٩ ـ **المعارف** : ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) ـ تحقيق وتقديم د . ثروت عكاشة ـ ط ٦ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٢م .
٢٠٠ ـ **معجم الأدباء** : ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ط ٣ ـ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .
٢٠١ ـ **معجم البلدان** : ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) دار صادر ـ دار بيروت ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .
٢٠٢ ـ **معجم رجال الحديث** : الإمام أبو القاسم الخوئي ـ منشورات مدينة العلم ـ ط ٣ ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .
٢٠٣ ـ **معجم المفسرين** : عادل نويهض ـ مؤسسة نويهض الثقافية ـ ط ١ ـ ١٤٠٣ هـ .
٢٠٤ ـ **معرفة علوم الحديث** : الحاكم النيسابوري (٤٠٥ هـ) ـ تحقيق الدكتور السيد معظّم حسين ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٣٧م .
٢٠٥ ـ **المغازي** : محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) ـ تحقيق د . مارسون جونس ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت .
٢٠٦ ـ **مقتل الإمام الحسين** عليه السلام : الخوارزمي (٥٦٨ هـ) ـ ط ١ .
٢٠٧ ـ **مقدّمة ابن خلدون** : ابن خلدون المغربي (٨٠٨ هـ) ـ دار الجيل ـ بيروت .
٢٠٨ ـ **مقدّمة في أُصول التفسير** : ابن تيميّة ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
٢٠٩ ـ **الملل والنحل** : الإمام الشهرستاني (٥٤٨ هـ) ـ تخريج محمد بن فتح الله بدران ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة .
٢١٠ ـ **منتخب كنز العمال** : المتّقي الهندي (٩٧٥ هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط ١ ـ ١٤١٠ هـ .

٢١١ ـ **منتخب كنز العمال** : بهامش مسند أحمد ـ دار الفكر .
٢١٢ ـ **منهاج السُنّة النبويّة** : ابن تيميّة ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .
٢١٣ ـ **المنهل الصافي** : يوسف بن تغري بردي (٨٧٤ هـ) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز تحقيق التراث .
٢١٤ ـ **موسوعة فقه الامام علي** : محمد رواس قلعجي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط ٣ ١٤٠٣ هـ .
٢١٥ ـ **الموطأ** : الإمام مالك بن أنس (١٧٩ هـ) ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥م .
٢١٦ ـ **ميزان الاعتدال** : شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ـ تحقيق محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ ط ١ .
٢١٧ ـ **الميزان في تفسير القرآن** : السيد الطباطبائي ـ دار الكتب الإسلامية ـ طهران ـ ط ٣ ـ ١٣٩٧ هـ .
٢١٨ ـ **النبوّات** : ابن تيميّة ـ دار الكتاب العربي ـ ١٩٨٥م .
٢١٩ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ـ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، والاستاذ فهيم محمد شلتوت ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م.
٢٢٠ ـ **نظرات في إنجيل برنابا** : محمد علي قطب ـ مطبعة مهر ـ ١٤١٣ هـ .
٢٢١ ـ **نقد الرجال** : السيد مير مصطفى الحسني التفرشي (القرن العاشر) ـ منشورات الرسول المصطفى ـ قم .
٢٢٢ ـ **نقض المنطق** : ابن تيميّة ـ تصحيح محمد حامد الفقي ـ مكتبة السنّة المحمّدية .
٢٢٣ ـ **نهج البلاغة** : تحقيق د . صبحي الصالح ـ منشورات دار الهجرة .
٢٢٤ ـ **النهر الماد من البحر** : أبو حيّان الأندلسي ـ تحقيق بوران الضنّاوي وهديان الضنّاوي ـ دار الجنان ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م .
٢٢٥ ـ **هامش الفرقان لابن تيميّة** : جماعة الدعوة الى القرآن والسُنّة ـ بشاور .
٢٢٦ ـ **الهدى إلى دين المصطفى** : محمد جواد البلاغي ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ ط ٣ ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .
٢٢٧ ـ **هوية التشيّع** : الدكتور أحمد الوائلي ـ دار الكتاب الإسلامي ـ ط ٢ .
٢٢٨ ـ **الوافي بالوفيات** : صلاح الدين خليل الصفدي (٧٦٤ هـ) ـ تحقيق هلموت ريتر ـ ط ٢ ـ ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢م.

٢٢٩ ـ **الوصيّة الكبرى** : ابن تيميّة ـ تحقيق أياد عبداللطيف إبراهيم ـ مكتب التراث ـ بغداد.
٢٣٠ ـ **وفيات الأعيان** : ابن خلّكان (٦٨١ هـ) تحقيق د . إحسان عبّاس .
٢٣١ ـ **وقعة صفّين** : نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢ هـ) ـ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ـ المؤسسة العربية الحديثة ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٣٨٢ هـ .
٢٣٢ ـ **الياقوت في علم الكلام لابن نوبخت** : مقدّمة علي أكبر ضيائي ـ ط١ ـ ١٤١٣ هـ .

محتويات الكتاب

اهداء ٧
هذا الكتاب ٩

الباب الأوّل
العَلَم وبيئته وعصره وحياته

الفصل الأول ـ ابن تيميّة.. أُسرته وبيئته ١٥
العَلَم وأُسرتُه ١٧
قبيلتُهُ ١٨
تَيميّةُ مَن هي ؟ ١٩
بِيئته ٢١
حَرّان ٢٢
دِمشق ٢٦
الفصل الثاني ـ سِماتُ عصره ٣٣
عصره السياسي ٣٥
عصره الاجتماعي والثقافي ٤١
عصره العلمي والأدبي ٤٥
عصره الديني ٤٧
المذاهب الكبرى ٤٩

الفصل الثالث ـ حياته ٥٣
الوليد الناشئ ٥٥
على شواطئ أيّامه ٥٩
الشيخ المجتهد ٦٥
فقيهاً ٦٦
محدّثاً ٦٨
كيف تعامل مع الحديث ؟ ٧٣
مع الفلسفة ٧٦
الدينُ والدولة ٧٧
نزاعه مع الفِرَق والطوائف ٨٠
أسلوبه في الحوار ٨٥
مع اليزيديّة ٨٧
مع النصارى ٨٩

الباب الثاني
مَيادين عقائده الكبرىٰ

الفصل الاول ـ الاجتهاد والتقليد ٩٧
لم يبطل التقليد ١٠١
عُذر المُجتهد ١٠١
وقفة قصيرة ١٠٣
التفسير العلمي للأحكام ١٠٤
قول الصحابي ١٠٥
حصاد التجربة ١٠٩

الفصل الثاني ـ الصِّفاتُ والتَّفسير ١١١
الصِّفاتُ ١١٣
مثال آخر وأخير ١٢٥
البراءة من التجسيم ١٢٩
أحاديث موضوعة في التجسيم ١٣٠
خلاصة ١٣١
عقيدة أهل السنّة ١٣٥
منهجه في التفسير ١٤١
ماذا فسّر من القرآن ؟ ١٤١
تأثير عقيدته في الصفات علىٰ منهجه في التفسير ١٤٢
مع التّفاسير والمُفسّرين ١٤٧
الفصل الثالث ـ مع الصوفيّة ١٥١
هكذا خاطب الصوفيّة ١٥٣
في آفاق الصراع ١٥٦
مع ابن عربي في عقائده ١٥٩
المَشهد الأوّل ١٦٠
كلام ابن عربي في الأنبياء والأولياء ١٦١
المشهد الثاني ١٦٢
مع ابن عربي ١٦٣
المشهد الثالث ١٦٦
العقيدة في التوسّل بالنبي « ص » ١٦٩
آباءُ النبيّ وأُمّ أبي هريرة ! ١٧٦
زيارة قبور الأنبياء والصالحين ١٧٩
تعقيب جميل ١٨٤

الباب الثالث
مع الشيعة

تمهيد........ ١٨٩
الفصل الأول ـ علّامة الشيعة ابن المطهّر ١٩٥
ابنُ المُطَهَّر ١٩٧
العَلَم ١٩٧
الأُسرة ١٩٧
الموطن ١٩٨
التلميذ ٢٠٠
الإمام المصنّف ٢٠٠
قالوا فيه ٢٠٣
صلته بعلماء المذاهب الأُخرى ٢٠٤
مناظرته علماء المذاهب وتشيّع السلطان إثرها ٢٠٦
ابن المطهّر والسيّد الموصلي في مجلس السلطان ٢٠٧
خُصوم ابن المطهّر ٢٠٨
وفاتُه ٢١٠
خلاصة ٢١٠
الفصل الثاني ـ منهاج السنّة ٢١٣
الكتاب وردود الفعل ٢١٥
نظرة عامّة في بطون الكتاب ٢٢١
مؤاخذة على ابن المطهّر ٢٢٥
الفصل الثالث ـ تعريف الشيعة ٢٢٩
كيف عرّف الشيعة ؟ ٢٣١

أثر اليهود في هذه الفتنة........ ٢٣٥
ابن سبأ اليهودي في كتب السنّة والشيعة ٢٣٧
والخشبية من هم ؟ ٢٤٣
من هو الشعبي ؟ ٢٤٣
تناقض متجدد........ ٢٤٥
رؤية ابن خلدون........ ٢٥١
الشيعة والطوائف الإسلامية الأُخرى........ ٢٥٣
وَلاء الشيعة ٢٥٧
مَن هو الناصبي في رأي الشيعة ؟ ٢٥٩
الحقيقة من معدنها ٢٦١
الشيعةُ والصحابة........ ٢٦٥
سؤالٌ واحد ٢٦٦
قول الشيعة في الصحابة........ ٢٦٧
الصحابة في حديث أوّل أئمّة الشيعة........ ٢٧١
الصحابة في دعاء الشيعة........ ٢٧١

الباب الرابع
أهل البيت عليهم السلام في عقيدة ابن تيميّة

تمهيد........ ٢٧٧
الأُنموذج الأوّل ـ مع معاوية........ ٢٧٧
الأُنموذج الثاني ـ مع طريدَي رسول الله «ص»........ ٢٨٣
الفصل الأول ـ الاعتقاد بتقديم أهل بيت الرسول ٢٨٧
من هُم أهل بيت الرسول ؟ ٢٨٩

تقديم آل الرسول ٢٩١
قول الله ورسوله ٢٩١
جواب ابن تيميّة ٢٩٢
ابن تيميّة ـ الجواب الثاني ٢٩٣
ابن تيميّة ـ الوجه الآخر ٢٩٦
ابن تيميّة يهدُّ حِصنه ٢٩٧
الفصل الثاني ـ مع فضائل أهل البيت عليهم السلام ٢٩٩
المُؤاخاة ٣٠١
حديث الطائر ٣٠٢
آية الولاية، وحديث الإنذار ٣٠٤
وَيُطعمونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبّه ٣٠٧
«اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه» ٣٠٨
والثَّقَلان واحدٌ فقط! ٣١٣
تتويج الانحراف ٣١٦
الفصل الثالث ـ مع خصائص عليّ عليه السلام ٣١٩
التعريض بكرامة عليّ عليه السلام ٣٢١
في علم عليّ عليه السلام ٣٢٥
في جهاد عليّ عليه السلام ٣٢٩
الفصل الرابع ـ عليّ عليه السلام والخِلافة ٣٣٧
الصحابة والبيعة ٣٤٤
أهل البيت والبيعة ٣٤٦
ابن عبّاس يُجهز علىٰ دعوىٰ الإجماع ٣٤٨
عمر يُفصِح عن السرّ ٣٤٩
بنود السقيفة شاهدة بحقّ عليّ عليه السلام ٣٥١

مصير بنود الـــقيقة ٣٥٥
كلمة واحدة تكفأ المـزان.. ٣٥٦
الصحابة والتفضيل ٣٥٩
ابن تيميّة ينقض غزله.. ٣٦١
لا محلّ للمفاضلة ٣٦٤
سلمان وصهيب وبلال أفضل أم أبو بكر ؟.. ٣٦٦
خاتمة القول على لسان عليّ عليه السلام ٣٦٦
الفصل الخامس ـ نهضة الحسين عليه السلام واستشهاده.. ٣٦٩
مع حديث الإمام أحمد في لعن يزيد ٣٧٩
مَقتل الحُسين عليه السلام في فلسفة ابن تيميّة ٣٨٣
نهضة الحُسين في فلسفة ابن تيميّة ٣٨٩
تأويل جديد ٣٩٨
الفقرة الأُولى ـ يزيد ورأس الحسين عليه السلام.. ٤٠٤
الفقرة الثانية ـ يزيد وسبي أهل البيت ٤٠٨
الفصل السادس ـ مَن هم أتباع أهل البيت عليهم السلام ؟.. ٤١٥
ابن تيميّة والمصلحة من وجود أهل البيت عليهم السلام ٤٢٤
الخاتمة.. ٤٢٩
المصادر ٤٤٣